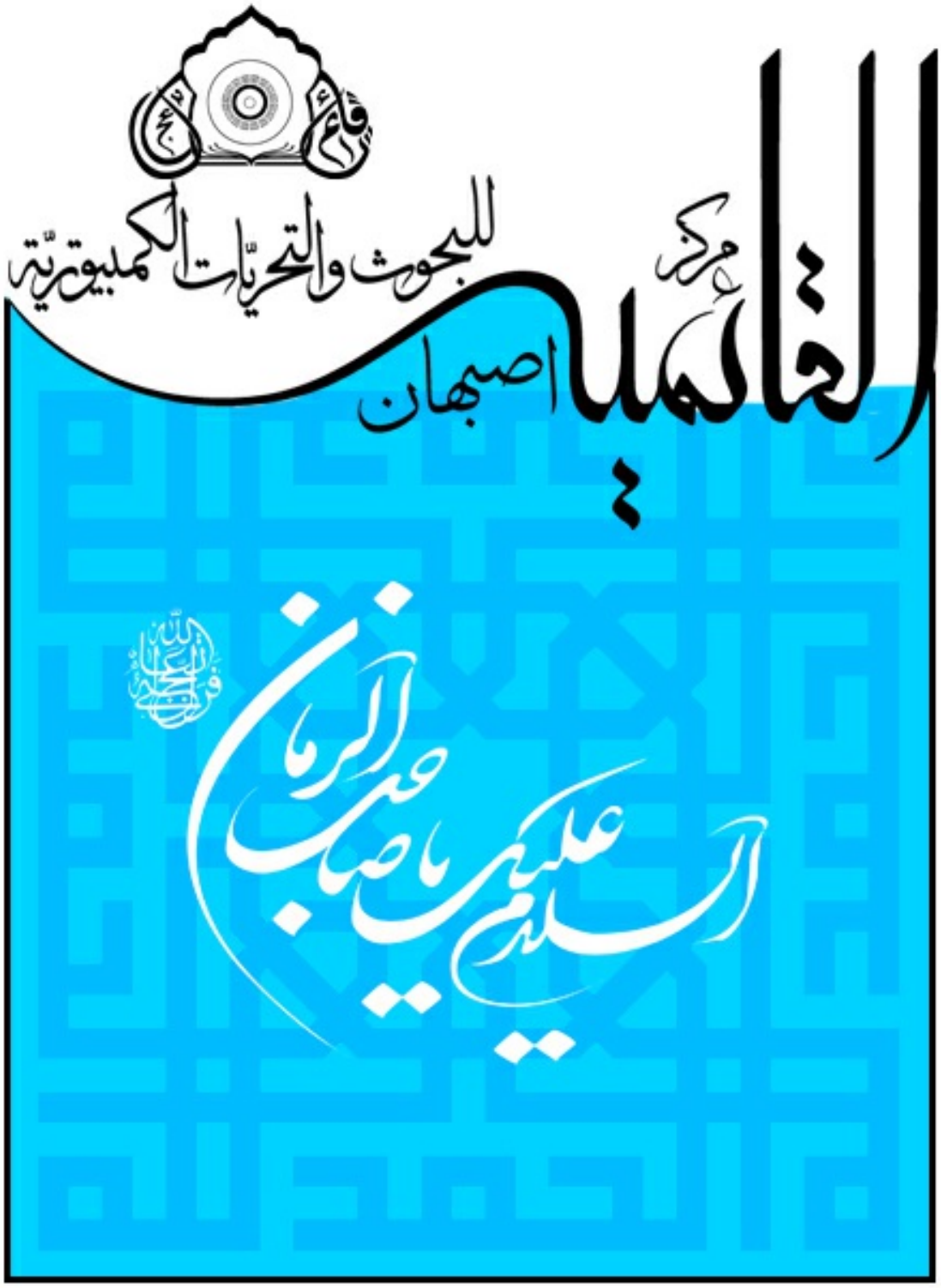

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الميزان في تفسير القرآن

للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

المجلد الخامس

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحیم

الميزان فى تفسير القرآن

كاتب:

محمد حسين طباطبايى

نشرت فى الطباعة:

علامه طباطبايى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵

تفسیر المیزان المجلد ۵ ----- ۱۰

اشاره ----- ۱۰

اشاره ----- ۱۰

[بقیه سوره النساء] ----- ۱۴

[سوره النساء (۴): الآیات ۷۷ الی ۸۰] ----- ۱۴

اشاره ----- ۱۴

بیان ----- ۱۴

(کلام فی استناد الحسنات و السیئات إلیه تعالی) ----- ۱۸

(بحث روائی) ----- ۲۵

[سوره النساء (۴): الآیات ۸۱ الی ۸۴] ----- ۲۸

اشاره ----- ۲۸

بیان ----- ۲۸

بحث روائی ----- ۳۶

[سوره النساء (۴): الآیات ۸۵ الی ۹۱] ----- ۳۸

اشاره ----- ۳۸

بیان ----- ۳۹

کلام فی معنی التحیه ----- ۴۱

(بحث روائی) ----- ۴۳

[سوره النساء (۴): الآیات ۹۲ الی ۹۴] ----- ۴۸

اشاره ----- ۴۸

(بیان) ----- ۴۸

(بحث روائی) ----- ۵۲

[سوره النساء (۴): الآیات ۹۵ الی ۱۰۰] ----- ۵۵

اشاره ---- ۵۵
(بیان) ---- ۵۵
(کلام فی المستضعف) ---- ۶۱
[بیان] ---- ۶۲
(بحث روائی) ---- ۶۵
[سوره النساء (۴): الآیات ۱۰۱ الی ۱۰۴] ---- ۷۰
اشاره ---- ۷۰
(بیان) ---- ۷۱
(بحث روائی) ---- ۷۴
[سوره النساء (۴): الآیات ۱۰۵ الی ۱۲۶] ---- ۷۸
اشاره ---- ۷۸
(بیان) ---- ۷۹
(کلام فی معنی العصمه) ---- ۸۸
[بیان] ---- ۹۱
(بحث روائی) ---- ۹۹
[سوره النساء (۴): الآیات ۱۲۷ الی ۱۳۴] ---- ۱۰۷
اشاره ---- ۱۰۷
(بیان) ---- ۱۰۸
(بحث روائی) ---- ۱۱۴
[سوره النساء (۴): آیه ۱۳۵] ---- ۱۱۸
اشاره ---- ۱۱۸
(بیان) ---- ۱۱۸
(بحث روائی) ---- ۱۲۰
[سوره النساء (۴): الآیات ۱۳۶ الی ۱۴۷] ---- ۱۲۰
اشاره ---- ۱۲۰
(بیان) ---- ۱۲۱

(بحث روائی) ---- ۱۳۰
[سوره النساء (۴): الآیات ۱۴۸ الی ۱۴۹] ---- ۱۳۳
اشاره ---- ۱۳۳
(بیان) ---- ۱۳۳
(بحث روائی) ---- ۱۳۴
[سوره النساء (۴): الآیات ۱۵۰ الی ۱۵۲] ---- ۱۳۵
اشاره ---- ۱۳۵
(بیان) ---- ۱۳۵
[سوره النساء (۴): الآیات ۱۵۳ الی ۱۶۹] ---- ۱۳۷
اشاره ---- ۱۳۷
(بیان) ---- ۱۳۹
(بحث روائی) ---- ۱۵۳
[سوره النساء (۴): الآیات ۱۷۰ الی ۱۷۵] ---- ۱۵۸
اشاره ---- ۱۵۸
(بیان) ---- ۱۵۹
[سوره النساء (۴): آیه ۱۷۶] ---- ۱۶۴
اشاره ---- ۱۶۴
(بیان) ---- ۱۶۴
(بحث روائی) ---- ۱۶۵
(۵)«سوره المائده مدنیه و هی مائه و عشرون آیه»(۱۲۰) ---- ۱۶۷
[سوره المائده (۵): الآیات ۱ الی ۳] ---- ۱۶۷
اشاره ---- ۱۶۷
(بیان) ---- ۱۶۸
(کلام فی معنی العقد) ---- ۱۶۹
[(بیان)] ---- ۱۷۲
(بحث علمی فی فصول ثلاثه) ---- ۱۹۴

۱-العقائد فی أکل اللحم: ----- ۱۹۴
۲-کیف أمر بقتل الحیوان و الرحمه تأباه؟ ----- ۱۹۵
۳-لما ذا بنی الإسلام علی التذکیه؟ ----- ۱۹۸
(بحث روائی) ----- ۱۹۹
(بحث روائی آخر) ----- ۲۰۳
[سوره المائده (۵): الآیات ۴ الی ۵] ----- ۲۱۳
اشاره ----- ۲۱۳
(بیان) ----- ۲۱۳
(بحث روائی) ----- ۲۲۱
[سوره المائده (۵): الآیات ۶ الی ۷] ----- ۲۳۰
اشاره ----- ۲۳۰
(بیان) ----- ۲۳۱
(بحث روائی) ----- ۲۴۴
[سوره المائده (۵): الآیات ۸ الی ۱۴] ----- ۲۴۷
اشاره ----- ۲۴۷
(بیان) ----- ۲۴۸
[سوره المائده (۵): الآیات ۱۵ الی ۱۹] ----- ۲۵۴
اشاره ----- ۲۵۴
(بیان) ----- ۲۵۵
(کلام فی طریق التفکر الذی یهدی إلیه القرآن و هو بحث مختلط) ----- ۲۶۶
(بحث تاریخی) [فی تاریخ التفکر الإسلامی إجمالا.] ----- ۲۸۳
(بحث روائی) ----- ۲۹۶
[سوره المائده (۵): الآیات ۲۰ الی ۲۶] ----- ۲۹۸
اشاره ----- ۲۹۸
(بیان) ----- ۲۹۹
(بحث روائی) ----- ۳۰۸

[سوره المائده (۵): الآیات ۲۷ الی ۳۲] ---- ۳۱۰
اشاره ---- ۳۱۰
(بیان) ---- ۳۱۱
(کلام فی معنی الإحساس و التفکیر) ---- ۳۲۱
[بیان] ---- ۳۲۷
(بحث روائی) ---- ۳۳۱
(بحث علمی و تطبیق) [فی تطبیق قصه ابنی آدم علی ما فی التوراه.] ---- ۳۳۶
[سوره المائده (۵): الآیات ۳۳ الی ۴۰] ---- ۳۳۸
اشاره ---- ۳۳۸
(بیان) ---- ۳۳۹
(بحث روائی) ---- ۳۴۳
[سوره المائده (۵): الآیات ۴۱ الی ۵۰] ---- ۳۵۰
اشاره ---- ۳۵۰
(بیان) ---- ۳۵۱
(کلام فی معنی الشریعه) (و الفرق بینها و بین الدین و المله فی عرف القرآن) ---- ۳۶۳
[(بیان)] ---- ۳۶۵
(بحث روائی) ---- ۳۶۹
[سوره المائده (۵): الآیات ۵۱ الی ۵۴] ---- ۳۷۹
اشاره ---- ۳۷۹
(بیان) ---- ۳۸۰
(کلام فی معنی مرض القلب) ---- ۳۹۰
[بیان] ---- ۳۹۲
(بحث روائی) ---- ۳۹۸
(کلام و بحث مختلط من القرآن و الحدیث) [فی کلیات حوادث آخر الزمان.] ---- ۴۰۳
تعریف مرکز ---- ۴۱۶

تفسیر المیزان المجلد ۵

اشاره

سرشناسه : طباطبائی، سیدمحمدحسین، ۱۲۸۱ - ۱۳۶۰.

عنوان و نام پدیدآور : تفسیر المیزان/ محمدحسین طباطبائی؛ ترجمه ناصر مکارم شیرازی... [و دیگران].

وضعیت ویراست : [ویراست ۲؟]

مشخصات نشر : قم: بنیاد علمی و فکری علامه طباطبائی ؛ تهران: مرکز نشر فرهنگی رجا: امیرکبیر، ۱۳۶۳-

مشخصات ظاهری : ۲۰ج.

شابک : ۱۶۰۰۰ریال(دوره کامل)

یادداشت : جلد۱۱ و ۱۹ کتاب توسط سید محمدباقر موسوی همدانی ترجمه شده است.

یادداشت : ج.۱۱ (چاپ صد و بیست و هشتم: ۱۳۶۳).

یادداشت : ج.۱۹ (چاپ اول؟: ۱۳۶۳).

یادداشت : عنوان عطف: ترجمه تفسیر المیزان.

عنوان عطف : ترجمه تفسیر المیزان.

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -، مترجم

رده بندی کنگره : BP۹۸/ط۲۵م ۹۰۴۱ ۱۳۶۳

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی : م ۶۳-۳۵۴۹

ص :۱

اشاره

[بقیه سوره النساء]

[سوره النساء (۴): الآیات ۷۷ الی ۸۰]

اشاره

أَ لَمْ تَرَ إِلَى اَلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَ أَقِيمُوا اَلصَّلاٰةَ وَ آتُوا اَلزَّكٰاةَ فَلَمّٰا كُتِبَ عَلَيْهِمُ اَلْقِتٰالُ إِذٰا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ اَلنّٰاسَ كَخَشْيَةِ اَللّٰهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَ قٰالُوا رَبَّنٰا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا اَلْقِتٰالَ لَوْ لاٰ أَخَّرْتَنٰا إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتٰاعُ اَلدُّنْيٰا قَلِيلٌ وَ اَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اِتَّقىٰ وَ لاٰ تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (۷۷) أَيْنَمٰا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ اَلْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ فَمٰا لِهٰؤُلاٰءِ اَلْقَوْمِ لاٰ يَكٰادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً (۷۸) مٰا أَصٰابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اَللّٰهِ وَ مٰا أَصٰابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَ أَرْسَلْنٰاكَ لِلنّٰاسِ رَسُولاً وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً (۷۹) مَنْ يُطِعِ اَلرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اَللّٰهَ وَ مَنْ تَوَلّٰى فَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (۸۰)

بیان

الآیات متصله بما قبلها،و هی جمیعا ذات سیاق واحد،و هذه الآیات تشتمل علی الاستشهاد بأمر طائفه أخری من المؤمنین ضعفاء الإیمان و فیها عظه و تذکیر بفناء الدنیا، و بقاء نعم الآخره،و بیان لحقیقه قرآنیه فی خصوص الحسنات و السیئات.

قوله تعالى:« أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ- -إلى قوله- أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً» كف الأيدى كنايه عن الإمساك عن القتال لكون القتل الذى يقع فيه من عمل الأيدى،و هذا الكلام يدل على أن المؤمنين كانوا فى ابتداء أمرهم يشق عليهم ما يشاهدونه من تعدى الكفار و بغيهم عليهم فيصعب عليهم أن يصبروا على ذلك و لا يقابلوه بسل السيوف فأمرهم الله بالكف عن ذلك،و إقامه شعائر الدين من صلاه و زكاه ليشتد عظم الدين و يقوم صلبه فيأذن الله لهم فى جهاد أعدائه،و لو لا ذلك لانفسخ هيكل الدين،و انهدمت أركانه، و تلاشت أجزاؤه.

ففى الآيات لومهم على أنهم هم الذين كانوا يستعجلون فى قتال الكفار،و لا يصبرون على الإمساك و تحمل الأذى حين لم يكن لهم من العده و القوه ما يكفيهم للقاء عدوهم فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون العدو و هم ناس مثلهم كخشيه الله أو أشد خشيه.

قوله تعالى:« وَ قالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ:، ظاهره أنه عطف على قوله إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ»، و خاصه بالنظر إلى تغيير السياق من الفعل المضارع (يَخْشَوْنَ النّاسَ) إلى الماضى (قالُوا) فالقائل بهذا القول هم الذين كانوا يتوقعون للقتال،و يستصعبون الصبر فأمروا بكف أيديهم.

و من الجائز أن يكون قولهم «رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ لَوْ لا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ» محكيا عن لسان حالهم كما من الجائز أن يكونوا قائلين ذلك بلسانهم الظاهر فإن القرآن يستعمل من هذه العنايات كل نوع.

و توصيف الأجل الذى هو أجل الموت حتف الأنف بالقريب ليس المراد به أن يسألوا التخلص عن القتل،و العيش زمانا يسيرا بل ذلك تلويح منهم بأنهم لو عاشوا من غير قتل حتى يموتوا حتف أنفهم لم يكن ذلك إلا عيشا يسيرا و أجلا قريبا فما لله- سبحانه- لا يرضى لهم أن يعيشوا هذه العيشه اليسيره حتى يبتليهم بالقتل،و يعجل لهم الموت؟ و هذا الكلام صادر منهم لتعلق نفوسهم بهذه الحياه الدنيا التى هى فى تعليم القرآن متاع قليل يتمتع به ثم ينقضى سريعا و يعفى أثره،و دونه الحياه الآخره التى هى الحياه الباقيه الحقيقيه فهى خير،و لذلك أجيب عنهم بقوله «قُلْ» (إلخ).

قوله تعالى: «قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ» (إلخ)أمر للنبى ص أن يجيب هؤلاء الضعفاء بما يوضح لهم خطأ رأيهم فى ترجيح العيش الدنيوى اليسير على كرامه الجهاد و القتل فى سبيل الله تعالى،و محصله أنهم ينبغى أن يكونوا متقين فى إيمانهم،و الحياه الدنيا هى متاع يتمتع به قليل إذا قيس إلى الآخره،و الآخره خير لمن اتقى فينبغى لهم أن يختاروا الآخره التى هى خير على متاع الدنيا القليل لأنهم مؤمنون و على صراط التقوى،و لا يبقى لهم إلا أن يخافوا أن يحيف الله عليهم و يظلمهم فيختاروا لذلك ما بأيديهم من المتاع على ما يوعدون من الخير،و ليس لهم ذلك فإن الله لا يظلمهم فتيلا.

و قد ظهر بهذا البيان أن قوله. «لِمَنِ اتَّقى» من قبيل وضع الصفه موضع الموصوف للدلاله على سبب الحكم،و دعوى انطباقه على المورد،و التقدير-و الله أعلم-:و الآخره خير لكم لأنكم ينبغى أن تكونوا لإيمانكم أهل تقوى،و التقوى سبب للفوز بخير الآخره فقوله «لِمَنِ اتَّقى» كالكنايه التى فيها تعريض.

قوله تعالى: «أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَهٍ» البروج جمع برج و هو البناء المعمول على الحصون،و يستحكم بنيانه ما قدر عليه لدفع العدو به و عنه، و أصل معناه الظهور،و منه التبرج بالزينه و نحوها،و التشييد الرفع،و أصله من الشيد و هو الجص لأنه يحكم البناء و يرفعه و يزينه فالبروج المشيده الأبنيه المحكمه المرتفعه التى على الحصون يأوى إليها الإنسان من كل عدو قادم.

و الكلام موضوع على التمثيل بذكر بعض ما يتقى به المكروه،و جعله مثلا لكل ركن شديد تتقى به المكاره،و محصل المعنى:أن الموت أمر لا يفوتكم إدراكه،و لو لجأتم منه إلى أى ملجإ محكم متين فلا ينبغى لكم أن تتوهموا أنكم لو لم تشهدوا القتال و لم يكتب لكم كنتم فى مأمن من الموت،و فاته إدراككم فإن أجل الله لآت.

قوله تعالى: «وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَهٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»(إلى آخر الآيه)جملتان أخريان من هفواتهم حكاهما الله تعالى عنهم،و أمر نبيه ص أن يجيبهم عنهما ببيان حقيقه الأمر فيما يصيب الإنسان من حسنه و سيئه.

و اتصال السياق يقضى بكون الضعفاء المتقدم ذكرهم من المؤمنين هم القائلون ذلك قالوا ذلك بلسان حالهم أو مقالهم،و لا بدع فى ذلك فإن موسى أيضا جبه بمثل هذا المقال

كما حكى الله سبحانه ذلك بقوله «فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَهُ قالُوا لَنا هذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَهٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» :(الأعراف:۱۳۱) و هو مأثور عن سائر الأمم فى خصوص أنبيائهم،و هذه الأمه فى معاملتهم نبيهم لا يقصرون عن سائر الأمم،و قد قال تعالى :«تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ» :(البقره:۱۱۸)و هم مع ذلك أشبه الأمم ببنى إسرائيل،

و قد قال رسول الله ص: «إنهم لا يدخلون جحر ضب إلا دخلتموه» و قد تقدم نقل الروايات فى ذلك من طرق الفريقين.

و قد تمحل فى الآيات أكثر المفسرين بجعلها نازله فى خصوص اليهود أو المنافقين أو الجميع من اليهود و المنافقين،و أنت ترى أن السياق يدفعه.

و كيف كان فالآيه تشهد بسياقها على أن المراد بالحسنه و السيئه ما يمكن أن يسند إلى الله سبحانه،و قد أسندوا قسما منه إلى الله تعالى و هو الحسنه،و قسما إلى النبى ص و هو السيئه فهذه الحسنات و السيئات هى الحوادث التى كانت تستقبلهم بعد ما أتاهم النبى ص و أخذ فى ترفيع مبانى الدين و نشر دعوته و صيته بالجهاد،فهى الفتح و الظفر و الغنيمه فيما غلبوا فيه من الحروب و المغازى،و القتل و الجرح و البلوى فى غير ذلك، و إسنادهم السيئات إلى النبى ص فى معنى التطير به أو نسبه ضعف الرأى و رداءه التدبير إليه.

فأمر تعالى نبيه ص بأن يجيبهم بقوله «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ» فإنها حوادث و نوازل ينظمها ناظم النظام الكونى،و هو الله وحده لا شريك له إذ الأشياء إنما تنقاد فى وجودها و بقائها و جميع ما يستقبلها من الحوادث له تعالى لا غير.على ما يعطيه تعليم القرآن.

ثم استفهم استفهام متعجب من جمود فهمهم و خمود فطنتهم من فقه هذه الحقيقه و فهمها فقال: «فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً».

:

«قوله تعالى ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَهٍ فَمِنَ اللّهِ وَ ما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَهٍ فَمِنْ نَفْسِكَ»، لما ذكر أنهم لا يكادون يفقهون حديثا ثم أراد بيان حقيقه الأمر،صرف الخطاب عنهم لسقوط فهمهم،و وجه وجه الكلام إلى النبى ص،و بين حقيقه ما يصيبه من حسنه أو سيئه لذاك الشأن،و ليس للنبى ص فى نفسه خصوصيه فى هذه الحقيقه التى هى من الأحكام الوجوديه الدائره بين جميع الموجودات،و لا أقل بين جميع الأفراد من الإنسان

من مؤمن أو كافر،أو صالح أو طالح،و نبی أو من دونه.

فالحسنات و هی الأمور التی یستحسنها الإنسان بالطبع کالعافیه و النعمه و الأمن و الرفاهیه کل ذلک من الله سبحانه،و السیئات و هی الأمور التی تسوء الإنسان کالمرض و الذله و المسکنه و الفتنه کل ذلک یعود إلی الإنسان لا إلیه سبحانه فالآیه قریبه مضمونا من قوله تعالی «ذلِکَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ یَکُ مُغَیِّراً نِعْمَهً أَنْعَمَهَا عَلی قَوْمٍ حَتّی یُغَیِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ:» (الأنفال:۵۳)و لا ینافی ذلک رجوع جمیع الحسنات و السیئات بنظر کلی آخر إلیه تعالی کما سیجیء بیانه.

قوله تعالی: «وَ أَرْسَلْنٰاکَ لِلنّٰاسِ رَسُولاً»، أی لا سمه لک من عندنا إلا أنک رسول وظیفتک البلاغ،و شأنک الرساله لا شأن لک سواها و لیس لک من الأمر شیء حتی تؤثر فی میمنه أو مشأمه،أو تجر إلی الناس السیئات،و تدفع عنهم الحسنات،و فیه رد تعریضی لقول أولئک المتطیرین فی السیئات «هٰذِهِ مِنْ عِنْدِکَ» تشؤما به(ص)ثم أید ذلک بقوله «وَ کَفیٰ بِاللّهِ شَهِیداً».

قوله تعالی: «مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللّهَ»، استئناف فیه تأکید و تثبیت لقوله فی الآیه السابقه «وَ أَرْسَلْنٰاکَ لِلنّٰاسِ رَسُولاً»، و بمنزله التعلیل لحکمه أی ما أنت إلا رسولا منا من یطعک بما أنت رسول فقد أطاع الله،و من تولی فما أرسلناک علیهم حفیظا.

و من هنا یظهر أن قوله «مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ»، من قبیل وضع الصفه موضع الموصوف للإشعار بعله الحکم نظیر ما تقدم فی قوله« وَ الْآخِرَهُ خَیْرٌ لِمَنِ اتَّقیٰ وَ لاٰ تُظْلَمُونَ فَتِیلاً» و علی هذا فالسیاق جار علی استقامته من غیر التفات من الخطاب فی قوله «وَ أَرْسَلْنٰاکَ»، إلی الغیبه فی قوله «مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ»، ثم إلی الخطاب فی قوله «فَمٰا أَرْسَلْنٰاکَ» .

(کلام فی استناد الحسنات و السیئات إلیه تعالی)

یشبه أن یکون الإنسان أول ما تنبه علی معنی الحسن تنبه علیه من مشاهده الجمال فی أبناء نوعه الذی هو اعتدال الخلقه،و تناسب نسب الأعضاء و خاصه فی الوجه ثم

فی سائر الأمور المحسوسه من الطبیعیات و یرجع بالآخره إلی موافقه الشیء لما یقصد من نوعه طبعا.

فحسن وجه الإنسان کون کل من العین و الحاجب و الأذن و الأنف و الفم و غیرها علی حال أو صفه ینبغی أن یرکب فی نفسه علیها،و کذا نسبه بعضها إلی بعض، و حینئذ تنجذب النفس و یمیل الطبع إلیه،و یسمی کون الشیء علی خلاف هذا الوصف بالسوء و المساءه و القبح علی اختلاف الاعتبارات الملحوظه فالمساءه معنی عدمی کما أن الحسن معنی وجودی.

ثم عمم ذلک إلی الأفعال و المعانی الاعتباریه و العناوین المقصوده فی ظرف الاجتماع من حیث ملاءمتها لغرض الاجتماع و هو سعاده الحیاه الإنسانیه أو التمتع من الحیاه، و عدم ملاءمتها فالعدل حسن،و الإحسان إلی مستحقه حسن،و التعلیم و التربیه و النصح و ما أشبه ذلک فی مواردها حسنات،و الظلم و العدوان و ما أشبه ذلک سیئات قبیحه لملاءمه القبیل الأول لسعاده الإنسان أو لتمتعه التام فی ظرف اجتماعه و عدم ملاءمه القبیل الثانی لذلک،و هذا القسم من الحسن و ما یقابله تابع للفعل الذی یتصف به من حیث ملاءمته لغرض الاجتماع فمن الأفعال ما حسنه دائمی ثابت إذا کان ملاءمته لغایه الاجتماع و غرضه کذلک کالعدل،و منها ما قبحه کذلک کالظلم.

و من الأفعال ما یختلف حاله بحسب الأحوال و الأوقات و الأمکنه أو المجتمعات فالضحک و الدعابه حسن عند الخلان لا عند الأعاظم،و فی محافل السرور دون المأتم، و دون المساجد و المعابد،و الزنا و شرب الخمر حسن عند الغربیین دون المسلمین.

و لا تصغ إلی قول من یقول:إن الحسن و القبح مختلفان متغیران مطلقا من غیر ثبات و لا دوام و لا کلیه،و یستدل علی ذلک فی مثل العدل و الظلم بأن ما هو عدل عند أمه بإجراء أمور من مقررات اجتماعیه غیر ما هو عدل عند أمه أخری بإنفاذ مقررات أخری اجتماعیه فلا یستقر معنی العدل علی شیء معین فالجلد للزانی عدل فی الإسلام و لیس کذلک عند الغربیین،و هکذا.

و ذلک أن هؤلاء قد اختلط علیهم الأمر،و اشتبه المفهوم عندهم بالمصداق،و لا کلام لنا مع من هذا مبلغ فهمه.

و الإنسان على حسب تحول العوامل المؤثره فى الاجتماعات يرضى بتغيير جميع أحكامه الاجتماعيه دفعه أو تدريجا و لا يرضى قط بأن يسلب عنه وصف العدل،و يسمى ظالما، و لا بأن يجد ظلما لظالم إلا مع الاعتذار عنه،و للكلام ذيل طويل يخرجنا الاشتغال به عن ما هو أهم منه.

ثم عمم معنى الحسن و القبح لسائر الحوادث الخارجيه التى تستقبل الإنسان مدى حياته على حسب تأثير مختلف العوامل و هى الحوادث الفرديه أو الاجتماعيه التى منها ما يوافق آمال الإنسان،و يلائم سعادته فى حياته الفرديه أو الاجتماعيه من عافيه أو صحه أو رخاء،و تسمى حسنات،و منها ما ينافى ذلك كالبلايا و المحن من فقر أو مرض أو ذله أو إساره و نحو ذلك،و تسمى سيئات.

فقد ظهر مما تقدم أن الحسنه و السيئه يتصف بهما الأمور أو الأفعال من جهه إضافتها إلى كمال نوع أو سعاده فرد أو غير ذلك فالحسن و القبح وصفان إضافيان،و إن كانت الإضافه فى بعض الموارد ثابته لازمه،و فى بعضها متغيره كبذل المال الذى هو حسن بالنسبه إلى مستحقه و سيئ بالنسبه إلى غير المستحق.

و أن الحسن أمر ثبوتى دائما و المساءه و القبح معنى عدمى و هو فقدان الأمر صفه الملاءمه و الموافقه المذكوره،و إلا فمتن الشيء أو الفعل مع قطع النظر عن الموافقه و عدم الموافقه المذكورين واحد من غير تفاوت فيه أصلا.

فالزلزله و السيل الهادم إذا حلا ساحه قوم كانا نعمتين حسنتين لأعدائهم و هما نازلتان سيئتان عليهم أنفسهم،و كل بلاء عام فى نظر الدين سراء إذا نزل بالكفار المفسدين فى الأرض أو الفجار العتاه،و هو بعينه ضراء إذا نزل بالأمه المؤمنه الصالحه.

و أكل الطعام حسن مباح إذا كان من مال آكله مثلا،و هو بعينه سيئه محرمه إذا كان من مال الغير من غير رضا منه لفقدانه امتثال النهى الوارد عن أكل مال الغير بغير رضاه، أو امتثال الأمر الوارد بالاقتصار على ما أحل الله،و المباشره بين الرجل و المرأه حسنه مباحه إذا كان عن ازدواج مثلا،و سيئه محرمه إذا كان سفاحا من غير نكاح لفقدانه موافقه التكليف الإلهى فالحسنات عناوين وجوديه فى الأمور و الأفعال،و السيئات عناوين عدميه فيهما،و متن الشيء المتصف بالحسن و السوء واحد.

و الذی یراه القرآن الشریف أن کل ما یقع علیه اسم الشیء ما خلا الله-عز اسمه- مخلوق لله قال تعالی :«اللّهُ خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ» : (الزمر:۶۲)و قال تعالی: «وَ خَلَقَ کُلَّ شَیْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِیراً» :(الفرقان:۲)و الآیتان تثبتان الخلقه فی کل شیء،ثم قال تعالی:

«الَّذِی أَحْسَنَ کُلَّ شَیْءٍ خَلَقَهُ» :(السجده:۷)فأثبت الحسن لکل مخلوق،و هو حسن لازم للخلقه غیر منفک عنها یدور مدارها.

فکل شیء له حظ من الحسن علی قدر حظه من الخلقه و الوجود،و التأمل فی معنی الحسن(علی ما تقدم)یوضح ذلک مزید إیضاح فإن الحسن موافقه الشیء و ملاءمته للغرض المطلوب و الغایه المقصوده منه،و أجزاء الوجود و أبعاض هذا النظام الکونی متلائمه متوافقه،و حاشا رب العالمین أن یخلق ما تتنافی أجزاؤه،و یبطل بعضه بعضا فیخل بالغرض المطلوب،أو یعجزه تعالی أو یبطل ما أراده من هذا النظام العجیب الذی یبهت العقل و یحیر الفکره. و قد قال تعالی :«هُوَ اللّهُ الْواحِدُ الْقَهّارُ» (الزمر:۴) و قال تعالی: «وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ» :(الأنعام:-۱۸)و قال تعالی «وَ ما کانَ اللّهُ لِیُعْجِزَهُ مِنْ شَیْءٍ فِی السَّماواتِ وَ لا فِی الْأَرْضِ إِنَّهُ کانَ عَلِیماً قَدِیراً» :(فاطر:۴۴)فهو تعالی لا یقهره شیء و لا یعجزه شیء فی ما یریده من خلقه و یشاؤه فی عباده.

فکل نعمه حسنه فی الوجود منسوبه إلیه تعالی،و کذلک کل نازله سیئه إلا أنها فی نفسها أی بحسب أصل النسبه الدائره بین موجودات المخلوقه منسوبه إلیه تعالی و إن کانت بحسب نسبه أخری سیئه،و هذا هو الذی یفیده قوله تعالی: «وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَهٌ یَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللّهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَهٌ یَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِکَ قُلْ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا یَکادُونَ یَفْقَهُونَ حَدِیثاً» :(النساء:-۷۸)و قوله فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَهُ قالُوا لَنا هذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَهٌ یَطَّیَّرُوا بِمُوسی وَ مَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللّهِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَعْلَمُونَ» :(الأعراف:۱۳۱)إلی غیر ذلک من الآیات.

و أما جهه السیئه فالقرآن الکریم یسندها فی الإنسان إلی نفس الإنسان بقوله تعالی فی هذه السوره: «ما أَصابَکَ مِنْ حَسَنَهٍ فَمِنَ اللّهِ وَ ما أَصابَکَ مِنْ سَیِّئَهٍ فَمِنْ نَفْسِکَ:» XالآیهX (النساء:۷۹)و قوله تعالی« وَ ما أَصابَکُمْ مِنْ مُصِیبَهٍ فَبِما کَسَبَتْ أَیْدِیکُمْ وَ یَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ» :(الشوری:۳۰) و قوله تعالی« إِنَّ اللّهَ لا یُغَیِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّی یُغَیِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ»:

» (الرعد:۱۱)،و قوله تعالى« ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهٰا عَلىٰ قَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ» :(الأنفال:۵۳)و غيرها من الآيات.

و توضيح ذلك أن الآيات السابقه كما عرفت تجعل هذه النوازل السيئه كالحسنات أمورا حسنه فى خلقتها فلا يبقى لكونها سيئه إلا أنها لا تلائم طباع بعض الأشياء التى تتضرر بها فيرجع الأمر بالآخره إلى أن الله لم يجد لهذه الأشياء المبتلاه المتضرره بما تطلبه و تشتاق إليه بحسب طباعها،فإمساك الجود هذا هو الذى يعد بليه سيئه بالنسبه إلى هذه الأشياء المتضرره كما يوضحه كل الإيضاح قوله تعالى: «مٰا يَفْتَحِ اللّٰهُ لِلنّٰاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاٰ مُمْسِكَ لَهٰا وَ مٰا يُمْسِكْ فَلاٰ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» : (فاطر:۲).

ثم بين تعالى أن إمساك الجود عما أمسك عنه أو الزياده و النقيصه فى إفاضه رحمته إنما يتبع أو يوافق مقدار ما يسعه ظرفه،و ما يمكنه أن يستوفيه من ذلك،قال تعالى فيما ضربه من المثل: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَسٰالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهٰا» :(الرعد:۱۷)و قال: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» :(الحجر:۲۱) فهو تعالى إنما يعطى على قدر ما يستحقه الشىء و على ما يعلم من حاله،قال: «أَ لاٰ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» :(الملك:۱۴).

و من المعلوم أن النعمه و النقمه و البلاء و الرخاء بالنسبه إلى كل شىء ما يناسب خصوص حاله كما يبينه قوله تعالى: «وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهٰا» :(البقره:۱۴۸)فإنما يولى كل شىء و يطلب وجهته الخاصه به و غايته التى تناسب حاله.

و من هنا يمكنك أن تحدس أن السراء و الضراء و النعمه و البلاء بالنسبه إلى هذا الإنسان الذى يعيش فى ظرف الاختيار فى تعليم القرآن أمور مرتبطه باختياره فإنه واقع فى صراط ينتهى به بحسن السلوك و عدمه إلى سعادته و شقائه كل ذلك من سنخ ما لاختياره فيه مدخل.

و القرآن الكريم يصدق هذا الحدس،قال تعالى: «ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهٰا عَلىٰ قَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ» : (الأنفال:۵۳)فلما فى أنفسهم من النيات الطاهره و الأعمال الصالحه دخل فى النعمه التى خصوا بها فإذا غيروا غير الله بإمساك رحمته و قال: «وَ مٰا أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» (الشورى-:۳۰)فلأعمالهم تأثير فى ما ينزل بهم من النوازل و يصيبهم من المصائب،و الله يعفو عن كثير منها.

و قال تعالى: «مٰا أَصٰابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ وَ مٰا أَصٰابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ» :XالآيهX(النساء:۷۹).

و إياك أن تظن أن الله سبحانه حين أوحى هذه الآيه إلى نبيه ص نسى الحقيقه الباهره التى أبانها بقوله: «اللّٰهُ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» : (الزمر:۶۲)و قوله: «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ» :(السجده:۷)فعد كل شىء مخلوقا لنفسه حسنا فى نفسه و قد قال:

«وَ مٰا كٰانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» :(مريم:۶۴)و قال: «لاٰ يَضِلُّ رَبِّي وَ لاٰ يَنْسىٰ» (طه:۵۲) فمعنى قوله« مٰا أَصٰابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ» (الآيه)أن ما أصابك من حسنه-و كل ما أصابك حسنه-فمن الله،و ما أصابك من سيئه فهى سيئه بالنسبه إليك حيث لا يلائم ما تقصده و تشتهيه و إن كانت فى نفسها حسنه فإنما جرتها إليك نفسك باختيارها السيئ،و استدعتها كذلك من الله فالله أجل من أن يبدأك بشر أو ضر.

و الآيه كما تقدم و إن كانت خصت النبى ص بالخطاب لكن المعنى عام للجميع، و بعباره أخرى هذه الآيه كالآيتين الأخريين« ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً» (الآيه) «وَ مٰا أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ» (الآيه)متكفله للخطاب الاجتماعى كتكفلها للخطاب الفردى.

فإن للمجتمع الإنسانى كينونه إنسانيه و إراده و اختيارا غير ما للفرد من ذلك.

فالمجتمع ذو كينونه يستهلك فيها الماضون و الغابرون من أفراده،و يؤاخذ متأخروهم بسيئات المتقدمين،و الأموات بسيئات الأحياء،و الفرد غير المقدم بذنب المقترفين للذنوب و هكذا، و ليس يصح ذلك فى الفرد بحسب حكمه فى نفسه أبدا،و قد تقدم شطر من هذا الكلام فى بحث أحكام الأعمال فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

فهذا رسول الله ص أصيب فى غزوه أحد فى وجهه و ثناياه،و أصيب المسلمون بما أصيبوا،و هو(ص)نبى معصوم إن أسند ما أصيب به إلى مجتمعه و قد خالفوا أمر الله و رسوله كان ذلك مصيبه سيئه أصابته بما كسبت أيدى مجتمعه و هو فيهم،و إن أسند إلى شخصه الشريف كان ذلك محنه إلهيه أصابته فى سبيل الله،و فى طريق دعوته الطاهره إلى الله على بصيره فإنما هى نعمه رافعه للدرجات.

و كذا كل ما أصاب قوما من السيئات إنما تستند إلى أعمالهم على ما يراه القرآن و لا يرى إلا الحق،و أما ما أصابهم من الحسنات فمن الله سبحانه.

نعم هاهنا آيات أخر ربما نسبت إليهم الحسنات بعض النسبه كقوله تعالى: «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ» :(الأعراف:۹۶)و قوله:

«وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ» (السجده:۲۴) و قوله: «وَ أَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ» :(الأنبياء:۸۶)و الآيات فى هذا المعنى كثيره جدا.

إلا إن الله سبحانه يذكر فى كلامه أن شيئا من خلقه لا يقدر على شىء مما يقصده من الغايه،و لا يهتدى إلى خير إلا بإقدار الله و هدايته قال تعالى: «الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى» :(طه:۵۰)و قال تعالى: «وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً» :(النور:۲۱)و يتبين بهاتين الآيتين و ما تقدم معنى آخر لكون الحسنات لله عز اسمه،و هو أن الإنسان لا يملك حسنه إلا بتمليك من الله و إيصال منه فالحسنات كلها لله و السيئات للإنسان،و به يظهر معنى قوله تعالى« ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَ ما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ» (الآيه).

فلله سبحانه الحسنات بما أن كل حسن مخلوق له،و الخلق و الحسن لا ينفكان،و له الحسنات بما أنها خيرات،و بيده الخير لا يملكه غيره إلا بتمليكه،و لا ينسب إليه شىء من السيئات فإن السيئه من حيث إنها سيئه غير مخلوقه و شأنه الخلق،و إنما السيئه فقدان الإنسان مثلا رحمه من لدنه تعالى أمسك عنها بما قدمته أيدى الناس،و أما الحسنه و السيئه بمعنى الطاعه و المعصيه فقد تقدم الكلام فى نسبتهما إلى الله سبحانه فى الكلام على قوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا» :(البقره:۲۶)فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

و أنت لو راجعت التفاسير فى هذا المقام،وجدت من شتات القول و مختلف الآراء و الأهواء و أقسام الإشكالات ما يبهتك،و أرجو أن يكون فيما ذكرناه كفايه للمتدبر فى كلامه تعالى،و عليك فى هذا البحث بتفكيك جهات البحث بعضها عن بعض،و تفهم ما يتعارفه القرآن من معنى الحسنه و السيئه،و النعمه و النقمه،و الفرق بين شخصيه المجتمع و الفرد حتى يتضح لك مغزى الكلام.

(بحث روائی)

و فی الدر المنثور،:فی قوله تعالی« أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ قِیلَ لَهُمْ کُفُّوا»(الآیه):أخرج النسائی و ابن جریر و ابن أبی حاتم و الحاکم و صححه و البیهقی فی سننه من طریق عکرمه عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف و أصحابا له أتوا النبی ص-فقالوا:یا نبی الله کنا فی عز و نحن مشرکون فلما آمنا صرنا أذله فقال:إنی أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم فلما حوله الله إلی المدینه أمره الله بالقتال فکفوا فأنزل الله: «أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ قِیلَ لَهُمْ کُفُّوا أَیْدِیَکُمْ» (الآیه.

و فیه:،أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر عن قتاده فی الآیه قال": کان أناس من أصحاب النبی ص،و هم یومئذ بمکه قبل الهجره،یسارعون إلی القتال فقالوا للنبی ص،ذرنا نتخذ معاول فنقاتل بها المشرکین،و ذکر لنا أن عبد الرحمن بن عوف کان فیمن قال ذلک،فنهاهم نبی الله ص عن ذلک قال:لم أومر بذلک،فلما کانت الهجره و أمروا بالقتل کره القوم ذلک،و صنعوا فیه ما تسمعون قال الله تعالی، «قُلْ مَتاعُ الدُّنْیا قَلِیلٌ وَ الْآخِرَهُ خَیْرٌ لِمَنِ اتَّقی وَ لا تُظْلَمُونَ فَتِیلًا».

و فی تفسیر العیاشی،عن صفوان بن یحیی عن أبی الحسن(ع)قال: قال:الله تعالی:

یا ابن آدم،بمشیتی کنت أنت الذی تشاء و تقول،و بقوتی أدیت إلی فریضتی،و بنعمتی قویت علی معصیتی،ما أصابک من حسنه فمن الله،و ما أصابک من سیئه فمن نفسک، و ذاک أنی أولی بحسناتک منک،و أنت أولی بسیئاتک منی،و ذاک أنی لا أسأل عما أفعل،و هم یسألون.

أقول و قد تقدم نقل الروایه بلفظ آخر فی الجزء الأول من هذا الکتاب فی ذیل قوله تعالی« إِنَّ اللَّهَ لا یَسْتَحْیِی أَنْ یَضْرِبَ مَثَلًا» : (البقره:۲۶)و تقدم البحث عنها هناک.

و فی الکافی،بإسناده عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: ذکر عند أبی عبد الله(ع) البلاء و ما یخص الله به المؤمن،فقال:سئل رسول الله ص من أشد الناس بلاء فی الدنیا،؟ فقال النبیون ثم الأمثل فالأمثل،و یبتلی المؤمن بعد علی قدر إیمانه و حسن أعماله،: فمن صح إیمانه و حسن عمله اشتد بلاؤه،و من سخف إیمانه و ضعف عمله قل بلاؤه.

أقول:و من الروايات المشهوره

قوله(ص): الدنيا سجن المؤمن و جنه الكافر.

و فيه،أيضا بعده طرق عنهما(ع): أن الله عز و جل إذا أحب عبدا غثه بالبلاء غثا.

(۱)

و فيه،أيضا عن الصادق(ع): إنما المؤمن بمنزله كفه الميزان،كلما زيد فى إيمانه زيد فى بلائه.

و فيه،أيضا عن الباقر(ع)قال: إن الله عز و جل ليتعاهد المؤمن بالبلاء،كما يتعاهد الرجل أهله بالهديه من الغيبه،و يحميه الدنيا كما يحمى الطبيب المريض.

و فيه،أيضا عن الصادق(ع)قال:قال رسول الله ص: لا حاجه لله فيمن ليس له فى ماله و بدنه نصيب.

و فى العلل،عن على بن الحسين عن أبيه(ع)قال:قال رسول الله ص:

و لو كان المؤمن على جبل،لقيض الله عز و جل له من يؤذيه ليأجره على ذلك.

و فى كتاب التمحيص،عن الصادق(ع)قال: لا تزال الهموم و الغموم بالمؤمن حتى لا تدع له ذنبا.

و عنه(ع) قال: لا يمضى على المؤمن أربعون ليله،إلا عرض له أمر يحزنه يذكر ربه.

و فى النهج،قال(ع): لو أحبنى جبل لتهافت

و قال(ع): من أحبنا أهل البيت فليستعد للبلاء جلبابا.

أقول:قال ابن أبى الحديد فى شرحه،قد ثبت

أن النبى ص قال له: لا يحبك إلا مؤمن،و لا يبغضك إلا منافق»

و قد ثبت أن النبى ص قال: إن البلوى أسرع إلى المؤمن من الماء إلى الحدور» هاتان المقدمتان يلزمهما نتيجه صادقه هى أنه لو أحبه جبل لتهافت(انتهى).

و اعلم أن الأخبار فى هذه المعانى كثيره،و هى تؤيد ما قدمناه من البيان.

و فى الدر المنثور،:أخرج ابن المنذر و الخطيب عن ابن عمر،قال: كنا عند رسول الله ص فى نفر من أصحابه،فقال:يا هؤلاء أ لستم تعلمون أنى رسول الله إليكم،قالوا:بلى قال:أ لستم تعلمون أن الله أنزل فى كتابه،أنه من أطاعنى فقد أطاع الله،؟قالوا:بلى

۱- ۱) الغث هو الغمس.

نشهد أنه من أطاعك فقد أطاع الله،و أن من طاعته طاعتك،قال:فإن من طاعه الله أن تطيعونى،و إن من طاعتى أن تطيعوا أئمتكم،و إن صلوا قعودا فصلوا قعدوا أجمعين.

أقول:قوله(ص):و إن صلوا(إلخ)كنايه عن وجوب كمال الاتباع.

[سوره النساء (۴): الآيات ۸۱ الى ۸۴]

اشاره

وَ يَقُولُونَ طاعَةٌ فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ اَلَّذِی تَقُولُ وَ اَللّٰهُ يَكْتُبُ مٰا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اَللّٰهِ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلًا (۸۱) أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ اَلْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اَللّٰهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اِخْتِلافاً كَثِيراً (۸۲) وَ إِذا جٰاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ اَلْأَمْنِ أَوِ اَلْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى اَلرَّسُولِ وَ إِلىٰ أُولِی اَلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ اَلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَ لَوْ لا فَضْلُ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ اَلشَّيْطانَ إِلاّٰ قَلِيلًا (۸۳) فَقٰاتِلْ فِی سَبِيلِ اَللّٰهِ لا تُكَلَّفُ إِلاّٰ نَفْسَكَ وَ حَرِّضِ اَلْمُؤْمِنِينَ عَسَى اَللّٰهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ اَللّٰهُ أَشَدُّ بَأْساً وَ أَشَدُّ تَنْكِيلًا (۸۴)

بيان

الآيات لا تأبى عن الاتصال بما قبلها فكأنها من تتمه القول فى ملامه الضعفاء من المسلمين و فائدتها وعظهم بما يتبصرون به لو تدبروا و استبصروا.

قوله تعالى وَ يَقُولُونَ طاعَةٌ إلخ طاعَةٌ مرفوع على الخبريه على ما قيل و التقدير أمرنا طاعه أى نطيعك طاعه و البروز الظهور و الخروج و التبييت من البيتوته و معناه إحكام الأمر و تدبيره ليلا و الضمير فى تَقُولُ راجع إلى طائِفَةٌ أو إلى النبى ص.

و المعنى و الله أعلم و يقول هؤلاء مجيبين لك فيما تدعوهم إليه من الجهاد أمرنا طاعه فإذا أخرجوا من عندك دبروا ليلا أمرا غير ما أجابوك به و قالوا لك أو غير ما

قلته أنت لهم و هو كنايه عن عقدهم النيه على مخالفه رسول الله ص.

ثم أمر الله رسوله بالإعراض عنهم و التوكل فى الأمر و العزيمه فقال فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا و لا دليل فى الآيه يدل على كون المحكى عنهم هم المنافقين كما ذكره بعضهم بل الأمر بالنظر إلى اتصال السياق على خلاف ذلك.

قوله تعالى أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ الآيه تحضيض فى صوره الاستفهام التدبير هو أخذ الشيء بعد الشيء و هو فى مورد الآيه التأمل فى الآيه عقيب الآيه أو التأمل بعد التأمل فى الآيه لكن لما كان الغرض بيان أن القرآن لا اختلاف فيه و ذلك إنما يكون بين أزيد من آيه واحده كان المعنى الأول أعنى التأمل فى الآيه عقيب الآيه هو العمده و إن كان ذلك لا ينفى المعنى الثانى أيضا.

فالمراد ترغيبهم أن يتدبروا فى الآيات القرآنيه و يراجعوا فى كل حكم نازل أو حكمه مبينه أو قصه أو عظه أو غير ذلك جميع الآيات المرتبطه به مما نزلت مكيتها و مدينتها و محكمها و متشابهها و يضموا البعض إلى البعض حتى يظهر لهم أنه لا اختلاف بينها فالآيات يصدق قديمها حديثها و يشهد بعضها على بعض من غير أن يكون بينها أى اختلاف مفروض لا اختلاف التناقض بأن ينفى بعضها بعضا أو يتدافعا و لا اختلاف التفاوت بأن يتفاوت الآيتان من حيث تشابه البيان أو متانه المعانى و المقاصد بكون البعض أحكم بيانا و أشد ركنا من بعض كتابا متشابها مثانى تقشعر منه الجلود.

فارتفاع هذه الاختلافات من القرآن يهديهم إلى أنه كتاب منزل من الله و ليس من عند غيره إذ لو كان من عند غيره لم يسلم من كثره الاختلاف و ذلك أن غيره تعالى من هذه الموجودات الكونيه و لا سيما الإنسان الذى يرتاب أهل الريب أنه من كلامه كلها موضوعه بحسب الكينونه الوجوديه و طبيعه الكون على التحرك و التغير و التكامل فما من واحد منها إلا أن امتداد زمان وجوده مختلف الأطراف متفاوت الحالات.

ما من إنسان إلا و هو يرى كل يوم أنه أعقل من أمس و أن ما ينشئه من عمل أو صنعه أو ما أشبه ذلك أو يدبره من رأى أو نظر أو نحوهما أخيرا أحكم و أمتن مما أتى به أولا حتى العمل الواحد الذى فيه شيء من الامتداد الوجودى كالكتاب يكتبه الكاتب و الشعر يقوله الشاعر و الخطبه يخطبها الخطيب و هكذا يوجد عند الإمعان آخره خيرا من أوله و بعضه أفضل من بعض.

فالواحد من الإنسان لا يسلم فی نفسه و ما يأتی به من العمل من الاختلاف،و ليس هو بالواحد و الاثنين من التفاوت و التناقض بل الاختلاف الكثير،و هذا ناموس كلی جار فی الإنسان و ما دونه من الكائنات الواقعه تحت سيطره التحول و التكامل العامين لا ترى واحدا من هذه الموجودات يبقی آنين متواليين علی حال واحد بل لا يزال يختلف ذاته و أحواله.

و من هنا يظهر وجه التقييد بالكثير فی قوله:« اِخْتِلافاً كَثِيراً» فالوصف وصف توضيحی لا احترازی،و المعنی:لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا و كان ذلك الاختلاف كثيرا علی حد الاختلاف الكثير الذی فی كل ما هو من عند غير الله، و ليس المعنی أن المرفوع من القرآن هو الاختلاف الكثير دون اليسير.

و بالجمله لا يلبث المتدبرون أن يشاهد أن القرآن كتاب يداخل جميع الشئون المرتبطه بالإنسانيه من معارف المبدأ و المعاد و الخلق و الإيجاد،ثم الفضائل العامه الإنسانيه،ثم القوانين الاجتماعيه و الفرديه الحاكمه فی النوع حكومه لا يشذ منها دقيق و لا جليل،ثم القصص و العبر و المواعظ ببيان دعا إلی مثلها أهل الدنيا،و بآيات نازله نجوما فی مده تعدل ثلاثا و عشرين سنه علی اختلاف الأحوال من ليل و نهار،و من حضر و سفر،و من حرب و سلم،و من ضراء و سراء،و من شده و رخاء،فلم يختلف حاله فی بلاغته الخارقه المعجزه،و لا فی معارفه العاليه و حكمه الساميه،و لا فی قوانينه الاجتماعيه و الفرديه، بل ينعطف آخره إلی ما قر عليه أوله،و ترجع تفاصيله و فروعه إلی ما ثبت فيه أعراقه و أصوله،يعود تفاصيل شرائعه و حكمه بالتحليل إلی حاق التوحيد الخالص، و ينقلب توحيده الخالص بالتركيب إلی أعيان ما أفاده من التفاصيل،هذا شأن القرآن.

و الإنسان المتدبر فيه هذا التدبر يقضی بشعوره الحی،و قضائه الجبلی أن المتكلم بهذا الكلام ليس ممن يحكم فيه مرور الأيام و التحول و التكامل العاملان فی الأكوان بل هو الله الواحد القهار.

و قد تبين من الآيه(أولا):أن القرآن مما يناله الفهم العادی.و(ثانيا):أن الآيات القرآنيه يفسر بعضها بعضا.و(ثالثا):أن القرآن كتاب لا يقبل نسخا و لا إبطالا و لا تكميلا و لا تهذيبا،و لا أی حاكم يحكم عليه أبدا،و ذلك أن ما يقبل شيئا منها لا مناص من كونه يقبل نوعا من التحول و التغير بالضروره،و إذ كان القرآن لا يقبل الاختلاف

فليس يقبل التحول و التغير فليس يقبل نسخا و لا- إبطالا- و لا- غير ذلك،و لازم ذلك أن الشريعه الإسلاميه مستمره إلى يوم القيامه.

قوله تعالى:« وَ إِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ» الإذاعه هى النشر و الإشاعه،و فى الآيه نوع ذم و تعيير لهم فى شأن هذه الإذاعه،و فى قوله فى ذيل الآيه «وَ لَوْ لا- فَضْلُ اللّهِ» (إلخ)دلاله على أن المؤمنين كانوا على خطر الضلال من جهه هذه الإذاعه،و ليس إلا- خطر مخالفه الرسول فإن الكلام فى هذه الآيات موضوع فى ذلك، و يؤيد ذلك ما فى الآيه التاليه من أمر الرسول بالقتال و لو بقى وحده بلا ناصر.

و يظهر به أن الأمر الذى جاءهم من الأمن أو الخوف كان بعض الأراجيف التى كانت تأتى بها أيدى الكفار و رسلهم المبعوثون لإيجاد النفاق و الخلاف بين المؤمنين فكان الضعفاء من المؤمنين يذيعونه من غير تدبر و تبصر فيوجب ذلك وهنا فى عزيمه المؤمنين،غير أن الله سبحانه وقاهم من اتباع هؤلاء الشياطين الجائين بتلك الأخبار لإخزاء المؤمنين.

فتنطبق الآيه على قصه بدر الصغرى،و قد تقدم الكلام فيها فى سوره آل عمران، و الآيات هاهنا تشابه الآيات هناك مضمونا كما يظهر للمتدبر فيها،قال تعالى فى سوره آل عمران:« اَلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ اَلَّذِينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ إِنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ -Xإلى قوله-X إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ فَلا تَخافُوهُمْ وَ خافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» :(آل عمران:-١٧٥).

الآيات كما ترى تذكر أن رسول الله ص كان يدعو الناس بعد ما أصابهم القرح -و هو محنه-أحد-إلى الخروج إلى الكفار،و أن أناسا كانوا يخزلون الناس و يخذلونهم عن النبى ص و يخوفونهم جمع المشركين.

ثم تذكر أن ذلك كله تخويفات من الشيطان يتكلم بها من أفواه أوليائه،و تعزم على المؤمنين أن لا يخافوهم و يخافوا الله أن كانوا مؤمنين.

و المتدبر فيها و فى الآيات المبحوث عنها أعنى قوله« وَ إِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ» (الآيه)لا يرتاب فى أن الله سبحانه فى هذه الآيه يذكر قصه بدر-الصغرى و يعدها فى جمله ما يعد من الخلال التى يلوم هؤلاء الضعفاء عليها كقوله« فَلَمّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ» (الآيه)و قوله« وَ قالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ» (الآيه)و قوله« وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ»

(الآیه)و قوله «وَ یَقُولُونَ طٰاعَةٌ» (الآیه)ثم یجری علی هذا المجری قوله «وَ إِذٰا جٰاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذٰاعُوا بِهِ» (الآیه).

قوله تعالی: «وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَی الرَّسُولِ وَ إِلیٰ أُولِی الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِینَ یَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ» لم یذکر هاهنا الرد إلی الله کما ذکر فی قوله «فَإِنْ تَنٰازَعْتُمْ فِی شَیْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَی اللّٰهِ وَ الرَّسُولِ»: XالآیهXالنساء:۵۹)لأن الرد المذکور هناک هو رد الحکم الشرعی المتنازع فیه،و لا صنع فیه لغیر الله و رسوله.

و أما الرد المذکور هاهنا فهو رد الخبر الشائع بین الناس من أمن أو خوف،و لا معنی لرده إلی الله و کتابه،بل الصنع فیه للرسول و لأولی الأمر منهم،لو رد إلیهم أمکنهم أن یستنبطوه و یذکروا للرادین صحته أو سقمه و صدقه أو کذبه.

فالمراد بالعلم التمییز تمییز الحق من الباطل،و الصدق من الکذب علی حد قوله تعالی «لِیَعْلَمَ اللّٰهُ مَنْ یَخٰافُهُ بِالْغَیْبِ» : (المائده:۹۴)«و قوله وَ لَیَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ لَیَعْلَمَنَّ الْمُنٰافِقِینَ» :(العنکبوت.-۱۱).

و الاستنباط استخراج القول من حال الإبهام إلی مرحله التمییز و المعرفه،و أصله من النبط(محرکه)،و هو أول ما یخرج من ماء البئر،و علی هذا یمکن أن یکون الاستنباط وصفا للرسول و أولی الأمر بمعنی أنهم یحققون الأمر فیحصلون علی الحق و الصدق و أن یکون وصفا لهؤلاء الرادین لو ردوا فإنهم یعلمون حق الأمر و صدقه بإنباء الرسول و أولی الأمر لهم.

فیعود معنی الآیه إن کان المراد بالذین یستنبطونه منهم الرسول و أولی الأمر کما هو الظاهر من الآیه:لعلمه من أراد الاستنباط من الرسول و أولی الأمر أی إذا استصوبه المسئولون و رأوه موافقا للصلاح، و إن کان المراد بهم الرادین:لعلمه الذین یستفسرونه و یبالغون فی الحصول علی أصل الخبر من هؤلاء الرادین.

و أما أولوا الأمر فی قوله: وَ إِلیٰ أُولِی الْأَمْرِ مِنْهُمْ «فالمراد بهم هو المراد بأولی الأمر فی قوله «أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ» :(النساء:۵۹)علی ما تقدم من اختلاف المفسرین فی تفسیره و قد تقدم أن أصول الأقوال فی ذلک ترجع إلی خمسه غیر أن الذی استفدناه من المعنی أظهر فی هذه الآیه.

أما القول بأن أولی الأمر هم أمراء السرایا فإن هؤلاء لم یکن لهم شأن إلا الإماره علی

سریه فی واقعه خاصه لا تتجاوزها خبرتهم و دائره عملهم،و أما أمثال ما هو مورد الآیه و هو الإخلال فی الأمن و إیجاد الخوف و الوحشه العامه التی کان یتوسل إلیها المشرکون ببعث العیون و إرسال الرسل السریه الذین یذیعون من الأخبار ما یخزلون به المؤمنین فلا شأن لأمراء السرایا فی ذلک حتی یمکنهم أن یبینوا وجه الحق فیه للناس إذا سألوهم عن أمثال تلک الأخبار.

و أما القول بأن أولی الأمر هم العلماء فعدم مناسبته للآیه أظهر،إذ العلماء و هم یومئذ المحدثون و الفقهاء و القراء و المتکلمون فی أصول الدین-إنما خبرتهم فی الفقه و الحدیث و نحو ذلک،و مورد قوله« وَ إِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ»، هی الأخبار التی لها أعراق سیاسیه ترتبط بأطراف شتی ربما أفضی قبولها أو ردها أو الإهمال فیها من المفاسد الحیویه و المضار الاجتماعیه إلی ما یمکن أن لا یستصلح بأی مصلح آخر،أو یبطل مساعی أمه فی طریق سعادتها،أو یذهب بسؤددهم و یضرب بالذل و المسکنه و القتل و الأسر علیهم، و أی خبره للعلماء من حیث إنهم محدثون أو فقهاء أو قراء أو نحوهم فی هذه القضایا حتی یأمر الله سبحانه بإرجاعها و ردها إلیهم؟و أی رجاء فی حل أمثال هذه المشکلات بأیدیهم؟ و أما القول بأن أولی الأمر هم الخلفاء الراشدون أعنی أبا بکر و عمر و عثمان و علیا فمع کونه لا دلیل علیه من کتاب أو سنه قطعیه،یرد علیه أن حکم الآیه إما مختص بزمان النبی ص أو عام یشمله و ما بعده،و علی الأول کان من اللازم أن یکونوا معروفین بهذا الشأن بما أنهم هؤلاء الأربعه من بین الناس و من بین الصحابه خاصه،و الحدیث و التاریخ لا یضبطان لهم بخصوصهم شأنا من هذا القبیل،و علی الثانی کان لازمه انقطاع حکم الآیه بانقطاع زمان حیاتهم،و کان لازمه أن تتصدی الآیه لبیان ذلک کما فی جمیع الأحکام الخاصه بشطر من الزمان المذکوره فی القرآن کالأحکام الخاصه بالنبی ص و لا أثر فی الآیه من ذلک.

و أما القول بأن المراد بأولی الأمر أهل الحل و العقد،و هذا القائل لما رأی أنه لم یکن فی عهد النبی ص جماعه مشخصه هم أهل الحل و العقد علی حد ما یوجد بین الأمم المتمدنه ذوات المجتمعات المتشکله کهیئه الوزراء،و جمعیه المبعوثین إلی المنتدی و غیر ذلک فإن الأمه لم یکن یجری فیها إلا حکم الله و رسوله،اضطر إلی تفسیره بأهل الشوری من الصحابه و خاصه النبی ص منهم.

و کیف کان،یرد علیه أن النبی ص کان یجمع فی مشاورته المؤمنین و المنافقین کعبد الله

بن أبی و أصحابه،و حدیث مشاورته یوم أحد معروف،و کیف یمکن أن یأمر الله سبحانه بالرد إلی أمثاله.

علی أن ممن لا کلام فی کونه ذا هذا الشأن عند النبی ص و بعده عبد الرحمن بن عوف،و هذه الآیات المسروده فی ذم ضعفاء المؤمنین و تعییرهم علی ما وقع منهم إنما ابتدأت به و بأصحابه أعنی قوله« أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ قِیلَ لَهُمْ کُفُّوا» (الآیات)فقد ورد فی الصحیح أنها نزلت فی عبد الرحمن بن عوف و أصحاب له،رواه النسائی فی صحیحه و رواه الحاکم فی مستدرکه و صححه و رواه الطبری و غیره فی تفاسیرهم،و قد مرت الروایه فی البحث الروائی السابق.و إذا کان الأمر علی هذه الوتیره فکیف یمکن أن یؤمر فی الآیه بإرجاع الأمر و رده إلی مثل هؤلاء؟.

فالمتعین هو الذی رجحناه فی قوله تعالی «أَطِیعُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ» (الآیه).

قوله تعالی:« وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّیْطانَ إِلَّا قَلِیلًا» قد تقدم أن الأظهر کون الآیات مشیره إلی قصه بدر الصغری،و بعث أبی سفیان نعیم بن مسعود الأشجعی إلی المدینه لبسط الخوف و الوحشه بین الناس و إخزائهم فی الخروج إلی بدر فالمراد باتباع الشیطان التصدیق بما جاء به من النبإ،و اتباعه فی التخلف عن الخروج إلی بدر.

و بذلک یظهر استقامه معنی الاستثناء من غیر حاجه إلی تکلف أو تمحل فإن نعیما کان یخبرهم أن أبا سفیان جمع الجموع و جهز الجیوش فاخشوهم و لا تلقوا بأنفسکم إلی حیاض القتل الذریع،و قد أثر ذلک فی قلوب الناس فتعللوا عن الخروج إلی موعدهم ببدر،و لم یسلم من ذلک إلا النبی ص و بعض خاصته و هو المراد بقوله تعالی« إِلَّا قَلِیلًا»، فقد کان الناس تزلزلوا إلا القلیل منهم ثم لحقوا بذلک القلیل و ساروا.

و هذا الذی استظهرناه من معنی الاستثناء هو الذی یؤیده ما مر ذکره من القرائن، علی ما فیه من الاستقامه.

و للمفسرین فی أمر هذا الاستثناء مذاهب شتی لا یخلو شیء منها من فساد أو تکلف، فقد قیل:المراد بالفضل و الرحمه ما هداهم الله إلیه من إیجاب طاعته و طاعه رسوله و أولی الأمر منهم،و المراد بالمستثنی هم المؤمنون أولو الفطره السلیمه و القلوب الطاهره، و معنی الآیه:و لو لا هذا الذی هداکم الله إلیه من وجوب الطاعه،و إرجاع الأمر إلی

الرسول و إلى أولى الأمر لاتبعتم الشيطان جميعا بالوقوع فى الضلال إلا قليلا منكم من أهل الفطره السليمه فإنهم لا يزيغون عن الحق و الصلاح.و فيه أنه تخصيص الفضل و الرحمه بحكم خاص من غير دليل يدل عليه،و هو بعيد من البيان القرآنى،مع أن ظاهر الآيه أنه امتنان فى أمر ماض منقض.

و قيل،إن الآيه على ظاهرها،و المؤمنون غير المخلصين يحتاجون إلى فضل و رحمه زائدين و إن كان المخلصون أيضا لا يستغنون عن العنايه الإلهيه،و فيه أن الذى يوهمه الظاهر حينئذ مما يجب فى بلاغه القرآن دفعه و لم يدفع فى الآيه.و قد قال تعالى:« وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً» :(النور:٢١)و قال مخاطبا لنبيه(ص) و هو خير الناس: «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياهِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ» :(الإسراء:٧٥).

و قيل:إن المراد بالفضل و الرحمه القرآن و النبى ص.و قيل:المراد بهما الفتح و الظفر،فيستقيم الاستثناء لأن الأكثرين إنما يثبتون على الحق بما يستطاب به قلوبهم من فتح و ظفر و ما أشبههما من العنايات الظاهريه الإلهيه،و لا يصبر على مر الحق إلا القليل من المؤمنين الذين هم على بصيره من أمرهم.و قيل)الاستثناء إنما هو من قوله «أَذاعُوا بِهِ»، و قيل)الاستثناء من قوله« اَلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ». و قيل:إن الاستثناء إنما هو فى اللفظ و هو دليل على الجمع و الإحاطه فمعنى الآيه:و لو لا فضل الله عليكم و رحمته لاتبعتم الشيطان جميعا،و هذا نظير قوله تعالى « سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى إِلاّ ما شاءَ اللَّهُ» :(الأعلى:٧)فاستثناء المشيه يفيد عموم الحكم بنفى النسيان،و جميع هذه الوجوه لا تخلو من تكلف ظاهر.

قوله تعالى: «فَقاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاّ نَفْسَكَ وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ»، التكليف من الكلفه بمعنى المشقه لما فيه من تحميل المشقه على المكلف،و التنكيل من النكال،و هو على ما فى المجمع:،ما يمتنع به من الفساد خوفا من مثله من العذاب فهو عقاب المتخلف لئلا يعود إلى مثله و ليعتبر به غيره من المكلفين.

و الفاء فى قوله «فَقاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ». للتفريع و الأمر بالقتال متفرع على المتحصل من مضامين الآيات السابقه.و هو تثاقل القوم فى الخروج إلى العدو و تبطئتهم فى ذلك، و يدل عليه ما يتلوه من الجمل أعنى قوله «لا تُكَلَّفُ إِلاّ نَفْسَكَ» (إلخ)فإن المعنى:فإذا

كانوا يتثاقلون فی أمر الجهاد و يكرهون القتال فقاتل أنت يا رسول الله بنفسك،و لا يشق عليك تثاقلهم و مخالفتهم لأمر الله سبحانه فإن تكليف غيرك لا يتوجه إليك،و إنما يتوجه إليك تكليف نفسك لا تكليفهم،و إنما عليك فی غيرك أن تحرضهم فقاتل وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا. و قوله« لا تُكَلَّفُ إِلاّ نَفْسَكَ» أی لا تكلف أنت شيئا إلا عمل نفسك فالاستثناء بتقدير مضاف.

و قوله «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ»(إلخ)قد تقدم أن«عسى»تدل على الرجاء أعم من أن يكون ذلك الرجاء قائما بنفس المتكلم أو المخاطب أو بمقام التخاطب فلا حاجه إلى ما ذكروه من أن«عسى»من الله حتم.

و فی الآيه دلاله على زياده تعيير من الله سبحانه للمتثاقلين من الناس حيث أدى تثاقلهم إلى أن أمر الله نبيه بالقيام بالقتال بنفسه،و أن يعرض عن المتثاقلين و لا يلح عليهم بالإجابه و يخليهم و شأنهم،و لا يضيق بذلك صدره فليس عليه إلا تكليف نفسه و تحريض المؤمنين أطاع من أطاع،و عصى من عصى.

بحث روائی

فی الكافی،بإسناده عن محمد بن عجلان قال:سمعت أبا عبد الله(ع)يقول: إن الله عير أقواما بالإذاعه فی قوله عز و جل:« وَ إِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ» فإياكم و الإذاعه.

و فيه،بإسناده عن عبد الحميد بن أبی الديلم عن أبی عبد الله(ع)قال: قال الله عز و جل:،« أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْكُمْ»، -و قال« وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلى أُولِی الْأَمْرِ مِنْهُمْ،لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ»، -فرد أمر الناس إلى أولی الأمر منهم، الذين أمر بطاعتهم و الرد إليهم.

أقول و الروايه تؤيد ما قدمناه من أن المراد بأولی الأمر فی الآيه الثانيه هم المذكورون فی الآيه الأولى.

و فی تفسير العياشی،عن عبد الله بن عجلان عن أبی جعفر(ع): فی قوله «وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلى أُولِی الْأَمْرِ مِنْهُمْ» قال:هم الأئمه.

أقول:و روى هذا المعنى أيضا عن عبد الله بن جندب عن الرضا(ع)فى كتاب كتبه إليه فى أمر الواقفيه،و روى هذا المعنى أيضا المفيد فى الاختصاص،عن إسحاق بن عمار عن الصادق(ع)فى حديث طويل.

و فى تفسير العياشى،عن محمد بن الفضيل عن أبى الحسن(ع): فى قوله« وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ» ،قال:الفضل رسول الله،و رحمته أمير المؤمنين.

و فيه،عن زراره عن أبى جعفر(ع)،و حمران عن أبى عبد الله(ع)قال: « لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ»، -قال:فضل الله رسوله،و رحمته ولايه الأئمه.

و فيه،عن محمد بن الفضيل عن العبد الصالح(ع)قال: الرحمه رسول الله ص، و الفضل على بن أبى طالب(ع).

أقول:و الروايات من باب الجرى،و المراد النبوه و الولايه فإنهما السببان المتصلان اللذان أنقذنا الله بهما من مهبط الضلال و مصيده الشيطان،إحداهما:سبب مبلغ، و الأخرى:سبب مجر،و الروايه الأخيره أقرب من الاعتبار فإن الله سمى رسوله ص فى كتابه بالرحمه حيث قال:« وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ رَحْمَةً لِلْعٰالَمِينَ» :(الآيه)(الأنبياء:١٠٧).

و فى الكافى،بإسناده عن على بن حديد عن مرازم قال قال أبو عبد الله(ع): إن الله كلف رسول الله ص ما لم يكلف به أحدا من خلقه،ثم كلفه أن يخرج على الناس كلهم وحده بنفسه،و إن لم يجد فئه تقاتل معه،و لم يكلف هذا أحدا من خلقه لا قبله و لا بعده،ثم تلا هذه الآيه:« فَقٰاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاّٰ نَفْسَكَ» .

ثم قال:و جعل الله له أن يأخذ ما أخذ لنفسه فقال عز و جل:« مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا» و جعل الصلاه على رسول الله ص بعشر حسنات

و فى تفسير العياشى،عن سليمان بن خالد قال: قلت لأبى عبد الله(ع)قول الناس لعلى(ع)،إن كان له حق فما منعه أن يقوم به،؟قال فقال إن الله لا يكلف هذا لإنسان واحد إلا رسول الله ص،قال:« فَقٰاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاّٰ نَفْسَكَ وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ» فليس هذا إلا للرسول،و قال لغيره:« إِلاّٰ مُتَحَرِّفاً لِقِتٰالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلىٰ فِئَهٍ» -فلم يكن يومئذ فئه يعينونه على أمره.

و فيه،عن زيد الشحام عن جعفر بن محمد(ع)قال: ما سئل رسول الله ص شيئا

قط-فقال:لا،إن كان عنده أعطاه،و إن لم يكن عنده-قال:يكون إن شاء الله،و لا كافى بالسيئه قط،و ما لقى سريه مذ نزلت عليه،« فَقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاّ نَفْسَكَ» إلا ولى بنفسه.

أقول:و فى هذه المعانى روايات أخر.

[سوره النساء (۴): الآيات ۸۵ الى ۹۱]

اشاره

مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها وَ مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها وَ كانَ اَللّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً (۸۵) وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها إِنَّ اَللّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً (۸۶) اَللّهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ اَلْقِيامَهِ لا رَيْبَ فِيهِ وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اَللّهِ حَدِيثاً (۸۷) فَما لَكُمْ فِي اَلْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَ اَللّهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اَللّهُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اَللّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (۸۸) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ حَتّى يُهاجِرُوا فِي سَبِيلِ اَللّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اُقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ لا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۸۹) إِلاَّ اَلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَ لَوْ شاءَ اَللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتَلُوكُمْ فَإِنِ اِعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ اَلسَّلَمَ فَما جَعَلَ اَللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (۹۰) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَ يَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّما رُدُّوا إِلَى اَلْفِتْنَهِ أُرْكِسُوا فِيها فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ اَلسَّلَمَ وَ يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَ اُقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أُولئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً مُبِيناً (۹۱)

بيان

الآيات متصله بما قبلها من حيث تتعرض جميعا(۸۵-۹۱)لما يرتبط بأمر القتال مع طائفه من المشركين و هم المنافقون منهم،و يظهر من التدبر فيها أنها نزلت فى قوم من المشركين أظهروا الإيمان للمؤمنين ثم عادوا إلى مقرهم و شاركوا المشركين فى شركهم فوقع الريب فى قتالهم،و اختلفت أنظار المسلمين فى أمرهم،فمن قائل يرى قتالهم،و آخر يمنع منه و يشفع لهم لتظاهرهم بالإيمان،و الله سبحانه يكتب عليهم إما المهاجره أو القتال و يحذر المؤمنين الشفاعه فى حقهم.

و يلحق بهم قوم آخرون ثم آخرون يكتب عليهم إما إلقاء السلم أو القتال،و يستهل لما فى الآيات من المقاصد فى صدر الكلام ببيان حال الشفاعه فى آيه،و ببيان حال التحيه لمناسبتها إلقاء السلم فى آيه أخرى.

قوله تعالى:« مَنْ يَشْفَعْ شَفٰاعَهً حَسَنَهً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهٰا»، النصيب و الكفل بمعنى واحد،و لما كانت الشفاعه نوع توسط لترميم نقيصه أو لحيازه مزيه و نحو ذلك كانت لها نوع سببيه لإصلاح شأن فلها شىء من التبعه و المثوبه المتعلقتين بما لأجله الشفاعه،و هو مقصد الشفيع و المشفوع له فالشفيع ذو نصيب من الخير أو الشر المترتب على الشفاعه،و هو قوله تعالى «مَنْ يَشْفَعْ شَفٰاعَهً» (إلخ).

و فى ذكر هذه الحقيقه تذكره للمؤمنين،و تنبيه لهم أن يتيقظوا عند الشفاعه لما يشفعون له،و يجتنبوها إن كان المشفوع لأجله مما فيه شر و فساد كالشفاعه للمنافقين من المشركين أن لا يقاتلوا،فإن فى ترك الفساد القليل على حاله،و إمهاله فى أن ينمو و يعظم فسادا معقبا لا يقوم له شىء،و يهلك به الحرث و النسل فالآيه فى معنى النهى عن الشفاعه السيئه و هى شفاعه أهل الظلم و الطغيان و النفاق و الشرك المفسدين فى الأرض.

قوله تعالى:« وَ إِذٰا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّهٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهٰا» (الآيه)أمر بالتحيه قبال

التحيه بما يزيد عليها أو يماثلها،و هو حكم عام لكل تحيه حيى بها،غير أن مورد الآيات هو تحيه السلم و الصلح التى تلقى إلى المسلمين على ما يظهر من الآيات التاليه.

قوله تعالى:« اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ» (إلخ)معنى الآيه ظاهر،و هى بمنزله التعليل لما تشتمل عليه الآيتان السابقتان من المضمون كأنه قيل:خذوا بما كلفكم الله فى أمر الشفاعه الحسنه و السيئه،و لا تبطلوا تحيه من يحييكم بالإعراض و الرد فإن أمامكم يوما يجمعكم الله فيه و يجازيكم على إجابه ما دعاكم إليه و رده.

قوله تعالى:« فَمٰا لَكُمْ فِى الْمُنٰافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَ اللّٰهُ أَرْكَسَهُمْ» (الآيه) الفئه الطائفه، و الإركاس الرد.

و الآيه بما لها من المضمون كأنها متفرعه على ما تقدم من التوطئه و التمهيد أعنى قوله «مَنْ يَشْفَعْ شَفٰاعَهً» (الآيه)،و المعنى:فإذا كانت الشفاعه السيئه تعطى لصاحبها كفلا من مساءتها فما لكم أيها المؤمنون تفرقتم فى أمر المنافقين فئتين،و تحزبتهم حزبين:فئه ترى قتالهم،و فئه تشفع لهم و تحرض على ترك قتالهم،و الإغماض عن شجره الفساد التى تنمو بنمائهم،و تثمر برشدهم،و الله ردهم إلى الضلال بعد خروجهم منه جزاء بما كسبوا من سيئات الأعمال،أ تريدون بشفاعتكم أن تهدوا هؤلاء الذين أضلهم الله؟و من يضلل الله فما له من سبيل إلى الهدى.

و فى قوله« وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً» التفات من خطاب المؤمنين إلى خطاب رسول الله ص إشاره إلى أن من يشفع لهم من المؤمنين لا يتفهم حقيقه هذا الكلام حق التفهم،و لو فقهه لم يشفع فى حقهم فأعرض عن مخاطبتهم به و ألقى إلى من هو بين واضح عنده و هو النبى ص.

قوله تعالى:« وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمٰا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوٰاءً» (إلخ)هو بمنزله البيان لقوله« وَ اللّٰهُ أَرْكَسَهُمْ بِمٰا كَسَبُوا أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللّٰهُ»، و المعنى:أنهم كفروا و زادوا عليه أنهم ودوا و أحبوا أن تكفروا مثلهم فتستووا.

ثم نهاهم عن ولايتهم إلا أن يهاجروا فى سبيل الله فإن تولوا فليس عليكم فيهم إلا أخذهم و قتلهم حيث وجدتموهم،و الاجتناب عن ولايتهم و نصرتهم،و فى قوله« فَإِنْ تَوَلَّوْا»،

دلاله على أن على المؤمنين أن يكلفوهم بالمهاجره فإن أجابوا فليوالوهم،و إن تولوا فيقتلوهم.

قوله تعالى:« إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ» استثنى الله سبحانه من قوله« فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ»، طائفتين:(إحداهما) اَلَّذِينَ يَصِلُونَ (إلخ)أى بينهم و بين بعض أهل الميثاق ما يوصلهم بهم من حلف و نحوه،و(الثانيه) الذين يتحرجون من مقاتله المسلمين و مقاتله قومهم لقتلهم أو لعوامل أخر،فيعتزلون المؤمنين و يلقون إليهم السلم لا للمؤمنين و لا عليهم بوجه، فهاتان الطائفتان مستثنون من الحكم المذكور،و قوله« حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ»، أى ضاقت.

قوله تعالى:« سَتَجِدُونَ آخَرِينَ»، إخبار بأنه سيواجهكم قوم آخرون ربما شابهوا الطائفه الثانيه من الطائفتين المستثناتين حيث إنهم يريدون أن يأمنوكم و يأمنوا قومهم غير أن الله سبحانه يخبر أنهم منافقون غير مأمونين فى مواعدتهم و موادعتهم،و لذا بدل الشرطين المثبتين فى حق غيرهم أعنى قوله« فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ» بالشرط المنفى أعنى قوله «فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَ يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ» (إلخ) و هذا فى معنى تنبيه المؤمنين على أن يكونوا على حذر منهم و معنى الآيه ظاهر.

كلام فى معنى التحيه

الأمم و الأقوام على اختلافها فى الحضاره و التوحش و التقدم و التأخر لا تخلو فى مجتمعاتهم من تحيه يتعارفونها عند الملاقاه ملاقاه البعض البعض على أقسامها و أنواعها من الإشاره بالرأس و اليد و رفع القلانس و غير ذلك،و هى مختلفه باختلاف العوامل المختلفه العامله فى مجتمعاتهم.

و أنت إذا تأملت هذه التحيات الدائره بين الأمم على اختلافها و على اختلافهم وجدتها حاكيه مشيره إلى نوع من الخضوع و الهوان و التذلل يبديه الدانى للعالى،و الوضيع للشريف،و المطيع لمطاعه،و العبد لمولاه،و بالجمله تكشف عن رسم الاستعباد الذى لم يزل رائجا بين الأمم فى أعصار الهمجيه فما دونها،و إن اختلفت ألوانه،و لذلك ما نرى أن هذه التحيه تبدأ من المطيع و تنتهى إلى المطاع،و تشرع من الدانى الوضيع و تختتم فى العالى الشريف، فهى من ثمرات الوثنيه التى ترتضع من ثدى الاستعباد.

و الإسلام-كما تعلم-أكبر همه إمحاء الوثنيه و كل رسم من الرسوم ينتهى إليها،

و يتولد،منها و لذلك أخذ لهذا الشأن طريقه سويه و سنه مقابله لسنه الوثنيه و رسم الاستعباد،و هو إلقاء السلام الذى هو بنحو أمن المسلم عليه من التعدى عليه،و دحض حريته الفطريه الإنسانيه الموهوبه له فإن أول ما يحتاج إليه الاجتماع التعاونى بين الأفراد هو أن يأمن بعضهم بعضا فى نفسه و عرضه و ماله،و كل أمر يئول إلى أحد هذه الثلاثه.

و هذا هو السلام الذى سن الله تعالى إلقاؤه عند كل تلاق من متلاقيين قال تعالى:

«فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً» (النور:۶۱) و قال تعالى:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتّى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» :(النور:۲۷)و قد أدب الله رسوله ص بالتسليم للمؤمنين و هو سيدهم فقال: «وَ إِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» :(الأنعام:۵۴) و أمره بالتسليم لغيرهم فى قوله:

« فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» :(الزخرف:۸۹).

و التحيه بإلقاء السلام كانت معمولا بها عند عرب الجاهليه على ما يشهد به المأثور عنهم من شعر و نحوه،و فى لسان العرب:و كانت العرب فى الجاهليه يحيون بأن يقول أحدهم لصاحبه:أنعم صباحا،و أبيت اللعن،و يقولون سلام عليكم فكأنه علامه المسالمه،و أنه لا حرب هنالك.ثم جاء الله بالإسلام فقصروا على السلام،و أمروا بإفشائه.(انتهى).

إلا أن الله سبحانه يحكيه فى قصص إبراهيم عنه(ع)كثيرا: و لا يخلو ذلك من شهاده على أنه كان من بقايا دين إبراهيم الحنيف عند العرب كالحج و نحوه قال تعالى:

حكايه عنه فيما يحاور أباه:« قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى» :(مريم:۴۷)و قال تعالى« وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ» :(هود:۶۹) و القصه واقعه فى غير مورد من القرآن الكريم.

و لقد أخذه الله سبحانه تحيه لنفسه،و استعمله فى موارد من كلامه،قال تعالى:

«سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِى الْعالَمِينَ» :(الصافات:۷۹)و قال:« سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ:» (الصافات:

۱۰۹)و قال:« سَلامٌ عَلى مُوسى وَ هارُونَ» :(الصافات:۱۲۰)و قال« سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ» :(الصافات:۱۳۰)و قال:« وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ» :(الصافات:۱۸۱).

و ذکر تعالی أنه تحیه ملائکته المکرمین قال:« اَلَّذِینَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلاَئِکَهُ طَیِّبِینَ یَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَیْکُمْ» :(النحل:۳۲)و قال:« وَ الْمَلاَئِکَهُ یَدْخُلُونَ عَلَیْهِمْ مِنْ کُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَیْکُمْ» :(الرعد:۲۴)و ذکر أیضا أنه تحیه أهل الجنه قال:« وَ تَحِیَّتُهُمْ فِیها سَلامٌ» : (یونس:۱۰)،و قال تعالی: لاَ یَسْمَعُونَ فِیها لَغْواً وَ لاَ تَأْثِیماً إِلاّ قِیلاً سَلاماً سَلاماً» :(الواقعه:۲۶).

(بحث روائی)

فی المجمع،: فی قوله تعالی« وَ إِذا حُیِّیتُمْ (الآیه):قال:ذکر علی بن إبراهیم فی تفسیره،عن الصادقین:أن المراد بالتحیه فی الآیه السلام و غیره من البر.

و فی الکافی،بإسناده عن السکونی قال:قال رسول الله ص: السلام تطوع و الرد فریضه.

و فیه،بإسناده عن جراح المدائنی عن أبی عبد الله(ع)قال: یسلم الصغیر علی الکبیر،و المار علی القاعد،و القلیل علی الکثیر.

و فیه،بإسناده عن عیینه (۱)عن مصعب عن أبی عبد الله(ع)قال: القلیل یبدءون الکثیر بالسلام،و الراکب یبدأ الماشی،و أصحاب البغال یبدءون أصحاب الحمیر،و أصحاب الخیل یبدءون أصحاب البغال.

و فیه،بإسناده عن ابن بکیر عن بعض أصحابه عن أبی عبد الله(ع)قال:سمعته یقول: یسلم الراکب علی الماشی،و الماشی علی القاعد،و إذا لقیت جماعه سلم الأقل علی الأکثر،و إذا لقی واحد جماعه سلم الواحد علی الجماعه:

أقول:و روی ما یقرب منه فی الدر المنثور،عن البیهقی عن زید بن أسلم عن النبی ص.

و فیه،بالإسناد عنه(ع)قال: إذا مرت الجماعه بقوم أجزأهم أن یسلم واحد منهم،

۱- ۱) عنبسه(خ ل)

و إذا سلم على القوم و هم جماعه،أجزأهم أن يرد واحد منهم.

و فى التهذيب،بإسناده عن محمد بن مسلم قال: دخلت على أبى جعفر(ع)و هو فى الصلاه فقلت:السلام عليك،فقال:السلام عليك،فقلت:كيف أصبحت؟فسكت، فلما انصرف قلت:أ يرد السلام و هو فى الصلاه؟قال:نعم،مثل ما قيل له.

و فيه،بإسناده عن منصور بن حازم عن أبى عبد الله(ع)قال: إذا سلم عليك الرجل و أنت تصلى،قال:ترد عليه خفيا كما قال

و فى الفقيه،بإسناده عن مسعده بن صدقه عن جعفر بن محمد عن أبيه(ع)قال:

لا- تسلموا على اليهود،و لا- على النصارى،و لا- على المجوس،و لا- على عبده الأوثان،و لا على موائد شراب الخمر،و لا على صاحب الشطرنج و النرد،و لا على المخنث،و لا على الشاعر الذى يقذف المحصنات،و لا على المصلى لأن المصلى لا يستطيع أن يرد السلام،لأن التسليم من المسلم تطوع و الرد فريضه،و لا على آكل الربا،و لا على رجل جالس على غائط-و لا على الذى فى الحمام،و لا على الفاسق المعلن بفسقه.

أقول:و الروايات فى معنى ما تقدم كثيره،و الإحاطه بما تقدم من البيان توضح معنى الروايات فالسلام تحيه مؤذنه ببسط السلم،و نشر الأمن بين المتلاقين على أساس المساواه و التعادل من استعلاء و إدحاض،و ما فى الروايات من ابتداء الصغير بالتسليم للكبير،و القليل للكثير،و الواحد للجمع لا- ينافى مسأله المساواه و إنما هو مبنى على وجوب رعايه الحقوق فإن الإسلام لم يأمر أهله بإلغاء الحقوق،و إهمال أمر الفضائل و المزايا بل أمر غير صاحب الفضل أن يراعى فضل ذى الفضل،و حق صاحب الحق،و إنما نهى صاحب الفضل أن يعجب بفضله،و يتكبر على غيره فيبغى على الناس بغير حق فيبطل بذلك التوازن بين أطراف المجتمع الإنسانى.

و أما النهى الوارد عن التسليم على بعض الأفراد فإنما هو متفرع على النهى عن توليهم و الركون إليهم كما قال تعالى:« لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ» :(المائده:۵۱) و قال: «لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ» (الممتحنه:۱)و قال وَ لا- تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» :(هود:۱۱۳)إلى غير ذلك من الآيات.

نعم ربما اقتضت مصلحه التقرب من الظالمين لتبليغ الدين أو إسماعهم كلمه الحق

التسليم عليهم ليحصل به تمام الأنس و تمتزج النفوس كما أمر النبى ص بذلك فى قوله «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ» : (الزخرف:۸۹)و كما فى قوله يصف المؤمنين «وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً» :(الفرقان:۶۳).

و تفسير الصافى،عن النبى ص: إن رجلا قال له:السلام عليك،فقال:

و عليك السلام و رحمه الله،و قال آخر:السلام عليك و رحمه الله،فقال:و عليك السلام و رحمه الله و بركاته،و قال آخر:السلام عليك و رحمه الله و بركاته،فقال:و عليك، فقال الرجل:نقصتنى فأين ما قال الله« وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها» (الآيه) فقال(ص):إنك لم تترك فضلا و رددت عليك مثله:

أقول:و روى مثله فى الدر المنثور،عن أحمد فى الزهد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه بسند حسن عن سلمان الفارسى.

و فى الكافى،عن الباقر(ع)قال: مر أمير المؤمنين(ع)بقوم فسلم عليهم فقالوا:

عليك السلام و رحمه الله و بركاته و مغفرته و رضوانه،فقال لهم أمير المؤمنين(ع):، لا تجاوزوا بنا مثل ما قالت الملائكه لأبينا إبراهيم،قالوا:رحمه الله و بركاته عليكم أهل البيت.

أقول:و فيه إشاره إلى أن السنه فى التسليم التام،و هو قول المسلم«السلام عليك و رحمه الله و بركاته»مأخوذه من حنيفيه إبراهيم، (ع)و تأييد لما تقدم أن التحيه بالسلام من الدين الحنيف.

و فيه،عن الصادق(ع): أن من تمام التحيه للمقيم المصافحه،و تمام التسليم على المسافر المعانقه.

و فى الخصال،عن أمير المؤمنين(ع): إذا عطس أحدكم قولوا يرحمكم الله،و هو يقول:يغفر الله لكم و يرحمكم،قال الله تعالى: «وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها» (الآيه

و فى المناقب: جاءت جاريه للحسن(ع)بطاق ريحان،فقال لها،أنت حره لوجه الله،فقيل له فى ذلك،فقال(ع):،أدبنا الله تعالى فقال:،« إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها» (الآيه)و كان أحسن منها إعتاقها.

أقول:و الروايات كما ترى تعمم معنى التحيه فى الآيه.

و فى المجمع،: فى قوله تعالى« فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ» (الآيه)قال اختلفوا فى من نزلت هذه الآيه فيه، فقيل،:نزلت فى قوم قدموا المدينه من مكه،فأظهروا للمسلمين الإسلام ثم رجعوا إلى مكه-لأنهم استوخموا المدينه فأظهروا الشرك،ثم سافروا ببضائع المشركين إلى اليمامه،فأراد المسلمون أن يغزوهم فاختلفوا،:فقال بعضهم لا نفعل فإنهم مؤمنون،و قال آخرون:إنهم مشركون،فأنزل الله فيهم الآيه:قال:و هو المروى عن أبى جعفر(ع).

و فى تفسير القمى،فى قوله تعالى« وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا» (الآيه)أنها نزلت فى أشجع و بنى ضمره،و هما قبيلتان،و كان من خبرهم أنه لما خرج رسول الله ص إلى غزاه الحديبيه مر قريبا من بلادهم،و قد كان رسول الله ص هادن بنى ضمره،و واعدهم قبل ذلك فقال أصحاب رسول الله ص:يا رسول الله هذه بنو ضمره قريبا منا،و نخاف أن يخالفونا إلى المدينه أو يعينوا علينا قريشا فلو بدأنا بهم،فقال رسول الله ص كلا إنهم أبر العرب بالوالدين،و أوصلهم للرحم،و أوفاهم بالعهد.

و كان أشجع بلادهم قريبا من بلاد بنى ضمره،و هم بطن من كنانه،و كانت أشجع بينهم و بين بنى ضمره حلف بالمراعاه و الأمان،فأجدبت بلاد أشجع و أخصبت بلاد بنى ضمره فسارت أشجع إلى بلاد بنى ضمره فلما بلغ رسول الله ص مسيرهم إلى بنى ضمره تهيأ للمسير إلى أشجع ليغزوهم للموادعه التى كانت بينه و بين بنى ضمره فأنزل الله:« وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ حَتّى يُهاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ لا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً .

ثم استثنى بأشجع فقال:« إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَ لَوْ شاءَ اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً» .

و كانت أشجع محالها البيضاء و الحل و المستباح،و قد كانوا قربوا من رسول الله ص فهابوا لقربهم من رسول الله ص أن يبعث إليهم من يغزوهم،و كان رسول الله ص قد خافهم أن يصيبوا من أطرافه شيئا فهم بالمسير إليهم فبينما هو على ذلك إذ جاءت أشجع و رئيسها مسعود بن رجيله،و هم سبعمائه فنزلوا شعب سلع،و ذلك فى شهر ربيع الأول

سنه ست من الهجره فدعا رسول الله ص أسید بن حصین و قال له:اذهب فی نفر من أصحابک حتی تنظر ما أقدم أشجع.

فخرج أسید و معه ثلاثه نفر من أصحابه فوقف علیهم فقال:ما أقدمکم؟فقام إلیه مسعود بن رجیله و هو رئیس أشجع فسلم علی أسید و علی أصحابه فقالوا:جئنا لنوادع محمدا، فرجع أسید إلی رسول الله ص فأخبره،فقال رسول الله ص:خاف القوم أن أغزوهم فأرادوا الصلح بینی و بینهم.ثم بعث إلیهم بعشره أحمال تمر فقدمها أمامه،ثم قال:نعم الشیء الهدیه أمام الحاجه،ثم أتاهم فقال:یا معشر أشجع ما أقدمکم؟قالوا:قربت دارنا منک،و لیس فی قومنا أقل عددا منا فضقنا لحربک لقرب دارنا منک،و ضقنا لحرب قومنا لقلتنا فیهم فجئنا لنوادعکم،فقبل النبی ص منهم و وادعهم فأقاموا یومهم ثم رجعوا إلی بلادهم،و فیهم نزلت هذه الآیه «إِلاَّ الَّذِینَ یَصِلُونَ إِلی قَوْمٍ بَیْنَکُمْ وَ بَیْنَهُمْ مِیثاقٌ -إلی قوله- فَما جَعَلَ اللّهُ لَکُمْ عَلَیْهِمْ سَبِیلاً ».

و فی الکافی،بإسناده عن الفضل أبی العباس عن أبی عبد الله(ع): فی قول الله عز و جل «أَوْ جاؤُکُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ یُقاتِلُوکُمْ أَوْ یُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ» قال:نزلت فی بنی مدلج،لأنهم جاءوا إلی رسول الله ص فقالوا،:إنا قد حصرت صدورنا أن نشهد إنک لرسول الله،فلسنا معکم و لا مع قومنا علیک،قال:قلت:کیف صنع بهم رسول الله ص، قال:وادعهم إلی أن یفرغ من العرب،ثم یدعوهم فإن أجابوا،و إلا قاتلهم.

و فی تفسیر العیاشی،عن سیف بن عمیره قال: سألت أبا عبد الله(ع)- «أَنْ یُقاتِلُوکُمْ أَوْ یُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَ لَوْ شاءَ اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَیْکُمْ فَلَقاتَلُوکُمْ» قال:کان أبی یقول:،نزلت فی بنی مدلج اعتزلوا فلم یقاتلوا النبی ص،و لم یکونوا مع قومهم.قلت:فما صنع بهم،:قال لم یقاتلهم النبی ص حتی فرغ من عدوه،ثم نبذ إلیهم علی سواء.قال،:و «حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ» هو الضیق.

و فی المجمع:المروی عن أبی جعفر(ع)أنه قال: المراد بقوله تعالی «قَوْمٍ بَیْنَکُمْ وَ بَیْنَهُمْ مِیثاقٌ» هو هلال بن عویمر السلمی واثق عن قومه رسول الله ص،و قال فی موادعته،:علی أن لا نخیف یا محمد من أتانا و لا تخیف من أتاک-فنهی الله أن یتعرض لأحد عهد إلیهم:

أقول:و قد روى هذه المعانى و ما يقرب منها فى الدر المنثور بطرق مختلفه عن ابن عباس و غيره.

و فى الدر المنثور،أخرج أبو داود فى ناسخه و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و النحاس و البيهقى فى سننه عن ابن عباس": فى قوله« إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ»، (الآيه)قال:نسختها براءه:

«فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» .

[سوره النساء (۴): الآيات ۹۲ الى ۹۴]

اشاره

وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاّٰ خَطَأً وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَهٍ مُؤْمِنَهٍ وَ دِيَهٌ مُسَلَّمَهٌ إِلىٰ أَهْلِهِ إِلاّٰ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كٰانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَهٍ مُؤْمِنَهٍ وَ إِنْ كٰانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثٰاقٌ فَدِيَهٌ مُسَلَّمَهٌ إِلىٰ أَهْلِهِ وَ تَحْرِيرُ رَقَبَهٍ مُؤْمِنَهٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيٰامُ شَهْرَيْنِ مُتَتٰابِعَيْنِ تَوْبَهً مِنَ اَللّٰهِ وَ كٰانَ اَللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً (۹۲) وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزٰاؤُهُ جَهَنَّمُ خٰالِداً فِيهٰا وَ غَضِبَ اَللّٰهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذٰاباً عَظِيماً (۹۳) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ فَتَبَيَّنُوا وَ لاٰ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقىٰ إِلَيْكُمُ اَلسَّلاٰمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ اَلْحَيٰاهِ اَلدُّنْيٰا فَعِنْدَ اَللّٰهِ مَغٰانِمُ كَثِيرَهٌ كَذٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اَللّٰهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۹۴)

(بيان)

قوله تعالى:« وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاّٰ خَطَأً» الخطأ بفتحتين من غير مد، و مع المد على فعال:خلاف الصواب،و المراد به هنا ما يقابل التعمد لمقابلته بما فى الآيه

التاليه «وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً» .

و المراد بالنفى فى قوله «وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً»، نفى الاقتضاء أى ليس و لا يوجد فى المؤمن بعد دخوله فى حريم الإيمان و حماه اقتضاء لقتل مؤمن هو مثله فى ذلك أى قتل كان إلا قتل الخطإ،و الاستثناء متصل فيعود معنى الكلام إلى أن المؤمن لا يريد قتل المؤمن بما هو مؤمن بأن يقصد قتله مع العلم بأنه مؤمن،و نظير هذه الجمله فى سوقها لنفى الاقتضاء قوله تعالى «وَ مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّٰهُ» :(الشورى:۵۱)و قوله «مٰا كٰانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهٰا» :(النمل:۶۰)و قوله« فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ» :(يونس:

۷۴)إلى غير ذلك.

و الآيه مع ذلك مسوقه كنايه عن التكليف بالنهى التشريعى بمعنى أن الله تعالى لم يبح قط،و لا يبيح أبدا أن يقتل مؤمن مؤمنا و حرم ذلك إلا فى قتل الخطإ فإنه لما لم يقصد هناك قتل المؤمن إما لكون القتل غير مقصود أصلا أو قصد و لكن بزعم أن المقتول كافر جائز القتل مثلا فلا حرمه مجعوله هناك.

و قد ذكر جمع من المفسرين:أن الاستثناء فى قوله «إِلاّٰ خَطَأً» منقطع،قالوا:

و إنما لم يحمل قوله «إِلاّٰ خَطَأً» على حقيقه الاستثناء لأن ذلك يؤدى إلى الأمر بقتل الخطإ أو إباحته.(انتهى)و قد عرفت أن ذلك لا يؤدى إلا إلى رفع الحرمه عن قتل الخطإ،أو عدم وضع الحرمه فيه،و لا محذور فيه قطعا.فالحق أن الاستثناء متصل.

قوله تعالى:« وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً- إلى قوله- يَصَّدَّقُوا» التحرير جعل المملوك حرا!و الرقبه هى العنق شاع استعمالها فى النفس المملوكه مجازا!و الديه ما يعطى من المال عوضا عن النفس أو العضو أو غيرهما،و المعنى:و من قتل مؤمنا بقتل الخطإ وجب عليه تحرير نفس مملوكه مؤمنه،و إعطاء ديه يسلمها إلى أهل المقتول إلا أن يتصدق أولياء القتيل الديه على معطيها و يعفوا عنها فلا تجب الديه.

قوله تعالى:« فَإِنْ كٰانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ»، الضمير يرجع إلى المؤمن المقتول، و القوم العدو هم الكفار المحاربون،و المعنى:إن كان المقتول خطأ مؤمنا و أهله كفار محاربون لا يرثون وجب التحرير و لا ديه إذ لا يرث الكافر المحارب من المؤمن شيئا.

قوله تعالى:« وَ إِنْ كٰانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثٰاقٌ»، الضمير فى« كٰانَ» يعود إلى

المؤمن المقتول أيضا على ما يفيده السياق،و الميثاق مطلق العهد أعم من الذمه و كل عهد، و المعنى:و إن كان المؤمن المقتول من قوم بينكم و بينهم عهد وجبت الديه و تحرير الرقبه، و قد قدم ذكر الديه تأكيدا فى مراعاه جانب الميثاق.

قوله تعالى:« فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ»، أى من لم يستطع التحرير-لأنه هو الأقرب بحسب اللفظ-وجب عليه صيام شهرين متتابعين.

قوله تعالى:« تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ»(إلخ)أى هذا الحكم و هو إيجاب الصيام توبه و عطف رحمه من الله لفاقد الرقبه،و ينطبق على التخفيف فالحكم تخفيف من الله فى حق غير المستطيع،و يمكن أن يكون قوله «تَوْبَةً» قيدا راجعا إلى جميع ما ذكر فى الآيه من الكفاره أعنى قوله« فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» (إلخ)و المعنى:أن جعل الكفاره للقاتل خطأ توبه و عنايه من الله للقاتل فيما لحقه من درن هذا الفعل قطعا.و ليتحفظ على نفسه فى عدم المحاباه فى المبادره إلى القتل نظير قوله تعالى «وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ» : (البقره:۱۷۹).

و كذا هو توبه من الله للمجتمع و عنايه لهم حيث يزيد به فى أحرارهم واحد بعد ما فقدوا واحدا،و يرمم ما ورد على أهل المقتول من الضرر المالى بالديه المسلمه.

و من هنا يظهر أن الإسلام يرى الحريه حياه و الاسترقاق نوعا من القتل،و يرى المتوسط من منافع وجود الفرد هو الديه الكامله.و سنوضح هذا المعنى فى ما سيأتى من المباحث.

و أما تشخيص معنى الخطإ و العمد و التحرير و الديه و أهل القتيل و الميثاق و غيره المذكورات فى الآيه فعلى السنه.من أراد الوقوف عليها فليراجع الفقه.

قوله تعالى:« وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ»، التعمد هو القصد إلى الفعل بعنوانه الذى له،و حيث إن الفعل الاختيارى لا يخلو من قصد العنوان و كان من الجائز أن يكون لفعل أكثر من عنوان واحد أمكن أن يكون فعل واحد عمديا من جهه خطائيا من أخرى فالرامى إلى شبح و هو يزعم أنه من الصيد و هو فى الواقع إنسان إذا قتله كان متعمدا إلى الصيد خاطئا فى قتل الإنسان،و كذا إذا ضرب إنسانا بالعصا قاصدا تأديبه فقتلته الضربه كان القتل قتل خطإ،و على هذا فمن يقتل مؤمنا متعمدا هو الذى يقصد بفعله قتل المؤمن عن علم بأنه قتل و أن المقتول مؤمن.

و قد أغلظ الله سبحانه و تعالى فى وعيد قاتل المؤمن متعمدا بالنار الخالده غير أنک عرفت فى الكلام على قوله تعالى «إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» :(النساء:۴۸)أن تلک الآيه،و كذا قوله تعالى «إِنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً» :(الزمر:۵۳)تصلحان لتقييد هذه الآيه فهذه الآيه توعد بالنار الخالده لكنها ليست بصريحه فى الحتم فيمكن العفو بتوبه أو شفاعه.

قوله تعالى:« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُوا» الضرب هو السير فى الأرض و المسافره،و تقييده بسبيل الله يدل على أن المراد به هو الخروج للجهاد، و التبين هو التمييز و المراد به التمييز بين المؤمن و الكافر بقرينه قوله «وَ لاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً» و المراد بإلقاء السلام إلقاء التحيه تحيه أهل الإيمان،و قرئ:« لمن ألقى إليكم السلم» بفتح اللام و هو الاستسلام.

و المراد بابتغاء عرض الحياه الدنيا طلب المال و الغنيمه،و قوله« فَعِنْدَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ» جمع مغنم و هو الغنيمه أى ما عند الله من المغانم أفضل من مغنم الدنيا الذى يريدونه لكثرتها و بقائها فهى التى يجب عليكم أن تؤثروها.

قوله تعالى:« كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا» (إلخ)أى على هذا الوصف.و هو ابتغاء عرض الحياه الدنيا-كنتم من قبل أن تؤمنوا فمن الله عليكم بالإيمان الصارف لكم عن ابتغاء عرض الحياه الدنيا إلى ما عند الله من المغانم الكثيره فإذا كان كذلک فيجب عليكم أن تبينوا،و فى تكرار الأمر بالتبين تأكيد فى الحكم.

و الآيه مع اشتمالها على العظه و نوع من التوبيخ لا تصرح بكون هذا القتل الذى ظاهرها وقوعه قتل مؤمن متعمدا،فالظاهر أنه كان قتل خطأ من بعض المؤمنين لبعض من ألقى السلم من المشركين لعدم وثوق القاتل بكونه مؤمنا حقيقه بزعم أنه إنما يظهر الإيمان خوفا على نفسه،و الآيه توبخه بأن الإسلام إنما يعتبر بالظاهر،و يحل أمر القلوب إلى اللطيف الخبير.

و على هذا فقوله «تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاهِ الدُّنْيَا» موضوع فى الكلام على اقتضاء الحال، أى حالكم فى قتل من يظهر لكم الإيمان من غير اعتناء بأمره و تبين فى شأنه حال من يريد المال و الغنيمه فيقتل المؤمن المتظاهر بالإيمان بأدنى ما يعتذر به من غير أن يكون من

موجه العذر،و هذا هو الحال الذی کان علیه المؤمنون قبل إیمانهم لا یبتغون إلا الدنیا فإذا أنعم الله علیهم بالإیمان،و من علیهم بالإسلام کان الواجب علیهم أن یتبینوا فیما یصنعون و لا ینقادوا لأخلاق الجاهلیه و ما بقی فیهم من إثارتها.

(بحث روائی)

فی الدر المنثور،": فی قوله تعالی« وَ مٰا کٰانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ یَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاّٰ خَطَأً» (الآیه)":أخرج ابن جریر عن عکرمه قال":کان الحارث بن یزید بن نبیشه،من بنی عامر بن لؤی یعذب، عیاش بن أبی ربیعه مع أبی جهل،ثم خرج مهاجرا إلی النبی ص فلقیه عیاش بالحره،فعلاه بالسیف و هو یحسب أنه کافر،ثم جاء إلی النبی ص فأخبره فنزلت،« وَ مٰا کٰانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ یَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاّٰ خَطَأً» (الآیه)،فقرأها علیه،ثم قال له:قم فحرر.

أقول:و روی هذا المعنی بغیره من الطرق،و فی بعضها أنه قتله بمکه یوم الفتح حین خرج عیاش و کان فی وثاق المشرکین إلی ذلک الیوم و هم یعذبونه و لقی حارثا و قد أسلم و عیاش لا یعلم بإسلامه فقتله عیاش إذ ذاک.و ما أثبتناه من روایه عکرمه أوفق بالاعتبار و أنسب لتأریخ نزول سوره النساء.

و روی الطبری فی تفسیره عن ابن زید": أن الذی نزلت فیه الآیه هو أبو الدرداء،کان فی سریه فعدل إلی شعب یرید حاجه له،فوجد رجلا من القوم فی غنم له،فحمل علیه بالسیف فقال لا إله إلا الله،فضربه ثم جاء بغنمه إلی القوم،ثم وجد فی نفسه شیئا فأتی النبی ص،فأخبره فنزلت الآیه

و روی فی الدر المنثور،أیضا عن الرویانی و ابن منده و أبی نعیم عن بکر بن حارثه الجهنی": أنه هو الذی نزلت فیه الآیه،لقصه نظیره قصه أبی الدرداء، و الروایات علی أی حال لا تزید علی التطبیق.

و فی التهذیب،بإسناده عن الحسین بن سعید عن رجاله عن أبی عبد الله(ع)قال:

قال رسول الله ص: کل العتق یجوز له المولود إلا فی کفاره القتل،فإن الله تعالی یقول:

« فَتَحْرِیرُ رَقَبَهٍ مُؤْمِنَهٍ»، -یعنی بذلک مقره قد بلغت الحنث الحدیث.

و فی تفسیر العیاشی،عن موسی بن جعفر(ع): سئل کیف تعرف المؤمنه؟قال:

علی الفطره.

و فی الفقیه،عن الصادق(ع): فی رجل مسلم فی أرض الشرک،فقتله المسلمون ثم علم به الإمام بعد،فقال(ع):یعتق مکانه رقبه مؤمنه و ذلک قول الله عز و جل:« فَإِنْ کانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَکُمْ». :

أقول:و روی مثله العیاشی. و فی قوله«یعتق مکانه»،إشعار بأن حقیقه العتق إضافه واحد إلی أحرار المسلمین حیث نقص واحد من عددهم کما تقدمت الإشاره إلیه.

و ربما استفید من ذلک أن مصلحه مطلق العتق فی الکفارات هو إضافه حر غیر عاص إلی عددهم حیث نقص واحد منهم بالمعصیه.فافهم ذلک.

و فی الکافی،عن الصادق(ع): إن کان علی رجل صیام شهرین متتابعین،فأفطر أو مرض فی الشهر الأول فإن علیه أن یعید الصیام،و إن صام الشهر الأول،و صام من الشهر الثانی شیئا،ثم عرض له ما له فیه عذر فعلیه أن یقضی.

أقول:أی یقضی ما بقی علیه کما قیل،و قد استفید من التتابع.

و فی الکافی،و تفسیر العیاشی،عنه(ع): أنه سئل عن المؤمن یقتل المؤمن متعمدا له توبه؟فقال:إن کان قتله لإیمانه فلا توبه له،و إن کان قتله لغضب أو لسبب شیء من أشیاء الدنیا،فإن توبته أن یقاد منه،و إن لم یکن علم به انطلق إلی أولیاء المقتول،فأقر عندهم بقتل صاحبهم،فإن عفوا عنه فلم یقتلوه أعطاهم الدیه،و أعتق نسمه و صام شهرین متتابعین،و أطعم ستین مسکینا توبه إلی الله عز و جل.

و فی التهذیب،بإسناده عن أبی السفاتج عن أبی عبد الله(ع): فی قول الله عز و جل «وَ مَنْ یَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ» قال:جزاؤه جهنم إن جازاه.:

أقول:و روی هذا المعنی فی الدر المنثور،عن الطبرانی و غیره عن أبی هریره عن النبی ص. و الروایات کما تری تشتمل علی ما قدمناه من نکات الآیات،و فی باب القتل و القود روایات کثیره من أرادها فلیراجع جوامع الحدیث.

و فی المجمع،": فی قوله تعالی «وَ مَنْ یَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً،فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ» (الآیه)قال،

نزلت فی مقیس بن ضبابه الکنانی،وجد أخاه هشاما قتیلا فی بنی النجار،فذکر ذلک لرسول الله ص،فأرسل معه قیس بن هلال الفهری،و قال له:قل لبنی النجار،:إن علمتم قاتل هشام فادفعوه إلی أخیه لیقتص منه،و إن لم تعلموا فادفعوا إلیه دیته،.فبلغ الفهری الرساله فأعطوه الدیه،فلما انصرف و معه الفهری وسوس إلیه الشیطان،فقال:ما صنعت شیئا أخذت دیه أخیک فتکون سبه علیک،اقتل الذی معک لتکون نفس بنفس و الدیه فضل،فرماه بصخره فقتله و رکب بعیرا،و رجع إلی مکه کافرا،و أنشد یقول، قتلت به فهرا و حملت عقله سراه بنی النجار أرباب فارع فأدرکت ثاری و اضطجعت موسدا و کنت إلی الأوثان أول راجع فقال النبی ص:لا أؤمنه فی حل و لا حرم":رواه الضحاک و جماعه من المفسرین (انتهی.

أقول:و روی ما یقرب منه عن ابن عباس و سعید بن جبیر و غیرهما.

و فی تفسیر القمی،: فی قوله تعالی(یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ» (الآیه) أنها نزلت لما رجع رسول الله ص من غزاه خیبر،و بعث أسامه بن زید فی خیل إلی بعض قری الیهود،فی ناحیه فدک لیدعوهم إلی الإسلام،کان رجل یقال له مرداس بن نهیک الفدکی فی بعض القری،فلما أحس بخیل رسول الله ص،جمع أهله و ماله فی ناحیه الجبل فأقبل یقول،أشهد أن لا إله إلا الله،و أن محمدا رسول الله،فمر به أسامه بن زید فطعنه فقتله،فلما رجع إلی رسول الله ص أخبره بذلک،فقال له رسول الله ص:

قتلت رجلا شهد أن لا إله إلا الله،و أنی رسول الله،؟فقال:یا رسول الله إنما قالها تعوذا من القتل،فقال رسول الله ص:فلا کشفت الغطاء عن قلبه،و لا ما قال بلسانه قبلت، و لا ما کان فی نفسه علمت.فحلف أسامه بعد ذلک،أن لا یقتل أحدا شهد أن لا إله إلا الله، و أن محمدا رسول الله،فتخلف عن أمیر المؤمنین(ع)فی حروبه فأنزل فی ذلک:

«وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقی إِلَیْکُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَیاهِ الدُّنْیا»

الآیه:

أقول:و روی هذا المعنی الطبری فی تفسیره عن السدی،و روی فی الدر المنثور، روایات کثیره فی سبب نزول الآیه، فی بعضها:أن القصه لمقداد بن الأسود و فی بعضها لأبی الدرداء،و فی بعضها لمحلم بن جثامه،و فی بعضها لم یذکر اسم للقاتل و لا المقتول

و أبهمت القصه إبهاما،هذا،و لكن حلف أسامه بن زيد و اعتذاره إلى على(ع)فى تخلفه عن حروبه معروف مذكور فى كتب التاريخ و الله أعلم

[سوره النساء (۴): الآيات ۹۵ الى ۱۰۰]

اشاره

لا يَسْتَوِى اَلْقاعِدُونَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى اَلضَّرَرِ وَ اَلْمُجاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اَللّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اَللّهُ اَلْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى اَلْقاعِدِينَ دَرَجَهً وَ كُلًّا وَعَدَ اَللّهُ اَلْحُسْنى وَ فَضَّلَ اَللّهُ اَلْمُجاهِدِينَ عَلَى اَلْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (۹۵) دَرَجاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَهً وَ رَحْمَهً وَ كانَ اَللّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۹۶) إِنَّ اَلَّذِينَ تَوَفّاهُمُ اَلْمَلائِكَهُ ظالِمِى أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى اَلْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اَللّهِ واسِعَهً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً (۹۷) إِلاَّ اَلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ اَلرِّجالِ وَ اَلنِّساءِ وَ اَلْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَهً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (۹۸) فَأُولئِكَ عَسَى اَللّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اَللّهُ عَفُوًّا غَفُوراً (۹۹) وَ مَنْ يُهاجِرْ فِى سَبِيلِ اَللّهِ يَجِدْ فِى اَلْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَهً وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اَللّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ اَلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اَللّهِ وَ كانَ اَللّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۰۰)

(بيان)

قوله تعالى:« لا يَسْتَوِى اَلْقاعِدُونَ -إلى قوله -وَ أَنْفُسِهِمْ» الضرر هو النقصان فى الوجود المانع من القيام بأمر الجهاد و القتال كالعمى و العرج و المرض،و المراد بالجهاد بالأموال

إنفاقها فی سبیل الله للظفر علی أعداء الدین،و بالأنفس القتال.

و قوله «وَ کُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنیٰ»، یدل علی أن المراد بهؤلاء القاعدین هم التارکون للخروج إلی القتال عند ما لا حاجه إلی خروجهم لخروج غیرهم علی حد الکفایه فالکلام مسوق لترغیب الناس و تحریضهم علی القیام بأمر الجهاد و التسابق فیه و المسارعه إلیه.

و من الدلیل علی ذلک أن الله سبحانه استثنی أولی الضرر ثم حکم بعدم الاستواء مع أن أولی الضرر کالقاعدین فی عدم مساواتهم المجاهدین فی سبیل الله و إن قلنا:إن الله سبحانه یتدارک ضررهم بنیاتهم الصالحه فلا شک أن الجهاد و الشهاده أو الغلبه علی عدو الله من الفضائل التی فضل بها المجاهدون فی سبیل الله علی غیرهم،و بالجمله ففی الکلام تحضیض للمؤمنین و تهییج لهم،و إیقاظ لروح إیمانهم لاستباق الخیر و الفضیله.

قوله تعالی:« فَضَّلَ اللّهُ الْمُجاهِدِینَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَی الْقاعِدِینَ دَرَجَهً» الجمله فی مقام التعلیل لقوله« لا یَسْتَوِی»، و لذا لم توصل بعطف و نحوه،و الدرجه هی المنزله، و الدرجات المنزله بعد المنزله،و قوله« وَ کُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنیٰ» أی وعد الله کلا من القاعدین و المجاهدین،أو کلا من القاعدین غیر أولی الضرر و القاعدین أولی الضرر و المجاهدین الحسنی،و الحسنی وصف محذوف الموصوف أی العاقبه الحسنی أو المثوبه الحسنی أو ما یشابه ذلک،و الجمله مسوقه لدفع الدخل فإن القاعد من المؤمنین ربما أمکنه أن یتوهم من قوله «لا یَسْتَوِی- إلی قوله- دَرَجَهً» إنه صفر الکف لا فائده تعود إلیه من إیمانه و سائر أعماله فدفع ذلک بقوله« وَ کُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنیٰ» .

قوله تعالی :«وَ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجاهِدِینَ عَلَی الْقاعِدِینَ أَجْراً عَظِیماً دَرَجاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَهً وَ رَحْمَهً» هذا التفضیل بمنزله البیان و الشرح لإجمال التفضیل المذکور أولا،و یفید مع ذلک فائده أخری،و هی الإشاره إلی أنه لا ینبغی للمؤمنین أن یقنعوا بالوعد الحسن الذی یتضمنه قوله «وَ کُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنیٰ» فیتکاسلوا فی الجهاد فی سبیل الله و الواجب من السعی فی إعلاء کلمه الحق و إزهاق الباطل فإن فضل المجاهدین علی القاعدین بما لا یستهان به من درجات المغفره و الرحمه.

و أمر الآیه فی سیاقها عجیب،أما أولا:فلأنها قیدت المجاهدین(أولا)بقوله «فِی سَبِیلِ اللّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ» و(ثانیا)بقوله «بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ» و(ثالثا)أوردته من

غير تقييد.و أما ثانيا:فلأنها ذكرت فى التفضيل(أولا)أنها درجه،و(ثانيا)أنها درجات منه.

أما الأول فلأن الكلام فى الآيه مسوق لبيان فضل الجهاد على القعود،و الفضل إنما هو للجهاد إذا كان فى سبيل الله لا فى سبيل هوى النفس،و بالسماحه و الجود بأعز الأشياء عند الإنسان و هو المال،و بما هو أعز منه،و هو النفس،و لذلك قيل أولا:« وَ الْمُجاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اللّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ» ليتبين بذلك الأمر كل التبين،و يرتفع به اللبس،ثم لما قيل :«فَضَّلَ اللّهُ الْمُجاهِدِینَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِینَ دَرَجَهً»، لم تكن حاجه إلى ذكر القيود من هذه الجهه لأن اللبس قد ارتفع بما تقدمه من البيان غير أن الجمله لما قارنت قوله «وَ کُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنى» مست حاجه الكلام إلى بيان سبب الفضل،و هو إنفاق المال و بذل النفس على حبهما فلذا اكتفى بذكرهما قيدا للمجاهدين فقيل:« اَلْمُجاهِدِینَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ» و أما قوله ثالثا« وَ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجاهِدِینَ عَلَى الْقاعِدِینَ أَجْراً عَظِیماً» فلم يبق فيه حاجه إلى ذكر القيود أصلا لا جميعها و لا بعضها و لذلك تركت كلا.

و أما الثانى فقوله« فَضَّلَ اللّهُ الْمُجاهِدِینَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِینَ دَرَجَهً» «دَرَجَهً» منصوب على التمييز،و هو يدل على أن التفضيل من حيث الدرجه و المنزله من غير أن يعترض أن هذه الدرجه الموجبه للفضيله واحده أو أكثر، و قوله «وَ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجاهِدِینَ عَلَى الْقاعِدِینَ أَجْراً عَظِیماً دَرَجاتٍ مِنْهُ» كان لفظه «فَضَّلَ» فيه مضمنه معنى الإعطاء أو ما يشابهه، و قوله« دَرَجاتٍ مِنْهُ» بدل أو عطف بيان لقوله «أَجْراً عَظِیماً» و المعنى:و أعطى الله المجاهدين أجرا عظيما مفضلا إياهم على القاعدين معطيا أو مثيبا لهم أجرا عظيما و هو الدرجات من الله،فالكلام يبين بأوله أن فضل المجاهدين على القاعدين بالمنزله من الله مع السكوت عن بيان أن هذه المنزله واحده أو كثيره،و يبين بآخره أن هذه المنزله ليست منزله واحده بل منازل و درجات كثيره،و هى الأجر العظيم الذى يثاب به المجاهدون.

و لعل ما ذكرنا يدفع به ما استشكلوه من إيهام التناقض فى قوله أولا «دَرَجَهً» و ثانيا «دَرَجاتٍ مِنْهُ»، و قد ذكر المفسرون للتخلص من الإشكال وجوها لا يخلو جلها أو كلها من تكلف.

منها:أن المراد بالتفضيل فی صدر الآیه تفضیل المجاهدین علی القاعدین أولی الضرر بدرجه و فی ذیل الآیه تفضیل المجاهدین علی القاعدین غیر أولی الضرر بدرجات.

و منها:أن المراد بالدرجه فی صدر الآیه المنزله الدنیویه کالغنیمه و حسن الذکر و نحوهما و بالدرجات فی آخر الآیه المنازل الأخرویه و هی أکثر بالنسبه إلی الدنیا،قال تعالی.

«وَ لَلْآخِرَهُ أَکْبَرُ دَرَجاتٍ» :(إسراء-۲۱).

و منها:أن المراد بالدرجه فی صدر الآیه المنزله عند الله،و هی أمر معنوی، و بالدرجات فی ذیل الآیه منازل الجنه و درجاتها الرفیعه و هی حسیه،و أنت خبیر بأن هذه الأقوال لا دلیل علیها من جهه اللفظ.

و الضمیر فی قوله «مِنْهُ» لعله راجع إلی الله سبحانه،و یؤیده«قوله وَ مَغْفِرَهً وَ رَحْمَهً» بناء علی کونه بیانا للدرجات،و المغفره و الرحمه من الله،و یمکن رجوع الضمیر إلی الأجر المذکور قبلا.

و قوله «وَ مَغْفِرَهً وَ رَحْمَهً» ظاهره کونه بیانا للدرجات فإن الدرجات و هی المنازل من الله سبحانه أیا ما کانت فهی مصداق المغفره و الرحمه،و قد علمت فی بعض المباحث السابقه أن الرحمه-و هی الإفاضه الإلهیه للنعمه-تتوقف علی إزاله الحاجب و رفع المانع من التلبس بها،و هی المغفره،و لازمه أن کل مرتبه من مراتب النعم،و کل درجه و منزله رفیعه مغفره بالنسبه إلی المرتبه التی بعدها،و الدرجه التی فوقها،فصح بذلک أن الدرجات الأخرویه کائنه ما کانت مغفره و رحمه من الله سبحانه،و غالب ما تذکر الرحمه و ما یشابهها فی القرآن تذکر معها المغفره کقوله «مَغْفِرَهٌ وَ أَجْرٌ عَظِیمٌ» (المائده:۹)و قوله «وَ مَغْفِرَهٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ» :(الأنفال:۴)،و قوله «مَغْفِرَهٌ وَ أَجْرٌ کَبِیرٌ» :(هود:۱۱)،و قوله «وَ مَغْفِرَهٌ مِنَ اللّهِ وَ رِضْوانٌ» :(الحدید:۲۰)،و قوله «وَ اغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا» :(البقره:۲۸۶) إلی غیر ذلک من الآیات.

ثم ختم الآیه بقوله: «وَ کانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِیماً» و مناسبه الاسمین مع مضمون الآیه ظاهره لا سیما بعد قوله فی ذیلها« وَ مَغْفِرَهً وَ رَحْمَهً» .

قوله تعالی :«إِنَّ الَّذِینَ تَوَفّاهُمُ الْمَلائِکَهُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ» لفظ «تَوَفّاهُمُ» صیغه ماض أو صیغه مستقبل-و الأصل تتوفاهم حذفت إحدی التاءین من اللفظ تخفیفا-نظیر قوله

تعالى «الَّذِينَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَهُ ظالِمِى أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ» :(النحل:۲۸).

و المراد بالظلم كما تؤيده الآيه النظيره هو ظلمهم لأنفسهم بالإعراض عن دين الله و ترک إقامه شعائره من جهه الوقوع فى بلاد الشرک و التوسط بين الكافرين حيث لا وسيله يتوسل بها إلى تعلم معارف الدين،و القيام بما تندب إليه من وظائف العبوديه،و هذا هو الذى يدل عليه السياق فى قوله «قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ» إلى آخر الآيات الثلاث.

و قد فسر الله سبحانه الظالمين(إذا أطلق)فى قوله «لَعَنَهُ اللّهِ عَلَى الظّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً» : (الأعراف:۴۵)،و محصل الآيتين تفسير الظلم بالإعراض عن دين الله و طلبه عوجا و محرفا،و ينطبق على ما يظهر من الآيه التى نحن فيها.

قوله تعالى:« قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ» أى فيما ذا كنتم من الدين،و كلمه«م»هى ما الاستفهاميه حذفت عنها الألف تخفيفا.

و فى الآيه دلاله فى الجمله على ما تسميه الأخبار بسؤال القبر،و هو سؤال الملائكه عن دين الميت بعد حلول الموت كما يدل عليه أيضا قوله تعالى :«الَّذِينَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَهُ ظالِمِى أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً: XالآياتX(النحل: ۳۰).

قوله تعالى :«قالُوا كُنّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ واسِعَهً فَتُهاجِرُوا فِيها» كان سؤال الملائكه (فِيمَ كُنْتُمْ) سؤالا عن الحال الذى كانوا يعيشون فيه من الدين،و لم يكن هؤلاء المسئولون على حال يعتد به من جهه الدين فأجابوا بوضع السبب موضع المسبب و هو أنهم كانوا يعيشون فى أرض لا يتمكنون فيها من التلبس بالدين لكون أهل الأرض مشركين أقوياء فاستضعفوهم فحالوا بينهم و بين الأخذ بشرائع الدين و العمل بها.

و لما كان هذا الذى ذكروه من الاستضعاف-لو كانوا صادقين فيه-إنما حل بهم من حيث إخلادهم إلى أرض الشرك،و كان استضعافهم من جهه تسلط المشركين على الأرض التى ذكروها،و لم تكن لهم سلطه على غيرها من الأرض فلم يكونوا مستضعفين على أى حال بل فى حال لهم أن يغيروه بالخروج و المهاجره كذبتهم الملائكه فى دعوى الاستضعاف بأن الأرض أرض الله كانت أوسع مما وقعوا فيه و لزموه،و كان يمكنهم أن يخرجوا من حومه الاستضعاف بالمهاجره،فهم لم يكونوا بمستضعفين حقيقه لوجود قدرتهم على الخروج من قيد الاستضعاف،و إنما اختاروا هذا الحال بسوء اختيارهم.

فقوله «أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها» الاستفهام فيه للتوبيخ كما فى قوله «فِيمَ كُنْتُمْ» و يمكن أن يكون أول الاستفهامين للتقرير كما هو ظاهر ما مر نقله من آيات سوره النحل لكون السؤال فيها عن الظالمين و المتقين جميعا،و ثانى الاستفهامين للتوبيخ على أى حال.

و قد أضافت الملائكه الأرض إلى الله،و لا يخلو من إيماء إلى أن الله سبحانه هيأ فى أرضه سعه أولا ثم دعاهم إلى الإيمان و العمل كما يشعر به أيضا قوله بعد آيتين« وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً» (الآيه).

و وصف الأرض بالسعه هو الموجب للتعبير عن الهجره بقوله «فَتُهاجِرُوا فِيها» أى تهاجروا من بعضها إلى بعضها،و لو لا فرض السعه لكان يقال:فتهاجروا منها.

ثم حكم الله فى حقهم بعد إيراد المساءله بقوله« فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً» .

قوله تعالى:« إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ»، الاستثناء منقطع، و فى إطلاق المستضعفين على هؤلاء بالتفسير الذى فسره به دلاله على أن الظالمين المذكورين لم يكونوا مستضعفين لتمكنهم من رفع قيد الاستضعاف عن أنفسهم و إنما الاستضعاف وصف هؤلاء المذكورين فى هذه الآيه، و فى تفصيل بيانهم بالرجال و النساء و الولدان إيضاح للحكم الإلهى و رفع للبس.و قوله« لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً» الحيله كأنها بناء نوع من الحيلوله ثم استعملت استعمال الآله فهى ما يتوسل به إلى الحيلوله بين شىء و شىء أو حال للحصول على شىء أو حال آخر،و غلب استعماله فى ما يكون على خفيه و فى الأمور المذمومه،و فى مادتها على أى حال معنى التغير على ما ذكره الراغب فى مفرداته.

و المعنى:لا يستطيعون و لا يتمكنون أن يحتالوا لصرف ما يتوجه إليهم من استضعاف

المشركين عن أنفسهم،و لا يهتدون سبيلا يتخلصون بها عنهم فالمراد من السبيل على ما يفيده السياق أعم من السبيل الحسى كطريق المدينه لمن يريد المهاجره إليها من مسلمى مكه،و السبيل المعنوى و هو كل ما يخلصهم من أيدى المشركين،و استضعافهم لهم بالعذاب و الفتنه.

(كلام فى المستضعف)

يتبين بالآيه أن الجهل بمعارف الدين إذا كان عن قصور و ضعف ليس فيه صنع للإنسان الجاهل كان عذرا عند الله سبحانه.

توضيحه:أن الله سبحانه يعد الجهل بالدين و كل ممنوعيه عن إقامه شعائر الدين ظلما لا يناله العفو الإلهى،ثم يستثنى من ذلك المستضعفين و يقبل منهم معذرتهم بالاستضعاف ثم يعرفهم بما يعمهم و غيرهم من الوصف،و هو عدم تمكنهم مما يدفعون به المحذور عن أنفسهم،و هذا المعنى كما يتحقق فيمن أحيط به فى أرض لا سبيل فيها إلى تلقى معارف الدين لعدم وجود عالم بها خبير بتفاصيلها،أو لا سبيل إلى العمل بمقتضى تلك المعارف للتشديد فيه بما لا يطاق من العذاب مع عدم الاستطاعه من الخروج و الهجره إلى دار الإسلام و الالتحاق بالمسلمين لضعف فى الفكر أو لمرض أو نقص فى البدن أو لفقر مالى و نحو ذلك كذلك يتحقق فيمن لم ينتقل ذهنه إلى حق ثابت فى المعارف الدينيه و لم يهتد فكره إليه مع كونه ممن لا يعاند الحق و لا يستكبر عنه أصلا بل لو ظهر عنده حق اتبعه لكن خفى عنه الحق لشىء من العوامل المختلفه الموجبه لذلك.

فهذا مستضعف لا يستطيع حيله و لا يهتدى سبيلا لا لأنه أعيت به المذاهب بكونه أحيط به من جهه أعداء الحق و الدين بالسيف و السوط،بل إنما استضعفته عوامل أخر سلطت عليه الغفله،و لا قدره مع الغفله،و لا سبيل مع هذا الجهل.

هذا ما يقتضيه إطلاق البيان فى الآيه الذى هو فى معنى عموم العله،و هو الذى يدل عليه غيرها من الآيات كقوله تعالى «لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ» :(البقره:۲۸۶)فالأمر المغفول عنه ليس فى وسع الإنسان كما أن الممنوع من الأمر بما يمتنع معه ليس فى وسع الإنسان.

و هذه الآيه أعنى آيه البقره كما ترفع التكليف بارتفاع الوسع كذلك تعطى ضابطا كليا فى تشخيص مورد العذر و تمييزه من غيره،و هو أن لا يستند الفعل إلى اكتساب الإنسان،و لا يكون له فى امتناع الأمر الذى امتنع عليه صنع،فالجاهل بالدين جمله أو، بشيء من معارفه الحقه إذا استند جهله إلى ما قصر فيه و أساء الاختيار استند إليه الترك و كان معصيه،و إذا كان جهله غير مستند إلى تقصيره فيه أو فى شيء من مقدماته بل إلى عوامل خارجه عن اختياره أوجبت له الجهل أو الغفله أو ترك العمل لم يستند الترك إلى اختياره،و لم يعد فاعلا- للمعصيه،متعمدا فى المخالفه،مستكبرا عن الحق جاحدا له، فله ما كسب و عليه ما اكتسب،و إذا لم يكسب فلا له و لا عليه.

و من هنا يظهر أن المستضعف صفر الكف لا شيء له و لا عليه لعدم كسبه أمرا بل أمره إلى ربه كما هو ظاهر قوله تعالى بعد آيه المستضعفين« فَأُولئِكَ عَسَى اللّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُوراً» و قوله تعالى «وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ إِمّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» :(براءه:۱۰۶)و رحمته سبقت غضبه.

[بيان]

قوله تعالى:« فَأُولئِكَ عَسَى اللّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ»، هؤلاء و إن لم يكسبوا سيئه لمعذوريتهم فى جهلهم لكنا بينا سابقا أن أمر الإنسان يدور بين السعاده و الشقاوه و كفى فى شقائه أن لا يجوز لنفسه سعاده،فالإنسان لا غنى له فى نفسه عن العفو الإلهى الذى يعفى به أثر الشقاء سواء كان صالحا أو طالحا أو لم يكن،و لذلك ذكر الله سبحانه رجاء عفوهم.

و إنما اختير ذكر رجاء عفوهم ثم عقب ذلك بقوله« وَ كانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُوراً» اللائح منه شمول العفو لهم لكونهم مذكورين فى صوره الاستثناء من الظالمين الذين أوعدوا بأن مأواهم جهنم و ساءت مصيرا.

قوله تعالى :«وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً» قال الراغب: الرغام (بفتح الراء)التراب الرقيق،و رغم أنف فلان رغما وقع فى الرغام، و أرغمه غيره،و يعبر بذلك عن السخط كقول الشاعر:

إذا رغمت تلك الأنوف لم أرضها

و لم أطلب العتبى و لكن أزيدها

فمقابلته بالإرضاء مما ينبه على دلالته على الإسخاط،و على هذا قيل:أرغم الله

أنفه،و أرغمه أسخطه،و راغمه ساخطه،و تجاهدا على أن يرغم أحدهما الآخر ثم يستعار المراغمه للمنازعه قال الله تعالى :«يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرٰاغَماً كَثِيراً» أى مذهبا يذهب إليه إذا رأى منكرا يلزمه أن يغضب منه كقولك:غضبت إلى فلان من كذا و رغمت إليه(انتهى).

فالمعنى :وَ مَنْ يُهٰاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ، أى طلبا لمرضاته فى التلبس بالدين علما و عملا يجد فى الأرض مواضع كثيره كلما منعه مانع فى بعضها من إقامه دين الله استراح إلى بعض آخر بالهجره إليه لإرغام المانع و إسخاطه أو لمنازعته المانع و مساخطته،و يجد سعه فى الأرض.

و قد قال تعالى فى سابق الآيات:« أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّٰهِ وٰاسِعَهً»، و لازم التفريع عليه أن يقال:و من يهاجر يجد فى الأرض سعه إلا أنه لما زيد قوله« مُرٰاغَماً كَثِيراً» و هو من لوازم سعه الأرض لمن يريد سلوك سبيل الله قيدت المهاجره أيضا بكونها فى سبيل الله لينطبق على الغرض من الكلام،و هو موعظه المؤمنين القاطنين فى دار الشرك و تهييجهم و تشجيعهم على المهاجره و تطييب نفوسهم.

قوله تعالى:« وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهٰاجِراً إِلَى اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ» (إلخ)المهاجره إلى الله و رسوله كنايه عن المهاجره إلى أرض الإسلام التى يتمكن فيها من العلم بكتاب الله و سنه رسوله،و العمل به.

و إدراك الموت استعاره بالكنايه عن وقوعه أو مفاجاته فإن الإدراك هو سعى اللاحق بالسير إلى السابق ثم وصوله إليه،و كذا وقوع الأجر على الله استعاره بالكنايه عن لزوم الأجر و الثواب له تعالى و أخذه ذلك فى عهدته،فهناك أجر جميل و ثواب جزيل سيوافى به العبد لا محاله،و الله سبحانه يوافيه بألوهيته التى لا يعزها شىء و لا يعجزها شىء و لا يمتنع عليها ما أرادته،و لا تخلف الميعاد.و ختم الكلام بقوله «وَ كٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً» تأكيدا للوعد الجميل بلزوم توفيه الأجر و الثواب.

و قد قسم الله سبحانه فى هذه الآيات المؤمنين أعنى المدعين للإيمان من جهه الإقامه فى دار الإيمان و دار الشرك إلى أقسام،و بين جزاء كل طائفه من هذه الطوائف بما يلائم حالها ليكون عظه و تنبيها ثم ترغيبا فى الهجره إلى دار الإيمان،و الاجتماع هناك،و تقويه

المجتمع الإسلامی،و الاتحاد و التعاون علی البر و التقوی و إعلاء کلمه الحق و رفع رایه التوحید و أعلام الدین.

فطائفه أقامت فی دار الإسلام من مجاهدین فی سبیل الله بأموالهم و أنفسهم،و قاعدین غیر أولی الضرر،و قاعدین أولی الضرر،و کلا وعد الله الحسنی و فضل الله المجاهدین علی القاعدین درجه.

و طائفه أقامت فی دار الشرک،و هی ظالمه لا تهاجر فی سبیل الله و مأواهم جهنم و ساءت مصیرا،و طائفه منهم مستضعفه غیر ظالمه لا یستطیعون حیله و لا یهتدون سبیلا فأولئک عسی الله أن یعفو عنهم،و طائفه منهم غیر مستضعفه خرجت من بیتها مهاجره إلی الله و رسوله ثم أدرکها الموت فقد وقع أجرها علی الله.

و الآیات تجری بمضامینها علی المسلمین فی جمیع الأوقات و الأزمنه و إن کان سبب نزولها حال المسلمین فی جزیره العرب فی عهد النبی ص بین هجرته إلی المدینه و فتح مکه و کانت الأرض منقسمه یومئذ إلی أرض الإسلام و هی المدینه و ما والاها فیها جماعه المسلمین أحرار فی دینهم و جماعه من المشرکین و غیرهم لا یزاحمون فی أمرهم لعهد و نحوه،و إلی أرض الشرک و هی مکه و ما والاها هی تحت سلطه المشرکین مقیمین علی وثنیتهم، و یزاحمون المسلمین فی أمر دینهم یسومونهم سوء العذاب،و یفتنونهم لردهم عن دینهم.

لکن الآیات تحکم علی المسلمین بملاکها دائما فعلی المسلم أن یقیم حیث یتمکن فیه من تعلم معالم الدین،و یستطیع إقامه شعائره و العمل بأحکامه،و أن یهجر الأرض التی لا علم فیها بمعارف الدین،و لا سبیل إلی العمل بأحکامه من غیر فرق بین أن تسمی الیوم دار الإسلام أو دار شرک فإن الأسماء تغیرت الیوم و هجرت مسمیاتها و صار الدین جنسیه، و الإسلام مجرد تسم من غیر أن یراعی فی تسمیته الاعتقاد بمعارفه أو العمل بأحکامه.

و القرآن الکریم إنما یرتب الأثر علی حقیقه الإسلام دون اسمه و یکلف الناس من العمل ما فیه شیء من روحه لا ما هو صورته،قال تعالی:« لَیْسَ بِأَمانِیِّکُمْ وَ لا أَمانِیِّ أَهْلِ الْکِتابِ مَنْ یَعْمَلْ سُوءاً یُجْزَ بِهِ وَ لا یَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً وَ مَنْ یَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِکَ یَدْخُلُونَ الْجَنَّهَ وَ لا یُظْلَمُونَ نَقِیراً» :(النساء: ۱۲۴)،و قال تعالی:« إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ الَّذِینَ هادُوا وَ النَّصاری وَ الصَّابِئِینَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» :(البقره:۶۲).

(بحث روائی)

فی الدر المنثور،أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه و البیهقی فی سننه عن ابن عباس قال": کان قوم من أهل مکه أسلموا،و کانوا یستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشرکون معهم یوم بدر،فأصیب بعضهم،و قتل بعض،فقال المسلمون:قد کان أصحابنا هؤلاء مسلمین،و أکرهوا فاستغفروا لهم فنزلت هذه الآیه،:« إِنَّ الَّذِینَ تَوَفّاهُمُ الْمَلائِکَهُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ» -إلی آخر الآیه،.

قال:فکتب إلی من بقی بمکه من المسلمین بهذه الآیه،و أنه لا عذر لهم فخرجوا فلحقهم المشرکون،فأعطوهم الفتنه فأنزلت فیهم هذه الآیه،« وَ مِنَ النّاسِ مَنْ یَقُولُ آمَنّا بِاللّهِ،فَإِذا أُوذِیَ فِی اللّهِ جَعَلَ فِتْنَهَ النّاسِ کَعَذابِ اللّهِ،» -إلی آخر الآیه،فکتب المسلمون إلیهم بذلک فحزنوا،و أیسوا من کل خیر فنزلت فیهم،« ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا،ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِیمٌ، -فکتبوا إلیهم بذلک أن الله قد جعل لکم مخرجا،فاخرجوا فخرجوا فأدرکهم المشرکون-فقاتلوهم حتی نجا من نجا و قتل من قتل.

و فیه،أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن الضحاک": فی الآیه قال هم أناس من المنافقین، تخلفوا عن رسول الله ص بمکه،فلم یخرجوا معه إلی المدینه،و خرجوا مع مشرکی قریش إلی بدر،فأصیبوا یوم بدر فیمن أصیب،فأنزل الله فیهم هذه الآیه.

و فیه،أخرج ابن جریر عن ابن زید": فی الآیه قال:لما بعث النبی ص و ظهر،و نبع الإیمان نبع النفاق معه،فأتی إلی رسول الله ص رجال،فقالوا:یا رسول الله لو لا أنا نخاف هؤلاء القوم یعذبونا،و یفعلون و یفعلون لأسلمنا،و لکن نشهد أن لا إله إلا الله، و أنک رسول الله فکانوا یقولون ذلک له،فلما کان یوم بدر قام المشرکون،فقالوا لا یتخلف عنا أحد إلا هدمنا داره و استبحنا ماله،فخرج أولئک الذین کانوا یقولون ذلک القول للنبی ص،معهم فقتلت طائفه منهم،و أسرت طائفه.

قال:فأما الذين قتلوا فهم الذين قال الله:، إِنَّ الَّذِينَ تَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَهُ ظالِمِى أَنْفُسِهِمْ»، - (الآيه)كلها، أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ واسِعَهً فَتُهاجِرُوا فِيها، -و تتركوا،هؤلاء الذين يستضعفونكم، فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً»، -.

ثم عذر الله أهل الصدق فقال:« إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ،لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَهً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً، -يتوجهون له،لو خرجوا لهلكوا، فَأُولئِكَ عَسَى اللّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ» -إقامتهم بين ظهرى المشركين،.

و قال الذين أسروا:يا رسول الله،إنك تعلم أنا كنا نأتيك فنشهد أن لا إله إلا الله، و أنك رسول الله،و أن هؤلاء القوم خرجنا معهم خوفا،فقال الله:« يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِى أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى،إِنْ يَعْلَمِ اللّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً،مِمّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ - صنيعكم الذى صنعتم،خروجكم مع المشركين على النبى ص، وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللّهَ مِنْ قَبْلُ، -خرجوا مع المشركين-فأمكن منهم.

و فيه،أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و ابن جرير عن عكرمه" :فى قوله «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَهُ ظالِمِى أَنْفُسِهِمْ،قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ -إلى قوله- وَ ساءَتْ مَصِيراً »،قال:

نزلت فى قيس بن الفاكه بن المغيره،و الحارث بن زمعه بن الأسود،و قيس بن الوليد بن المغيره،و أبى العاص بن منبه بن الحجاج،و على بن أميه بن خلف،.

قال:لما خرج المشركون من قريش و أتباعهم،لمنع أبى سفيان بن حرب و عير قريش،من رسول الله ص و أصحابه،و أن يطلبوا ما نيل منهم يوم نخله،خرجوا معهم بشبان كارهين كانوا قد أسلموا،و اجتمعوا ببدر على غير موعد فقتلوا ببدر كفارا، و رجعوا عن الإسلام و هم هؤلاء الذين سميناهم.

أقول:و الروايات فى ما يقرب من هذه المعانى من طرق القوم كثيره،و هى و إن كان ظاهرها أشبه بالتطبيق لكنه تطبيق حسن.

و من أهم ما يستفاد منها،و كذا من الآيات بعد التدبر وجود منافقين بمكه قبل الهجره و بعدها.فإن لذلك تأثيرا فى البحث عن حال المنافقين على ما سيأتى فى سوره البراءه إن شاء الله العزيز.

و فيه،أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال": كان بمكه

رجل يقال له ضمره من بنى بكر،و كان مريضا،فقال لأهله أخرجونى من مكه فإنى أجد الحر،فقالوا:أين نخرجك؟فأشار بيده نحو طريق المدينه،فخرجوا به فمات على ميلين من مكه فنزلت هذه الآيه،« وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ» .

أقول:و الروايات فى هذا المعنى كثيره إلا أن فيها اختلافا شديدا فى تسميه هذا الذى أدركه الموت،ففى بعضها ضمره بن جندب،و فى بعضها أكثم بن صيفى،و فى بعضها أبو ضمره بن العيص الزرقى،و فى بعضها ضمره بن العيص من بنى ليث،و فى بعضها جندع بن ضمره الجندعى،و فى بعضها أنها نزلت فى خالد بن حزام خرج مهاجرا إلى حبشه فنهشته حيه فى الطريق فمات.

و فى بعض الروايات عن ابن عباس:أنه أكثم بن صيفى.قال الراوى:قلت فأين الليثى؟قال:هذا قبل الليثى بزمان،و هى خاصه عامه.

أقول:يعنى أنها نزلت فى أكثم خاصه ثم جرت فى غيره عامه،و المتحصل من الروايات أن ثلاثه من المسلمين أدركهم الموت فى سبيل الهجره:أكثم بن صيفى،و ليثى، و خالد بن حزام،و أما نزول الآيه فى أى منهم فكأنه تطبيق من الراوى.

و فى الكافى،عن زراره قال: سألت أبا جعفر(ع)عن المستضعف،فقال:هو الذى لا يستطيع حيله إلى الكفر فيكفر،و لا يهتدى سبيلا إلى الإيمان،لا يستطيع أن يؤمن،و لا يستطيع أن يكفر فمنهم الصبيان،و من الرجال و النساء،على مثل عقول الصبيان مرفوع عنهم القلم:

أقول و الحديث مستفيض عن زراره،رواه الكلينى،و الصدوق،و العياشى،بعده طرق عنه.

و فيه،بإسناده عن إسماعيل الجعفى قال: سألت أبا جعفر(ع)عن الدين الذى لا يسع العباد جهله،.قال:الدين واسع،و لكن الخوارج ضيقوا على أنفسهم من جهلهم، قلت:جعلت فداك فأحدثك بدينى الذى أنا عليه؟فقال:نعم،.فقلت:أشهد أن لا إله إلا الله،و أن محمدا عبده و رسوله،و الإقرار بما جاء به من عند الله تعالى،و أتولاكم، و أبرأ من أعدائكم و من ركب رقابكم،و تأمر عليكم،و ظلمكم حقكم.فقال:و الله ما

جهلت شيئا،هو و الله الذى نحن عليه،.فقلت:فهل يسلم أحد لا يعرف هذا الأمر؟ فقال:إلا المستضعفين.قلت:من هم؟قال نساؤكم و أولادكم،.

ثم قال:أ رأيت أم أيمن؟،فإنى أشهد أنها من أهل الجنه،و ما كانت تعرف ما أنتم عليه.

و فى تفسير العياشى،عن سليمان بن خالد عن أبى جعفر(ع)قال: سألته عن المستضعفين.فقال:البلهاء فى خدرها،و الخادم تقول لها:،صلى فتصلى لا تدرى إلا ما قلت لها،و الجليب الذى لا يدرى إلا ما قلت له،و الكبير الفانى،و الصبى،و الصغير، هؤلاء المستضعفون،فأما رجل شديد العنق جدل خصم يتولى الشراء و البيع،لا تستطيع أن تعينه فى شىء تقول،:هذا المستضعف؟لا، و لا كرامه

و فى المعانى،عن سليمان:عن الصادق(ع) فى الآيه قال،:يا سليمان،فى هؤلاء المستضعفين من هو أثخن رقبه منك،المستضعفون قوم يصومون،و يصلون،تعف بطونهم و فروجهم،و لا يرون أن الحق فى غيرنا آخذين بأغصان الشجره،فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم،إذا كانوا آخذين بالأغصان،و أن يعرفوا أولئك فإن عفا الله عنهم فبرحمته، و إن عذبهم فبضلالتهم.

أقول:قوله«لا يرون أن الحق فى غيرنا»،يريد صوره النصب أو التقصير المؤدى إليه كما يدل عليه الروايات الآتيه.

و فيه،عن الصادق(ع): أنه ذكر أن المستضعفين ضروب يخالف بعضهم بعضا، و من لم يكن من أهل القبله ناصبا فهو مستضعف

و فيه،و فى تفسير العياشى،:عن الصادق(ع) فى الآيه قال،:لا يستطيعون حيله إلى النصب فينصبون،و لا يهتدون سبيلا إلى الحق فيدخلون فيه،هؤلاء يدخلون الجنه بأعمال حسنه،و باجتناب المحارم التى نهى الله عنها،و لا ينالون منازل الأبرار

و فى تفسير القمى،عن ضريس الكناسى عن أبى جعفر(ع)قال: قلت له:

جعلت فداك ما حال الموحدين،المقرين بنبوه محمد ص من المذنبين،الذين يموتون و ليس لهم إمام، و لا يعرفون ولايتكم،؟فقال:أما هؤلاء فإنهم فى حفرهم لا يخرجون منها،.

فمن كان له عمل صالح،و لم يظهر منه عداوه،فإنه يخد له خد إلى الجنه التى خلقها الله بالمغرب،فيدخل عليه الروح فى حفرته إلى يوم القيامه،حتى يلقى الله فيحاسبه

بحسناته و سيئاته،فإما إلى الجنه،و إما إلى النار،فهؤلاء الموقوفون لأمر الله،.قال و كذلك يفعل بالمستضعفين و البله،و الأطفال و أولاد المسلمين الذين لم يبلغوا الحلم.

فأما النصاب من أهل القبله،فإنه يخد لهم خد إلى النار التى خلقها الله بالمشرق،فيدخل عليه اللهب و الشرر و الدخان،و فوره الحميم إلى يوم القيامه ثم مصيرهم إلى الجحيم

و فى الخصال،عن الصادق عن أبيه عن جده عن على(ع)قال: إن للجنه ثمانيه أبواب، باب يدخل منه النبيون و الصديقون،و باب يدخل منه الشهداء و الصالحون،و خمسه أبواب يدخل منها شيعتنا و محبونا،إلى أن قال و باب يدخل منه سائر المسلمين-ممن يشهد أن لا إله إلا الله،و لم يكن فى قلبه مثقال ذره من بغضنا أهل البيت(ع).

و فى المعانى،و تفسير العياشى،عن حمران قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ»، ،قال:هم أهل الولايه.قلت:أى ولايه،؟قال:أما إنها ليست بولايه فى الدين، و لكنها الولايه فى المناكحه و الموارثه و المخالطه،و هم ليسوا بالمؤمنين و لا بالكفار،و هم المرجون لأمر الله عز و جل.

أقول:و هو إشاره إلى قوله تعالى« وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ»: XالآيهX(التوبه:۱۰۶)و سيأتى ما يتعلق به من الكلام إن شاء الله.

و فى النهج،قال(ع): و لا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجه،فسمعتها أذنه،و وعاها قلبه.

و فى الكافى،عن الكاظم(ع): أنه سئل عن الضعفاء،فكتب(ع):الضعيف من لم ترفع له حجه،.و لم يعرف الاختلاف فإذا عرف الاختلاف فليس بضعيف

و فيه،عن الصادق(ع): أنه سئل:ما تقول فى المستضعفين،؟فقال شبيها بالفزع فتركتم أحدا يكون مستضعفا،؟و أين المستضعفون،فوالله لقد مشى بأمركم هذا العواتق، إلى العواتق فى خدورهن،و تحدثت به السقاءات فى طريق المدينه

و فى المعانى،عن عمر بن إسحاق قال: سئل أبو عبد الله(ع)،ما حد المستضعف الذى ذكره الله عز و جل،؟قال:من لا يحسن سوره من سور القرآن،و قد خلقه الله عز و جل خلقه ما ينبغى لأحد أن لا يحسن.

أقول:و هاهنا روايات أخر غير ما أوردناه لكن ما مر منها حاو لمجامع ما فيها من المقاصد،و الروايات و إن كانت بحسب بادئ النظر مختلفه لكنها مع قطع النظر عن خصوصيات بياناتها بحسب خصوصيات مراتب الاستضعاف تتفق فى مدلول واحد هو مقتضى إطلاق الآيه على ما قدمناه،و هو أن الاستضعاف عدم الاهتداء إلى الحق من غير تقصير

[سوره النساء (۴): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۴]

اشاره

وَ إِذا ضَرَبْتُمْ فِي اَلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ اَلصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ اَلْكافِرِينَ كانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً (۱۰۱) وَ إِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ اَلصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرائِكُمْ وَ لْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْرىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَ أَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَ خُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اَللَّهَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (۱۰۲) فَإِذا قَضَيْتُمُ اَلصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اَللَّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اِطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا اَلصَّلاةَ إِنَّ اَلصَّلاةَ كانَتْ عَلَى اَلْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً (۱۰۳) وَ لا تَهِنُوا فِي اِبْتِغاءِ اَلْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اَللَّهِ مٰا لا يَرْجُونَ وَ كانَ اَللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۰۴)

(بيان)

الآيات تشرع صلاه الخوف و القصر فى السفر،و تنتهى إلى ترغيب المؤمنين فى تعقيب المشركين و ابتغائهم،و هى مرتبطه بالآيات السابقه المتعرضه للجهاد و ما لها من مختلف الشئون.

قوله تعالى: «وَ إِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ» الجناح الإثم و الحرج و العدول،و القصر النقص من الصلاه،قال فى المجمع:،فى قصر الصلاه ثلاث لغات:قصرت الصلاه أقصرها و هى لغه القرآن،و قصرتها تقصيرا، أقصرتها إقصارا.

و المعنى:إذا سافرتم فلا مانع من حرج و إثم أن تنقصوا شيئا من الصلاه،و نفى الجناح الظاهر وحده فى الجواز لا ينافى وروده فى السياق للوجوب كما فى قوله تعالى «إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما» :(البقره:۱۵۸)مع كون الطواف واجبا،و ذلك أن المقام مقام التشريع، و يكفى فيه مجرد الكشف عن جعل الحكم من غير حاجه إلى استيفاء جميع جهات الحكم و خصوصياته،و نظير الآيه بوجه قوله تعالى «وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ» XالآيهX:

(البقره:۱۸۴).

قوله تعالى :«إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا»، الفتنه و إن كانت ذات معان كثيره مختلفه لكن المعهود من إطلاقها فى القرآن فى خصوص الكفار و المشركين التعذيب من قتل أو ضرب و نحوهما،و قرائن الكلام أيضا تؤيد ذلك فالمعنى:

إن خفتم أن يعذبوكم بالحمله و القتل.

و الجمله قيد لقوله «فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ»،جُناحٌ و تفيد أن بدء تشريع القصر فى الصلاه إنما كان عند خوف الفتنه،و لا ينافى ذلك أن يعم التشريع ثانيا جميع صور السفر الشرعى و إن لم يجامع الخوف فإنما الكتاب بين قسما منه،و السنه بينت شموله لجميع الصور كما سيأتى فى الروايات.

قوله تعالى:« وَ إِذا كُنْتَ فِيهِمْ- إلى قوله- وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ»

الآیه،تذکر کیفیه صلاه الخوف،و توجه الخطاب إلی النبی ص بفرضه إماما فی صلاه الخوف،و هذا من قبیل البیان بإیراد المثال لیکون أوضح فی عین أنه أوجز و أجمل.

فالمراد بقوله« فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ» هو الصلاه جماعه،و المراد بقوله «فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ» قیامهم فی الصلاه مع النبی ص بنحو الایتمام،و هم المأمورون بأخذ الأسلحه،و المراد بقوله« فَإِذا سَجَدُوا (إلخ)إذا سجدوا و أتموا الصلاه لیکون هؤلاء بعد إتمام سجدتهم من وراء القوم،و کذا المراد بقوله «وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ» أن تأخذ الطائفه الثانیه المصلیه مع النبی ص حذرهم و أسلحتهم.

و المعنی-و الله أعلم-:و إذا کنت أنت یا رسول الله فیهم و الحال حال الخوف فأقمت لهم الصلاه أی صلیتهم جماعه فأممتهم فیها،فلا یدخلوا فی الصلاه جمیعا بل لتقم طائفه منهم معک بالاقتداء بک و لیأخذوا معهم أسلحتهم،و من المعلوم أن الطائفه الأخری یحرسونهم و أمتعتهم فإذا سجد المصلون معک و فرغوا من الصلاه فلیکونوا وراءکم یحرسونکم و الأمتعه و لتأت طائفه أخری لم یصلوا فلیصلوا معک،و لیأخذ هؤلاء المصلون أیضا کالطائفه الأولی المصلیه حذرهم و أسلحتهم.

و توصیف الطائفه بالأخری،و إرجاع ضمیر الجمع المذکر إلیها رعایه تاره لجانب اللفظ و أخری لجانب المعنی،کما قیل.و فی قوله تعالی« وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ» نوع من الاستعاره لطیف،و هو جعل الحذر آله للدفاع نظیر السلاح حیث نسب إلیه الأخذ الذی نسب إلی الأسلحه،کما قیل.

قوله تعالی:« وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ- إلی قوله- وَاحِدَةً» فی مقام التعلیل للحکم المشرع،و المعنی ظاهر.

قوله تعالی :«وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ» إلی آخر الآیه.تخفیف آخر و هو أنهم إن کانوا یتأذون من مطر ینزل علیهم أو کان بعضهم مرضی فلا مانع من أن یضعوا أسلحتهم لکن یجب علیهم مع ذلک أن یأخذوا حذرهم،و لا یغفلوا عن الذین کفروا فهم مهتمون بهم.

قوله تعالی:« فَإِذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِكُمْ» و القیام و القعود جمعان أو مصدران، و هما حالان و کذا قوله «عَلى جُنُوبِكُمْ» و هو کنایه

عن الذكر المستمر المستوعب لجميع الأحوال.

قوله تعالى:« فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ» (إلخ)المراد بالاطمينان الاستقرار،و حيث قوبل به قوله« وَ إِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ»، على ما يؤيده السياق كان الظاهر أن المراد به الرجوع إلى الأوطان،و على هذا فالمراد بإقامه الصلاه إتمامها فإن التعبير عن صلاه الخوف بالقصر من الصلاه يلوح إلى ذلك.

قوله تعالى:« إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً» الكتابه كنايه عن الفرض و الإيجاب كقوله تعالى «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ:

(البقره:۱۸۳)و الموقوت من وقت كذا أى جعلت له وقتا فظاهر اللفظ أن الصلاه فريضه موقته منجمه تؤدى فى أوقاتها و نجومها.

و الظاهر أن الوقت فى الصلاه كنايه عن الثبات و عدم التغير بإطلاق الملزوم على لازمه فالمراد بكونها كتابا موقوتا أنها مفروضه ثابته غير متغيره أصلا فالصلاه لا تسقط بحال،و ذلك أن إبقاء لفظ الموقوت على بادئ ظهوره لا يلائم ما سبقه من المضمون إذ لا حاجه تمس إلى التعرض لكون الصلاه عباده ذات أوقات معينه مع أن قوله «إِنَّ الصَّلاةَ»، فى مقام التعليل لقوله« فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ» فالظاهر أن المراد بكونها موقوته كونها ثابته لا تسقط بحال،و لا تتغير و لا تتبدل إلى شىء آخر كالصوم إلى الفديه مثلا.

قوله تعالى:« وَ لا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ»، الوهن الضعف،و الابتغاء الطلب،و الألم مقابل اللذه،و قوله «وَ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ» حال من ضمير الجمع الغائب،و المعنى:أن حال الفريقين فى أن كلا منهما يألم واحد،فلستم أسوأ حالا من أعدائكم،بل أنتم أرفه منهم و أسعد حيث إن لكم رجاء الفتح و الظفر و المغفره من ربكم الذى هو وليكم، و أما أعداؤكم فلا مولى لهم و لا رجاء لهم من جانب يطيب نفوسهم،و ينشطهم فى عملهم.و يسوقهم إلى مبتغاهم،و كان الله عليما بالمصالح، حكيما متقنا فى أمره و نهيه.

(بحث روائی)

فی تفسیر القمی،": نزلت-یعنی آیه صلاه الخوف،لما خرج رسول الله ص إلی الحدیبیه یرید مکه،فلما وقع الخبر إلی قریش،بعثوا خالد بن الولید فی مائتی فارس،لیستقبل رسول الله ص،فکان یعارض رسول الله ص علی الجبال،فلما کان فی بعض الطریق، و حضرت صلاه الظهر أذن بلال،و صلی رسول الله ص بالناس،فقال خالد بن الولید،:

لو کنا حملنا علیهم و هم فی الصلاه لأصبناهم،فإنهم لا یقطعون صلاتهم،و لکن یجیء لهم الآن صلاه أخری-هی أحب إلیهم من ضیاء أبصارهم،فإذا دخلوا فی الصلاه أغرنا علیهم- فنزل جبرائیل علی رسول الله ص بصلاه الخوف فی قوله «وَ إِذا کُنْتَ فِیهِمْ»

و فی المجمع،": فی قوله« وَ لا جُناحَ عَلَیْکُمْ إِنْ کانَ بِکُمْ أَذیً مِنْ مَطَرٍ» -(الآیه) أنها نزلت و النبی بعسفان و المشرکون بضجنان-فتواقفوا فصلی النبی ص و أصحابه صلاه الظهر-بتمام الرکوع و السجود-فهم المشرکون بأن یغیروا علیهم،فقال بعضهم:إن لهم صلاه أخری أحب إلیهم من هذه،یعنون صلاه العصر،فأنزل الله علیه هذه الآیه فصلی بهم العصر صلاه الخوف،و کان ذلک سبب إسلام خالد بن الولید(القصه.

و فیه:، ذکر أبو حمزه-یعنی الثمالی-فی تفسیره:أن النبی ص غزا محاربا ببنی أنمار فهزمهم الله،و أحرزوا الذراری و المال،فنزل رسول الله ص و المسلمون- و لا یرون من العدو واحدا فوضعوا أسلحتهم-و خرج رسول الله ص لیقضی حاجته، و قد وضع سلاحه فجعل بینه و بین أصحابه الوادی،فإلی أن یفرغ من حاجته،و قد درأ الوادی،و السماء ترش-فحال الوادی بین رسول الله ص و بین أصحابه-و جلس فی ظل شجره فبصر به الغورث بن الحارث المحاربی-فقال له أصحابه:یا غورث هذا محمد قد انقلع من أصحابه.فقال:قتلنی الله إن لم أقتله،و انحدر من الجبل و معه السیف، و لم یشعر به رسول الله ص إلا و هو قائم علی رأسه-و معه السیف قد سله من غمده، و قال:یا محمد من یعصمک منی الآن؟فقال الرسول ص:الله.فانکب عدو الله لوجهه-فقام رسول الله ص فأخذ سیفه،و قال:یا غورث من یمنعک منی الآن؟قال.

لا أحد.قال:أ تشهد أن لا إله إلا الله،و أنی عبد الله و رسوله؟قال:لا،و لکنی أعهد أن لا أقاتلک أبدا،و لا أعین علیک عدوا،فأعطاه رسول الله ص سیفه،فقال

له غورث:و الله لأنت خير منى.قال(ص)إنى أحق بذلك.

و خرج غورث إلى أصحابه فقالوا:يا غورث لقد رأيناك قائما على رأسه بالسيف- فما منعك منه؟قال:الله،أهويت له بالسيف لأضربه فما أدرى من زلجنى بين كتفى؟ فخررت لوجهى،و خر سيفى،و سبقنى إليه محمد و أخذه،و لم يلبث الوادى أن سكن- فقطع رسول الله ص إلى أصحابه فأخبرهم الخبر،و قرأ عليهم« إِنْ كانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ» الآيه كلها.

و فى الفقيه،بإسناده عن عبد الرحمن بن أبى عبد الله عن الصادق(ع)أنه قال:

صلى النبى ص بأصحابه فى غزاه ذات الرقاع،ففرق أصحابه فرقتين،فأقام فرقه بإزاء العدو و فرقه خلفه،فكبر و كبروا،فقرأ و أنصتوا،فركع و ركعوا،فسجد و سجدوا،ثم استمر رسول الله ص قائما-فصلوا لأنفسهم ركعه ثم سلم بعضهم على بعض،ثم خرجوا إلى أصحابهم فقاموا بإزاء العدو.

و جاء أصحابهم فقاموا خلف رسول الله ص فكبر و كبروا،و قرأ فأنصتوا، و ركع فركعوا،و سجد و سجدوا،ثم جلس رسول الله ص فتشهد ثم سلم عليهم- فقاموا فقضوا لأنفسهم ركعه ثم سلم بعضهم على بعض،و قد قال تعالى لنبيه«و إذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاه-إلى قوله- كِتاباً مَوْقُوتاً» -فهذه صلاه الخوف التى أمر الله عز و جل بها نبيه ص.

و قال:من صلى المغرب فى خوف بالقوم-صلى بالطائفه الأولى ركعه،و بالطائفه الثانيه ركعتين (الحديث).

و فى التهذيب،بإسناده عن زراره قال: سألت أبا جعفر(ع)عن صلاه الخوف و صلاه السفر تقصران جميعا؟قال:نعم،و صلاه الخوف أحق أن تقصر من صلاه السفر ليس فيه خوف

و فى الفقيه،بإسناده عن زراره و محمد بن مسلم. أنهما قالا:قلنا لأبى جعفر(ع):

ما تقول فى صلاه السفر؟كيف هى و كم هى؟فقال:إن الله عز و جل يقول:« وَ إِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ-فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ» -فصار التقصير فى السفر

واجبا كوجوب التام فى الحضر.قالا:قلنا:إنما قال الله عز و جل« فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ» و لم يقل:افعلوا،كيف أوجب ذلك كما أوجب التمام فى الحضر؟فقال(ع):

أ و ليس قد قال الله« إِنَّ الصَّفٰا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعٰائِرِ اللّٰهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمٰا» -أ لا ترون أن الطواف بهما واجب مفروض؟لأن الله عز و جل ذكره فى كتابه،و صنعه نبيه،و كذلك التقصير فى السفر شيء-صنعه النبى ص ذكره الله تعالى فى كتابه.

قالا:فقلنا له:فمن صلى فى السفر أربعا أ يعيد أم لا؟قال:إن كان قد قرئت عليه آيه التقصير-و فسرت له فصلى أربعا أعاد،و إن لم تكن قرئت عليه و لم يكن يعلمها فلا إعاده عليه.

و الصلوات كلها فى السفر الفريضه ركعتان-كل صلاه إلا المغرب فإنها ثلاث ليس فيها تقصير-تركها رسول الله ص فى السفر و الحضر ثلاث ركعات (الحديث).

و فى الدر المنثور،أخرج ابن أبى شيبه و عبد بن حميد و أحمد و مسلم و أبو داود و الترمذى و النسائى و ابن ماجه و ابن الجارود و ابن خزيمه و الطحارى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و النحاس فى ناسخه و ابن حبان عن يعلى بن أميه قال: سألت عمر بن الخطاب،قلت:« فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاٰهِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا» و قد أمن الناس؟فقال لى عمر:عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله ص عن ذلك-فقال:صدقه تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته.

و فيه،أخرج عبد بن حميد و النسائى و ابن ماجه و ابن حبان و البيهقى فى سننه عن أميه بن خالد بن أسد": أنه سأل ابن عمر:أ رأيت قصر الصلاه فى السفر؟إنا لا نجدها فى كتاب الله،إنما نجد ذكر صلاه الخوف.فقال ابن عمر:يا ابن أخى إن الله أرسل محمدا ص و لا نعلم شيئا،فإنما نفعل كما رأينا رسول الله ص يفعل-و قصر الصلاه فى السفر سنه سنها رسول الله ص.

و فيه:،أخرج ابن أبى شيبه و الترمذى و صححه و النسائى عن ابن عباس قال": صلينا مع رسول الله ص بين مكه و المدينه-و نحن آمنون لا نخاف شيئا ركعتين.

و فيه:أخرج ابن أبى شيبه و أحمد و البخارى و مسلم و أبو داود و الترمذى و النسائى

عن حارثه بن وهب الخزاعی قال": صلیت مع النبی ص الظهر و العصر بمنی- أکثر ما کان الناس و آمنه رکعتین.

و فی الکافی،بإسناده عن داود بن فرقد قال: قلت لأبی عبد الله (ع):قوله تعالی- «إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً»؟ قال:کتابا ثابتا،و لیس إن عجلت قلیلا أو أخرت قلیلا-بالذی یضرک ما لم تضع تلک الإضاعه-فإن الله عز و جل یقول.

« أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» .

أقول:إشاره إلی أن الفرائض موسعه من جهه الوقت کما یدل علیه روایات أخر.

و فی تفسیر العیاشی،عن محمد بن مسلم عن أحدهما(ع): قال فی صلاه المغرب فی السفر:لا تترک إن تأخرت ساعه،ثم تصلیها إن أحببت أن تصلی العشاء الآخره، و إن شئت مشیت ساعه إلی أن یغیب الشفق،أن رسول الله ص صلی صلاه الهاجره و العصر جمیعا،و المغرب و العشاء الآخره جمیعا،و کان یؤخر و یقدم أن الله تعالی قال:

« إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً» إنما عنی وجوبها علی المؤمنین،لم یعن غیره، إنه لو کان کما یقولون لم یصل رسول الله ص هکذا،و کان أعلم و أخبر و کان کما یقولون،و لو کان خیرا لأمر به محمد رسول الله ص.

و قد فات الناس مع أمیر المؤمنین(ع)یوم صفین-صلاه الظهر و العصر و المغرب و العشاء الآخره،و أمرهم علی أمیر المؤمنین(ع)فکبروا و هللوا و سبحوا رجالا و رکبانا لقول الله« فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكْباناً» فأمر علی(ع)فصنعوا ذلک.

أقول:و الروایات کما تری توافق ما قدمناه فی البیان السابق و الروایات فی المعانی السابقه و خاصه من طرق أئمه أهل البیت(ع)کثیره جدا،و إنما أوردنا أنموذجا مما ورد منها.

و اعلم أن هناک من طرق أهل السنه روایات أخری تعارض ما تقدم،و هی مع ذلک تتدافع فی أنفسها،و النظر فیها و فی سائر الروایات الحاکیه لکیفیه صلاه الخوف خاصه و صلاه القصر فی السفر عامه مما هو راجع إلی الفقه.

و فی تفسیر القمی،فی قوله «وَ لا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ» (الآیه)إنه معطوف علی قوله

فی سوره آل عمران «إِنْ یَمْسَسْکُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ». و قد ذکرنا هناک سبب نزول الآیه

[سوره النساء (۴): الآیات ۱۰۵ الی ۱۲۶]

اشاره

إِنّا أَنْزَلْنا إِلَیْکَ اَلْکِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْکُمَ بَیْنَ اَلنّاسِ بِما أَراکَ اَللّهُ وَ لا تَکُنْ لِلْخائِنِینَ خَصِیماً (۱۰۵) وَ اِسْتَغْفِرِ اَللّهَ إِنَّ اَللّهَ کانَ غَفُوراً رَحِیماً (۱۰۶) وَ لا تُجادِلْ عَنِ اَلَّذِینَ یَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اَللّهَ لا یُحِبُّ مَنْ کانَ خَوّاناً أَثِیماً (۱۰۷) یَسْتَخْفُونَ مِنَ اَلنّاسِ وَ لا یَسْتَخْفُونَ مِنَ اَللّهِ وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ یُبَیِّتُونَ ما لا یَرْضیٰ مِنَ اَلْقَوْلِ وَ کانَ اَللّهُ بِما یَعْمَلُونَ مُحِیطاً (۱۰۸) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِی اَلْحَیاهِ اَلدُّنْیا فَمَنْ یُجادِلُ اَللّهَ عَنْهُمْ یَوْمَ اَلْقِیامَهِ أَمْ مَنْ یَکُونُ عَلَیْهِمْ وَکِیلاً (۱۰۹) وَ مَنْ یَعْمَلْ سُوءاً أَوْ یَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ یَسْتَغْفِرِ اَللّهَ یَجِدِ اَللّهَ غَفُوراً رَحِیماً (۱۱۰) وَ مَنْ یَکْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما یَکْسِبُهُ عَلیٰ نَفْسِهِ وَ کانَ اَللّهُ عَلِیماً حَکِیماً (۱۱۱) وَ مَنْ یَکْسِبْ خَطِیئَهً أَوْ إِثْماً ثُمَّ یَرْمِ بِهِ بَرِیئاً فَقَدِ اِحْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِیناً (۱۱۲) وَ لَوْ لا فَضْلُ اَللّهِ عَلَیْکَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَهٌ مِنْهُمْ أَنْ یُضِلُّوکَ وَ ما یُضِلُّونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما یَضُرُّونَکَ مِنْ شَیْءٍ وَ أَنْزَلَ اَللّهُ عَلَیْکَ اَلْکِتابَ وَ اَلْحِکْمَهَ وَ عَلَّمَکَ ما لَمْ تَکُنْ تَعْلَمُ وَ کانَ فَضْلُ اَللّهِ عَلَیْکَ عَظِیماً (۱۱۳) لا خَیْرَ فِی کَثِیرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلاّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَهٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَیْنَ اَلنّاسِ وَ مَنْ یَفْعَلْ ذٰلِکَ اِبْتِغاءَ مَرْضاتِ اَللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِیهِ أَجْراً عَظِیماً (۱۱۴) وَ مَنْ یُشاقِقِ اَلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَیَّنَ لَهُ اَلْهُدیٰ وَ یَتَّبِعْ غَیْرَ سَبِیلِ اَلْمُؤْمِنِینَ نُوَلِّهِ ما تَوَلّیٰ وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِیراً (۱۱۵) إِنَّ اَللّهَ لا یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ ما دُونَ ذٰلِکَ لِمَنْ یَشاءُ وَ مَنْ یُشْرِکْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِیداً (۱۱۶) إِنْ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ إِناثاً وَ إِنْ یَدْعُونَ إِلاّ شَیْطاناً مَرِیداً (۱۱۷) لَعَنَهُ اَللّهُ وَ قالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِکَ نَصِیباً مَفْرُوضاً (۱۱۸) وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّیَنَّهُمْ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَیُبَتِّکُنَّ آذانَ اَلْأَنْعامِ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَیُغَیِّرُنَّ خَلْقَ اَللّهِ وَ مَنْ یَتَّخِذِ اَلشَّیْطانَ وَلِیًّا مِنْ دُونِ اَللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِیناً (۱۱۹) یَعِدُهُمْ وَ یُمَنِّیهِمْ وَ ما یَعِدُهُمُ اَلشَّیْطانُ إِلاّ غُرُوراً (۱۲۰) أُولئِکَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ لا یَجِدُونَ عَنْها مَحِیصاً (۱۲۱) وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها أَبَداً وَعْدَ اَللّهِ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اَللّهِ قِیلاً (۱۲۲) لَیْسَ بِأَمانِیِّکُمْ وَ لا أَمانِیِّ أَهْلِ اَلْکِتابِ مَنْ یَعْمَلْ سُوءاً یُجْزَ بِهِ وَ لا یَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اَللّهِ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً (۱۲۳) وَ مَنْ یَعْمَلْ مِنَ اَلصّالِحاتِ مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثیٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِکَ یَدْخُلُونَ اَلْجَنَّهَ وَ لا یُظْلَمُونَ نَقِیراً (۱۲۴) وَ مَنْ أَحْسَنُ دِیناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اِتَّبَعَ مِلَّهَ إِبْرٰاهِیمَ حَنِیفاً وَ اِتَّخَذَ اَللّهُ إِبْرٰاهِیمَ خَلِیلاً (۱۲۵) وَ لِلّهِ ما فِی اَلسَّماواتِ وَ ما فِی اَلْأَرْضِ وَ کانَ اَللّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ مُحِیطاً (۱۲۶)

(بيان)

الذى يفيده التدبر فى الآيات أنها ذات سياق واحد تتعرض للتوصيه بالعدل فى

القضاء،و النهی عن أن یمیل القاضی فی قضائه،و الحاکم فی حکمه إلی المبطلین،و یجور علی المحقین کائنین من کانوا.

و ذلک بالإشاره إلی بعض الحوادث الواقعه عند نزول الآیات،ثم البحث فیما یتعلق بذلک من الحقائق الدینیه و الأمر بلزومها و رعایتها،و تنبیه المؤمنین أن الدین إنما هو حقیقه لا اسم،و إنما ینفع التلبس به دون التسمی.

و الظاهر أن هذه القصه هی التی یشیر إلیها قوله تعالی «وَ مَنْ یَکْسِبْ خَطِیئَهً أَوْ إِثْماً ثُمَّ یَرْمِ بِهِ بَرِیئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِیناً» حیث یدل علی أنه کان هناک شیء من المعاصی التی تقبل الرمی کسرقه أو قتل أو إتلاف أو إضرار و نحوها،و أنه کان من المتوقع أن یهتموا بإضلال النبی ص فی حکمه و الله عاصمه.

و الظاهر أن هذه القصه أیضا هی التی تشیر إلیها الآیات الأول کما فی قوله تعالی «وَ لا تَکُنْ لِلْخائِنِینَ خَصِیماً» (الآیه)و قوله «یَسْتَخْفُونَ مِنَ النّاسِ» (الآیه)و قوله «هاأَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ» (إلخ)فإن الخیانه و إن کان ظاهرها ما یکون فی الودائع و الأمانات لکن سیاق قوله «إِنَّ اللّهَ لا یُحِبُّ مَنْ کانَ خَوّاناً أَثِیماً یَسْتَخْفُونَ مِنَ النّاسِ» کما سیجیء بیانه یعطی أن المراد بها ما یتحقق فی سرقه و نحوها بعنایه أن المؤمنین کنفس واحده،و ما لبعضهم من المال مسئول عنه البعض الآخر من حیث رعایه احترامه،و الاهتمام بحفظه و حمایته،فتعدی بعضهم إلی مال البعض خیانه منهم لأنفسهم.

فالتدبر یقرب أن القصه کأنها سرقه وقعت من بعضهم ثم رفع الأمر إلی النبی ص فرمی بها السارق غیره ممن هو برىء منها،ثم ألح قوم السارق علیه(ص)أن یقضی لهم،و بالغوا فی أن یغیروه(ص)علی المتهم البرىء فأنزلت الآیات و برأه الله مما قالوا.

فالآیات أشد انطباقا علی ما روی فی سبب النزول من قصه سرقه أبی طعمه بن الأبیرق،و إن کانت أسباب النزول-کما سمعت مرارا-فی أغلب ما رویت من قبیل تطبیق القصص المأثوره علی ما یناسبها من الآیات القرآنیه.

و یستفاد من الآیات حجیه قضائه(ص)،و عصمته و حقائق أخر سیأتی بیانها

إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى :«إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ» ظاهر الحكم بين الناس هو القضاء بينهم فى مخاصماتهم و منازعاتهم مما يرجع إلى الأمور القضائيه و رفع الاختلافات بالحكم،و قد جعل الله تعالى الحكم بين الناس غايه لإنزال الكتاب فينطبق مضمون الآيه على ما يتضمنه قوله تعالى «كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيما اخْتَلَفُوا فِيهِ» :(الآيه)(البقره:۲۱۳)و قد مر تفصيل القول فيه.

فهذه الآيه (إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ) (إلخ)فى خصوص موردها نظيره تلك الآيه (كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً)، فى عمومها،و تزيد عليها فى أنها تدل على جعل حق الحكم لرسول الله ص و الحجيه لرأيه و نظره فإن الحكم و هو القطع فى القضاء و فصل الخصومه لا ينفك عن إعمال نظر من القاضى الحاكم و إظهار عقيده منه مضافا إلى ما عنده من العلم بالأحكام العامه و القوانين الكليه فى موارد الخصومه فإن العلم بكليات الأحكام و حقوق الناس أمر،و القطع و الحكم بانطباق مورد النزاع على بعضها دون بعض أمر آخر.

فالمراد بالإراءه فى قوله «لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ» إيجاد الرأى و تعريف الحكم لا تعليم الأحكام و الشرائع كما احتمله بعضهم.

و مضمون الآيه على ما يعطيه السياق أن الله أنزل إليك الكتاب و علمك أحكامه و شرائعه و حكمه لتضيف إليها ما أوجد لك من الرأى و عرفك من الحكم فتحكم بين الناس،و ترفع بذلك اختلافاتهم.

قوله تعالى :«وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً» عطف على ما تقدمه من الجمله الخبريه لكونها فى معنى الإنشاء كأنه قيل:فاحكم بينهم و لا تكن للخائنين خصيما.

و الخصيم هو الذى يدافع عن الدعوى و ما فى حكمها،و فيه نهيه(ص)عن أن يكون خصيما للخائنين على من يطالبهم بحقوقه فيدافع عن الخائنين و يبطل حقوق المحقين من أهل الدعوى.

و ربما أمكن أن يستفاد من عطف قوله «وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ»، على ما تقدمه

و هو أمره(ص)أمرا مطلقا بالحكم أن المراد بالخيانه مطلق التعدى على حقوق الغير ممن لا ينبغى منه ذلك لا خصوص الخيانه للودائع و إن كان ربما عطف الخاص على العام لعنايه ما بشأنه لكن المورد كالخالى عن العنايه،و سيجىء لهذا الكلام تتمه.

قوله تعالى :«وَ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً» الظاهر أن الاستغفار هاهنا هو أن يطلب من الله سبحانه الستر على ما فى طبع الإنسان من إمكان هضم الحقوق و الميل إلى الهوى و مغفره ذلك،و قد مر مرارا أن العفو و المغفره يستعملان فى كلامه تعالى فى شئون مختلفه يجمعها جامع الذنب،و هو التباعد من الحق بوجه.فالمعنى-و الله أعلم-:و لا تكن للخائنين خصيما و لا تمل إليهم،و اطلب من الله سبحانه أن يوفقك لذلك و يستر على نفسك أن تميل إلى الدفاع عن خيانتهم و يتسلط عليك هوى النفس.

و الدليل على إراده ذلك ما فى ذيل الآيات«الكريمه وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَ ما يُضِلُّونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ» فإن الآيه تنص على أنهم لا يضرون النبى ص و إن بذلوا غايه جهدهم فى تحريك عواطفه إلى إيثار الباطل و إظهاره على الحق فالنبى ص فى أمن إلهى من الضرر،و الله يعصمه فهو لا يجور فى حكمه و لا يميل إلى الجور،و لا يتبع الهوى،و من الجور و الميل إلى الهوى المذموم أن يفرق فى حكمه بين قوى و ضعيف،أو صديق و عدو،أو مؤمن و كافر ذمى،أو قريب و بعيد،فأمره بأن يستغفر ليس لصدور ذنب ذى وبال و تبعه منه، و لا لإشرافه على ما لا يحمد منه بل ليسأل من الله أن يظهره على هوى النفس،و لا ريب فى حاجته فى ذلك إلى ربه و عدم استغنائه عنه و إن كان على عصمه،فإن لله سبحانه أن يفعل ما يشاء.

و هذه العصمه مدار عملها ما يعد طاعه و معصيه،و ما يحمد أو يذم عليه من الأعمال لا ما هو الواقع الخارجى،و بعباره أخرى الآيات تدل على أنه(ص)فى أمن من اتباع الهوى،و الميل إلى الباطل،و أما إن الذى يحكم و يقضى به بما شرعه من القواعد و قوانين القضاء الظاهريه كقوله«البينه على المدعى و اليمين على من أنكر»و نحو ذلك يصادف دائما ما هو الحق فى الواقع فينتج دائما غلبه المحق،و مغلوبيه المبطل فى دعواه، فالآيات لا تدل على ذلك أصلا،و لا أن القوانين الظاهريه فى استطاعتها أن تهدى إلى ذلك قطعا فإنها أمارات مميزه بين الحق و الباطل غالبا لا دائما،و لا معنى لاستلزام

الغالب الدائم و هو ظاهر.

و مما تقدم يظهر ما فى كلام بعض المفسرين حيث ذكر فى قوله تعالى «وَ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ ،إنه أمر بالاستغفار عما هم به النبى ص من الدفاع و الذب عن هذا الخائن المذكور فى الآيه،و قد سأله قومه أن يدفع عنه و يكون خصيما له على يهودى.

و ذلك أن هذا القدر أيضا تأثير منهم بأثر مذموم،و قد نفى الله سبحانه عنه(ص) كل ضرر.

قوله تعالى «وَ لا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ»، قيل:إن نسبه الخيانه إلى النفس لكون وبالها راجعا إليها،أو يعد كل معصيه خيانه للنفس كما عد ظلما لها،و قد قال تعالى.« عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ» :(البقره:۱۸۷).

و يمكن أن يستفاد من الآيه بمعونه ما يدل عليه القرآن من أن المؤمنين كنفس واحده، و أن مال الواحد منهم مال لجميعهم يجب على الجميع حفظه و صونه عن الضيعه و التلف، كون تعدى بعضهم على بعض بسرقه و نحوها اختيانا لأنفسهم.

و فى قوله تعالى« إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً أَثِيماً» دلاله على استمرار هؤلاء الخائنين فى خيانتهم،و يؤكده قوله «أَثِيماً» فإن الأثيم آكد فى المعنى من الإثم و هو صفه مشبهه تدل على الثبوت.على أن قوله «يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ» لا تخلو عن دلاله على الاستمرار،و كذا قوله «لِلْخائِنِينَ» حيث عبر بالوصف و لم يعبر بمثل قولنا:للذين خانوا، كما عبر بذلك فى قوله «فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ» :(الأنفال:۷۱).

فمن هذه القرائن و أمثالها يظهر أن معنى الآيه-بالنظر إلى مورد النزول-:و لا تكن خصيما لهؤلاء،و لا تجادل عنهم فإنهم مصرون على الخيانه مبالغون فيها ثابتون على الإثم،و الله لا يحب من كان خوانا أثيما.و هذا يؤيد ما ورد فى أسباب النزول من نزول الآيات فى أبى طعمه بن الأبيرق. كما سيجىء.

و معنى الآيه-مع قطع النظر عن المورد-:و لا تدافع فى قضائك عن المصرين على الخيانه المستمرين عليها،فإن الله لا يحب الخوان الأثيم،و كما أنه تعالى لا يحب كثير الخيانه لا يحب قليلها،و لو أمكن أن يحب قليلها أمكن أن يحب كثيرها و إذا كان كذلك فالله ينهى أن يدافع عن قليل الخيانه كما ينهى عن أن يدافع عن كثيرها و أما

من خان فی أمر ثم نازع فی أمر آخر و هو محق فی نزاعه،فالدفاع عنه دفاع غیر محظور و لا ممنوع منه،و لا ینهی عنه قوله «وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً» (الآیه).

قوله تعالی:« يَسْتَخْفُونَ مِنَ النّاسِ وَ لا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ»، و هذا أیضا من الشواهد علی ما قدمناه من أن الآیات(۱۰۵ ۱۲۶)جمیعا ذات سیاق واحد،نازله فی قصه واحده،و هی التی یشیر إلیها قوله «وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً» (الآیه)،و ذلک أن الاستخفاء إنما یناسب الأعمال التی یمکن أن یرمی بها الغیر کالسرقه و أمثال ذلک فیتأید به أن الذی تشیر إلیه هذه الآیه و ما تقدمها من الآیات هو الذی یشیر إلیه قوله «وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ» (الآیه).

و الاستخفاء من الله أمر غیر مقدور إذ لا یخفی علی الله شیء فی الأرض و لا فی السماء فطرفه المقابل له أعنی عدم الاستخفاء أیضا أمر اضطراری غیر مقدور،و إذا کان غیر مقدور لم یتعلق به لوم و لا تعییر کما هو ظاهر الآیه.لکن الظاهر أن الاستخفاء کنایه عن الاستحیاء و لذلک قید قوله «وَ لا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ» (أولا)بقوله «وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ» فدل علی أنهم کانوا یدبرون الحیله لیلا للتبری من هذه الخیانه المذمومه،و یبیتون فی ذلک قولا لا یرضی به الله سبحانه ثم قیده(ثانیا)بقوله «وَ كانَ اللّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً» و دل علی إحاطته تعالی بهم فی جمیع الأحوال و منها حال الجرم الذی أجرموه،و التقیید بهذین القیدین أعنی قوله «وَ هُوَ مَعَهُمْ»، و قوله «وَ كانَ اللّهُ»، تقیید بالعام بعد الخاص،و هو فی الحقیقه تعلیل لعدم استخفائهم من الله بعله خاصه ثم بأخری عامه.

قوله تعالی :«ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» (الآیه)بیان لعدم الجدوی فی الجدال عنهم،و أنهم لا ینتفعون بذلک فی صوره الاستفهام و المراد أن الجدال عنهم لو نفعهم فإنما ینفعهم فی الحیاه الدنیا،و لا قدر لها عند الله،و أما الحیاه الأخرویه التی لها عظیم القدر عند الله أو ظرف الدفاع فیها یوم القیامه فلا مدافع هناک عن الخائنین و لا مجادل عنهم بل لا وکیل لهم یومئذ یتکفل تدبیر أمورهم و إصلاح شئونهم.

قوله تعالی .«وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ» (الآیه)فیه ترغیب و حث لأولئک الخائنین أن یرجعوا إلی ربهم بالاستغفار،و الظاهر أن الترديد بین السوء و ظلم النفس

و التدرج من السوء إلى الظلم لكون المراد بالسوء التعدى على الغير،و بالظلم التعدى على النفس،أو أن السوء أهون من الظلم كالمعصيه الصغيره بالنسبه إلى الكبيره، و الله أعلم.

و هذه الآيه و الآيتان بعدها جميعا كلام مسوق لغرض واحد،و هو بيان أمر الإثم الذى يكسبه الإنسان بعمله،يتكفل كل واحده من الآيات الثلاث بيان جهه من جهاته،فالآيه الأولى تبين أن المعصيه التى يقترفها الإنسان فيتأثر بتبعتها نفسه و تكتب فى كتاب أعماله،للعبد أن يتوب إلى الله منها و يستغفره فلو فعل ذلك وجد الله غفورا رحيما.

و الآيه الثانيه تذكر الإنسان أن الإثم الذى يكسبه إنما يكسبه على نفسه و ليس بالذى يمكن أن يتخطاه و يلحق غيره برمى أو افتراء و نحو ذلك.

و الآيه الثالثه توضح أن الخطيئه أو الإثم الذى يكسبه الإنسان لو رمى به بريئا غيره كان الرمى به إثما آخر وراء أصل الخطيئه أو الإثم.

قوله تعالى:« وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً» قد تقدم أن الآيه مرتبطه مضمونا بالآيه التاليه المتعرضه للرمى بالخطيئه و الإثم فهذه كالمقدمه لتلك،و على هذا فقوله «فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ» مسوق لقصر التعيين، و فى الآيه عظه لمن يكسب الإثم ثم يرمى به بريئا غيره.و المعنى-و الله أعلم-:أنه يجب على من يكسب إثما أن يتذكر أن ما يكسبه من الإثم فإنما يكسبه على نفسه لا على غيره،و أنه هو الذى فعله لا غيره و إن رماه به أو تعهد له هو أن يحمل إثمه و كان الله عليما يعلم أنه فعل هذا الكاسب،و أنه الذى فعله لا غيره المرمى به،حكيما لا يؤاخذ بالإثم إلا آثمه،و بالوزر غير وازرتها كما قال تعالى:« لَها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ» (البقره:۲۸۶)،و قال:« وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى» (الأنعام:۱۶۴)و قال:

«وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» (العنكبوت:۱۲).

قوله تعالى:« وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً»، قال الراغب فى المفردات،:إن من أراد شيئا فاتفق منه غيره يقال:أخطأ

و إن وقع منه كما أراده يقال أصاب،و قد يقال لمن فعل فعلا- لا يحسن أو أراد إراده لا تجمل:إنه أخطأ.و لهذا يقال:أصاب الخطأ،و أخطأ الصواب،و أصاب الصواب،و أخطأ الخطأ.و هذه اللفظه مشتركه كما ترى،مترددة بين معان يجب لمن يتحرى الحقائق أن يتأملها.

قال:و الخطيئه و السيئه تتقاربان لكن الخطيئه أكثر ما تقال فيما لا يكون مقصودا إليه فى نفسه بل يكون القصد سببا لتولد ذلك الفعل منه كمن يرمى صيدا فأصاب إنسانا،أو شرب مسكرا فجنى جنايه فى سكره،و السبب سببان:سبب محظور فعله كشرب المسكر و ما يتولد عنه من الخطإ غير متجاف عنه،و سبب غير محظور كرمى الصيد،قال تعالى:، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيمٰا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لٰكِنْ مٰا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ» و قال تعالى:« وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً» فالخطيئه هاهنا هى التى لا- تكون عن قصد إلى فعلها(انتهى).

و أظن أن الخطيئه من الأوصاف التى استغنى عن موصوفاتها بكثره الاستعمال كالمصيبه و الرزيه و السليقه و نحوها،و وزن فعيل يدل على اختزان الحدث و استقراره، فالخطيئه هى العمل الذى اختزن و استقر فيه الخطأ و الخطأ،الفعل الواقع الذى لا يقصده الإنسان كقتل الخطإ،هذا فى الأصل،ثم وسع إلى ما لا- ينبغى للإنسان أن يقصده لو كانت نفسه على سلامتها الفطريه،فكل معصيه و أثر معصيه من مصاديق الخطإ على هذا التوسع،و الخطيئه هى العمل أو أثر العمل الذى لم يقصده الإنسان(و لا يعد حينئذ معصيه)أو لم يكن ينبغى أن يقصده(و يعد حينئذ معصيه أو وبال معصيه).

لكن الله سبحانه لما نسبها فى قوله «وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً» إلى الكسب كان المراد بها الخطيئه التى هى المعصيه،فالمراد بالخطيئه فى الآيه هى التى تكون عن قصد إلى فعلها و إن كان من شأنها أن لا يقصد إليها.

و قد مر فى قوله تعالى «قُلْ فِيهِمٰا إِثْمٌ» :(البقره:٢١٩)أن الإثم هو العمل الذى يوجب بوباله حرمان الإنسان عن خيرات كثيره كشرب الخمر و القمار و السرقه مما يصد الإنسان عن حيازه الخيرات الحيويه،و يوجب انحطاطا اجتماعيا يسقط الإنسان

عن وزنه الاجتماعی و یسلب عنه الاعتماد و الثقه العامه.

و علی هذا فاجتماع الخطیئه و الإثم علی نحو الترديد و نسبتهما جمیعا إلی الکسب فی قوله «وَ مَنْ یَکْسِبْ خَطِیئَهً أَوْ إِثْماً» (الآیه)یوجب اختصاص کل منهما بما یختص به من المعنی،و المعنی-و الله أعلم-:أن من یکسب معصیه لا تتجاوز موردها وبالا کترک بعض الواجبات کالصوم أو فعل بعض المحرمات کأکل الدم أو یکسب معصیه یستمر وبالها کقتل النفس من غیر حق و السرقه ثم یرم بها بریئا بنسبتها إلیه فقد احتمل بهتانا و إثما مبینا.

و فی تسمیه نسبه العمل السیئ إلی الغیر رمیا-و الرمی یستعمل فی مورد السهم- و کذا فی إطلاق الاحتمال علی قبول وزر البهتان استعاره لطیفه کان المفتری یفتک بالمتهم البریء برمیه بالسهم فیوجب له فتکه أن یتحمل حملا یشغله عن کل خیر مدی حیاته من غیر أن یفارقه.

و من ما تقدم یظهر وجه اختلاف التعبیر عن المعصیه فی الآیات الکریمه تاره بالإثم و أخری بالخطیئه و السوء و الظلم و الخیانه و الضلال،فکل واحد من هذه الألفاظ هو المناسب بمعناه لمحله الذی حل فیه.

قوله تعالی:« وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ» (إلی آخر الآیه)السیاق یدل علی أن المراد بهمهم بإضلال النبی ص هو همهم أن یرضوه بالدفاع عن الذین سماهم الله تعالی فی صدر الآیات بالخائنین و الجدال عنهم و علی هذا فالمراد بهذه الطائفه أیضا هم الذین عدل الله سبحانه إلی خطابهم بقوله «ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِی الْحَیاهِ الدُّنْیا» (الآیه)و ینطبق علی قوم أبی طعمه علی ما سیجیء.

و أما قوله« وَ ما یُضِلُّونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ» فالمراد به بقرینه قوله بعده «وَ ما یَضُرُّونَکَ مِنْ شَیْءٍ»، إن إضلال هؤلاء لا یتعدی أنفسهم و لا یتجاوزهم إلیک،فهم الضالون بما هموا به لأنه معصیه و کل معصیه ضلال.

و لهذا الکلام معنی آخر تقدمت الإشاره إلیه فی الکلام علی قوله «وَ ما یُضِلُّونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما یَشْعُرُونَ :(آل عمران:۶۹)فی الجزء الثالث من هذا الکتاب،لکنه لا یناسب هذا المقام.

و أما قوله «وَ مٰا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْكَ»، ففيه نفى إضرارهم النبى ص نفيا مطلقا غير أن ظاهر السياق أنه مقيد بقوله «وَ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ»، على أن يكون جمله حاليه عن الضمير فى قوله «يَضُرُّونَكَ» و إن كان الأغلب مقارنه الجمله الفعليه المصدره بالماضى بقد على ما ذكره النحاه،و على هذا فالكلام مسوق لنفى إضرار الناس مطلقا بالنبى ص فى علم أو عمل.

قوله تعالى:« وَ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَهَ وَ عَلَّمَكَ مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ»، ظاهر الكلام كما أشرنا إليه أنه فى مقام التعليل لقوله «وَ مٰا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ» أو لمجموع قوله «وَ مٰا يُضِلُّونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ» و كيف كان فهذا الإنزال و التعليم هو المانع من تأثيرهم فى إضلاله(ص)،فهو الملاك فى عصمته.

(كلام فى معنى العصمه)

ظاهر الآيه أن الأمر الذى تتحقق به العصمه نوع من العلم يمنع صاحبه عن التلبس بالمعصيه و الخطإ، و بعباره أخرى علم مانع عن الضلال،كما أن سائر الأخلاق كالشجاعه و العفه و السخاء كل منها صوره علميه راسخه موجبه لتحقق آثارها،مانعه عن التلبس بأضدادها من آثار الجبن و التهور و الخمود و الشره و البخل و التبذير.

و العلم النافع و الحكمه البالغه و إن كانا يوجبان تنزه صاحبهما عن الوقوع فى مهالك الرذائل،و التلوث بأقذار المعاصى،كما نشاهده فى رجال العلم و الحكمه و الفضلاء من أهل التقوى و الدين،غير أن ذلك سبب غالبى كسائر الأسباب الموجوده فى هذا العالم المادى الطبيعى فلا تكاد تجد متلبسا بكمال يحجزه كماله من النواقص و يصونه عن الخطإ صونا دائميا من غير تخلف،سنه جاريه فى جميع الأسباب التى نراها و نشاهدها.

و الوجه فى ذلك أن القوى الشعوريه المختلفه فى الإنسان يوجب بعضها ذهوله عن حكم البعض الآخر أو ضعف التفاته إليه كما أن صاحب ملكه التقوى ما دام شاعرا بفضيله تقواه لا يميل إلى اتباع الشهوه غير المرضيه،و يجرى على مقتضى تقواه،غير أن اشتعال نار الشهوه و انجذاب نفسه إلى هذا النحو من الشعور ربما حجبه عن تذكر فضيله التقوى أو ضعف شعور التقوى فلا يلبث دون أن يرتكب ما لا يرتضيه التقوى

و يختار سفساف الشره،و على هذا السبيل سائر الأسباب الشعوريه فى الإنسان و إلا فالإنسان لا يحيد عن حكم سبب من هذه الأسباب ما دام السبب قائما على ساق،و لا مانع يمنع من تأثيره،فجميع هذه التخلفات تستند إلى مغالبه التقوى و الأسباب،و تغلب بعضها على بعض.

و من هنا يظهر أن هذه القوه المسماه بقوه العصمه سبب شعورى علمى غير مغلوب البته، و لو كانت من قبيل ما نتعارفه من أقسام الشعور و الإدراك لتسرب إليها التخلف، و خبطت فى أثرها أحيانا،فهذا العلم من غير سنخ سائر العلوم و الإدراكات المتعارفه التى تقبل الاكتساب و التعلم.

و قد أشار الله تعالى إليه فى خطابه الذى خص به نبيه ص بقوله «وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَهَ وَ عَلَّمَكَ مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» و هو خطاب خاص لا نفقهه حقيقه الفقه إذ لا ذوق لنا فى هذا النحو من العلم و الشعور غير أن الذى يظهر لنا من سائر كلامه تعالى بعض الظهور كقوله «قُلْ مَنْ كٰانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ» :(البقره:۹۷) و قوله «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسٰانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» :(الشعراء:

۱۹۵)أن الإنزال المذكور من سنخ العلم،و يظهر من جهه أخرى أن ذلك من قبيل الوحى و التكليم كما يظهر من قوله «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مٰا وَصّٰى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِى أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ وَ مٰا وَصَّيْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِيمَ وَ مُوسىٰ وَ عِيسىٰ»: XالآیهX(الشورى:۱۳) و قوله «إِنّٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ كَمٰا أَوْحَيْنٰا إِلىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ» :(النساء:۱۶۳)و قوله «إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ» :(الأنعام:۵۰)،و قوله «إِنَّمٰا أَتَّبِعُ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ»:

(الأعراف:۲۰۳).

و يستفاد من الآيات على اختلافها أن المراد بالإنزال هو الوحى وحى الكتاب و الحكمه و هو نوع تعليم إلهى لنبيه(ص)غير أن الذى يشير إليه بقوله «وَ عَلَّمَكَ مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» ليس هو الذى علمه بوحى الكتاب و الحكمه فقط فإن مورد الآيه قضاء النبى ص فى الحوادث الواقعه و الدعاوى التى ترفع إليه برأيه الخاص،و ليس ذلك من الكتاب و الحكمه بشىء و إن كان متوقفا عليهما بل رأيه و نظره الخاص به.

و من هنا يظهر أن المراد بالإنزال و التعليم فى قوله «وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ

وَ الْحِكْمَهَ وَ عَلَّمَکَ مٰا لَمْ تَکُنْ تَعْلَمُ»

نوعان اثنان من العلم،أحدهما التعليم بالوحی و نزول الروح الأمين علی النبی ص و،الآخر:التعليم بنوع من الإلقاء فی القلب و الإلهام الخفی الإلهی من غير إنزال الملک و هذا هو الذی تؤيده الروايات الوارده فی علم النبی ص.

و علی هذا فالمراد بقوله «وَ عَلَّمَکَ مٰا لَمْ تَکُنْ تَعْلَمُ» آتاک نوعا من العلم لو لم يؤتک إياه من لدنه لم يکفک فی إيتائه الأسباب العاديه التی تعلم الإنسان ما يکتسبه من العلوم.

فقد بان من جميع ما قدمناه أن هذه الموهبه الإلهيه التی نسميها قوه العصمه نوع من العلم و الشعور يغاير سائر أنواع العلوم فی أنه غير مغلوب لشیء من القوی الشعوريه البته بل هی الغالبه القاهره عليها المستخدمه إياها،و لذلک کانت تصون صاحبها من الضلال و الخطيئه مطلقا،و قد ورد فی الروايات أن للنبی و الإمام روحا تسمی روح القدس تسدده و تعصمه عن المعصيه و الخطيئه،و هی التی يشير إليها قوله تعالی« وَ کَذٰلِکَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنٰا مٰا کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتٰابُ وَ لاَ الْإِيمٰانُ وَ لٰکِنْ جَعَلْنٰاهُ نُوراً نَهْدِی بِهِ مَنْ نَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِنٰا» :(الشوری:۵۲) بتنزيل الآيه علی ظاهرها من إلقاء کلمه الروح المعلمه الهاديه إلی النبی ص و نظيره قوله تعالی «وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّهً يَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا وَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرٰاتِ وَ إِقٰامَ الصَّلاٰهِ وَ إِيتٰاءَ الزَّکٰاهِ وَ کٰانُوا لَنٰا عٰابِدِينَ» :(الأنبياء:۷۳) بناء علی ما سيجیء من بيان معنی الآيه إن شاء الله العزيز أن المراد به تسديد روح القدس الإمام بفعل الخيرات و عباده الله سبحانه.

و بان مما مر أيضا أن المراد بالکتاب فی قوله «وَ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْکَ الْکِتٰابَ وَ الْحِکْمَهَ وَ عَلَّمَکَ مٰا لَمْ تَکُنْ تَعْلَمُ» هو الوحی النازل لرفع اختلافات الناس علی حد قوله تعالی «کٰانَ النّٰاسُ أُمَّهً وٰاحِدَهً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ لِيَحْکُمَ بَيْنَ النّٰاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ»: XالآيهX(البقره:۲۱۳)و قد تقدم بيانه فی الجزء الثانی من هذا الکتاب.

و المراد بالحکمه سائر المعارف الإلهيه النازله بالوحی،النافعه للدنيا و الآخره، و المراد بقوله «وَ عَلَّمَکَ مٰا لَمْ تَکُنْ تَعْلَمُ» غير المعارف الکليه العامه من الکتاب و الحکمه.

و بذلک يظهر ما فی کلمات بعض المفسرين فی تفسير الآيه.فقد فسر بعضهم الکتاب بالقرآن،و الحکمه بما فيه من الأحکام،و «مٰا لَمْ تَکُنْ تَعْلَمُ» بالأحکام و الغيب

و فسر بعضهم الكتاب و الحكمه بالقرآن و السنه،و «مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» بالشرائع و أنباء الرسل الأولين و غير ذلك من العلوم إلى غير ذلك مما ذكروه،و قد تبين وجه ضعفها بما مر فلا نعيد.

[بيان]

قوله تعالى: «وَ كٰانَ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكَ عَظِيماً» امتنان على النبى ص-.

قوله تعالى: «لاٰ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوٰاهُمْ إِلاّٰ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاٰحٍ بَيْنَ النّٰاسِ» قال الراغب:و ناجيته أى ساررته و أصله أن تخلو به فى نجوه من الأرض(انتهى) فالنجوى المساره فى الحديث،و ربما أطلق على نفس المتناجين قال تعالى:

«وَ إِذْ هُمْ نَجْوىٰ» :(الإسراء:۴۷)أى متناجون.

و فى الكلام أعنى قوله «لاٰ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوٰاهُمْ» عود إلى ما تقدم من قوله تعالى «إِذْ يُبَيِّتُونَ مٰا لاٰ يَرْضىٰ مِنَ الْقَوْلِ» (الآيه)بناء على اتصال الآيات و قد عمم البيان لمطلق المساره فى القول سواء كان ذلك بطريق التبييت أو بغيره لأن الحكم المذكور و هو انتفاء الخير فيه إنما هو لمطلق المساره و إن لم تكن على نحو التبييت،و نظيره قوله «وَ مَنْ يُشٰاقِقِ»، دون أن يقول: و من يناج للمشاقه،لأن الحكم المذكور لمطلق المشاقه أعم من أن يكون نجوى أو لا.

و ظاهر الاستثناء أنه منقطع، و المعنى:لكن من أمر بكذا و كذا فيه ففيما أمر به شىء من الخير،و قد سمى دعوه النجوى إلى الخير أمرا و ذلك من قبيل الاستعاره، و قد عد تعالى هذا الخير الذى يأمر به النجوى ثلاثه:الصدقه،و المعروف،و الإصلاح بين الناس.و لعل إفراد الصدقه عن المعروف مع كونها من أفراده لكونها الفرد الكامل فى الاحتياج إلى النجوى بالطبع،و هو كذلك غالبا.

قوله تعالى: «وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ ابْتِغٰاءَ مَرْضٰاتِ اللّٰهِ»، تفصيل لحال النجوى ببيان آخر من حيث التبعه من المثوبه و العقوبه ليتبين به وجه الخير فيما هو خير من النجوى، و عدم الخير فيما ليس بخير منه.

و محصله أن فاعل النجوى على قسمين:(أحدهما)من يفعل ذلك ابتغاء مرضاه الله،و لا محاله ينطبق على ما يدعو إلى معروف أو إصلاح بين الناس تقربا إلى الله،

و سوف يثيبه الله سبحانه بعظيم الأجر،و(ثانيهما)أن يفعل ذلك لمشاقه الرسول و اتخاذ طريق غير طريق المؤمنين و سبيلهم،و جزاؤه الإملاء و الاستدراج الإلهى ثم إصلاء جهنم و ساءت مصيرا.

قوله تعالى :«وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، المشاقه من الشق و هو القطعه المبانه من الشيء فالمشاقه و الشقاق كونك فى شق غير شق صاحبك،و هو كنايه عن المخالفه،فالمراد بمشاقه الرسول بعد تبين الهدى مخالفته و عدم إطاعته،و على هذا فقوله «وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ» بيان آخر لمشاقه الرسول،و المراد بسبيل المؤمنين إطاعه الرسول فإن طاعته طاعه الله قال تعالى :«مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ» (النساء:٨٠).

فسبيل المؤمنين بما هم مجتمعون على الإيمان هو الاجتماع على طاعه الله و رسوله-و إن شئت فقل على طاعه رسوله-فإن ذلك هو الحافظ لوحده سبيلهم كما قال تعالى:

«وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَ لا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا» :(آل عمران:١٠٣)و قد تقدم الكلام فى الآيه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب،و قال تعالى :«وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (الأنعام:١٥٣) و إذا كان سبيله سبيل التقوى،و المؤمنون هم المدعوون إليه فسبيلهم مجتمعين سبيل التعاون على التقوى كما قال تعالى :«وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ لا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ» :

(المائده:٢)و الآيه-كما ترى-تنهى عن معصيه الله و شق عصا الاجتماع الإسلامى، و هو ما ذكرناه من معنى سبيل المؤمنين.

فمعنى الآيه أعنى قوله «وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ»، يعود إلى معنى قوله «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَ تَناجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوى» :(الآيه)(المجادله:٩).

و قوله «نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى»، أى نجره على ما جرى عليه،و نساعده على ما تلبس به من اتباع غير سبيل المؤمنين كما قال تعالى: «كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما

كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً» :(الإسراء:۲۰).

و قوله «وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً» عطفه بالواو يدل على أن الجميع أى توليته ما تولى و إصلاءه جهنم أمر واحد إلهى بعض أجزائه دنيوى و هو توليته ما تولى،و بعضها أخروى و هو إصلاؤه جهنم و ساءت مصيرا.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» (إلى آخر الآيه)ظاهر الآيه أنها فى مقام التعليل لقوله فى الآيه السابقه «نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ»، بناء على اتصال الآيات فالآيه تدل على أن مشاقه الرسول شرك بالله العظيم،و أن الله لا يغفر أن يشرك به،و ربما استفيد ذلك من قوله تعالى «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَ هُمْ كُفّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» :(محمد:۳۴)فإن ظاهر الآيه الثالثه أنها تعليل لما فى الآيه الثانيه من الأمر بطاعه الله و طاعه رسوله فيكون الخروج عن طاعه الله و طاعه رسوله كفرا لا يغفر أبدا،و هو الشرك.

و المقام يعطى أن إلحاق قوله «وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ» بقوله «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» إنما هو لتتميم البيان،و إفاده عظمه هذه المعصيه المشئومه أعنى مشاقه الرسول،و قد تقدم بعض الكلام فى الآيه فى آخر الجزء الرابع من هذا الكتاب.

قوله تعالى :«إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ إِناثاً» الإناث جمع أنثى يقال:أنث الحديد أنثا أى انفعل و لان،و أنث المكان أسرع فى الإنبات و جاد،ففيه معنى الانفعال و التأثر، و بذلك سميت الأنثى من الحيوان أنثى و قد سميت الأصنام و كل معبود من دون الله إناثا لكونها قابلات منفعلات ليس فى وسعها أن تفعل شيئا مما يتوقعه عبادها منها-كما قيل- قال تعالى :«إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» :(الحج:۷۴)و قال:« وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ لا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لا حَياةً وَ لا نُشُوراً» :(الفرقان:۳).

فالظاهر أن المراد بالأنوثه الانفعال المحض الذى هو شأن المخلوق إذا قيس إلى الخالق

عز اسمه،و هذا الوجه أولى مما قيل:إن المراد هو اللات و العزى و منات الثالثه و نحوها، و قد كان لكل حى صنم يسمونه أنثى بنى فلان إما لتأنيث أسمائها أو لأنها كانت جمادات و الجمادات تؤنث فى اللفظ.

و وجه الأولويه أن ذلك لا يلائم الحصر الواقع فى قوله «إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّٰ إِنٰاثاً» كثير ملاءمه،و بين من يدعى من دون الله من هو ذكر غير أنثى كعيسى المسيح و برهما و بوذا.

قوله تعالى: «وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلاّٰ شَيْطٰاناً مَرِيداً» المريد هو العارى من كل خير أو مطلق العارى،قال البيضاوى: المارد و المريد الذى لا يعلق بخير،و أصل التركيب للملامسه،و منه صرح ممرد،و غلام أمرد،و شجره مرداء للتى تناثر ورقها(انتهى).

و الظاهر أن الجمله بيان للجمله السابقه فإن الدعوه كنايه عن العباده لكون العباده إنما نشأت بين الناس للدعوه على الحاجه،و قد سمى الله تعالى الطاعه عباده قال تعالى:

«أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِى آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّيْطٰانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِى» :

(يس:۶۱)فيئول معنى الجمله إلى أن عبادتهم لكل معبود من دون الله عباده و دعوه منهم للشيطان المريد لكونها طاعه له.

قوله تعالى: «لَعَنَهُ اللّٰهُ» اللعن هو الإبعاد عن الرحمه،و هو وصف ثان للشيطان و بمنزله التعليل للوصف الأول.

قوله تعالى: «وَ قٰالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبٰادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً» كأنه إشاره إلى ما حكاه الله تعالى عنه من قوله «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاّٰ عِبٰادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» :(-ص:۸۳) و فى قوله «مِنْ عِبٰادِكَ» تقرير أنهم مع ذلك عباده لا ينسلخون عن هذا الشأن،و هو ربهم يحكم فيهم بما شاء.

قوله تعالى: «وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ» (إلى آخر)الآيه التبتيل هو الشق، و ينطبق على ما نقل:أن عرب الجاهليه كانت تشق آذان البحائر و السوائب لتحريم لحومها.

و هذه الأمور المعدوده جميعها ضلال فذكر الإضلال معها من قبيل ذكر العام ثم ذكر بعض أفراده لعنايه خاصه به، يقول:لأضلنهم بالاشتغال بعباده غير الله و اقتراف المعاصى،و لأغرنهم بالاشتغال بالآمال و الأمانى التى تصرفهم عن الاشتغال بواجب شأنهم

و ما يهمهم من أمرهم،و لآمرنهم بشق آذان الأنعام و تحريم ما أحل الله سبحانه،و لآمرنهم بتغيير خلق الله و ينطبق على مثل الإخصاء و أنواع المثله و اللواط و السحق.

و ليس من البعيد أن يكون المراد بتغيير خلق الله الخروج عن حكم الفطره و ترك الدين الحنيف،قال تعالى: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» :(الروم:٣٠).

ثم عد تعالى دعوه الشيطان و هى طاعته فيما يأمر به اتخاذا له وليا فقال: «وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرانًا مُبِيناً» و لم يقل:و من يكن الشيطان له وليا إشعارا بما تشعر به الآيات السابقه أن الولى هو الله،و لا ولايه لغيره على شىء و إن اتخذ وليا.

قوله تعالى: «يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلّا غُرُوراً» ظاهر السياق أنه تعليل لقوله فى الآيه السابقه «فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً» و أى خسران أبين من خسران من يبدل السعاده الحقيقيه و كمال الخلقه بالمواعيد الكاذبه و الأمانى الموهومه،قال تعالى: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللّهَ عِنْدَهُ فَوَفّاهُ حِسابَهُ وَ اللّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ» :(النور.٣٩).

أما المواعيد فهى الوساوس الشيطانيه بلا واسطه،و أما الأمانى فهى المتفرعه على وساوسه مما يستلذه الوهم من المتخيلات،و لذلك قال :«وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلّا غُرُوراً» فعد الوعد غرورا دون التمنيه على ما لا يخفى.

ثم بين عاقبه حالهم بقوله «أُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ لا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً» أى معدلا و مفرا من «حاص» إذا عدل.

ثم ذكر ما يقابل حالهم و هو حال المؤمنين تتميما للبيان فقال تعالى: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ» (إلى آخر الآيه)و فى الآيات التفات من سياق التكلم مع الغير إلى الغيبه، و الوجه العام فيه الإيماء إلى جلاله المقام و عظمته بوضع لفظ الجلاله موضع ضمير المتكلم مع الغير فيما يحتاج إلى هذا الإشعار حتى إذا استوفى الغرض رجع إلى سابق السياق الذى كان هو الأصل،و ذلك فى قوله «سَنُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ»، و فى ذلك نكته أخرى،و هى الإيماء إلى قرب الحضور و عدم احتجابه تعالى عن عباده المؤمنين و هو وليهم.

قوله تعالى:« وَعْدَ اللّهِ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلًا» فيه مقابله لما ذكر فى وعد الشيطان أنه ليس إلا غرورا فكان وعد الله حقا،و قوله صدقا.

قوله تعالى:« لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ» عود إلى بدء الكلام و بمنزله النتيجه المحصله الملخصه من تفصيل الكلام،و ذلك أنه يتحصل من المحكى من أعمال بعض المؤمنين و أقوالهم،و إلحاحهم على النبى ص أن يراعى جانبهم،و يعاضدهم و يساعدهم على غيرهم فيما يقع بينهم من النزاع و المشاجره أنهم يرون أن لهم بإيمانهم كرامه على الله سبحانه و حقا على النبى ص يجب به على الله و رسوله مراعاه جانبهم،و تغليب جهتهم على غيرهم على الحق كانوا أو على الباطل،عدلا كان الحكم أو ظلما على حد ما يراه اتباع أئمه الضلال،و حواشى رؤساء الجور و بطائنهم و أذنابهم،فالواحد منهم يمتن على متبوعه و رئيسه فى عين أنه يخضع له و يطيعه،و يرى أن له عليه كرامه تلتزمه على مراعاه جانبه و تقديمه على غيره تحكما.

و كذا كان يراه أهل الكتاب على ما حكاه الله تعالى فى كتابه عنهم قال تعالى:

« وَ قالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللّهِ وَ أَحِبّاؤُهُ» :(المائده:۱۸)،و قال تعالى:

« وَ قالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا» :(البقره:۱۳۵)،و قال تعالى:« قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ» :(آل عمران:۷۵).

فرد الله على هذه الطائفه من المؤمنين فى مزعمتهم،و أتبعهم بأهل الكتاب و سمى هذه المزاعم بالأمانى استعاره لأنها كالأمانى ليست إلا صورا خياليه ملذه لا أثر لها فى الأعيان فقال:ليس بأمانيكم معاشر المسلمين أو معشر طائفه من المسلمين و لا بأمانى أهل الكتاب بل الأمر يدور مدار العمل إن خيرا فخير و إن شرا فشر،و قدم ذكر السيئه على الحسنه لأن عمده خطإهم كانت فيها.

قوله تعالى :«مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً» جىء فى الكلام بالفصل من غير وصل لأنه فى موضع الجواب عن سؤال مقدر،تقديره إذا لم يكن الدخول فى حمى الإسلام و الإيمان يجر للإنسان كل خير،و يحفظ منافعه فى الحياه، و كذا اليهوديه و النصرانيه فما هو السبيل؟و إلى ما ذا ينجر حال الإنسان؟فقيل:« مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحاتِ» (إلخ).

و قوله «مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ» مطلق يشمل الجزاء الدنيوى الذى تقرره الشريعه الإسلاميه كالقصاص للجانى،و القطع للسارق،و الجلد أو الرجم للزانى إلى غير ذلك من أحكام السياسات و غيرها و يشمل الجزاء الأخروى الذى أوعده الله تعالى فى كتابه و بلسان نبيه.

و هذا التعميم هو المناسب لمورد الآيات الكريمه و المنطبق عليه،و قد ورد فى سبب النزول أن الآيات نزلت فى سرقه ارتكبها بعض،و رمى بها يهوديا أو مسلما ثم ألحوا على النبى ص أن يقضى على المتهم.

و قوله «وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً» يشمل الولى و النصير فى صرف الجزاء السيئ عنه فى الدنيا كالنبى ص أو ولى الأمر و كالتقرب منهما و كرامه الإسلام و الدين،فالجزاء المشرع من عند الله لا يصرفه عن عامل السوء صارف،و يشمل الولى و النصير الصارف عنه سوء الجزاء فى الآخره إلا ما تشمله الآيه التاليه.

قوله تعالى :«وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً» هذا هو الشق الثانى المتضمن لجزاء عامل العمل الصالح و هو الجنه،غير أن الله سبحانه شرط فيه شرطا يوجب تضييقا فى فعليه الجزاء و عمم فيه من جهه أخرى توجب السعه.

فشرط فى المجازاه بالجنه أن يكون الآتى بالعمل الصالح مؤمنا إذ الجزاء الحسن إنما هو بإزاء العمل الصالح و لا عمل للكافر،قال تعالى: وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» :(الأنعام:٨٨)،و قال تعالى:« أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ وَزْناً» :(الكهف:١٠٥).

قال تعالى: «وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ» فأتى بمن التبعيضيه،و هو توسعه فى الوعد بالجنه،و لو قيل:و من يعمل الصالحات-و المقام مقام الدقه فى الجزاء-أفاد أن الجنه لمن آمن و عمل كل عمل صالح،لكن الفضل الإلهى عمم الجزاء الحسن لمن آمن و أتى ببعض الصالحات فهو يتداركه فيما بقى من الصالحات أو اقترف من المعاصى بتوبه أو شفاعه كما قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ»: (النساء:١١٦) و قد تقدم تفصيل الكلام فى التوبه و فى قوله تعالى :«إِنَّمَا التَّوْبَهُ عَلَى اللَّهِ» :(النساء:١٧)

فی الجزء الرابع،و فی الشفاعه فی قوله تعالی «وَ اتَّقُوا یَوْماً لاٰ تَجْزِی نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَیْئاً» :

(البقره:۴۸)فی الجزء الأول من هذا الکتاب.

و قال تعالی: «مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثیٰ» فعمم الحکم للذکر و الأنثی من غیر فرق أصلا خلافا لما کانت تزعمه القدماء من أهل الملل و النحل کالهند و مصر و سائر الوثنیین أن النساء لا عمل لهن و لا ثواب لحسناتهن،و ما کان یظهر من الیهودیه و النصرانیه أن الکرامه و العزه للرجال،و أن النساء أذلاء عند الله نواقص فی الخلقه خاسرات فی الأجر و المثوبه، و العرب لا تعدو فیهن هذه العقائد فسوی الله تعالی بین القبیلین بقوله «مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثیٰ» .

و لعل هذا هو السر فی تعقیب قوله «فَأُولٰئِکَ یَدْخُلُونَ الْجَنَّهَ» بقوله «وَ لاٰ یُظْلَمُونَ نَقِیراً» لتدل الجمله الأولی علی أن النساء ذوات نصیب فی المثوبه کالرجال،و الجمله الثانیه علی أن لا فرق بینهما فیها من حیث الزیاده و النقیصه کما قال تعالی: «فَاسْتَجٰابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّی لاٰ أُضِیعُ عَمَلَ عٰامِلٍ مِنْکُمْ مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثیٰ بَعْضُکُمْ مِنْ بَعْضٍ» :(آل عمران:۱۹۵).

قوله تعالی:« وَ مَنْ أَحْسَنُ دِیناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ» (إلی آخر الآیه) کأنه دفع لدخل مقدر،تقدیره:أنه إذا لم یکن لإسلام المسلم أو لإیمان أهل الکتاب تأثیر فی جلب الخیر إلیه و حفظ منافعه و بالجمله إذا کان الإیمان بالله و آیاته لا یعدل شیئا و یستوی وجوده و عدمه فما هو کرامه الإسلام و ما هی مزیه الإیمان؟.

فأجیب بأن کرامه الدین أمر لا یشوبه ریب،و لا یداخله شک و لا یخفی حسنه علی ذی لب و هو قوله «وَ مَنْ أَحْسَنُ دِیناً»، حیث قرر بالاستفهام علی طریق إرسال المسلم فإن الإنسان لا مناص له عن الدین،و أحسن الدین إسلام الوجه لله الذی له ما فی السماوات و ما فی الأرض،و الخضوع له خضوع العبودیه،و العمل بما یقتضیه مله إبراهیم حنیفا و هو المله الفطریه،و قد اتخذ الله سبحانه إبراهیم الذی هو أول من أسلم وجهه لله محسنا و اتبع المله الحنیفیه خلیلا.

لکن لا ینبغی أن یتوهم أن الخله الإلهیه کالخله الدائره بین الناس الحاکمه بینهم علی کل حق و باطل التی یفتح لهم باب المجازفه و التحکم فالله سبحانه مالک غیر مملوک و محیط غیر محاط بخلاف الموالی و الرؤساء و الملوک من الناس فإنهم لا یملکون من عبیدهم و رعایاهم شیئا إلا و یملکونهم من أنفسهم شیئا بإزائه،و یقهرون البعض بالبعض،

و يحكمون على طائفه بالأعضاد من طائفه أخرى و لذلك لا يثبتون فى مقامهم إذا خالفت إرادتهم إراده الكل بل سقطوا عن مقامهم و بان ضعفهم.

و من هنا يظهر الوجه فى تعقيب قوله «وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً (إلخ)بقوله« وَ لِلَّهِ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ وَ كٰانَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً» .

(بحث روائى)

فى تفسير القمى،: أن سبب نزولها(يعنى قوله تعالى« إِنّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ» الآيات)أن قوما من الأنصار من بنى أبيرق-إخوه ثلاثه كانوا منافقين:بشير،و بشر، و مبشر.فنقبوا على عم قتاده بن النعمان-و كان قتاده بدريا-و أخرجوا طعاما كان أعده لعياله و سيفا و درعا.

فشكا قتاده ذلك إلى رسول الله ص فقال:يا رسول الله إن قوما نقبوا على عمى، و أخذوا طعاما كان أعده لعياله و سيفا و درعا،و هم أهل بيت سوء،و كان معهم فى الرأى رجل مؤمن يقال له:«لبيد بن سهل»فقال بنو أبيرق لقتاده هذا عمل لبيد بن سهل،فبلغ ذلك لبيدا فأخذ سيفه و خرج عليهم-فقال:يا بنى أبيرق أ ترموننى بالسرقه؟ و أنتم أولى به منى، و أنتم المنافقون تهجون رسول الله،و تنسبون إلى قريش،لتبينن ذلك أو لأملأن سيفى منكم،فداروه-و قالوا له:ارجع يرحمك الله فإنك برىء من ذلك.

فمشى بنو أبيرق إلى رجل من رهطهم يقال له:«أسيد بن عروه»و كان منطقيا بليغا فمشى إلى رسول الله ص-فقال يا رسول الله-إن قتاده بن النعمان عمد إلى أهل بيت منا-أهل شرف و حسب و نسب فرماهم بالسرق-و اتهمهم بما ليس فيهم فاغتم رسول الله ص لذلك،و جاءه قتاده فأقبل عليه رسول الله ص فقال له:عمدت إلى أهل بيت شرف و حسب و نسب فرميتهم بالسرقه،و عاتبه عتابا شديدا فاغتم قتاده من ذلك، و رجع إلى عمه و قال له:يا ليتنى مت و لم أكلم رسول الله فقد كلمنى بما كرهته.فقال عمه:الله المستعان.

فأنزل الله فى ذلك على نبيه ص« إِنّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ- -إلى أن قال- إِذْ يُبَيِّتُونَ مٰا لاٰ يَرْضىٰ مِنَ الْقَوْلِ »(قال القمى)يعنى الفعل) فوقع القول مقام الفعل

«ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَياهِ الدُّنْيا-

إلى أن قال- وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَهً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً» (قال القمى)لبيد بن سهل «فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً» .

و فى تفسير القمى:فى روايه أبى الجارود عن أبى جعفر(ع): أن إنسانا من رهط بشير الأدنين-قالوا:انطلقوا بنا إلى رسول الله ص،و قالوا:نكلمه فى صاحبنا-أو نعذره أن صاحبنا برىء فلما أنزل الله- يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ- إلى قوله -وَكِيلًا» أقبلت رهط بشر فقالوا:يا بشر استغفر الله و تب إليه من الذنوب.فقال:و الذى أحلف به ما سرقها إلا لبيد فنزلت« وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَهً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً-فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً ».

ثم إن بشرا كفر و لحق بمكه،و أنزل الله فى النفر الذين أعذروا بشرا-و أتوا النبى ص ليعذروه قوله« وَ لَوْ لا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَهٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ -إلى قوله- وَ كانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً» .

و فى الدر المنثور:أخرج الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و صححه عن قتاده بن النعمان قال": كان أهل بيت منا يقال لهم«بنو أبيرق»،بشر،و بشير،و مبشر.و كان بشر رجلا منافقا يقول الشعر-يهجو به أصحاب رسول الله ص ثم ينحله بعض العرب-ثم يقول:قال فلان كذا و كذا،قال فلان كذا و كذا،و إذا سمع أصحاب رسول الله ص ذلك الشعر-قالوا:و الله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث-فقال:

أ و كلما قال الرجال قصيده

أضموا فقالوا ابن الأبيرق قالها

قال:و كانوا أهل بيت حاجه-و فاقه فى الجاهليه و الإسلام،و كان الناس إنما طعامهم بالمدينه التمر و الشعير،و كان الرجل إذا كان له يسار-فقدمت ضافطه (۱)من الشام من الدرمك (۲)ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه،أما العيال فإنما طعامهم التمر و الشعير.

فقدمت ضافطه من الشام فابتاع عمى رفاعه بن زيد-حملا من الدرمك فجعله فى

۱- ۱) الضافطه:الإبل الحموله.

۲- ۲) الدرمك:الدقيق الحوارى أى الأبيض الناهم.

مشربه له، (۱)و فی المشربه سلاح له:درعان،و سیفاهما، و ما یصلحهما.فعدا عدی من تحت اللیل فنقب المشربه،و أخذ الطعام و السلاح،فلما أصبح أتانی عمی رفاعه فقال:

یا ابن أخی-تعلم أنه قد عدی علینا فی لیلتنا هذه-فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا و سلاحنا؟.

قال:فتجسسنا فی الدار و سألنا،فقیل لنا:قد رأینا بنی أبیرق قد استوقدوا فی هذه اللیله،و لا نری فیما نری إلا علی بعض طعامکم،قال:و قد کان بنو أبیرق قالوا -و نحن نسأل فی الدار:و الله ما نری صاحبکم إلا لبید بن سهل-رجلا منا له صلاح و إسلام-فلما سمع ذلک لبید اخترط سیفه-ثم أتی بنو أبیرق و قال:أنا أسرق؟فوالله لیخالطنکم هذا السیف-أو لتبینن هذه السرقه.قالوا:إلیک عنا أیها الرجل فوالله ما أنت بصاحبها،فسألنا فی الدار حتی لم نشک أنهم أصحابها،فقال لی عمی:یا ابن أخی-لو أتیت رسول الله ص فذکرت ذلک له!.

قال قتاده:فأتیت رسول الله ص-فقلت:یا رسول الله إن أهل بیت منا أهل جفاء-عمدوا إلی عمی رفاعه بن زید فنقبوا مشربه له،و أخذوا سلاحه و طعامه فلیردوا علینا سلاحنا-فأما الطعام فلا حاجه لنا فیه،فقال رسول الله ص:سأنظر فی ذلک.

فلما سمع ذلک بنو أبیرق أتوا رجلا منهم-یقال له«أسیر بن عروه»فکلموه فی ذلک و اجتمع إلیه ناس من أهل الدار-فأتوا رسول الله ص فقالوا:یا رسول الله-إن قتاده بن النعمان و عمه عمدا إلی أهل بیت منا-أهل إسلام و صلاح یرمیانهم بالسرقه من غیر بینه و لا ثبت.

قال قتاده:فأتیت رسول الله ص فکلمته،فقال:عمدت إلی أهل بیت ذکر منهم إسلام و صلاح- ترمیهم بالسرقه من غیر بینه و لا ثبت؟.

قال قتاده:فرجعت و لوددت أنی خرجت من بعض مالی،و لم أکلم رسول الله ص فی ذلک،فأتانی عمی رفاعه فقال،یا ابن أخی ما صنعت؟فأخبرته بما قال لی رسول الله ص فقال:الله المستعان.

فلم نلبث أن نزل القرآن «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَیْکَ الْکِتَابَ بِالْحَقِّ-لِتَحْکُمَ بَیْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاکَ اللَّهُ وَ لَا تَکُنْ لِلْخَائِنِینَ خَصِیماً- -بنی أبیرق- وَ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ- أی مما قلت لقتاده-

---

۱- ۱) المشربه:الغرفه التی یشرب فیها.

إِنَّ اللّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً- وَ لا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ

-إلى قوله ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَحِيماً -أى إنهم لو استغفروا الله لغفر لهم- وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً- إلى قوله- فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً- -قولهم للبيد- وَ لَوْ لا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ- -يعنى أسير بن عروه و أصحابه إلى قوله- فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً» -فلما نزل القرآن أتى رسول الله ص بالسلاح-فرده إلى رفاعه-.

قال قتاده:فلما أتيت عمى بالسلاح،و كان شيخا قد عسا فى الجاهليه-و كنت أرى إسلامه مدخولا-فلما أتيته بالسلاح قال:يا ابن أخى هو سبيل الله-فعرفت أن إسلامه كان صحيحا.

فلما نزل القرآن لحق بشر بالمشركين-فنزل على سلافه بنت سعد فأنزل الله: «وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى-وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلّى -إلى قوله- ضَلالاً بَعِيداً» -فلما نزل على سلافه رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر- فأخذت رحله فوضعته على رأسها-ثم خرجت فرمت به فى الأبطح-ثم قالت:أهديت لى شعر حسان؟ ما كنت تأتينى بخير.

أقول:و هذا المعنى مروى بطرق أخر.

و فيه:أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى الآيه قال": كان رجل سرق درعا من حديد فى زمان النبى ص-طرحه على يهودى:فقال اليهودى-و الله ما سرقتها يا أبا القاسم،و لكن طرحت على-و كان الرجل الذى سرق جيران يبرءونه-و يطرحونه على اليهودى-و يقولون:

يا رسول الله إن هذا اليهودى خبيث-يكفر بالله و بما جئت به-حتى مال عليه النبى ص ببعض القول-.

فعاتبه الله فى ذلك فقال: «إِنّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ-لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِما أَراكَ اللّهُ وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً- وَ اسْتَغْفِرِ اللّهَ- مما قلت لهذا اليهودى- إِنَّ اللّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً» -ثم أقبل على جيرانه فقال:« ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ -إلى قوله- وَكِيلاً» ثم عرض التوبه فقال:« وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ-يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَحِيماً- وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ» -فما أدخلكم أنتم أيها الناس على خطيئه هذا-تكلمون دونه «وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً-ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً- و إن كان

مشركا- فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً- إلى قوله- وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى» - قال:أبى أن يقبل التوبه التى عرض الله له،و خرج إلى المشركين بمكه فنقب بيتا يسرقه- فهدمه الله عليه فقتله.

أقول:و هذا المعنى أيضا مروى بطرق كثيره مع اختلاف يسير فيها.

و فى تفسير العياشى،عن رسول الله ص: ما من عبد أذنب ذنبا فقام و توضأ- و استغفر الله من ذنبه-إلا كان حقيقا على الله أن يغفر له لأنه يقول:« مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ-يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً ».

و قال:إن الله ليبتلى العبد و هو يحبه ليسمع تضرعه،و قال ما كان الله ليفتح باب الدعاء-و يغلق باب الإجابه لأنه يقول:« اُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» و ما كان ليفتح باب التوبه-و يغلق باب المغفره و هو يقول:« مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ-ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً».

و فيه،عن عبد الله بن حماد الأنصارى عن عبد الله بن سنان قال:قال أبو عبد الله (ع): الغيبه أن تقول فى أخيك ما هو فيه-مما قد ستره الله عليه،فأما إذا قلت ما ليس فيه فذلك قول الله« فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً»

و فى تفسير القمى،: فى قوله تعالى« لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ» (الآيه):قال:

حدثنى أبى عن ابن أبى عمير عن حماد عن الحلبى عن أبى عبد الله(ع)قال:إن الله فرض التمحل فى القرآن-قلت:و ما التمحل جعلت فداك؟قال:أن يكون وجهك أعرض من وجه أخيك فتمحل له،و هو قول الله «لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ»

و فى الكافى،بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبى الجارود قال:قال أبو جعفر (ع): إذا حدثتكم بشىء فاسألونى عنه من كتاب الله.ثم قال فى بعض حديثه:

إن رسول الله ص نهى عن القيل و القال،و فساد المال و كثره السؤال.فقيل له:يا ابن رسول الله أين هذا من كتاب الله؟قال:إن الله عز و جل يقول:« لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ-أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النّاسِ» -و قال:« وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً» -و قال: «لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ».

و فی تفسیر العیاشی،عن إبراهیم بن عبد الحمید عن بعض المعتمدین عن أبی عبد الله (ع): فی قوله «لاٰ خَیْرَ فِی کَثِیرٍ مِنْ نَجْوٰاهُمْ إِلاّٰ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَهٍ-أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاٰحٍ بَیْنَ النّٰاسِ» -یعنی بالمعروف القرض.

أقول:و رواه القمی أیضا فی تفسیره بهذا الإسناد،و هذا المعنی مروی من طرق أهل السنه أیضا،و علی أی حال فهو من قبیل الجری و ذکر بعض المصادیق.

و فی الدر المنثور:أخرج مسلم و الترمذی و النسائی و ابن ماجه و البیهقی عن سفیان بن عبد الله الثقفی قال: قلت:یا رسول الله مرنی بأمر أعتصم به فی الإسلام-قال:قل:

آمنت بالله ثم استقم،قلت یا رسول الله ما أخوف ما تخاف علی؟قال:هذا،و أخذ رسول الله ص بطرف لسان نفسه.

أقول:و الأخبار فی ذم کثره الکلام و مدح الصمت و السکوت و ما یتعلق بذلک کثیره جدا مرویه فی جوامع الشیعه و أهل السنه.

و فیه:أخرج أبو نصر السجزی فی«الإبانه»عن أنس قال: جاء أعرابی إلی النبی ص فقال له النبی ص:إن الله أنزل علی فی القرآن یا أعرابی« لاٰ خَیْرَ فِی کَثِیرٍ مِنْ نَجْوٰاهُمْ -إلی قوله- فَسَوْفَ نُؤْتِیهِ أَجْراً عَظِیماً» -یا أعرابی الأجر العظیم الجنه.قال الأعرابی:الحمد لله الذی هدانا للإسلام

و فیه،: فی قوله تعالی «وَ مَنْ یُشٰاقِقِ الرَّسُولَ» (الآیه):أخرج الترمذی و البیهقی فی الأسماء و الصفات عن ابن عمر قال:قال رسول الله ص:لا یجمع الله هذه الأمه علی الضلاله أبدا-و ید الله علی الجماعه فمن شذ شذ فی النار

و فیه:أخرج الترمذی و البیهقی عن ابن عباس أن النبی ص قال: لا یجمع الله أمتی-أو قال-هذه:الأمه-علی الضلاله أبدا-و ید الله علی الجماعه.

أقول:الروایه من المشهورات و قد رواها الهادی(ع)عن النبی ص فی رسالته إلی أهل الأهواز علی ما فی ثالث البحار،و قد تقدم الکلام فی معنی الروایه فی البیان السابق.

و فی تفسیر العیاشی،عن حریز عن بعض أصحابنا عن أحدهما(ع)قال: لما

کـان أمیر المؤمنین(ع)فی الکوفه أتـاه النـاس فقـالوا:اجعـل لنـا إماما یؤمنا فی شـهر رمضان.فقال:لا، و نهاهم أن یجتمعوا فیه.فلما أمسوا جعلوا یقولون:ابکوا فی رمضـان،وا رمضانـاه،فأتـاه الحـارث الأـعور فی أنـاس فقـال:یـا أمیر المؤمنین ضـج الناس و کرهوا قولک،فقال عند ذلک:دعوهم و ما یریدون لیصلی بهم من شاء و ائتم-قال:

فمن «یَتَّبِعْ غَیْرَ سَبِیلِ الْمُؤْمِنِینَ نُوَلِّهِ مٰا تَوَلّٰی-وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ سٰاءَتْ مَصِیراً».

و فی الـدر المنثـور،: فی قـوله تعـالی «وَ مَـنْ أَصْـدَقُ مِـنَ اللّٰـهِ قِیلاً» (الآـیه):أخرج الـبیهقی فی الـدلائل عـن عقبـه بن عـامر-فی حدیث:خروج رسول الله ص إلی غزوه تبوک، و فیه-فأصبح بتبوک فحمد الله و أثنی علیه بما هو أهله ثم قال.

أما بعـد فإن أصـدق الحـدیث کتاب الله،و أوثق العری کلمه التقوی،و خیر الملل مله إبراهیم،و خیر السـنن سـنه محمد،و أشـرف الحـدیث ذکر الله،و أحسن القصـص هـذا القرآن،و خیر الأمور عوازمها،و شـر الأمور محـدثاتها،و أحسن الهدی هدی الأنبیاء، و أشـرف الموت قتـل الشـهداء،و أعمی العمی الضـلاله بعـد الهـدی،و خیر العلم مـا نفع، و خیر الهـدی مـا اتبع،و شـر العمی عمی القلب،و الید العلیا خیر من الید السـفلی،و ما قل و کفی خیر مما کثر و ألهی،و شـر المعذره حین یحضر الموت،و شر الندامه یوم القیـامه، و من الناس من لا یأتی الصـلاه إلا دبرا-و منهم من لا یـذکر الله إلا هجرا،و أعظم الخطایا اللسان الکـذوب،و خیر الغنی غنی النفس،و خیر الزاد التقـوی،و رأس الحکمـه مخـافه الله عز و جـل،و خیر مـا وقر فی القلـوب الیقیـن،و الارتیـاب من الکفر،و النیـاحه من عمـل الجـاهلیه،و الغلول من جثا جهنم،و الکنز کی من النار،و الشـعر من مزامیر إبلیس، و الخمر جماع الإثم،و النساء حباله الشـیطان،و الشـباب شعبه من الجنون،و شر المکاسب کسب الربا،و شر المأکل مال الیتیم،و السعید من وعظ بغیره،و الشقی من شـقی فی بطن أمه،و إنمـا یصـیر أحـدکم إلی موضع أربع أذرع،و الأـمر بـآخره،و ملاـک العمـل خواتمه،و شـر الروایـا روایا الکـذب،و کـل مـا هو آت قریب،و سـباب المؤمن فسوق، و قتـال المؤمن کفر،و أکل لحمه من معصـیه الله،و حرمه ماله کحرمه دمه،و من یتـأل علی الله یکـذبه،و من یغفر یغفر له،و من یعف یعف الله عنه،و من یکظم الغیـظ یأجره الله،و من یصبر علی الرزیه یعوضه الله،و من یبتغ السمعه یسمع الله به،و من یصبر یضعف الله له و من یعص الله یعذبه الله،اللهم اغفر لی و لأمتی-قالها ثلاثا-

أستغفر الله لی و لکم.

و فی تفسیر العیاشی،عن محمد بن یونس عن بعض أصحابه عن أبی عبد الله(ع) و عن جابر عن أبی جعفر(ع): فی قول الله «وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ» -قال:

أمر الله بما أمر به.

و فیه،عن جابر عن أبی جعفر(ع): فی قول الله: «وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ »قال:دین الله.

أقول:و مآل الروایتین واحد،و هو ما تقدم فی البیان السابق أنه دین الفطره.

و فی المجمع،: فی قوله «فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ »قال:لیقطعوا الأذان من أصلها.

قال:و هو المروی عن أبی عبد الله(ع)

و فی تفسیر العیاشی،: فی قوله تعالی «لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ» (الآیه):عن محمد بن مسلم عن أبی جعفر(ع)قال:لما نزلت هذه الآیه «مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ »قال بعض أصحاب رسول الله ص:ما أشدها من آیه،فقال لهم رسول الله ص-أ ما تبتلون فی أموالکم و أنفسکم و ذراریکم؟قالوا:بلی،قال:مما یکتب الله لکم به الحسنات و یمحو به السیئات.

أقول:و هذا المعنی مروی بطرق کثیره فی جوامع أهل السنه عن الصحابه.

و فی الدر المنثور:أخرج أحمد و البخاری و مسلم و الترمذی عن أبی سعید الخدری قال:قال رسول الله ص: ما یصیب المؤمن من نصب و لا وصب و لا هم- و لا حزن و لا أذی و لا غم-حتی الشوکه یشاکها إلا کفر الله من خطایاه.

أقول:و هذا المعنی مستفیض عن النبی و أئمه أهل البیت(ع).

و فی العیون،بإسناده عن الحسین بن خالد عن أبی الحسن الرضا(ع)قال:سمعت أبی یحدث عن أبیه(ع)أنه قال: إنما اتخذ الله إبراهیم خلیلا لأنه لم یرد أحدا،و لم یسأل أحدا قط غیر الله عز و جل.

أقول:و هذا أصح الروایات فی تسمیته(ع)بالخیل لموافقته لمعنی اللفظ،و هو الحاجه فخلیلک من رفع إلیک حوائجه،و هناک وجوه أخر مرویه

[سوره النساء (۴): الآیات ۱۲۷ الی ۱۳۴]

اشاره

وَ یَسْتَفْتُونَکَ فِی اَلنِّسٰاءِ قُلِ اَللّٰهُ یُفْتِیکُمْ فِیهِنَّ وَ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ فِی اَلْکِتٰابِ فِی یَتٰامَی اَلنِّسٰاءِ اَللاّٰتِی لاٰ تُؤْتُونَهُنَّ مٰا کُتِبَ لَهُنَّ وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْکِحُوهُنَّ وَ اَلْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ اَلْوِلْدٰانِ وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْیَتٰامیٰ بِالْقِسْطِ وَ مٰا تَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ فَإِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ بِهِ عَلِیماً (۱۲۷) وَ إِنِ اِمْرَأَهٌ خٰافَتْ مِنْ بَعْلِهٰا نُشُوزاً أَوْ إِعْرٰاضاً فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَیْهِمٰا أَنْ یُصْلِحٰا بَیْنَهُمٰا صُلْحاً وَ اَلصُّلْحُ خَیْرٌ وَ أُحْضِرَتِ اَلْأَنْفُسُ اَلشُّحَّ وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِیراً (۱۲۸) وَ لَنْ تَسْتَطِیعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَیْنَ اَلنِّسٰاءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ فَلاٰ تَمِیلُوا کُلَّ اَلْمَیْلِ فَتَذَرُوهٰا کَالْمُعَلَّقَهِ وَ إِنْ تُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ غَفُوراً رَحِیماً (۱۲۹) وَ إِنْ یَتَفَرَّقٰا یُغْنِ اَللّٰهُ کُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَ کٰانَ اَللّٰهُ وٰاسِعاً حَکِیماً (۱۳۰) وَ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ لَقَدْ وَصَّیْنَا اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ إِیّٰاکُمْ أَنِ اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ کٰانَ اَللّٰهُ غَنِیًّا حَمِیداً (۱۳۱) وَ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ وَکِیلاً (۱۳۲) إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ أَیُّهَا اَلنّٰاسُ وَ یَأْتِ بِآخَرِینَ وَ کٰانَ اَللّٰهُ عَلیٰ ذٰلِکَ قَدِیراً (۱۳۳) مَنْ کٰانَ یُرِیدُ ثَوٰابَ اَلدُّنْیٰا فَعِنْدَ اَللّٰهِ ثَوٰابُ اَلدُّنْیٰا وَ اَلْآخِرَهِ وَ کٰانَ اَللّٰهُ سَمِیعاً بَصِیراً (۱۳۴)

(بيان)

الكلام معطوف إلى ما فى أول السوره من الآيات النازله فى أمر النساء من آيات الازدواج و التحريم و الإرث و غير ذلك،الـذى يفيـده السياق أن هـذه الآيات إنما نزلت بعد تلك الآيات،و أن الناس كلموا رسول الله ص فى أمر النساء حيثما نزلت آيات أول السوره فأحيت ما أماته الناس من حقوق النساء فى الأموال و المعاشرات و غير ذلك.

فأمره الله سبحانه أن يجيبهم أن الذى قرره لهن على الرجال من الأحكام إنما هو فتيا إلهيه ليس له فى ذلك من الأمر شىء،و لا ذاك وحده بل ما يتلى عليهم فى الكتاب فى يتامى النساء أيضا حكم إلهى ليس لرسول الله ص فيه شىء من الأمر،و لا ذاك وحده بل الله يأمرهم أن يقوموا فى اليتامى بالقسط.

ثم ذكر شيئا من أحكام الاختلاف بين المرأه و بعلها يعم به البلوى.

قوله تعالى .«وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ» قال الراغب: الفتيا و الفتوى الجواب عما يشكل من الأحكام،و يقال:استفتيته فأفتانى بكذا(انتهى).

و المحصل من موارد استعماله أنه جواب الإنسان عن الأمور المشكله بما يراه باجتهاد من نظره أو هو نفس ما يراه فيما يشكل بحسب النظر البدائى الساذج كما يفيده نسبه الفتوى إليه تعالى.

و الآيه و إن احتملت معانى شتى مختلفه بالنظر إلى ما ذكروه من مختلف الوجوه فى تركيب ما يتلوها من قوله «وَ مٰا يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتٰابِ فِي يَتٰامَى النِّسٰاءِ» (إلخ)إلا أن ضم الآيه إلى الآيات الناظره فى أمر النساء فى أول السوره يشهد بأن هذه الآيه إنما نزلت بعد تلك.

و لازم ذلك أن يكون استفتاؤهم فى النساء فى عامه ما أحدثه الإسلام و أبدعه من أحكامهن مما لم يكن معهودا معروفا عندهم فى الجاهليه و ليس إلا ما يتعلق بحقوق النساء فى الإرث و الازدواج دون أحكام يتاماهن و غير ذلك مما يختص بطائفه منهن دون جميعهن فإن هذا المعنى إنما يتكفله قوله «وَ مٰا يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتٰابِ فِي يَتٰامَى النِّسٰاءِ» إلخ فالاستفتاء إنما كان فى ما يعم النساء بما هن نساء من أحكام الإرث.

و على هذا فالمراد بما أفتاه الله فيهن فى قوله «قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ» ما بينه تعالى

فی آیات أول السوره،و یفید الکلام حینئذ إرجاع أمر الفتوی إلی الله سبحانه و صرفه عن النبی ص و المعنی:یسألونک أن تفتیهم فی أمرهن قل:الفتوی إلی الله و قد أفتاکم فیهن بما أفتی فیما أنزل من آیات أول السوره.

قوله تعالی: «وَ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ فِی الْکِتٰابِ فِی یَتٰامَی النِّسٰاءِ- إلی قوله- وَ الْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ الْوِلْدٰانِ» تقدم أن ظاهر السیاق أن حکم یتامی النساء و المستضعفین من الولدان أنما تعرض له لاتصاله بحکم النساء کما وقع فی آیات صدر السوره لا لکونه داخلا فیما استفتوا عنه و إنهم إنما استفتوا فی النساء فحسب.

و لازمه أن یکون قوله «وَ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ»، معطوفا علی الضمیر المجرور فی قوله «فِیهِنَّ» علی ما جوزه الفراء و إن منع عنه جمهور النحاه،و علی هذا یکون المراد من قوله «مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ فِی الْکِتٰابِ فِی یَتٰامَی النِّسٰاءِ» (إلخ)الأحکام و المعانی التی تتضمنها الآیات النازله فی یتامی النساء و الولدان،المودعه فی أول السوره.و التلاوه کما یطلق علی اللفظ یطلق علی المعنی إذا کان تحت اللفظ،و المعنی:قل الله یفتیکم فی الأحکام التی تتلی علیکم فی الکتاب فی یتامی النساء.

و ربما یظهر من بعضهم أنه یعطف قوله «وَ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ»، علی موضع قوله «فِیهِنَّ» بعنایه أن المراد بالإفتاء هو التبیین،و المعنی:قل الله یبین لکم ما یتلی علیکم فی الکتاب.

و ربما ذکروا للکلام تراکیب أخر لا تخلو عن تعسف لا یرتکب فی کلامه تعالی مثله کقول بعضهم:إن قوله «وَ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ» معطوف علی موضع اسم الجلاله فی قوله «قُلِ اللّٰهُ»، أو علی ضمیر المستکن فی قوله «یُفْتِیکُمْ»، و قول بعضهم:إنه معطوف علی «النِّسٰاءِ» فی قوله «فِی النِّسٰاءِ»، و قول بعضهم:إن الواو فی قوله «وَ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ فِی الْکِتٰابِ» للاستیناف،و الجمله مستأنفه،و مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ» مبتدأ خبره قوله «فِی الْکِتٰابِ» و الکلام مسوق للتعظیم،و قول بعضهم إن الواو فی قوله «وَ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ» للقسم و یکون قوله فِی یَتٰامَی النِّسٰاءِ» بدلا من قوله «فِیهِنَّ» و المعنی:قل الله یفتیکم-أقسم بما یتلی علیکم فی الکتاب-فی یتامی النساء(إلخ)و لا یخفی ما فی جمیع هذه الوجوه من التعسف الظاهر.

و أما قوله «اللاّٰتِی لاٰ تُؤْتُونَهُنَّ مٰا کُتِبَ لَهُنَّ وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْکِحُوهُنَّ» فوصف لیتامی

النساء،و فيه إشاره إلى نوع حرمانهن،الذى هو السبب لتشريع ما شرع الله تعالى لهن من الأحكام فألغى السنه الجائره الجاريه عليهن،و رفع الحرج بذلك عنهن،و ذلك أنهم كانوا يأخذون إليهم يتامى النساء و أموالهن فإن كانت ذات جمال و حسن تزوجوا بها فاستمتعوا من جمالها و مالها،و إن كانت شوهاء دميمه لم يتزوجوا بها و عضلوها عن التزوج بالغير طمعا فى مالها.

و من هنا يظهر(أولا).أن المراد بقوله «مٰا كُتِبَ لَهُنَّ» هو الكتابه التكوينيه و هو التقدير الإلهى فإن الصنع و الإيجاد هو الذى يخد للإنسان سبيل الحياه فيعين له أن يتزوج إذا بلغ مبلغه،و أن يتصرف حرا فى ماله من المال و القنيه،فمنعه من الازدواج و التصرف فى مال نفسه منع له مما كتب الله له فى خلقه هذه الخلقه.

و(ثانيا):أن الجار المحذوف فى قوله «أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ» هو لفظه«عن» و المراد الراغبه عن نكاحهن،و الإعراض عنهن لا الرغبه فى نكاحهن فإن التعرض لذكر الرغبه عنهن هو الأنسب للإشاره إلى حرمانهن على ما يدل عليه قوله قبله «لاٰ تُؤْتُونَهُنَّ مٰا كُتِبَ لَهُنَّ»، و قوله بعده «وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدٰانِ» .

و أما قوله «وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدٰانِ» فمعطوف على قوله «يَتٰامَى النِّسٰاءِ» و قد كانوا يستضعفون الولدان من اليتامى،و يحرمونهم من الإرث معتذرين بأنهم لا يركبون الخيل،و لا يدفعون عن الحريم.

قوله تعالى:« وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتٰامىٰ بِالْقِسْطِ» معطوف على محل قوله «فِيهِنَّ» و المعنى:قل الله يفتيكم أن تقوموا لليتامى بالقسط،و هذا بمنزله الإضراب عن الحكم الخاص إلى ما هو أعم منه أعنى الانتقال من حكم بعض يتامى النساء و الولدان إلى حكم مطلق اليتيم فى ماله و غير ماله.

قوله تعالى:« وَ مٰا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِهِ عَلِيماً» تذكره لهم بأن ما عزم الله عليهم فى النساء و فى اليتامى من الأحكام فيه خيرهم،و أن الله عليم به لتكون ترغيبا لهم فى العمل به لأن خيرهم فيه،و تحذيرا عن مخالفته لأن الله عليم بما يعملون.

قوله تعالى: «وَ إِنِ امْرَأَهٌ خٰافَتْ مِنْ بَعْلِهٰا نُشُوزاً أَوْ إِعْرٰاضاً»، حكم خارج عما استفتوا فيه لكنه متصل به بالمناسبه نظير الحكم المذكور فى الآيه التاليه «وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا

أَنْ تَعْدِلُوا»

.

و إنما اعتبر خوف النشوز و الإعراض دون نفس تحققهما لأن الصلح يتحقق موضوعه من حين تحقق العلائم و الآثار المعقبه للخوف،و السياق يدل على أن المراد بالصلح هو الصلح بغض المرأه عن بعض حقوقها فى الزوجيه أو جميعها لجلب الأنس و الألفه و الموافقه، و التحفظ عن وقوع المفارقه،و الصلح خير.

و قوله ،وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ» الشح هو البخل،معناه:أن الشح من الغرائز النفسانيه التى جبلها الله عليها لتحفظ به منافعها،و تصونها عن الضيعه،فما لكل نفس من الشح هو حاضر عندها،فالمرأه تبخل بما لها من الحقوق فى الزوجيه كالكسوه و النفقه و الفراش و الوقاع،و الرجل يبخل بالموافقه و الميل إذا أحب المفارقه،و كره المعاشره، و لا جناح عليهما حينئذ أن يصلحا ما بينهما بإغماض أحدهما أو كليهما عن بعض حقوقه.

ثم قال تعالى:« وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً» و هو موعظه للرجال أن لا يتعدوا طريق الإحسان و التقوى و ليتذكروا أن الله خبير بما يعملونه،و لا يحيفوا فى المعاشره،و لا يكرهوهن على إلغاء حقوقهن الحقه و إن كان لهن ذلك.

قوله تعالى :«وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ» بيان الحكم العدل بين النساء الذى شرع لهن على الرجال فى قوله تعالى فى أول السوره «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَواحِدَةً» :(النساء:٣) و كذا يومئ إليه قوله فى الآيه السابقه «وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا» (إلخ)فإنه لا يخلو من شوب تهديد،و هو يوجب الحيره فى تشخيص حقيقه العدل بينهن،و العدل هو الوسط بين الإفراط و التفريط،و من الصعب المستصعب تشخيصه،و خاصه من حيث تعلق القلوب تعلق الحب بهن فإن الحب القلبى مما لا يتطرق إليه الاختيار دائما.

فبين تعالى أن العدل بين النساء بحقيقه معناه،و هو اتخاذ حاق الوسط حقيقه مما لا يستطاع للإنسان و لو حرص عليه،و إنما الذى يجب على الرجل أن لا يميل كل الميل إلى أحد الطرفين و خاصه طرف التفريط فيذر المرأه كالمعلقه لا هى ذات زوج فتستفيد من زوجها،و لا هى أرمله فتتزوج أو تذهب لشأنها.

فالواجب على الرجل من العدل بين النساء أن يسوى بينهن عملا بإيتائهن حقوقهن

من غير تطرف،و المندوب عليه أن يحسن إليهن و لا يظهر الكراهه لمعاشرتهن و لا يسىء إليهن خلقا،و كذا كانت سيره رسول الله ص.

و هذا الذيل أعنى قوله« فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَهِ» هو الدليل على أن ليس المراد بقوله« وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ» نفى مطلق العدل حتى ينتج بانضمامه إلى قوله تعالى «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّ تَعْدِلُوا فَواحِدَهً» (الآيه)إلغاء تعدد الأزواج فى الإسلام كما قيل.

و ذلك أن الذيل يدل على أن المنفى هو العدل الحقيقى الواقعى من غير تطرف أصلا بلزوم حاق الوسط حقيقه،و أن المشرع هو العدل التقريبى عملا من غير تحرج.

على أن السنه النبويه و رواج الأمر بمرأى و مسمع من النبى ص و السيره المتصله بين المسلمين يدفع هذا التوهم.

على أن صرف قوله تعالى فى أول آيه تعدد الأزواج «فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ» :(النساء:٣)إلى مجرد الفرض العقلى الخالى عن المصداق ليس إلا تعميه يجل عنها كلامه سبحانه.

ثم قوله «وَ إِنْ تُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً» تأكيد و ترغيب للرجال فى الإصلاح عند بروز أمارات الكراهه و الخلاف ببيان أنه من التقوى،و التقوى يستتبع المغفره و الرحمه،و هذا بعد قوله «وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ»، و قوله« وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا»، تأكيد على تأكيد.

قوله تعالى:« وَ إِنْ يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ»، أى و إن تفرق الرجل و المرأه بطلاق يغن الله كلا منهما بسعته،و الإغناء بقرينه المقام إغناء فى جميع ما يتعلق بالازدواج من الايتلاف و الاستيناس و المس و كسوه الزوجه و نفقتها فإن الله لم يخلق أحد هذين الزوجين للآخر حتى لو تفرقا لم يوجد للواحد منهما زوج مدى حياته بل هذه السنه سنه فطريه فاشيه بين أفراد هذا النوع يميل إليها كل فرد بحسب فطرته.

و قوله «وَ كانَ اللّهُ واسِعاً حَكِيماً وَ لِلّهِ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ» تعليل للحكم المذكور فى قوله «يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ» .

قوله تعالى:« وَ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ إِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ»، تأكيد فى دعوتهم إلى مراعاه صفه التقوى فى جميع مراحل المعاشره الزوجيه،و فى كل حال،و أن فى تركه كفرا بنعمه الله بناء على أن التقوى الذى يحصل بطاعه الله ليس إلا شكرا لأنعمه،أو أن ترك تقوى الله تعالى لا منشأ له إلا الكفر إما كفر ظاهر كما فى الكفار و المشركين،أو كفر مستكن مستبطن كما فى الفساق من المؤمنين.

و بهذا الذى بيناه يظهر معنى قوله «وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّماواتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ»، أى إن لم تحفظوا ما وصينا به إياكم و الذين من قبلكم و أضعتم هذه الوصيه و لم تتقوا و هو كفر بالله،أو عن كفر بالله فإن ذلك لا يضر الله سبحانه إذ لا حاجه له إليكم و إلى تقواكم،و له ما فى السماوات و الأرض،و كان الله غنيا حميدا.

فإن قلت:ما وجه تكرار قوله «لِلَّهِ مَا فِي السَّماواتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ»؟ فقد أورد ثلاث مرات.

قلت:أما الأول فإنه تعليل لقوله «وَ كانَ اللَّهُ واسِعاً حَكِيماً»، و أما الثانى فإنه واقع موقع جواب الشرط فى قوله «وَ إِنْ تَكْفُرُوا»، و التقدير:و إن تكفروا فإنه غنى عنكم،و تعليل للجواب و قد ظهر فى قوله «وَ كانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً» .

و أما الثالث فإنه استيناف و تعليل بوجه لقوله «إِنْ يَشَأْ» .

قوله تعالى:« وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّماواتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا» قد مر بيان معنى ملكه تعالى مكررا،و هو تعالى وكيل يقوم بأمور عباده و شئونهم و كفى به وكيلا لا يحتاج فيه إلى اعتضاد و إسعاد،فلو لم يرتض أعمال قوم و أسخطه جريان الأمر بأيديهم أمكنه أن يذهب بهم و يأتى بآخرين،أو يؤخرهم و يقدم آخرين،و بهذا المعنى الذى يؤيده بل يدل عليه السياق يرتبط بما فى هذه الآيه قوله فى الآيه التاليه «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ .

قوله تعالى :«إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَ يَأْتِ بِآخَرِينَ ،السياق و هو الدعوه إلى ملازمه التقوى الذى أوصى الله به هذه الأمه و من قبلهم من أهل الكتاب يدل على أن إظهار الاستغناء و عدم الحاجه المدلول عليه بقوله «إِنْ يَشَأْ»، إنما هو فى أمر التقوى.

و المعنى أن الله وصاكم جميعا بملازمه التقوى فاتقوه،و إن كفرتم فإنه غنى عنكم

و هو المالك لكل شيء المتصرف فيه كيفما شاء و لما شاء إن يشأ أن يعبد و يتقى و لم تقوموا بذلك حق القيام فهو قادر أن يؤخركم و يقدم آخرين يقومون لما يحبه و يرتضيه،و كان الله على ذلك قديرا.

و على هذا فالآيه ناظره إلى تبديل الناس إن كانوا غير متقين بآخرين من الناس يتقون الله،و قد روى (۱)أن الآيه لما نزلت ضرب رسول الله ص يده على ظهر سلمان و قال:

إنهم قوم هذا.و هو يؤيد هذا المعنى،و عليك بالتدبر فيه.

و أما ما احتمله بعض المفسرين.أن المعنى:إن يشأ يفنكم و يوجد قوما آخرين مكانكم أو خلقا آخرين مكان الإنس،فمعنى بعيد عن السياق.نعم،لا بأس به فى مثل قوله تعالى:« أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ خَلَقَ السَّمـٰوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَ مٰا ذٰلِكَ عَلَى اللّهِ بِعَزِيزٍ» :(إبراهيم:۲۰).

قوله تعالى:« مَنْ كٰانَ يُرِيدُ ثَوٰابَ الدُّنْيٰا فَعِنْدَ اللّهِ ثَوٰابُ الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَهِ وَ كٰانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً» بيان آخر يوضح خطأ من يترك تقوى الله و يضيع وصيته بأنه إن فعل ذلك ابتغاء ثواب الدنيا و مغنمها فقد اشتبه عليه الأمر فإن ثواب الدنيا و الآخره معا عند الله و بيده،فما له يقصر نظره بأخس الأمرين و لا يطلب أشرفهما أو إياهما جميعا؟كذا قيل.

و الأظهر أن يكون المراد-و الله أعلم-أن ثواب الدنيا و الآخره و سعادتهما معا إنما هو عند الله سبحانه فليتقرب إليه حتى من أراد ثواب الدنيا و سعادتها فإن السعاده لا توجد للإنسان فى غير تقوى الله الحاصل بدينه الذى شرعه له فليس الدين إلا طريق السعاده الحقيقيه،فكيف ينال نائل ثوابا من غير إيتائه تعالى و إفاضته من عنده و كان الله سميعا بصيرا.

(بحث روائى)

فى الدر المنثور،أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال": كان لا يرث إلا الرجل الذى قد بلغ-أن يقوم فى المال و يعمل فيه،لا يرث الصغير و لا المرأه شيئا-فلما

۱- ۱) أوردها البيضاوى فى تفسيره.

نزلت المواريث فى سوره النساء-شق ذلك على الناس و قالوا:أ يرث الصغير الذى لا يقوم فى المال،و المرأه التى هى كذلك فيرثان كما يرث الرجل؟فرجوا أن يأتى فى ذلك حدث من السماء فانتظروا فلما رأوا أنه لا يأتى حدث قالوا لئن تم هذا إنه لواجب ما عنه بد،ثم قالوا:سلوا فسألوا النبى ص فأنزل الله« وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ-وَ مَا يُتْلى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ- فى أول السوره- فِي يَتامَى النِّساءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ-وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ» (الحديث).

و فيه:أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن إبراهيم فى الآيه قال": كانوا إذا كانت الجاريه يتيمه دميمه-لم يعطوها ميراثها،و حبسوها من التزويج حتى تموت-فيرثوها فأنزل الله هذا.

أقول:و هذه المعانى مرويه بطرق كثيره من طرق الشيعه و أهل السنه،و قد مر بعضها فى أوائل السوره.

و فى المجمع،: فى قوله تعالى« لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ» (الآيه).ما كتب لهن من الميراث: قال:و هو المروى عن أبى جعفر(ع):

و فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى« وَ إِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً» «الآيه):

نزلت فى بنت محمد بن مسلمه-كانت امرأه رافع بن خديج،و كانت امرأه قد دخلت فى السن،و تزوج عليها امرأه شابه-و كانت أعجب إليه من بنت محمد بن مسلمه-فقالت له بنت محمد بن مسلمه:أ لا أراك معرضا عنى مؤثرا على؟فقال رافع:هى امرأه شابه، و هى أعجب إلى-فإن شئت أقررت على أن لها يومين أو ثلاثا منى-و لك يوم واحد-فأبت بنت محمد بن مسلمه أن ترضى-فطلقها تطليقه ثم طلقها أخرى-فقالت:لا و الله لا أرضى أو تسوى بينى و بينها-يقول الله: «وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ» -و ابنه محمد لم تطلب نفسها بنصيبها،و شحت عليه،فأعرض عليها رافع إما أن ترضى،و إما أن يطلقها الثالثه فشحت على زوجها و رضيت-فصالحته على ما ذكرت فقال الله: فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ» -فلما رضيت و استقرت لم يستطع أن يعدل بينهما-فنزلت.

«وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ-فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَهِ»

- أن يأتى واحده،و يذر الأخرى-لا أيم و لا ذات بعل-و هذه السنه فيما كان كذلك-إذا

أقرت المرأه و رضيت على ما صالحها عليه زوجها،فلا جناح على الزوج و لا على المرأه، و إن أبت هى طلقها أو تساوى بينهما لا يسعه إلا ذلك:

أقول:و رواها فى الدر المنثور،عن مالك و عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم-و صححه-باختصار.

و فى الدر المنثور:أخرج الطيالسى و ابن أبى شيبه و ابن راهويه و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى عن على بن أبى طالب: أنه سئل عن هذه الآيه فقال:هو الرجل عنده امرأتان فتكون إحداهما قد عجزت-أو تكون دميمه فيريد فراقها-فتصالحه على أن يكون عندها ليله-و عند الأخرى ليالى و لا يفارقها،فما طابت به نفسها فلا بأس به فإن رجعت سوى بينهما.

و فى الكافى،بإسناده عن الحلبى عن أبى عبد الله(ع)قال: سألته عن قول الله عز و جل« وَ إِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً» فقال:هى المرأه تكون عند الرجل فيكرهها فيقول لها:إنى أريد أن أطلقك.فتقول له:لا تفعل إنى أكره أن تشمت بى-و لكن انظر فى ليلتى فاصنع بها ما شئت،و ما كان سوى ذلك من شيء فهو لك،و دعنى على حالتى فهو قوله تبارك و تعالى« فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً و هذا هو الصلح.

أقول:و فى هذا المعنى روايات أخر رواها فى الكافى،و فى تفسير العياشى.

و فى تفسير القمى،: فى قوله تعالى «وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ» قال:قال:أحضرت الشح فمنها ما اختارته،و منها ما لم تختره.

و فى تفسير العياشى،عن هشام بن سالم عن أبى عبد الله(ع): فى قول الله« وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ» قال:فى الموده.

و فى الكافى،بإسناده عن نوح بن شعيب و محمد بن الحسن قال: سأل ابن أبى العوجاء هشام بن الحكم،قال له.أ ليس الله حكيما؟قال:بلى هو أحكم الحاكمين.قال:فأخبرنى عن قوله« فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ-فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّ تَعْدِلُوا فَواحِدَةً» أ ليس هذا فرض؟قال:بلى،قال:فأخبرنى عن قوله« وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ-فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَهِ» -أى حكيم يتكلم

بهذا؟فلم يكن عنده جواب.

فرحل إلى المدينه إلى أبى عبد الله(ع)،فقال:فى غير وقت حج و لا عمره، قال:نعم جعلت فداك لأمر أهمنى-إن ابن أبى العوجاء سألنى عن مسأله لم يكن عندى فيها شىء،قال:و ما هى؟قال:فأخبره بالقصه-.

فقال له أبو عبد الله(ع)أما قوله عز و جل- «فَانْكِحُوا مٰا طٰابَ لَكُمْ مِنَ النِّسٰاءِ مَثْنىٰ وَ ثُلاٰثَ وَ رُبٰاعَ-فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّٰ تَعْدِلُوا فَوٰاحِدَهً» »يعنى فى النفقه،و أما قوله« وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسٰاءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ-فَلاٰ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهٰا كَالْمُعَلَّقَهِ» يعنى فى الموده.

قال.فلما قدم عليه هشام بهذا الجواب و أخبره-قال:و الله ما هذا من عندك أقول:و

روى أيضا نظير الحديث عن القمى،: أنه سأل بعض الزنادقه أبا جعفر الأحول-عن المسأله بعينها فسافر إلى المدينه-فسأل أبا عبد الله(ع)عنها،فأجابه بمثل الجواب-فرجع أبو جعفر إلى الرجل فأخبره-فقال هذا حملته من الحجاز.

و فى المجمع،: فى قوله تعالى «فَتَذَرُوهٰا كَالْمُعَلَّقَهِ» -أى تذرون التى لا تميلون إليها-كالتى هى لا ذات زوج و لا أيم:قال:و هو المروى عن أبى جعفر و أبى عبد الله(ع):

و فيه،عن النبى ص: أنه كان يقسم بين نسائه و يقول:اللهم هذه قسمتى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك و لا أملك.

أقول:و رواه الجمهور بعده طرق-و المراد بقوله«ما تملك و لا أملك»المحبه القلبيه لكن الروايه لا تخلو عن شىء فإن الله أجل من أن يلوم أحدا فى ما لا يملكه أصلا و قد قال تعالى. «لاٰ يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْساً إِلاّٰ مٰا آتٰاهٰا» :(الطلاق:٧)و النبى ص أعرف بمقام ربه من أن يسأله أن يوجد ما هو موجود.

و فى الكافى،مسندا عن ابن أبى ليلى قال:حدثنى عاصم بن حميد قال: كنت عند أبى عبد الله(ع)فأتاه رجل-فشكا إليه الحاجه فأمره بالتزويج-قال:فاشتدت به الحاجه- فأتى أبا عبد الله(ع)فسأله عن حاله-فقال:اشتدت بى الحاجه قال:فارق.ففارق- قال:ثم أتاه فسأله عن حاله-فقال:أثريت و حسن حالى فقال أبو عبد الله(ع):إنى أمرتك بأمرين أمر الله بهما قال الله عز و جل:« وَ أَنْكِحُوا الْأَيٰامىٰ مِنْكُمْ وَ الصّٰالِحِينَ

مِنْ عِبادِكُمْ وَ إِمائِكُمْ -إلى قوله -وَ اللّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ» -و قال:« وَ إِنْ يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ» .

[سوره النساء (۴): آیه ۱۳۵]

اشاره

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلّهِ وَ لَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللّهُ أَوْلى بِهِما فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۱۳۵)

(بیان)

قوله تعالى :«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلّهِ» القسط هو العدل،و القيام بالقسط العمل به و التحفظ له،فالمراد بالقوامين بالقسط القائمون به أتم قيام و أكمله، من غير انعطاف و عدول عنه إلى خلافه لعامل من هوى و عاطفه أو خوف أو طمع أو غير ذلك.

و هذه الصفه أقرب العوامل و أتم الأسباب لاتباع الحق و حفظه عن الضيعه،و من فروعها ملازمه الصدق فى أداء الشهاده و القيام بها.

و من هنا يظهر أن الابتداء بهذه الصفه فى هذه الآيه المسوقه لبيان حكم الشهاده ثم ذكر صفه الشهاده من قبيل التدرج من الوصف العام إلى بعض ما هو متفرع عليه كأنه قيل.كونوا شهداء لله،و لا يتيسر لكم ذلك إلا بعد أن تكونوا قوامين بالقسط فكونوا قوامين بالقسط حتى تكونوا شهداء لله.

و قوله «شُهَداءَ لِلّهِ» اللام فيه للغايه أى كونوا شهداء تكون شهادتكم لله كما قال تعالى:« وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلّهِ» :(الطلاق:۲)و معنى كون الشهاده لله كونها اتباعا للحق و لأجل إظهاره و إحيائه كما يوضحه قوله «فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا».

قوله تعالى.« وَ لَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ» أى و لو كانت على خلاف نفع

أنفسكم أو والديكم أو أقربائكم فلا يحملنكم حب منافع أنفسكم أو حب الوالدين و الأقربين أن تحرفوها أو تتركوها،فالمراد بكون الشهاده على النفس أو على الوالدين و الأقربين أن يكون ما تحمله من الشهاده لو أدى مضرا بحاله أو بحال والديه و أقربيه سواء كان المتضرر هو المشهود عليه بلا واسطه كما إذا تخاصم أبوه و إنسان آخر فشهد له على أبيه، أو يكون التضرر مع الواسطه كما إذا تخاصم اثنان و كان الشاهد متحملا لأحدهما ما لو أداه لتضرر به نفس الشاهد أيضا-كالمتخاصم الآخر-.

قوله تعالى:« إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلى بِهِما» إرجاع ضمير التثنيه إلى الغنى و الفقير مع وجود«أو»الترديديه لكون المراد بالغنى و الفقير هو المفروض المجهول الذى يتكرر بحسب وقوع الوقائع و تكررها فيكون غنيا فى واقعه،و فقيرا فى أخرى، فالترديد بحسب فرض البيان و ما فى الخارج تعدد،كذا ذكره بعضهم،فالمعنى أن الله أولى بالغنى فى غناه،و بالفقير فى فقره:و المراد-و الله أعلم-:لا يحملنكم غنى الغنى أن تميلوا عن الحق إليه،و لا فقر الفقير أن تراعوا حاله بالعدول عن الحق بل أقيموا الشهاده لله سبحانه ثم خلوا بينه و بين الغنى و الفقير فهو أولى بهما و أرحم بحالهما،و من رحمته أن جعل الحق هو المتبع واجب الاتباع،و القسط هو المندوب إلى إقامته،و فى قيام القسط و ظهور الحق سعاده النوع التى يقوم بها صلب الغنى،و يصلح بها حال الفقير.

و الواحد منهما و إن انتفع بشهاده محرفه أو متروكه فى شخص واقعه أو وقائع لكن ذلك لا يلبث دون أن يضعف الحق و يميت العدل،و فى ذلك قوه الباطل و حياه الجور و الظلم،و فى ذلك الداء العضال و هلاك الإنسانيه.

قوله تعالى:« فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا»، أى مخافه أن تعدلوا عن الحق و القسط باتباع الهوى و ترك الشهاده لله فقوله «أَنْ تَعْدِلُوا» مفعول لأجله و يمكن أن يكون مجرورا بتقدير اللام متعلقا بالاتباع أى لأن تعدلوا.

قوله تعالى:« وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً» اللى بالشهاده كنايه عن تحريفها من لى اللسان.و الإعراض ترك الشهاده من رأس.

و قرئ «وَ إِنْ تَلْوُوا» بضم اللام و إسكان الواو من ولى يلى ولايه،و المعنى:و إن وليتم أمر الشهاده و أتيتم بها أو أعرضتم فإن الله خبير بأعمالكم يجازيكم بها.

(بحث روائی)

فی تفسیر القمی،قال أبو عبد الله(ع): إن للمؤمن علی المؤمن سبع حقوق،فأوجبها أن یقول الرجل حقا-و لو کان علی نفسه أو علی والدیه فلا یمیل لهم عن الحق،ثم قال:

«فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوی-أَنْ تَعْدِلُوا وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا»

یعنی عن الحق.

أقول:و فیه تعمیم معنی الشهاده لقول الحق مطلقا بمعرفه عموم قوله« کُونُوا قَوّامِینَ بِالْقِسْطِ» .

و فی المجمع: ،قیل:معناه إن تلووا أی تبدلوا الشهاده- أو تعرضوا أی تکتموها:قال:

و هو المروی عن أبی جعفر(ع)

[سوره النساء (۴): الآیات ۱۳۶ الی ۱۴۷]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اَلْکِتابِ اَلَّذِی نَزَّلَ عَلی رَسُولِهِ وَ اَلْکِتابِ اَلَّذِی أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِاللّهِ وَ مَلائِکَتِهِ وَ کُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ اَلْیَوْمِ اَلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِیداً (۱۳۶) إِنَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا ثُمَّ کَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ کَفَرُوا ثُمَّ اِزْدادُوا کُفْراً لَمْ یَکُنِ اَللّهُ لِیَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِیَهْدِیَهُمْ سَبِیلاً (۱۳۷) بَشِّرِ اَلْمُنافِقِینَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِیماً (۱۳۸) اَلَّذِینَ یَتَّخِذُونَ اَلْکافِرِینَ أَوْلِیاءَ مِنْ دُونِ اَلْمُؤْمِنِینَ أَ یَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ اَلْعِزَّهَ فَإِنَّ اَلْعِزَّهَ لِلّهِ جَمِیعاً (۱۳۹) وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَیْکُمْ فِی اَلْکِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آیاتِ اَللّهِ یُکْفَرُ بِها وَ یُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتّی یَخُوضُوا فِی حَدِیثٍ غَیْرِهِ إِنَّکُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اَللّهَ جامِعُ اَلْمُنافِقِینَ وَ اَلْکافِرِینَ فِی جَهَنَّمَ جَمِیعاً (۱۴۰) اَلَّذِینَ یَتَرَبَّصُونَ بِکُمْ فَإِنْ کانَ لَکُمْ فَتْحٌ مِنَ اَللّهِ قالُوا أَ لَمْ نَکُنْ مَعَکُمْ وَ إِنْ کانَ لِلْکافِرِینَ نَصِیبٌ قالُوا أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَیْکُمْ وَ نَمْنَعْکُمْ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ فَاللّهُ یَحْکُمُ بَیْنَکُمْ یَوْمَ اَلْقِیامَهِ وَ لَنْ یَجْعَلَ اَللّهُ لِلْکافِرِینَ عَلَی اَلْمُؤْمِنِینَ سَبِیلاً (۱۴۱) إِنَّ اَلْمُنافِقِینَ یُخادِعُونَ اَللّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ وَ إِذا قامُوا إِلَی اَلصَّلاهِ قامُوا کُسالی یُراؤُنَ اَلنّاسَ وَ لا یَذْکُرُونَ اَللّهَ إِلاّ قَلِیلاً (۱۴۲) مُذَبْذَبِینَ بَیْنَ ذلِکَ لا إِلی هؤُلاءِ وَ لا إِلی هؤُلاءِ وَ مَنْ یُضْلِلِ اَللّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِیلاً (۱۴۳) یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا اَلْکافِرِینَ أَوْلِیاءَ مِنْ دُونِ اَلْمُؤْمِنِینَ أَ تُرِیدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلّهِ عَلَیْکُمْ سُلْطاناً مُبِیناً (۱۴۴) إِنَّ اَلْمُنافِقِینَ فِی اَلدَّرْکِ اَلْأَسْفَلِ مِنَ اَلنّارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِیراً (۱۴۵) إِلاَّ اَلَّذِینَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اِعْتَصَمُوا بِاللّهِ وَ أَخْلَصُوا دِینَهُمْ لِلّهِ فَأُولئِکَ مَعَ اَلْمُؤْمِنِینَ وَ سَوْفَ یُؤْتِ اَللّهُ اَلْمُؤْمِنِینَ أَجْراً عَظِیماً (۱۴۶) ما یَفْعَلُ اَللّهُ بِعَذابِکُمْ إِنْ شَکَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ وَ کانَ اَللّهُ شاکِراً عَلِیماً (۱۴۷)

(بيان)

قوله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْكِتابِ الَّذِی نَزَّلَ عَلی رَسُولِهِ»، أمر المؤمنين بالإيمان ثانيا بقرينه التفصيل فی متعلق الإيمان الثانی أعنی قوله «بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْكِتابِ» (إلخ)و أيضا بقرينه الإيعاد و التهديد على ترک الإيمان بكل واحد من هذا التفاصيل إنما هو أمر ببسط المؤمنين إجمال إيمانهم على تفاصيل هذه الحقائق فإنها معارف

مرتبطه بعضها ببعض،مستلزمه بعضها ببعض،فالله سبحانه لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى و الصفات العليا،و هى الموجبه لأن يخلق خلقا و يهديهم إلى ما يرشدهم و يسعدهم ثم يبعثهم ليوم الجزاء،و لا يتم ذلك إلا بإرسال رسل مبشرين و منذرين،و إنزال كتب تحكم بينهم فيما اختلفوا فيه،و تبين لهم معارف المبدأ و المعاد،و أصول الشرائع و الأحكام.

فالإيمان بواحد من حقائق هذه المعارف لا يتم إلا مع الإيمان بجميعها من غير استثناء، و الرد لبعضها مع الأخذ ببعض آخر كفر لو أظهر،و نفاق لو كتم و أخفى،و من النفاق أن يتخذ المؤمن مسيرا ينتهى به إلى رد بعض ذلك، كأن يفارق مجتمع المؤمنين و يتقرب إلى مجتمع الكفار و يواليهم،و يصدقهم فى بعض ما يرمون به الإيمان و أهله،أو يعترضوا أو يستهزءون به الحق و خاصته،و لذلك عقب تعالى هذه الآيه بالتعرض لحال المنافقين و وعيدهم بالعذاب الأليم.

و ما ذكرناه من المعنى هو الذى يقضى به ظاهر الآيه و هو أوجه مما ذكره بعض المفسرين أن المراد بقوله «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا»: يا أيها الذين آمنوا فى الظاهر بالإقرار بالله و رسوله آمنوا فى الباطن ليوافق ظاهركم باطنكم.و كذا ما ذكره بعضهم أن معنى «آمَنُوا» اثبتوا على إيمانكم،و كذا ما ذكره آخرون أن الخطاب لمؤمنى أهل الكتاب أى يا أيها الذين آمنوا من أهل الكتاب آمنوا بالله و رسوله و الكتاب الذى نزل على رسوله و هو القرآن.

و هذه المعانى و إن كانت فى نفسها صحيحه لكن القرائن الكلاميه ناهضه على خلافها، و أردأ الوجوه آخرها.

قوله تعالى:« وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً» لما كان الشطر الأول من الآيه أعنى قوله «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا -إلى قوله- مِنْ قَبْلُ» دعوه إلى الجمع بين جميع ما ذكر فيه بدعوى أن أجزاء هذا المجموع مرتبطه غير مفارق بعضها بعضا كان هذا التفصيل ثانيا فى معنى الترديد و المعنى:و من يكفر بالله أو ملائكته أو كتبه أو رسله أو اليوم الآخر أى من يكفر بشىء من أجزاء الإيمان فقد ضل ضلالا بعيدا.

و ليس المراد بالعطف بالواو الجمع فى الحكم ليتم الجميع موضوعا واحدا له حكم

واحد بمعنى أن الكفر بالمجموع من حيث إنه مجموع ضلال بعيد دون الكفر بالبعض دون البعض.على أن الآيات القرآنيه ناطقه بكفر من كفر بكل واحد مما ذكر فى الآيه على وجه التفصيل.

قوله تعالى:« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً» الآيه لو أخذت وحدها منقطعه عما قبلها و ما بعدها كانت داله على ما يجازى به الله تعالى أهل الرده إذا تكررت منهم الرده بأن آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا فالله سبحانه يوعدهم-و حالهم هذا الحال- بأنه لا يغفر لهم،و لا يهديهم سبيلا،و ليس من المرجو منه المتوقع من رحمته ذلك لعدم استقرارهم على إيمان،و جعلهم أمر الله ملعبه يلعبون بها،و من كان هذا حاله لم يثبت بالطبع على إيمان جدى يقبل منه،و إن كانوا لو آمنوا إيمانا جديا شملتهم المغفره و الهدايه فإن التوبه بالإيمان بالله حقيقه مما لا يرده الله فى حال على ما وعد الله تعالى عباده،و قد تقدم الكلام فيه فى قوله تعالى «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ»: XالآيهX(النساء:١٧)فى الجزء الرابع من هذا الكتاب.

فالآيه تحكم بحرمانهم على ما يجرى عليه الطبع و العاده،و لا تأبى الاستثناء لو اتفق إيمان و استقامه عليه من هذه الطائفه نادرا كما يستفاد من نظير الآيه،قال تعالى:

«كَيْفَ يَهْدِى اللّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ اللّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظّالِمِينَ إلى أن قال إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الضّالُّونَ» :(آل عمران:٩٠).

و الآيات-كما ترى-تستثنى ممن كفر بعد إيمانه،و قوبل بنفى المغفره و الهدايه، و هى مع ذلك تنفى قبول توبه من ازداد كفرا بعد الإيمان،صدر الآيات فيمن كفر بعد الإيمان و الشهاده بحقيه الرسول و ظهور الآيات البينات،فهو رده عنادا و لجاجا، و الازدياد فيه لا يكون إلا مع استقرار العناد و العتو فى قلوبهم،و تمكن الطغيان و الاستكبار فى نفوسهم،و لا يتحقق الرجوع و التوبه ممن هذا حاله عاده.

هذا ما يقتضيه سياق الآيه لو أخذت وحدها كما تقدم،لكن الآيات جميعا لا تخلو عن ظهور ما أو دلاله على كونها ذات سياق واحد متصلا بعضها ببعض،و على هذا التقدير يكون قوله «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا»، فى مقام التعليل«لقوله وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ – إلى قوله –فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً» و يكون الآيتان ذواتى مصداق واحد أى إن من يكفر بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر هو الذى آمن ثم كفر ثم آمن ثم كفر ثم ازداد كفرا،و يكون أيضا هو من المنافقين الذين تعرض تعالى لهم فى قوله بعد «بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً» إلى آخر الآيات.

و على هذا يختلف المعنى المراد بقوله «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا» (إلى آخر الآيات) بحسب ما فسر به قوله «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ»وَ رَسُولِهِ على ما تقدم من تفاسيره المختلفه:

فإن فسر بأن آمنوا بالله و رسوله فى الباطن كما آمنتم به فى الظاهر كان معنى الإيمان ثم الكفر ثم الإيمان ثم الكفر ما يبتلى به المنافقون من اختلاف الحال دائما إذا لقوا المؤمنين و إذا لقوا الكفار.

و إن فسر بأن اثبتوا على الإيمان الذى تلبستم به كان المراد من الإيمان ثم الكفر و هكذا هو الرده بعد الرده المعروفه.

و إن فسر بأن المراد دعوه أهل الكتاب إلى الإيمان بالله و رسوله كان المراد بالإيمان ثم الكفر و هكذا الإيمان بموسى ثم الكفر به بعباده العجل ثم الإيمان بعزير أو بعيسى ثم الكفر به ثم الازدياد فيه بالكفر بمحمد ص و ما جاء به من عند ربه،كما قيل.

و إن فسر بأن ابسطوا إجمال إيمانكم على تفاصيل الحقائق كما استظهرناه كان قوله «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا»، تعليلا منطبقا على حال المنافقين المذكورين فيما بعد، المفسرين بقوله «الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» فإن من اتصل بالكفار منفصلا عن مجتمع المؤمنين لا يخلو عن الحضور فى محاضرهم و الاستيناس بهم،و الشركه فى محاوراتهم،و التصديق لبعض ما يتذاكرونه من الكلام الذى لا يرتضيه الله سبحانه، و ينسبونه إلى الدين و أوليائه من المطاعن و المساوئ و يستهزءون و يسخرون به.

فهو كلما لقى المؤمنين و اشترك معهم فى شىء من شعائر الدين آمن به،و كلما لقى

الكفار و أمضى بعض ما يتقولونه كفر،فلا يزال يؤمن زمانا و يكفر زمانا حتى إذا استحكم فيه هذه السجيه كان ذلك منه ازديادا فى الكفر و الله أعلم.

و إذ كان مبتلى باختلاف الحال و عدم استقراره فلا توبه له لأنه غير ثابت على حال الندامه لو ندم على ما فعله،إلا أن يتوب و يستقر على توبته استقرارا لا يزلزله اختلاف الأحوال،و لا تحركه عواصف الأهواء،و لذا قيد الله سبحانه التوبه المقبوله من مثل هذا المنافق بقيود لا تبقى مجالا للتغير و التحول فقال فى الاستثناء الآتى:« إِلَّا الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ (الآيه).

قوله تعالى:« بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ» (إلخ)تهديد للمنافقين،و قد وصفهم بموالاه الكافرين دون المؤمنين،و هذا وصف أعم مصداقا من المنافقين الذين لم يؤمن قلوبهم،و إنما يتظاهرون بالإيمان فإن طائفه من المؤمنين لا يزالون مبتلين بموالاه الكفار،و الانقطاع عن جماعه المؤمنين،و الاتصال بهم باطنا و اتخاذ الوليجه منهم حتى فى زمن الرسول ص.

و هذا يؤيد بعض التأييد أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين طائفه من المؤمنين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين،و يؤيده ظاهر قوله فى الآيه اللاحقه« وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ إلى قوله- إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ» فإن ذلك تقرير لتهديد المنافقين، و الخطاب فيه للمؤمنين،و يؤيده أيضا ما سيصف تعالى حالهم فى نفاقهم بقوله« وَ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاّ قَلِيلاً» فأثبت لهم شيئا من ذكر الله تعالى،و هو بعيد الانطباق على المنافقين الذين لم يؤمنوا بقلوبهم قط.

قوله تعالى:« أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» استفهام إنكارى ثم جواب بما يقرر الإنكار فإن العزه من فروع الملك،و الملك لله وحده،قال تعالى «قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ» :(آل عمران:۲۶).

قوله تعالى: « وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ- إلى قوله- مِثْلُهُمْ» يريد ما نزله فى سوره الأنعام:« وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ :

(الأنعام:)۶۸ فإن سوره الأنعام مكيه،و سوره النساء مدنيه.

و يستفاد من إشاره الآيه إلى آيه الأنعام أن بعض الخطابات القرآنيه وجه إلى النبى ص خاصه،و المراد بها ما يعم الأمه.

و قوله« إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ تعليل للنهى أى بما نهيناكم لأنكم إذا قعدتم معهم -و الحال هذه-تكونون مثلهم،و قوله «إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ».

قوله تعالى:« اَلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ»، التربص:

الانتظار.و الاستحواذ: الغلبه و التسلط،و هذا وصف آخر لهؤلاء المنافقين فإنهم إنما حفظوا رابطه الاتصال بالفريقين جميعا:المؤمنين و الكافرين،يستدرون الطائفتين و يستفيدون ممن حسن حاله منهما،فإن كان للمؤمنين فتح قالوا:إنا كنا معكم فليكن لنا سهم مما أوتيتموه من غنيمه و نحوها،و إن كان للكافرين نصيب قالوا:أ لم نغلبكم و نمنعكم من المؤمنين؟أى من الإيمان بما آمنوا به و الاتصال بهم فلنا سهم مما أوتيتموه من النصيب أو منه عليكم حيث جررنا إليكم النصيب.

قيل:عبر عما للمؤمنين بالفتح لأنه هو الموعود لهم،و للكافرين بالنصيب تحقيرا له فإنه لا يعبأ به بعد ما وعد الله المؤمنين أن لهم الفتح و أن الله وليهم،و لعله لذلك نسب الفتح إلى الله دون النصيب.

قوله تعالى :«فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ وَ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً» الخطاب للمؤمنين و إن كان ساريا إلى المنافقين و الكافرين جميعا،و أما قوله« وَ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ»، فمعناه أن الحكم يومئذ للمؤمنين على الكافرين،و لن ينعكس الأمر أبدا، و فيه إياس للمنافقين،أى ليئس هؤلاء المنافقون فالغلبه للمؤمنين على الكافرين بالآخره.

و يمكن أن يكون نفى السبيل أعم من النشأتين:الدنيا و الآخره،فإن المؤمنين غالبون بإذن الله دائما ما داموا ملتزمين بلوازم إيمانهم، قال تعالى :«وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» :(آل عمران:۱۳۹).

قوله تعالى :«إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ» المخادعه هى الإكثار أو التشديد فى الخدعه بناء على أن زياده المبانى تدل على زياده المعانى.

و قوله «وَ هُوَ خادِعُهُمْ» فی موضع الحال أی یخادعون الله فی حال هو یخدعهم و یئول المعنی إلی أن هؤلاء یریدون بأعمالهم الصادره عن النفاق من إظهار الإیمان،و الاقتراب من المؤمنین،و الحضور فی محاضرهم و مشاهدهم أن یخادعوا الله أی النبی ص و المؤمنین فیستدروا منهم بظاهر إیمانهم و أعمالهم من غیر حقیقه،و لا یدرون أن هذا الذی خلی بینهم و بین هذه الأعمال و لم یمنعهم منها هو الله سبحانه،و هو خدعه منه لهم و مجازاه لهم بسوء نیاتهم و خباثه أعمالهم فخدعتهم له بعینها خدعته لهم.

قوله تعالی:« وَ إِذا قامُوا إِلَی الصَّلاهِ قامُوا کُسالی یُراؤُنَ النّاسَ وَ لا یَذْکُرُونَ اللّهَ إِلاّ قَلِیلًا» هذا وصف آخر من أوصافهم و هو القیام إلی الصلاه-إذا قاموا إلیها- کسالی یراءون الناس،و الصلاه أفضل عباده یذکر فیها الله،و لو کانت قلوبهم متعلقه بربهم مؤمنه به لم یأخذهم الکسل و التوانی فی التوجه إلیه و ذکره،و لم یعملوا عملهم لمراءاه الناس،و لذکروا الله تعالی کثیرا علی ما هو شأن تعلق القلب و اشتغال البال.

قوله تعالی:« مُذَبْذَبِینَ بَیْنَ ذلِکَ لا إِلی هؤُلاءِ وَ لا إِلی هؤُلاءِ»، قال فی المجمع:

یقال :ذبذبته فذبذب أی حرکته فتحرک فهو کتحریک شیء معلق(انتهی).فکون الشیء مذبذبا أن یتردد بین جانبین من غیر تعلق بشیء منهما،و هذا نعت المنافقین، یتذبذبون بین ذلک-أی الذی ذکر من الإیمان و الکفر-لا- إلی هؤلاء أی لا- إلی المؤمنین فقط کالمؤمنین بالحقیقه،و لا إلی الکفار فقط کالکافرین محضا.

و قوله «وَ مَنْ یُضْلِلِ اللّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِیلًا» فی مقام التعلیل لما سبقه من حدیث الذبذبه،فسبب ترددهم بین الجانبین من غیر تعلق بأحدهما أن الله أضلهم عن السبیل فلا سبیل لهم یردونه.

و لهذه العله بعینها قیل:« مُذَبْذَبِینَ بَیْنَ ذلِکَ» و لم یقل:متذبذبین أی القهر الإلهی هو الذی یجر لهم هذا النوع من التحریک الذی لا ینتهی إلی غایه ثابته مطمئنه.

قوله تعالی:« یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْکافِرِینَ أَوْلِیاءَ» (إلی آخر الآیتین) السلطان هو الحجه.و الدرک بفتحتین-و قد یسکن الراء-قال الراغب:الدرک کالدرج لکن الدرج یقال اعتبارا بالصعود،و الدرک اعتبارا بالحدور،و لهذا قیل:درجات الجنه و درکات النار،و لتصور الحدور فی النار سمیت هاویه(انتهی).

و الآیه-کما تری-تنهی المؤمنین عن الاتصال بولایه الکفار و ترک ولایه المؤمنین، ثم الآیه الثانیه تعلل ذلک بالوعید الشدید المتوجه إلی المنافقین،و لیس إلا أن الله سبحانه یعد هذا الصنیع نفاقا یحذر المؤمنین من الوقوع فیه.

و السیاق یدل علی أن قوله «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا»، کالنتیجه المستنتجه مما تقدم أو الفرع المتفرع علیه،و هذا کالصریح فی أن الآیات السابقه إنما تتعرض لحال مرضی القلوب و ضعفاء الإیمان من المؤمنین و یسمیهم المنافقین،و لا أقل من شمولها لهم ثم یعظ المؤمنین أن لا یقربوا هذا الحمی و لا یتعرضوا لسخط الله،و لا یجعلوا الله تعالی علی أنفسهم حجه واضحه فیضلهم و یخدعهم و یذبذبهم فی الحیاه الدنیا،ثم یجمع بینهم و بین الکافرین فی جهنم جمیعا،ثم یسکنهم فی أسفل درک من النار،و یقطع بینهم و بین کل نصیر ینصرهم،و شفیع یشفع لهم.

و یظهر من الآیتین أولا:أن الإضلال و الخدعه و کل سخط إلهی من هذا القبیل إنما عن حجه واضحه تعطیها أعمال العباد،فهی إخزاء علی طریق المقابله و المجازاه، و حاشا الجناب الإلهی أن یبدأهم بالشر و الشقوه من غیر تقدم ما یوجب ذلک من قبلهم، فقوله «أَ تُرِیدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلّهِ عَلَیْکُمْ سُلْطاناً مُبِیناً»؟ یجری مجری قوله «وَ ما یُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِینَ» :(البقره:۲۶).

و ثانیا:أن فی النار لأهلها مراتب تختلف فی السفاله،و لا محاله یشتد بحسبها عذابهم یسمیها الله تعالی بالدرکات.

قوله تعالی:« إِلَّا الَّذِینَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللّهِ وَ أَخْلَصُوا دِینَهُمْ لِلّهِ» استثناء من الوعید الذی ذکر فی المنافقین بقوله:« إِنَّ الْمُنافِقِینَ فِی الدَّرْکِ الْأَسْفَلِ مِنَ النّارِ» (الآیه)و لازم ذلک خروجهم من جماعه المنافقین،و لحوقهم بصف المؤمنین،و لذلک ذیل الاستثناء بذکر کونهم مع المؤمنین،و ذکر ثواب المؤمنین جمیعا فقال تعالی:« فَأُولئِکَ مَعَ الْمُؤْمِنِینَ وَ سَوْفَ یُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِینَ أَجْراً عَظِیماً .

و قد وصف الله هؤلاء الذین استثناهم من المنافقین بأوصاف عدیده ثقیله،و لیست تنبت أصول النفاق و أعراقه إلا بها،فذکر التوبه و هی الرجوع إلی الله تعالی،و لا ینفع الرجوع و التوب وحده حتی یصلحوا کل ما فسد منهم من نفس و عمل،و لا ینفع الإصلاح

إلا أن يعتصموا بالله أى يتبعوا كتابه و سنه نبيه ص إذ لا سبيل إلى الله إلا ما عينه و ما سوى ذلك فهو سبيل الشيطان.

و لا ينفع الاعتصام المذكور إلا إذا أخلصوا دينهم-و هو الذى فيه الاعتصام- لله،فإن الشرك ظلم لا يعفى عنه و لا يغفر،فإذا تابوا إلى الله و أصلحوا كل فاسد منهم و اعتصموا بالله و أخلصوا دينهم لله كانوا عند ذلك مؤمنين لا يشوب إيمانهم شرك،فآمنوا النفاق و اهتدوا قال تعالى:« اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» :(الأنعام:۸۲).

و يظهر من سياق الآيه أن المراد بالمؤمنين هم المؤمنون محضا المخلصون للإيمان،و قد عرفهم الله تعالى بأنهم الذين تابوا و أصلحوا و اعتصموا بالله و أخلصوا دينهم لله،و هذه الصفات تتضمن تفاصيل جميع ما عده الله تعالى فى كتابه من صفاتهم و نعوتهم كقوله تعالى «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ» (Xإلى آخر الآيات)X: (المؤمنون:۳)،و قوله تعالى «وَ عِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِياماً» XالآياتX(الفرقان:

۶۴)،و قوله «فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً» : (النساء:۶۵).

فهذا هو مراد القرآن بالمؤمنين إذا أطلق اللفظ إطلاقا من غير قرينه تدل على خلافه.

و قد قال تعالى:« فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ» و لم يقل:فأولئك من المؤمنين لأنهم بتحقق هذه الأوصاف فيهم أول تحققها يلحقون بهم،و لن يكونوا منهم حتى تستمر فيهم الأوصاف على استقرارها،فافهم ذلك.

قوله تعالى:« ما يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ»، ظاهره أنه خطاب للمؤمنين،لأن الكلام جار على خطابهم و إنما يخاطبون بهذا الخطاب مع الغض عن إيمانهم و فرضهم كالعارى عنه على ما هو شأن مثل هذا الخطاب.

و هو كنايه عن عدم حاجته تعالى إلى عذابهم،و أنهم لو لم يستوجبوا العذاب بتركهم الشكر و الإيمان لم يكن من قبله تعالى ما يوجب عذابهم،لأنه لا ينتفع بعذابهم حتى يؤثره، و لا يستضر بوجودهم حتى يدفعه عن نفسه بعذابهم،فالمعنى:لا موجب لعذابكم إن شكرتم

نعمه الله بأداء واجب حقه و آمنتم به و كان الله شاكرا لمن شكره و آمن به،عليما لا يجهل مورده.

و فی الآيه دلاله علی أن العذاب الشامل لأهله إنما هو من قبلهم لا من قبله،و كذا كل ما يستوجب العذاب من ضلال أو شرك أو معصيه،و لو كان شیء من ذلك من قبله تعالی لكان العذاب الذی يستتبعه أيضا من قبله لأن المسبب يستند إلی من استند إليه السبب.

(بحث روائی)

فی تفسير العياشی،عن زراره و حمران و محمد بن مسلم:عن أبی جعفر و أبی عبد الله (ع) فی قول الله« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا-ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً» قال:نزلت فی عبد الله بن أبی سرح-الذی بعثه عثمان إلی مصر-ثم ازداد كفرا حين لم يبق فيه من الإيمان شیء

و فيه،عن أبی بصير قال: سمعته يقول:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا»

(الآيه)من زعم أن الخمر حرام ثم شربها،و من زعم أن الزنا حرام ثم زنی،و من زعم أن الزكاه حق و لم يؤدها.

أقول:فيه تعميم للآيه علی الكفر بجميع مراتبه،و من مراتبه ترك الواجبات و فعل المحرمات،و تأييد لما تقدم فی البيان.

و فيه،عن محمد بن الفضيل:عن أبی الحسن الرضا(ع) فی قول الله« وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِی الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ- -إلی قوله- إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ» قال:إذا سمعت الرجل يجحد الحق و يكذب به-و يقع فی أهله فقم من عنده و لا تقاعده.

أقول:و فی هذا المعنی روايات أخر.

و فی العيون،بإسناده عن أبی الصلت الهروی:عن الرضا(ع) فی قول الله جل جلاله «وَ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَی الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً» قال:فإنه يقول:و لن يجعل الله للكافرين علی المؤمنين حجه،و لقد أخبر الله تعالی عن كفار قتلوا نبيهم بغير الحق-و مع قتلهم إياهم لم يجعل الله لهم علی أنبيائه سبيلا.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن جریر عن علی:

«وَ لَنْ یَجْعَلَ اللَّهُ لِلْکافِرِینَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ سَبِیلًا»

-قال:فی الآخره.

أقول:و قد تقدم أن ظاهر السیاق هو الآخره و لو عمم لغیرها بأخذ الجمله وحدها شملت الحجه فی الدنیا.

و فی العیون،بإسناده عن الحسن بن فضال قال: سألت علی بن موسی الرضا(ع) عن قوله« یُخادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ» فقال الله تبارک و تعالی:لا یخادع،و لکنه یجازیهم جزاء الخدیعه.

و فی تفسیر العیاشی،عن مسعده بن زیاد عن جعفر بن محمد عن أبیه: أن رسول الله ص سئل:فیما النجاه غدا؟فقال:النجاه أن لا تخادعوا الله فیخدعکم-فإنه من یخادع الله یخدعه،و یخلع منه الإیمان و نفسه یخدع لو یشعر.

فقیل:فکیف یخادع الله؟قال:یعمل بما أمر الله ثم یرید به غیره-فاتقوا الرئاء فإنه شرک بالله،إن المرائی یدعی یوم القیامه بأربعه أسماء:یا کافر،یا فاجر،یا غادر،یا خاسر،حبط عملک،و بطل أجرک،و لا خلاق لک الیوم،فالتمس أجرک ممن کنت تعمل له.

و فی الکافی،بإسناده عن أبی المعزی الخصاف رفعه قال:قال أمیر المؤمنین(ع):

من ذکر الله عز و جل فی السر فقد ذکر الله کثیرا،إن المنافقین کانوا یذکرون الله علانیه، و لا یذکرونه فی السر فقال الله عز و جل: «یُراؤُنَ النّاسَ وَ لا یَذْکُرُونَ اللَّهَ إِلاّ قَلِیلًا» أقول:و هذا معنی آخر لقله الذکر لطیف.

و فی الدر المنثور:أخرج ابن المنذر عن علی قال: لا یقل عمل مع تقوی،و کیف یقل ما یتقبل؟.

أقول:و هذا أیضا معنی لطیف،و مرجعه بالحقیقه إلی ما مر فی الخبر السابق.

و فیه:أخرج مسلم و أبو داود و البیهقی فی سننه عن أنس قال:قال رسول الله ص: تلک صلاه المنافق،یجلس یرقب الشمس حتی إذا کانت بین قرنی الشیطان-قام فنقر أربعا لا یذکر الله فیها إلا قلیلا.

أقول:و هذا معنى آخر لقله الذكر فإن لمثل هذا المصلى من الذكر مجرد التوجه إلى الله بقيامه إلى الصلاه،و كان يمكنه أن يستغرق فى ذكره بالحضور و الطمأنينه فى صلاته.

و المراد بكون الشمس بين قرنى الشيطان دنوها من أفق الغروب كأنه يجعل النهار و الليل قرنين للشيطان ينطح بهما ابن آدم أو يظهر لابن آدم.

و فيه:أخرج عبد بن حميد و البخارى فى تاريخه و مسلم و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عمر قال:قال رسول الله ص: مثل المنافق مثل الشاه العائره بين الغنمين-تعير إلى هذه مره و إلى هذه مره لا تدرى أيهما تتبع

و فيه:أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال": كل سلطان فى القرآن فهو حجه

و فيه:و أخرج ابن أبى شيبه و المروزى فى زوائد الزهد و أبو الشيخ بن حبان عن مكحول قال:بلغنى أن النبى ص قال: ما أخلص عبد لله أربعين صباحا-إلا ظهرت ينابيع الحكمه من قلبه على لسانه.

أقول:و الروايه من المشهورات،و قد رويت بلفظها أو بمعناها بطرق أخرى.

و فيه:أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن زيد بن أرقم قال:قال رسول الله ص: من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنه،قيل:يا رسول الله و ما إخلاصها؟ قال:أن تحجزه عن المحارم.

أقول:و الروايه مستفيضه معنى و قد رويت بطرق مختلفه فى جوامع أهل السنه و الشيعه عن النبى و أئمه أهل البيت(ص)،و سنورد عمده ألفاظها المنقوله فى موضع يناسبها إن شاء الله تعالى.

و فى ذيل هذه الآيات روايات فى أسباب النزول مختلفه متشتته،تركنا إيرادها لظهورها فى الجرى و تطبيق المصداق.و الله أعلم.

[سوره النساء (۴): الآیات ۱۴۸ الی ۱۴۹]

اشاره

لا یُحِبُّ اَللّهُ اَلْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ اَلْقَوْلِ إِلاّ مَنْ ظُلِمَ وَ کانَ اَللّهُ سَمِیعاً عَلِیماً (۱۴۸) إِنْ تُبْدُوا خَیْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اَللّهَ کانَ عَفُوًّا قَدِیراً (۱۴۹)

(بیان)

قوله تعالی: «لا یُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاّ مَنْ ظُلِمَ»، قال الراغب فی ماده «جهر» یقال لظهور الشیء بإفراط لحاسه البصر أو حاسه السمع،أما البصر فنحو رأیته جهارا،قال الله تعالی: « لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتّی نَرَی اللّهَ جَهْرَهً»« أَرِنَا اللّهَ جَهْرَهً» - إلی أن قال-و أما السمع فمنه قوله تعالی:« سَوٰاءٌ مِنْکُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ».

و السوء من القول کل کلام یسوء من قیل فیه کالدعاء علیه،و شتمه بما فیه من المساوئ و العیوب و بما لیس فیه،فکل ذلک لا یحب الله الجهر به و إظهاره،و من المعلوم أنه تعالی منزه من الحب و البغض علی حد ما یوجد فینا معشر الإنسان و ما یجانسنا من الحیوان، إلا أنه لما کان الأمر و النهی عندنا بحسب الطبع صادرین عن حب و بغض کنی بهما عن الإراده و الکراهه و عن الأمر و النهی.

فقوله «لا یُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ» کنایه عن الکراهه التشریعیه أعم من التحریم و الإعانه.

و قوله «إِلاّ مَنْ ظُلِمَ» استثناء منقطع أی لکن من ظلم لا بأس بأن یجهر بالسوء من القول فیمن ظلمه من حیث ظلم،و هذه هی القرینه علی أنه إنما یجوز له الجهر بالسوء من القول یبین فیه ما ظلمه،و یظهر مساوئه التی فیه مما ظلمه به،و أما التعدی إلی غیره مما لیس فیه،أو ما لا یرتبط بظلمه فلا دلیل علی جواز الجهر به من الآیه.

و المفسرون و إن اختلفوا فی تفسیر السوء من القول فمن قائل إنه الدعاء علیه،و من قائل إنه ذکر ظلمه و ما تعدی به علیه و غیر ذلک إلا أن الجمیع مشمول لإطلاق الآیه

فلا موجب لتخصيص الكلام ببعضها.

و قوله «وَ كانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً» فی مقام التأکید للنهی المستفاد من قوله «لا یُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ»، أی لا ینبغی الجهر بالسوء من القول من غیر المظلوم فإن الله سمیع یسمع القول علیم یعلم به.

قوله تعالی:« إِنْ تُبْدُوا خَیْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ کانَ عَفُوًّا قَدِیراً» الآیه لا تخلو عن ارتباط بما قبلها فإنها تشمل إظهار الخیر من القول شکرا لنعمه أنعمها منعم علی الإنسان،و تشمل العفو عن السوء و الظلم فلا یجهر علی الظالم بالسوء من القول.

فإبداء الخیر إظهاره سواء کان فعلا کإظهار الإنفاق علی مستحقه و کذا کل معروف لما فیه من إعلاء کلمه الدین و تشویق الناس إلی المعروف،أو کان قولا کإظهار الشکر علی المنعم و ذکره بجمیل القول لما فیه من حسن التقدیر و تشویق أهل النعمه.

و إخفاء الخیر منصرفه إخفاء فعل المعروف لیکون أبعد من الرئاء و أقرب إلی الخلوص کما قال:« إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِیَ وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوها الْفُقَراءَ فَهُوَ خَیْرٌ لَکُمْ وَ یُکَفِّرُ عَنْکُمْ مِنْ سَیِّئاتِکُمْ» :(البقره:۲۷۱).

و العفو عن السوء هو الستر علیه قولا بأن لا یذکر ظالمه بظلمه،و لا یذهب بماء وجهه عند الناس،و لا یجهر علیه بالسوء من القول،و فعلا بأن لا یواجهه بما یقابل ما أساء به،و لا ینتقم عنه فیما یجوز له ذلک کما قال تعالی:« فَمَنِ اعْتَدی عَلَیْکُمْ فَاعْتَدُوا عَلَیْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدی عَلَیْکُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ» :(البقره:۱۹۴).

و قوله «فَإِنَّ اللَّهَ کانَ عَفُوًّا قَدِیراً» سبب أقیم مقام المسبب و التقدیر:إن تعفوا عن سوء فقد اتصفتم بصفه من صفات الله الکمالیه- و هو العفو علی قدره-فإن الله ذو عفو علی قدرته،فالجزاء جزاء بالنسبه إلی بعض الشروط،و أما إبداء الخیر و إخفاؤه أی إیتاؤه علی أی حال فهو أیضا من صفاته تعالی بما أنه الله تعالی،و یمکن أن یلوح إلیه الکلام.

(بحث روائی)

فی المجمع،قال: لا یحب الله الشتم فی الانتصار إلا من ظلم-فلا بأس له أن ینتصر ممن ظلم مما یجوز الانتصار فی الدین: قال:و هو المروی عن أبی جعفر(ع)

و فی تفسیر العیاشی،عن أبی الجارود عن أبی عبد الله(ع)قال: الجهر بالسوء من القول أن یذکر الرجل بما فیه.

و فی تفسیر القمی:و فی حدیث آخر فی تفسیر هذا قال: إن جاءک رجل و قال فیک ما لیس فیک من الخیر و الثناء-و العمل الصالح فلا تقبله منه و کذبه فقد ظلمک.

و فی تفسیر العیاشی،بإسناده عن الفضل بن أبی قره:عن أبی عبد الله(ع) فی قول الله: «لا یُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاّ مَنْ ظُلِمَ» قال:من أضاف قوما فأساء ضیافتهم-فهو ممن ظلم فلا جناح علیهم فیما قالوا فیه:

أقول:و رواه فی المجمع،عنه(ع)مرسلا،و روی من طرق أهل السنه عن مجاهد.

و الروایات علی أی حال داله علی التعمیم کما استفدناه من الآیه.

[سوره النساء (۴): الآیات ۱۵۰ الی ۱۵۲]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِینَ یَکْفُرُونَ بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ یُرِیدُونَ أَنْ یُفَرِّقُوا بَیْنَ اَللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ یَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَکْفُرُ بِبَعْضٍ وَ یُرِیدُونَ أَنْ یَتَّخِذُوا بَیْنَ ذَلِکَ سَبِیلاً (۱۵۰) أُولئِکَ هُمُ اَلْکافِرُونَ حَقًّا وَ أَعْتَدْنا لِلْکافِرِینَ عَذاباً مُهِیناً (۱۵۱) وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ یُفَرِّقُوا بَیْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِکَ سَوْفَ یُؤْتِیهِمْ أُجُورَهُمْ وَ کانَ اَللّهُ غَفُوراً رَحِیماً (۱۵۲)

(بیان)

انعطاف إلی حال أهل الکتاب،و بیان لحقیقه کفرهم،و شرح لعده من مظالمهم، و معاصیهم و مفاسد أقوالهم.

قوله تعالی:« إِنَّ اَلَّذِینَ یَکْفُرُونَ بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ»، هؤلاء أهل الکتاب من الیهود و النصاری فالیهود تؤمن بموسی و تکفر بعیسی و محمد،و النصاری تؤمن بموسی و عیسی

و تكفر بمحمد صلى الله عليهم أجمعين،و هؤلاء على زعمهم لا يكفرون بالله و ببعض رسله، و إنما يكفرون ببعض الرسل،و قد أطلق الله عليهم أنهم كافرون بالله و رسله جميعا و لذلك احتيج إلى بيان المراد من إطلاق قوله «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ».

و لذلك عطف على قوله «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ»، قوله «وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ» بعطف التفسير و نفس المعطوف أيضا بعضه يفسر بعضه،فهم كافرون بالله و رسله لأنهم بقولهم: «نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ» يريدون أن يفرقوا بين الله و رسله فيؤمنون بالله و بعض رسله و يكفروا ببعض رسله مع كونه رسولا من الله،و الرد عليه رد على الله تعالى.

ثم بين ذلك ببيان آخر بالعطف عليه عطف التفسير فقال:« وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً» أى سبيلا متوسطا بين الإيمان بالله و رسله جميعا،و الكفر بالله و رسله جميعا، و هو الإيمان ببعض و الكفر ببعض،و لا سبيل إلى الله إلا الإيمان به و برسله جميعا فإن الرسول بما أنه رسول ليس له من نفسه شيء و لا له من الأمر شيء،فالإيمان به إيمان بالله و الكفر به كفر بالله محضا.

فالكفر بالبعض و الإيمان بالبعض و بالله ليس إلا تفرقه بين الله و بين رسله،و إعطاء الاستقلال للرسول فيكون الإيمان به غير مرتبط بالإيمان بالله،و الكفر به غير مرتبط بالكفر به فيكون طرفا لا وسطا،و كيف يصح فرض الرساله ممن لا يرتبط الإيمان به و الكفر به بالإيمان بالله و الكفر به.

فمن البين الذى لا مريه فيه أن الإيمان بمن هذا شأنه و الخضوع له شرك بالله العظيم، و لذلك ترى أنه تعالى بعد وصفهم بأنهم يريدون بالإيمان ببعض الرسل و الكفر بالبعض أن يفرقوا بين الله و رسله و يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ذكر أنهم كافرون بذلك حقا فقال: «أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا» ثم أوعدهم فقال: «وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً» .

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ»، لما كفر أولئك المفرقين بين الله و رسله،و ذكر أنهم كافرون بالله و رسله ذكر من يقابلهم بالإيمان بالله و رسله على سبيل عدم التفرقه تتميما للأقسام.

و فى الآيات التفات من الغيبه إلى التكلم مع الغير فى قوله «وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً

مُهِيناً»

ثم إلى الخطاب فى قوله« أُولٰئِکَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ»، و لعل الوجه فيه أن إسناد الجزاء إلى المتكلم أقرب من الوقوع بحسب لحن الكلام من إسناده إلى الغائب.

و يفيد هذه الفائده أيضا الالتفات الواقع فى الآيه الثانيه فإن توجيه الخطاب إلى النبى ص عند الوعد الجميل و هو يعلم بإنجازه تعالى يفيد القرب من الوقوع

[سوره النساء (۴): الآيات ۱۵۳ الى ۱۶۹]

اشاره

يَسْئَلُکَ أَهْلُ الْکِتٰابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ کِتٰاباً مِنَ السَّمٰاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسىٰ أَکْبَرَ مِنْ ذٰلِکَ فَقٰالُوا أَرِنَا اللّٰهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصّٰاعِقَهُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ الْبَيِّنٰاتُ فَعَفَوْنٰا عَنْ ذٰلِکَ وَ آتَيْنٰا مُوسىٰ سُلْطٰاناً مُبِيناً (۱۵۳) وَ رَفَعْنٰا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثٰاقِهِمْ وَ قُلْنٰا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبٰابَ سُجَّداً وَ قُلْنٰا لَهُمْ لاٰ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَ أَخَذْنٰا مِنْهُمْ مِيثٰاقاً غَلِيظاً (۱۵۴) فَبِمٰا نَقْضِهِمْ مِيثٰاقَهُمْ وَ کُفْرِهِمْ بِآيٰاتِ اللّٰهِ وَ قَتْلِهِمُ الْأَنْبِيٰاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنٰا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّٰهُ عَلَيْهٰا بِکُفْرِهِمْ فَلاٰ يُؤْمِنُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً (۱۵۵) وَ بِکُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلىٰ مَرْيَمَ بُهْتٰاناً عَظِيماً (۱۵۶) وَ قَوْلِهِمْ إِنّٰا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّٰهِ وَ مٰا قَتَلُوهُ وَ مٰا صَلَبُوهُ وَ لٰکِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَکٍّ مِنْهُ مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاّٰ اتِّبٰاعَ الظَّنِّ وَ مٰا قَتَلُوهُ يَقِيناً (۱۵۷) بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ إِلَيْهِ وَ کٰانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَکِيماً (۱۵۸) وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ إِلاّٰ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ يَکُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (۱۵۹) فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا عَلَيْهِمْ طَيِّبٰاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ کَثِيراً (۱۶۰) وَ أَخْذِهِمُ الرِّبٰوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَکْلِهِمْ أَمْوٰالَ النّٰاسِ بِالْبٰاطِلِ وَ أَعْتَدْنٰا لِلْکٰافِرِينَ مِنْهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً (۱۶۱) لٰکِنِ الرّٰاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْکَ وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلاٰهَ وَ الْمُؤْتُونَ الزَّکٰاهَ وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أُولٰئِکَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (۱۶۲) إِنّٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْکَ کَمٰا أَوْحَيْنٰا إِلىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْمٰاعِيلَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبٰاطِ وَ عِيسىٰ وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هٰارُونَ وَ سُلَيْمٰانَ وَ آتَيْنٰا دٰاوُدَ زَبُوراً (۱۶۳) وَ رُسُلاً قَدْ قَصَصْنٰاهُمْ عَلَيْکَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْکَ وَ کَلَّمَ اللّٰهُ مُوسىٰ تَکْلِيماً (۱۶۴) رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلاّٰ يَکُونَ لِلنّٰاسِ عَلَى اللّٰهِ حُجَّهٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ کٰانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَکِيماً (۱۶۵) لٰکِنِ اللّٰهُ يَشْهَدُ بِمٰا أَنْزَلَ إِلَيْکَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلاٰئِکَهُ يَشْهَدُونَ وَ کَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً (۱۶۶) إِنَّ الَّذِينَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلاٰلاً بَعِيداً (۱۶۷) إِنَّ الَّذِينَ کَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَکُنِ اللّٰهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لاٰ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً (۱۶۸) إِلاّٰ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً وَ کٰانَ ذٰلِکَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيراً (۱۶۹)

(بيان)

الآيات تذكر سؤال أهل الكتاب رسول الله ص تنزيل كتاب من السماء عليهم حيث لم يقنعوا بنزول القرآن بوحى الروح الأمين نجوما،و نجيب عن مسألتهم.

قوله تعالى:« يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ»، أهل الكتاب هم اليهود و النصارى على ما هو المعهود فى عرف القرآن فى أمثال هذه الموارد و عليه فالسائل هو الطائفتان جميعا دون اليهود فحسب.

و لا ينافيه كون المظالم و الجرائم المعدوده فى ضمن الآيات مختصه باليهود كسؤال الرؤيه،و اتخاذ العجل،و نقض الميثاق عند رفع الطور و الأمر بالسجده و النهى عن العدو فى السبت و غير ذلك.

فإن الطائفتين ترجعان إلى أصل واحد و هو شعب إسرائيل بعث إليهم موسى و عيسى(ع)و إن انتشرت دعوه عيسى بعد رفعه فى غير بنى إسرائيل كالروم و العرب و الحبشه و مصر و غيرهم،و ما قوم عيسى بأقل ظلما لعيسى من اليهود لموسى(ع).

و لعد الطائفتين جميعا ذا أصل واحد يخص اليهود بالذكر فيما يخصهم من الجزاء حيث قال:« فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ» و لذلك أيضا عد عيسى بين الرسل المذكورين بعد كما عد موسى(ع)بينهم و لو كان وجه الكلام إلى اليهود فقط لم يصح ذلك،و لذلك أيضا قيل بعد هذه الآيات:« يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ» (إلخ).

و بالجمله السائل هم أهل الكتاب جميعا و وجه الكلام معهم لاشتراكهم فى الخصيصه القوميه و هو التحكم و القول بغير الحق و المجازفه و عدم التقيد بالعهود و المواثيق،و الكلام جار معهم فيما اشتركوا فإذا اختص منهم طائفه بشىء خص الكلام به.

و الذى سألوه رسول الله ص هو أن ينزل عليهم كتابا من السماء،و لم يسألوه ما سألوه قبل نزول القرآن و تلاوته عليهم كيف و القصه إنما وقعت فى المدينه و قد بلغهم من القرآن ما نزل بمكه و شطر مما نزل بالمدينه؟بل هم ما كانوا يقنعون به دليلا للنبوه،

و لا- يعدونه كتابا سماويا مع أن القرآن نزل فيما نزل مشفعا بالتحدى و دعوى الإعجاز كما فى سور:إسراء،و يونس،و هود،و البقره النازله جميعا قبل سوره النساء.

فسؤالهم تنزيل الكتاب من السماء بعد ما كانوا يشاهدونه من أمر القرآن لم يكن إلا سؤالا جزافيا لا يصدر إلا ممن لا يخضع للحق و لا ينقاد للحقيقه و إنما يلغو و يهذو بما قدمته له أيدى الأهواء من غير أن يتقيد بقيد أو يثبت على أساس،نظير ما كانت تتحكم به قريش مع نزول القرآن،و ظهور دعوته فتقول على ما حكاه الله سبحانه عنهم :«لَوْ لا- أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» : (يونس:٢٠) «أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ :(إسراء:٩٣).

و لهذا الذى ذكرناه أجاب الله سبحانه عن مسألتهم(أولا)بأنهم قوم متمادون فى الجهاله و الضلاله لا يأبون عن أنواع الظلم و إن عظمت،و الكفر و الجحود و إن جاءت البينه، و عن نقض المواثيق و إن غلظت و غير ذلك من الكذب و البهتان و أى ظلم،و من هذا شأنه لا يصلح لإجابه ما سأله و الإقبال على ما اقترحه.

و(ثانيا)أن الكتاب الذى أنزله الله و هو القرآن مقارن لشهاده الله سبحانه و ملائكته و هو الذى يفصح عن التحدى بعد التحدى بآياته الكريمه.

فقال تعالى فى جوابهم أولا :«فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ» أى مما سألوك من تنزيل كتاب من السماء إليهم «فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً» أى إراءه عيان نعاينه بأبصارنا، و هذه غايه ما يبلغه البشر من الجهاله و الهذر و الطغيان «فَأَخَذَتْهُمُ الصّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ» و القصه مذكوره فى سوره البقره(آيه:٥٥-٥٦)و سوره الأعراف(آيه:١٥٥).

ثم قال تعالى :«ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ» و هذه عباده الصنم بعد ظهور بطلانه أو بيان أن الله سبحانه منزه عن شائبه الجسميه و الحدوث،و هو من أفظع الجهالات البشريه «فَعَفَوْنا عَنْ ذلِكَ وَ آتَيْنا مُوسى سُلْطاناً مُبِيناً» و قد أمرهم موسى فى ذلك أن يتوبوا إلى بارئهم فيقتلوا أنفسهم فأخذوا فيه فعفا الله عنهم و لما يتم التقتيل و لما يقتل الجميع،و هو المراد بالعفو،و آتى موسى(ع)سلطانا مبينا حيث سلطه عليهم و على السامرى و عجله،و القصه مذكوره فى سوره البقره(آيه:٥٤).

ثم قال تعالى:« وَ رَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثاقِهِمْ» و هو الميثاق الذى أخذه الله منهم

ثم رفع فوقهم الطور،و القصه مذكوره مرتين فى سوره البقره(آيه ۶۳،۹۳).

ثم قال تعالى:« وَ قُلْنا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَ قُلْنا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً» و القصتان مذكورتان فى سوره البقره(آيه:۵۸-۶۵)و سوره الأعراف(۱۶۱-۱۶۳)و ليس من البعيد أن يكون الميثاق المذكور راجعا إلى القصتين و إلى غيرهما فإن القرآن يذكر أخذ الميثاق منهم متكررا كقوله تعالى وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ» XالآيهX: (البقره:۸۳)،و قوله تعالى «وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَ لا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ» :(البقره:۸۴).

قوله تعالى: «فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ»، الفاء للتفريع و المجرور متعلق بما سيأتى بعد عده آيات-يذكر فيها جرائمهم-من قوله «حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ» و الآيات مسوقه لبيان ما جازاهم الله به من وخيم الجزاء الدنيوى و الأخروى،و فيها ذكر بعض ما لم يذكر من سننهم السيئه أولا.

و قوله «فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ» تلخيص لما ذكر منهم من نقض المواثيق و لما لم يذكر من المواثيق المأخوذه منهم.

و قوله «وَ كُفْرِهِمْ بِآياتِ اللَّهِ تلخص لأنواع من الكفر كفروا بها فى زمن موسى(ع) و بعده قص القرآن كثيرا منها،و من جملتها الموردان المذكوران فى صدر الآيات أعنى قوله فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً»، و قوله «ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ» و إنما قدما فى الصدر،و أخرا فى هذه الآيه لأن المقامين مختلفان فيختلف مقتضاهما فإن صدر الآيات متعرض لسؤالهم تنزيل كتاب من السماء و،ذكر سؤالهم أكبر من ذلك و عبادتهم العجل أنسب به و ألصق،و هذه الآيه و ما بعدها متعرضه لمجازاتهم فى قبال أعمالهم بعد ما كانوا أجابوا دعوه الحق و ذكر أسباب ذلك و الابتداء بذكر نقض الميثاق أنسب فى هذا المقام و أقرب.

و قوله «وَ قَتْلِهِمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ» يعنى بهم زكريا و يحيى و غيرهما ممن ذكر القرآن قتلهم إجمالا من غير تسميه.

و قوله «وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ» جمع أغلف أى فى أغشيه تمنعها عن استماع الدعوه النبويه،و قبول الحق لو دعيت إليه،و هذه كلمه ذكروها يريدون بها رد الدعوه،و إسناد

عدم إجابتهم للدعوه إلى الله سبحانه كأنهم كانوا يدعون أنهم خلقوا غلف القلوب،أو أنهم جعلوا بالنسبه إلى دعوه غير موسى كذلك من غير استناد ذلك إلى اختيارهم و صنعهم.

و لذلك رد الله سبحانه عليهم بقوله «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاّ قَلِيلاً» فبين أن إباء قلوبهم عن استماع الدعوه الحقه مستند إلى صنع الله لكن لا كما يدعون أنهم لا صنع لهم فى ذلك بل إنما فعل ذلك بهم فى مقابل كفرهم و جحودهم للحق،و كان أثر ذلك أن هذا القوم لا يؤمنون إلا قليل منهم.

و قد تقدم الكلام فى هذا الاستثناء،و أن هذه النقمه الإلهيه إنما نزلت بهم بقوميتهم و مجتمعهم،فالمجموع من حيث المجموع مكتوب عليهم النقمه،و مطبوع على قلوبهم محال لهم أن يؤمنوا بأجمعهم،و لا ينافى ذلك إيمان البعض القليل منهم.

قوله تعالى :«بِكُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً» و هو قذفها(ع)فى ولاده عيسى بالزنا،و هو كفر و بهتان معا و قد كلمهم عيسى فى أول ولادته و قال:« إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا» :(مريم.٣٠).

قوله تعالى: «وَ قَوْلِهِمْ إِنّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ» قد تقدم فى قصص عيسى(ع)فى سوره آل عمران أنهم اختلفوا فى كيفيه قتله صلبا و غير صلب فلعل حكايته تعالى عنهم دعوى قتله أولا ثم ذكر القتل و الصلب معا فى مقام الرد و النفى لبيان النفى التام بحيث لا يشوبه ريب فإن الصلب لكونه نوعا خاصا فى تعذيب المجرمين لا يلازم القتل دائما،و لا يتبادر إلى الذهن عند إطلاق القتل،و قد اختلف فى كيفيه قتله فمجرد نفى القتل ربما أمكن أن يتأول فيه بأنهم ما قتلوه قتلا عاديا،و لا ينافى ذلك أن يكونوا قتلوه صلبا فلذلك ذكر تعالى بعد قوله «وَ ما قَتَلُوهُ» قوله «وَ ما صَلَبُوهُ» ليؤدى الكلام حقه من الصراحه،و ينص على أنه(ع)لم يتوف بأيديهم لا صلبا و لا غير مصلوب،بل شبه لهم أمره فأخذوا غير المسيح(ع) مكان المسيح فقتلوه أو صلبوه،و ليس من البعيد عاده،فإن القتل فى أمثال تلك الاجتماعات الهمجيه و الهجمه و الغوغاء ربما أخطأ المجرم الحقيقى إلى غيره و قد قتله الجنديون من الروميين،و ليس لهم معرفه بحاله على نحو الكمال فمن الممكن أن يأخذوا مكانه غيره، و مع ذلك فقد وردت روايات أن الله تعالى ألقى شبهه على غيره فأخذ و قتل مكانه.

و ربما ذكر بعض محققى التاريخ أن القصص التاريخيه المضبوطه فيه(ع)و الحوادث المربوطه بدعوته و قصص معاصريه من الحكام و الدعاه تنطبق على رجلين اثنين مسميين بالمسيح-و بينهما ما يزيد على خمسمائه سنه-:المتقدم منهما محق غير مقتول،و المتأخر منهما مبطل مصلوب، (۱)و على هذا فما يذكره القرآن من التشبيه هو تشبيه المسيح عيسى بن مريم رسول الله بالمسيح المصلوب.و الله أعلم.

و قوله «وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ» أى اختلفوا فى عيسى أو فى قتله «لَفِي شَكٍّ مِنْهُ» أى فى جهل بالنسبه إلى أمره «مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبٰاعَ الظَّنِّ» و هو التخمين أو رجحان ما بحسب ما أخذه بعضهم من أفواه بعض.

و قوله «وَ مٰا قَتَلُوهُ يَقِيناً» أى ما قتلوه قتل يقين أو ما قتلوه أخبرك خبر يقين،و ربما قيل:إن الضمير فى قوله «وَ مٰا قَتَلُوهُ» راجع إلى العلم أى ما قتلوا العلم يقينا.و قتل العلم لغه تمحيضه و تخليصه من الشك و الريب،و ربما قيل:إن الضمير يعود إلى الظن أى ما محضوا ظنهم و ما تثبتوا فيه،و هذا المعنى على تقدير ثبوته معنى غريب لا يحمل عليه لفظ القرآن.

قوله تعالى:« بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ إِلَيْهِ وَ كٰانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً» و قد قص الله سبحانه هذه القصه فى سوره آل عمران فقال:« إِذْ قٰالَ اللّٰهُ يٰا عِيسىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رٰافِعُكَ إِلَيَّ»:

(آل عمران:۵۵)فذكر التوفى ثم الرفع.

و هذه الآيه بحسب السياق تنفى وقوع ما ادعوه من القتل و الصلب عليه فقد سلم من قتلهم و صلبهم،و ظاهر الآيه أيضا أن الذى ادعى إصابه القتل و الصلب إياه،و هو عيسى (ع)بشخصه البدنى هو الذى رفعه الله إليه،و حفظه من كيدهم فقد رفع عيسى بجسمه و روحه لا أنه توفى ثم رفع روحه إليه تعالى فهذا مما لا يحتمله ظاهر الآيه بمقتضى السياق فإن الإضراب الواقع فى قوله «بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ إِلَيْهِ» لا يتم بمجرد رفع الروح بعد الموت الذى يصح أن يجامع القتل و الموت حتف الأنف.

فهذا الرفع نوع التخليص الذى خلصه الله به و أنجاه من أيديهم سواء كان توفى عند ذلك بالموت حتف الأنف أو لم يتوف حتف الأنف و لا قتلا و صلبا بل بنحو آخر لا نعرفه أو كان حيا باقيا بإبقاء الله بنحو لا نعرفه فكل ذلك محتمل.

۱- ۱) و عند هذا المحقق يكون التاريخ المشتهر فعلا بالميلادى مشكوكا فى صحته.

و ليس من المستحيل أن يتوفى الله المسيح و يرفعه إليه و يحفظه،أو يحفظ الله حياته على نحو لا ينطبق على العاده الجاريه عندنا فليس يقصر عن ذلك سائر ما يقتصه القرآن الكريم من معجزات عيسى نفسه فى ولادته و حياته بين قومه،و ما يحكيه من معجزات إبراهيم و موسى و صالح و غيرهم،فكل ذلك يجرى مجرى واحدا يدل الكتاب العزيز على ثبوتها دلاله لا مدفع لها إلا ما تكلفه بعض الناس من التأويل تحذرا من لزوم خرق العاده و تعطل قانون العليه العام،و قد مر فى الجزء الأول من هذا الكتاب استيفاء البحث عن الإعجاز و خرق العاده.

و بعد ذلك كله فالآيه التاليه لا تخلو عن إشعار أو دلاله على حياته(ع)و عدم توفيه بعد.

قوله تعالى: «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيامَهِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً». «إِنْ» نافيه و المبتدأ محذوف يدل عليه الكلام فى سياق النفى، و التقدير:

و إن أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن،و الضمير فى قوله «بِهِ» و قوله «يَكُونُ» راجع إلى عيسى،و أما الضمير فى قوله «قَبْلَ مَوْتِهِ» ففيه خلاف.

فقد قال بعضهم:إن الضمير راجع إلى المقدر من المبتدأ و هو أحد،و المعنى:و كل واحد من أهل الكتاب يؤمن قبل موته بعيسى أى يظهر له قبيل الموت عند الاحتضار أن عيسى كان رسول الله ص و عبده حقا و إن كان هذا الإيمان منه إيمانا لا ينتفع به،و يكون عيسى شهيدا عليهم جميعا يوم القيامه سواء آمنوا به إيمانا ينتفع به أو إيمانا لا ينتفع به كمن آمن به عند موته.

و يؤيده أن إرجاع ضمير «قَبْلَ مَوْتِهِ» إلى عيسى يعود إلى ما ورد فى بعض الأخبار أن عيسى حى لم يمت،و أنه ينزل فى آخر الزمان فيؤمن به أهل الكتاب من اليهود و النصارى،و هذا يوجب تخصيص عموم قوله «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ» من غير مخصص، فإن مقتضى الآيه على هذا التقدير أن يكون يؤمن بعيسى عند ذلك النزول من السماء الموجودون من أهل الكتاب دون المجموع منهم،ممن وقع بين رفع عيسى و نزوله فمات و لم يدرك زمان نزوله،فهذا تخصيص لعموم الآيه من غير مخصص ظاهر.

و قد قال آخرون:إن الضمير راجع إلى عيسى(ع)و المراد به إيمانهم به عند

نزوله فی آخر الزمان من السماء،استنادا إلی الروایه کما سمعت.

هـذا ما ذکروه،و الـذی ینبغی التـدبر و الإمعان فیه هو أن وقوع قوله «وَ یَوْمَ الْقِیامَهِ یَکُونُ عَلَیْهِمْ شَـهِیداً» فی سـیاق قوله «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ إِلاّ لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ یَوْمَ الْقِیامَهِ یَکُونُ عَلَیْهِمْ شَـهِیداً» ظاهر فی أن عیسی شهید علی جمیعهم یوم القیامه کما أن جمیعهم یؤمنون به قبـل الموت،و قـد حکی سـبحانه قول عیسـی فی خصوص هـذه الشـهاده علی وجه خاص،فقال عنه: «وَ کُنْتُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً مـا دُمْتُ فِیهِمْ فَلَمّا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ وَ أَنْتَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ» :(المائده:۱۱۷).

فقصر(ع)شهادته فی أیام حیاته فیهم قبل توفیه،و هذه الآیه أعنی قوله:

«وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ»

(إلـخ)تدل علی شـهادته علی جمیع من یؤمن به فلو کان المؤمن به هو الجمیع کان لازمه أن لا یتوفی إلا بعد الجمیع،و هذا ینتج المعنی الثـانی،و هو کونه (ع)حیا بعـد،و یعود إلیهم ثانیا حتی یؤمنوا به.نهایه الأمر أن یقال:إن من لا یـدرک منهم رجوعه إلیهم ثانیا یؤمن به عند موته، و من أدرک ذلک آمن به إیمانا اضطرارا أو اختیارا.

علی أن الأنسب بوقوع هذه الآیه:« وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ إِلاّ لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ» فیما وقع فیه من السیاق أعنی بعد قوله تعالی «وَ مـا قَتَلُوهُ وَ مـا صَلَبُوهُ وَ لَکِنْ شُبِّهَ لَهُمْ- إلی أن قال- بَلْ رَفَعَهُ اللّهُ إِلَیْهِ وَ کانَ اللّهُ عَزِیزاً حَکِیماً» أن تکون الآیه فی مقام بیان أنه لم یمت و أنه حی بعد إذ لا یتعلق ببیان إیمانهم الاضطراری و شهادته علیهم فی غیر هذه الصوره غرض ظاهر.

فهذا الذی ذکرناه یؤید کون المراد بإیمانهم به قبل الموت إیمانهم جمیعا به قبل موته(ع).

لکن هاهنا آیات أخر لا تخلو من إشعار بخلاف ذلک کقوله تعالی:« إِذْ قالَ اللّهُ یا عِیسی إِنِّی مُتَوَفِّیکَ وَ رافِعُکَ إِلَیَّ وَ مُطَهِّرُکَ مِنَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ جاعِلُ الَّذِینَ اتَّبَعُوکَ فَوْقَ الَّذِینَ کَفَرُوا إِلی یَوْمِ الْقِیامَهِ» :(آل عمران:۵۵)حیث یـدل علی أن من الکافرین بعیسـی من هو باق إلی یوم القیامه،و کقوله تعالی: «وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَیْها بِکُفْرِهِمْ فَلا یُؤْمِنُونَ إِلاّ قَلِیلاً» حیث إن ظاهره أنه نقمه مکتوبه علیهم،فلا یؤمن

مجتمعهم بما هو مجتمع اليهود أو مجتمع أهل الكتاب إلى يوم القيامه.

بل ظاهر ذيل قوله «وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مٰا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّٰا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» حيث إن ذيله يدل على أنهم باقون بعد توفى عيسى(ع).

لكن الإنصاف أن الآيات لا تنافى ما مر فإن قوله «وَ جٰاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَهِ» لا يدل على بقائهم إلى يوم القيامه على نعت أنهم أهل الكتاب.

و كذا قوله تعالى:« بَلْ طَبَعَ اللّٰهُ عَلَيْهٰا بِكُفْرِهِمْ» (الآيه)إنما يدل على أن الإيمان لا يستوعبهم جميعا،و لو آمنوا فى حين من الأحيان شمل الإيمان منهم قليلا من كثير.على أن قوله« وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ إِلاّٰ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» لو دل على إيمانهم به قبل موته فإنما يدل على أصل الإيمان،و أما كونه إيمانا مقبولا غير اضطرارى فلا دلاله له على ذلك.

و كذا قوله «فَلَمّٰا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» (الآيه)مرجع الضمير فيه إنما هو الناس دون أهل الكتاب أو النصارى بدليل قوله تعالى فى صدر الكلام: «وَ إِذْ قٰالَ اللّٰهُ يٰا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّٰاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ» XالآيهX:

(المائده:۱۱۶)،و يدل على ذلك أيضا أنه(ع)من أولى العزم من الرسل مبعوث إلى الناس كافه،و شهادته على أعمالهم تعم بنى إسرائيل و المؤمنين به و غيرهم.

و بالجمله،الذى يفيده التدبر فى سياق الآيات و ما ينضم إليها من الآيات المربوطه بها هو أن عيسى(ع)لم يتوف بقتل أو صلب و لا بالموت حتف الأنف على نحو ما نعرفه من مصداقه-كما تقدمت الإشاره إليه-و قد تكلمنا بما تيسر لنا من الكلام فى قوله تعالى «يٰا عِيسىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رٰافِعُكَ إِلَيَّ» :(آل عمران:۵۵)فى الجزء الثالث من هذا الكتاب.

و من غريب الكلام فى هذا الباب ما ذكره الزمخشرى فى الكشاف:أنه يجوز أن يراد أنه لا يبقى أحد من جميع أهل الكتاب إلا ليؤمنن به على أن الله يحييهم فى قبورهم فى ذلك الزمان،و يعلمهم نزوله،و ما أنزل له، و يؤمنون به حين لا ينفعهم إيمانهم، و هذا قول بالرجعه.

و فى معنى الآيه بعض وجوه رديئه أخرى:

منها:ما يظهر من الزجاج أن ضمير قوله «قَبْلَ مَوْتِهِ» يرجع إلى الكتابى و أن معنى قوله «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ إِلاّٰ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» أن جميعهم يقولون:إن عيسى

الذی یظهر فی آخر الزمان نحن نؤمن به.

و هذا معنی سخیف فإن الآیات مسوقه لبیان دعواهم قتل عیسی(ع)و صلبه و الرد علیهم دون کفرهم به و لا یرتبط ذلک باعترافهم بظهور مسیح فی آخر الزمان یحیی أمر شعب إسرائیل حتی یذیل به الکلام.

علی أنه لو کان المراد به ذلک لم یکن حاجه إلی ذکر قوله:« قَبْلَ مَوْتِهِ» لارتفاع الحاجه بدونه،و کذا قوله «وَ یَوْمَ الْقِیامَهِ یَکُونُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً» لأنه علی هذا التقدیر فضل من الکلام لا حاجه إلیه.

و منها:ما ذکره بعضهم أن المراد بالآیه:و إن من أهل الکتاب إلا لیؤمنن بمحمد قبل موت ذلک الکتابی.

و هذا فی السخافه کسابقه فإنه لم یجر لمحمد ص ذکر فی سابق الکلام حتی یعود إلیه الضمیر.و لا أن المقام یدل علی ذلک،فهو قول من غیر دلیل.نعم،ورد هذا المعنی فی بعض الروایات مما سیمر بک فی البحث الروائی التالی لکن ذلک من باب الجری کما سنشیر إلیه و هذا أمر کثیر الوقوع فی الروایات کما لا یخفی علی من تتبع فیها.

قوله تعالی: «فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِینَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَیْهِمْ طَیِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ» الفاء للتفریع،و قد نکر لفظ الظلم و کأنه للدلاله علی تفخیم أمره أو للإبهام،إذ لا یتعلق علی تشخیصه غرض مهم و هو بدل مما تقدم ذکره من فجائعهم غیر أنه لیس بدل الکل من الکل کما ربما قیل،بل بدل البعض من الکل،فإنه تعالی جعل هذا الظلم منهم سببا لتحریم الطیبات علیهم،و لم تحرم علیهم إلا فی شریعه موسی المنزله فی التوراه،و بها تختتم شریعه موسی،و قد ذکر فیما ذکر من فجائعهم و مظالمهم أمور جرت و وقعت بعد ذلک کالبهتان علی مریم و غیر ذلک.

فالمراد بالظلم بعض ما ذکر من مظالمهم الفجیعه فهو السبب لتحریم ما حرم علیهم من الطیبات بعد إحلالها.

ثم ضم إلی ذلک قوله «وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ کَثِیراً» و هو إعراضهم المتکرر عن سبیل الله «وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَکْلِهِمْ أَمْوالَ النّاسِ بِالْباطِلِ».

قوله تعالی:« وَ أَعْتَدْنا لِلْکافِرِینَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِیماً» معطوف علی قوله «حَرَّمْنا

عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ»

فقد استوجبوا بمظالمهم من الله جزاءين:جزاء دنيوى عام و هو تحريم الطيبات،و جزاء أخروى خاص بالكافرين منهم و هو العذاب الأليم.

قوله تعالى:« لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ» استثناء و استدراك من أهل الكتاب، و اَلرَّاسِخُونَ» و ما عطف عليه مبتدأ و «يُؤْمِنُونَ» خبره،و قوله «مِنْهُمْ» متعلق بالراسخون و «مِنْ» فيه تبعيضيه.

و الظاهر أن «الْمُؤْمِنُونَ» يشارك «الرَّاسِخُونَ» فى تعلق قوله «مِنْهُمْ» به معنى و المعنى:لكن الراسخون فى العلم و المؤمنون بالحقيقه من أهل الكتاب يؤمنون بك و بما أنزل من قبلك،و يؤيده التعليل الآتى فى قوله «إِنّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ» (إلخ)،فإن ظاهر الآيه كما سيأتى بيان أنهم آمنوا بك لما وجدوا أن نبوتك و الوحى الذى أكرمناك به يماثل الوحى الذى جاءهم به الماضون السابقون من أنبياء الله:نوح و النبيون من بعده،و الأنبياء من آل إبراهيم،و آل يعقوب،و آخرون ممن لم نقصصهم عليك من غير فرق.

و هذا المعنى-كما ترى-أنسب بالمؤمنين من أهل الكتاب أن يوصفوا به دون المؤمنين من العرب الذين وصفهم الله سبحانه بقوله «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ» :(يس:۶).

و قوله« وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ» معطوف على «الرَّاسِخُونَ» و منصوب على المدح،و مثله فى العطف قوله «وَ الْمُؤْتُونَ الزَّكاةَ» و قوله «وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» مبتدأ خبره قوله «أُولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً» و لو كان قوله «وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ» مرفوعا كما نقل عن مصحف ابن مسعود كان هو و ما عطف عليه مبتدأ خبره قوله «أُولئِكَ» .

قال فى المجمع:اختلف فى نصب المقيمين فذهب سيبويه و البصريون إلى أنه نصب على المدح على تقدير أعنى المقيمين الصلاه،قالوا:إذا قلت،مررت بزيد الكريم و أنت تريد أن تعرف زيدا الكريم من زيد غير الكريم فالوجه الجر،و إذا أردت المدح و الثناء فإن شئت نصبت و قلت:مررت بزيد الكريم كأنك قلت:أذكر الكريم،و إن شئت رفعت فقلت:الكريم،على تقدير هو الكريم.

و قال الكسائى،موضع المقيمين جر،و هو معطوف«على»ما من قوله «بِما أُنْزِلَ

إِلَيْكَ»

أى و بالمقيمين الصلاه.

و قال قوم:إنه معطوف على الهاء و الميم من قوله «مِنْهُمْ» على معنى:لكن الراسخون فى العلم منهم و من المقيمين الصلاه،و قال آخرون:إنه معطوف على الكاف من «قَبْلِكَ» أى مما أنزل من قبلك و من قبل المقيمين الصلاه.

و قيل:إنه معطوف على الكاف فى «إِلَيْكَ» أو الكاف فى قبلك.و هذه الأقوال الأخيره لا تجوز عند البصريين لأنه لا يعطف بالظاهر على الضمير المجرور من غير إعاده الجار.

قال:و أما ما روى عن عروه عن عائشه قال:سألتها عن قوله «وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ» و عن قوله« وَ الصَّابِئِينَ» و عن قوله «إِنْ هذانِ» فقالت:يا ابن أختى هذا عمل الكتاب أخطئوا فى الكتاب،و ما روى عن بعضهم:أن فى كتاب الله أشياء ستصلحها العرب بألسنتها،قالوا:و فى مصحف ابن مسعود: «و المقيمون الصلاه» فمما لا يلتفت إليه لأنه لو كان كذلك لم يكن ليعلمه الصحابه الناس على الغلط و هم القدوه و الذين أخذوه عن النبى ص(انتهى).

و بالجمله قوله «لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» استثناء من أهل الكتاب من حيث لازم سؤالهم النبى ص أن ينزل عليهم كتابا من السماء كما تقدم أن لازم سؤالهم ذلك أن لا يكفى ما جاءهم النبى ص من الكتاب و الحكمه المصدقين لما أنزل من قبله من آيات الله على أنبيائه و رسله،فى دعوتهم إلى الحق و إثباته،مع أنه(ص)لم يأتهم إلا مثل ما أتاهم به من قبله من الأنبياء،و لم يعش فيهم و لم يعاشرهم إلا بما عاشوا به و عاشروا به كما قال تعالى «قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ» :(الأحقاف:۹)و قال تعالى: «وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ وَ ما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ ما كانُوا خالِدِينَ X-إلى أن قال-X لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ» :(الأنبياء:۱۰).

فذكر الله سبحانه فى فصل من القول:أن هؤلاء السائلين و هم أهل الكتاب ليست عندهم سجيه اتباع الحق و لا ثبات و لا عزم و لا رأى،و كم من آيه بينه ظلموها،و دعوه حق صدوا عنها،إلا أن الراسخين فى العلم منهم لما كان عندهم ثبات على علمهم و ما وضح من الحق لديهم،و كذا المؤمنون حقيقه منهم لما كان عندهم سجيه اتباع الحق يؤمنون بما

أنزل إليك و ما أنزل من قبلك لما وجدوا أن الذى نزل إليك من الوحى يماثل ما نزل من قبلك على سائر النبيين:نوح و من بعده.

و من هنا يظهر(أولا)وجه توصيف من اتبع النبى ص من أهل الكتاب بالراسخين فى العلم و المؤمنين،فإن الآيات السابقه تقص عنهم أنهم غير راسخين فيما علموا غير مستقرين على شىء من الحق و إن استوثق منهم بأغلظ المواثيق،و أنهم غير مؤمنين بآيات الله صادون عنها و إن جاءتهم البينات،فهؤلاء الذين استثناهم الله راسخون فى العلم أو مؤمنون حقيقه.

و(ثانيا)وجه ذكر ما أنزل قبلا- مع القرآن فى قوله«يؤمنون بما أنزل إليك و ما أنزل من قبلك)لأن المقام مقام نفى الفرق بين القبيلين.

و(ثالثا)أن قوله فى الآيه التاليه :«إِنّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا» (إلخ)فى مقام التعليل لإيمان هؤلاء المستثنين.

قوله تعالى :«إِنّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ» فى مقام التعليل لقوله «يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ» كما عرفت آنفا.و محصل المعنى-و الله أعلم- أنهم آمنوا بما أنزل إليك لأنا لم نؤتك أمرا مبتدعا يختص من الدعاوى و الجهات بما لا يوجد عند غيرك من الأنبياء السابقين،بل الأمر على نهج واحد لا اختلاف فيه،فإنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح و النبيين من بعده،و نوح أول نبى جاء بكتاب و شريعه، و كما أوحينا إلى إبراهيم و من بعده من آله،و هم يعرفونهم و يعرفون كيفيه بعثتهم و دعوتهم، فمنهم من أوتى بكتاب كداود أوتى زبورا و هو وحى نبوى،و موسى أوتى التكليم و هو وحى نبوى،و غيرهما كإسماعيل و إسحاق و يعقوب أرسلوا بغير كتاب،و ذلك أيضا عن وحى نبوى.

و يجمع الجميع أنهم رسل مبشرون بثواب الله منذرون بعذابه،أرسلهم الله لإتمام الحجه على الناس ببيان ما ينفعهم و ما يضرهم فى أخراهم و دنياهم لئلا يكون للناس على الله حجه بعد الرسل.

قوله تعالى:« وَ الْأَسْباطِ» تقدم فى قوله تعالى:« وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ» :(آل عمران:٨۴)أنهم أنبياء من ذريه يعقوب أو من أسباط بنى إسرائيل.

قوله تعالى: «وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً» قيل إنه بمعنى المكتوب من قولهم :زبره أى كتبه فالزبور بمعنى المزبور.

قوله تعالى:« رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ» أحوال ثلاثه أو الأول حال و الأخيران وصفان له.و قد تقدم استيفاء البحث عن معنى إرسال الرسل و تمام الحجه من الله على الناس،و أن العقل لا يغنى وحده عن بعثه الأنبياء بالشرائع الإلهيه فى الكلام على قوله تعالى:« كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً» :(سوره البقره:٢١٣)فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

قوله تعالى :«وَ كانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً» و إذا كانت له العزه المطلقه و الحكمه المطلقه استحال أن يغلبه أحد بحجه بل له الحجه البالغه،قال تعالى:« قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّهُ الْبالِغَهُ»:

(الأنعام:١۴٩).

قوله تعالى:« لكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِكَهُ يَشْهَدُونَ»، استدراك آخر فى معنى الاستثناء المنقطع من الرد المتعلق بسؤالهم النبى ص تنزيل كتاب إليهم من السماء،فإن الذى ذكر الله تعالى فى رد سؤالهم بقوله« فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ» (إلى آخر الآيات)لازم معناه أن سؤالهم مردود إليهم،لأن ما جاء به النبى ص بوحى من ربه لا يغاير نوعا ما جاء به سائر النبيين من الوحى،فمن ادعى أنه مؤمن بما جاءوا به فعليه أن يؤمن بما جاء به من غير فرق.

ثم استدرك عنه بأن الله مع ذلك يشهد بما أنزل على نبيه و الملائكه يشهدون و كفى بالله شهيدا.

و متن شهادته قوله« أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ» فإن مجرد النزول لا يكفى فى المدعى،لأن من أقسام النزول النزول بوحى من الشياطين،بأن يفسد الشيطان أمر الهدايه الإلهيه فيضع سبيلا باطلا مكان سبيل الله الحق،أو يخلط فيدخل شيئا من الباطل فى الوحى الإلهى الحق فيختلط الأمر،كما يشير إلى نفيه بقوله:« عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً» :(الجن:٢٨) و قال تعالى: «وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ» :(الأنعام.١٢١).

و بالجمله فالشهاده على مجرد النزول أو الإنزال لا يخرج الدعوى عن حال الإبهام

لكن تقييده بقوله «بِعِلْمِهِ» يوضح المراد كل الوضوح،و يفيد أن الله سبحانه أنزله إلى رسوله و هو يعلم ما ذا ينزل،و يحيط به و يحفظه من كيد الشياطين.

و إذا كانت الشهاده على الإنزال و الإنزال إنما هو بواسطه الملائكه كما يدل عليه قوله تعالى:« مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ» :(البقره:۹۷)و قال تعالى فى وصف هذا الملك المكرم :«إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» :(التكوير:۲۱)فدل على أن تحت أمره ملائكه أخرى و هم الذين ذكرهم إذ قال:« كَلاّ إِنَّها تَذْكِرَهٌ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَهٍ مَرْفُوعَهٍ مُطَهَّرَهٍ بِأَيْدِى سَفَرَهٍ كِرامٍ بَرَرَهٍ» :(عبس:۱۶).

و بالجمله لكون الملائكه وسائط فى الإنزال فهم أيضا شهداء كما أنه تعالى شهيد و كفى بالله شهيدا.

و الدليل على شهادته تعالى ما أنزله فى كتابه من آيات التحدى كقوله تعالى:« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» :(إسراء:۸۸)و قوله «أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» :(النساء:۸۲)،و قوله« فَأْتُوا بِسُورَهٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ :(يونس.۳۸).

قوله تعالى:« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً» لما ذكر تعالى الحجه البالغه فى رساله نبيه و نزول كتابه من عند الله،و أنه من سنخ الوحى الذى أوحى إلى النبيين من قبله و أنه مقرون بشهادته و شهاده ملائكته و كفى به شهيدا حقق ضلال من كفر به و أعرض عنه كائنا من كان من أهل الكتاب.

و فى الآيه تبديل الكتاب الذى كان الكلام فى نزوله من عند الله بسبيل الله حيث قال :«وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ» و فيه إيجاز لطيف كأنه قيل:إن الذين كفروا و صدوا عن هذا الكتاب و الوحى الذى يتضمنه فقد كفروا و صدوا عن سبيل الله و الذين كفروا و صدوا عن سبيل الله(إلخ).

قوله تعالى :«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ» (إلخ)تحقيق و تثبيت آخر مقامه التأكيد من الآيه السابقه،و على هذا يكون المراد بالظلم هو الصد عن

سبیل الله کما هو ظاهر.

و یمکن أن یکون الآیه فی مقام التعلیل بالنسبه إلی الآیه السابقه،یبین فیها وجه ضلالهم البعید و المعنی ظاهر.

(بحث روائی)

و فی تفسیر البرهان،:فی قوله تعالی:« وَ قَوْلِهِمْ عَلی مَرْیَمَ بُهْتاناً عَظِیماً» :عن ابن بابویه بإسناده عن علقمه عن الصادق(ع)فی حدیث قال: أ لم ینسبوا مریم بنت عمران إلی أنها حملت بصبی-من رجل نجار اسمه یوسف؟

و فی تفسیر القمی،":فی قوله تعالی:« وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ-إِلاّ لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» (الآیه)":قال:حدثنی أبی،عن القاسم بن محمد عن سلیمان بن داود المنقری،عن أبی حمزه،عن شهر بن حوشب": قال لی الحجاج:یا شهر آیه فی کتاب الله قد أعیتنی-فقلت:

أیها الأمیر أیه آیه هی؟فقال:قوله« وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ إِلاّ لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» و الله إنی لأمر بالیهودی و النصرانی فیضرب عنقه-ثم أرمقه بعینی فما أراه یحرک شفتیه حتی یخمد،فقلت:أصلح الله الأمیر لیس علی ما أولت-قال:کیف هو:قلت:إن عیسی ینزل قبل یوم القیامه إلی الدنیا،فلا یبقی أهل مله یهودی و لا غیره إلا آمن به قبل موته،و یصلی خلف المهدی قال:ویحک أنی لک هذا؟و من أین جئت به؟فقلت:حدثنی به محمد بن علی بن الحسین بن علی بن أبی طالب(ع)فقال:و الله جئت بها من عین صافیه

و فی الدر المنثور:أخرج ابن المنذر عن شهر بن حوشب قال: قال لی الحجاج:

یا شهر آیه من کتاب الله ما قرأتها-إلا اعترض فی نفسی منها شیء قال الله:« وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ إِلاّ لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» و إنی أوتی بالأساری فأضرب أعناقهم-و لا أسمعهم یقولون شیئا،فقلت:رفعت إلیک علی غیر وجهها،إن النصرانی إذا خرجت روحه-ضربته الملائکه من قبله و من دبره-و قالوا:أی خبیث إن المسیح الذی زعمت أنه الله أو ابن الله- أو ثالث ثلاثه عبد الله و روحه و کلمته-فیؤمن حین لا ینفعه إیمانه،و إن الیهودی إذا خرجت نفسه-ضربته الملائکه من قبله و من دبره،و قالوا:أی خبیث إن المسیح الذی زعمت أنک قتلته،عبد الله و روحه فیؤمن به حین لا ینفعه الإیمان،فإذا کان عند نزول عیسی-

آمنت به أحياؤهم كما آمنت به موتاهم:فقال:من أين أخذتها؟فقلت:من محمد بن على-قال:لقد أخذتها من معدنها.قال شهر:و ايم الله ما حدثنيه إلا أم سلمه،و لكنى أحببت أن أغيظه:

أقول:و رواه أيضا ملخصا عن عبد بن حميد و ابن المنذر،عن شهر بن حوشب، عن محمد بن على بن أبى طالب و هو ابن الحنفيه ،و الظاهر أنه روى عن محمد بن على، ثم اختلف الرواه فى تشخيص ابن الحنفيه أو الباقر(ع)،و الروايه-كما ترى-تؤيد ما قدمناه فى بيان معنى الآيه

و فيه،أخرج أحمد و البخارى و مسلم و البيهقى فى الأسماء و الصفات قال:قال رسول الله ص: كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم و إمامكم منكم؟.

و فيه:أخرج ابن مردويه عن أبى هريره قال: قال رسول الله ص: يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا يقتل الدجال،و يقتل الخنزير،و يكسر الصليب،و يضع الجزيه،و يقبض المال،و تكون السجده واحده لله رب العالمين،و اقرءوا إن شئتم:« وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» -موت عيسى بن مريم.ثم يعيدها أبو هريره ثلاث مرات.

أقول:و الروايات فى نزول عيسى(ع)عند ظهور المهدى(ع)مستفيضه من طرق أهل السنه،و كذا من طرق الشيعه عن النبى و الأئمه من أهل بيته عليهم الصلاه و السلام.

و فى تفسير العياشى،عن الحارث بن مغيره:عن أبى عبد الله(ع) فى قول الله« وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ-قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيامَهِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً» -قال:هو رسول الله ص.

أقول:ظاهره و إن كان مخالفا لظاهر سياق الآيات المتعرضه لأمر عيسى(ع) لكن يمكن أن يراد به بيان جرى القرآن،بمعنى أنه بعد ما بعث رسول الله ص و جاء بكتاب و شريعه ناسخه لشريعه عيسى كان على كل كتابى أن يؤمن به و يؤمن بعيسى و من قبله فى ضمن الإيمان به،فلو انكشف لكتابى عند الاحتضار مثلا حقيه رساله عيسى بعد بعثه رسول الله محمد ص فإنما ينكشف فى ضمن انكشاف حقيه رساله محمد ص، فإيمان كل كتابى لعيسى(ع)إنما يعد إيمانا إذا آمن بمحمد ص أصاله و بعيسى(ع)

تبعا، فالذی یؤمن به کل کتابی حقیقه و یکون علیهم یوم القیامه شهیدا هو محمد ص بعد بعثته،و إن کان عیسی(ع)کذلک أیضا فلا منافاه،و الخبر التالی لا یخلو من ظهور ما فی هذا المعنی.

و فیه،عن ابن سنان عن أبی عبد الله(ع): فی قول الله فی عیسی :«وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ إِلاَّ لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ-قَبْلَ مَوْتِهِ وَ یَوْمَ الْقِیامَهِ یَکُونُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً» -فقال:إیمان أهل الکتاب إنما هو لمحمد ص.

و فیه،عن جابر عن أبی جعفر(ع): فی قوله «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ إِلاَّ لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ-قَبْلَ مَوْتِهِ وَ یَوْمَ الْقِیامَهِ یَکُونُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً» قال:لیس من أحد من جمیع الأدیان یموت-إلا رأی رسول الله ص و أمیر المؤمنین(ع)-حقا من الأولین و الآخرین.

أقول:و کون الروایه من الجری أظهر.علی أن الروایه غیر صریحه فی کون ما ذکره(ع)ناظرا إلی تفسیر الآیه و تطبیقها،فمن المحتمل أن یکون کلاما أورد فی ذیل الکلام علی الآیه و لذلک نظائر فی الروایات.

و فیه،عن المفضل بن عمر قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله: «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ إِلاَّ لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، -فقال:هذه نزلت فینا خاصه،إنه لیس رجل من ولد فاطمه یموت و لا یخرج من الدنیا-حتی یقر للإمام و بإمامته،کما أقر ولد یعقوب لیوسف حین قالوا:« تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَکَ اللَّهُ عَلَیْنَا» .

أقول:الروایه من الآحاد،و هی مرسله،و فی معناها روایات مرویه فی ذیل قوله تعالی: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْکِتابَ الَّذِینَ اصْطَفَیْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَیْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ» (فاطر:۳۲)سنستوفی الکلام فیها إن شاء الله تعالی.

و فیه،:فی قوله تعالی :«إِنَّا أَوْحَیْنا إِلَیْکَ-کَما أَوْحَیْنا إِلی نُوحٍ وَ النَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ» (الآیه):عن زراره و حمران عن أبی جعفر و أبی عبد الله(ع)قال: إنی أوحیت إلیک کما أوحیت إلی نوح و النبیین من بعده-فجمع له کل وحی.

أقول:الظاهر أن المراد أنه لم یشذ عنه(ص)من سنخ الوحی ما یوجب تفرق

السبیل و تفاوت الدعوه،لا أن کل ما أوحی به إلی نبی علی خصوصیاته فقد أوحی إلی رسول الله ص فهذا مما لا معنی له،و لا أن ما أوحی إلیک جامع لجمیع الشرائع السابقه، فإن الکلام فی الآیه غیر موضوع لإفاده هذا المعنی،و یؤید ما ذکرناه من المعنی الخبر التالی.

و فی الکافی،بإسناده عن محمد بن سالم عن أبی جعفر(ع): قال الله لمحمد ص:

«إِنّا أَوْحَیْنا إِلَیکَ کَما أَوْحَیْنا إِلی نُوحٍ وَ النَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ»،

و أمر کل نبی بالسبیل و السنه.

و فی تفسیر العیاشی،عن الثمالی عن أبی جعفر(ع)قال: و کان بین آدم و بین نوح- من الأنبیاء مستخفین و مستعلنین،و لذلک خفی ذکرهم فی القرآن فلم یسموا-کما سمی من استعلن من الأنبیاء،و هو قول الله عز و جل:« وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَیْکَ وَ کَلَّمَ اللّهُ مُوسی تَکْلِیماً» -یعنی لم أسم المستخفین کما سمیت المستعلنین من الأنبیاء.

أقول:و رواه فی الکافی،عن علی بن إبراهیم،عن أبیه،عن الحسن بن محبوب،عن محمد بن الفضیل،عن أبی حمزه عنه(ع) ،و فیه:من الأنبیاء مستخفین،و لذلک خفی ذکرهم فی القرآن-فلم یسموا کما سمی من استعلن من الأنبیاء،و هو قول الله عز و جل.

« رُسُلًا قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَیْکَ»مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَیْکَ -یعنی لم أسم المستخفین-کما سمیت المستعلنین من الأنبیاء (الحدیث).

و المراد بالروایه علی أی حال أن الله تعالی لم یذکر قصه المستخفین أصلا و لا سماهم، کما قص بعض قصص المستعلنین و سمی من سمی منهم.و من الجائز أن یکون قوله:«یعنی لم أسم»(إلخ)من کلام الراوی.

و فی تفسیر العیاشی،عن أبی حمزه الثمالی قال:سمعت أبا جعفر(ع)یقول: لکن الله یشهد بما أنزل إلیک فی علی-أنزله بعلمه و الملائکه یشهدون و کفی بالله شهیدا.

أقول:و روی هذا المعنی القمی فی تفسیره مسندا عن أبی بصیر عن أبی عبد الله (ع)و هو من قبیل الجری و التطبیق فإن من القرآن ما نزل فی ولایته(ع)،و لیس المراد به تحریف الکتاب و لا هو قراءه منه(ع).

و نظیره ما رواه فی الکافی،و تفسیر العیاشی،عن أبی جعفر(ع)،و القمی فی تفسیره،عن أبی عبد الله(ع):

إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ظَلَمُوا

-آل محمد حقهم لَمْ یَکُنِ اللّهُ لِیَغْفِرَ لَهُمْ (الآیه

و ما رواه فی المجمع،عن أبی جعفر(ع): فی قوله «قَدْ جاءَکُمُ الرَّسُولُ

بِالْحَقِّ»

-أى بولايه من أمر الله بولايته.

[سوره النساء (۴): الآيات ۱۷۰ الى ۱۷۵]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلنّٰاسُ قَدْ جٰاءَكُمُ اَلرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ كٰانَ اَللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۷۰) يٰا أَهْلَ اَلْكِتٰابِ لاٰ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لاٰ تَقُولُوا عَلَى اَللّٰهِ إِلاَّ اَلْحَقَّ إِنَّمَا اَلْمَسِيحُ عِيسَى اِبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اَللّٰهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقٰاهٰا إِلىٰ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ لاٰ تَقُولُوا ثَلاٰثَةٌ اِنْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اَللّٰهُ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ سُبْحٰانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلاً (۱۷۱) لَنْ يَسْتَنْكِفَ اَلْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَ لاَ اَلْمَلاٰئِكَةُ اَلْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (۱۷۲) فَأَمَّا اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَمَّا اَلَّذِينَ اِسْتَنْكَفُوا وَ اِسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً وَ لاٰ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً (۱۷۳) يٰا أَيُّهَا اَلنّٰاسُ قَدْ جٰاءَكُمْ بُرْهٰانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (۱۷۴) فَأَمَّا اَلَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ اِعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَهٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرٰاطاً مُسْتَقِيماً (۱۷۵)

(بيان)

بعد ما أجاب عما اقترحه أهل الكتاب من سؤالهم رسول الله ص تنزيل كتاب من السماء ببيان أن رسوله إنما جاء بالحق من عند ربه،و أن الكتاب الذى جاء به من عند ربه حجه قاطعه لا ريب فيها استنتج منه صحه دعوه الناس كافه إلى نبيه و كتابه.

و قد كان بين فيما بين أن جميع رسله و أنبيائه-و قد ذكر فيهم عيسى-على سنه واحده متشابهه الأجزاء و الأطراف،و هى سنه الوحى من الله فاستنتج منه صحه دعوه النصارى و هم أهل كتاب و وحى إلى أن لا يغلوا فى دينهم، و أن يلحقوا بسائر الموحدين من المؤمنين،و يقروا فى عيسى بما أقروا به هم و غيرهم فى سائر الأنبياء أنهم عباد الله و رسله إلى خلقه.

فأخذ تعالى يدعو الناس كافه إلى الإيمان برسوله(ص)لأن المبين أولا هو صدق نبوته فى قوله «إِنّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ» (الآيات).

ثم دعا إلى عدم الغلو فى حق عيسى(ع)لأنه المتبين ثانيا فى ضمن الآيات المذكوره ثم دعا إلى اتباع كتابه و هو القرآن الكريم لأنه المبين أخيرا فى قوله تعالى:

«لكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ» (الآيه).

قوله تعالى:«يا أَيُّهَا النّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ»، خطاب عام لأهل الكتاب و غيرهم من الناس كافه،متفرع على ما مر من البيان لأهل الكتاب،و إنما عمم الخطاب لصلاحيه المدعو إليه و هو الإيمان بالرسول كذلك لعموم الرساله.

و قوله «خَيْراً لَكُمْ» حال من الإيمان و هى حال لازمه أى حال كون الإيمان من صفته اللازمه أنه خير لكم.

و قوله «وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ»، أى إن تكفروا لم يزد كفركم عليكم شيئا،و لا ينقص من الله سبحانه شيئا،فإن كل شىء مما فى السماوات و الأرض لله فمن المحال أن يسلب منه تعالى شىء من ملكه فإن فى طباع كل شىء مما فى السماوات و الأرض أنه لله لا شريك له فكونه موجودا و كونه مملوكا شىء واحد بعينه،فكيف يمكن أن ينزع من ملكه تعالى شىء و هو شىء؟.

و الآیه من الکلمات الجامعه التی کلما أمعنت فی تدبرها أفادت زیاده لطف فی معناها و سعه عجیبه فی تبیانها،فإحاطه ملکه تعالی علی الأشیاء و آثارها تعطی فی الکفر و الإیمان و الطاعه و المعصیه معانی لطیفه،فعلیک بزیاده التدبر فیها.

قوله تعالی :«یا أَهْلَ الْکِتابِ لا تَغْلُوا فِی دِینِکُمْ وَ لا تَقُولُوا عَلَی اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ»، ظاهر الخطاب بقرینه ما یذکر فیه من أمر المسیح(ع)أنه خطاب للنصاری،و إنما خوطبوا بأهل الکتاب-و هو وصف مشترک-إشعارا بأن تسمیهم بأهل الکتاب یقتضی أن لا یتجاوزوا حدود ما أنزله الله و بینه فی کتبه،و مما بینه أن لا یقولوا علیه إلا الحق.

و ربما أمکن أن یکون خطابا للیهود و النصاری جمیعا،فإن الیهود أیضا کالنصاری فی غلوهم فی الدین،و قولهم علی الله غیر الحق،کما قال تعالی :«وَ قالَتِ الْیَهُودُ عُزَیْرٌ ابْنُ اللَّهِ :التوبه:۳۰)،و قال تعالی:« اِتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ»:

(التوبه:۳۱)،و قال تعالی:« قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ تَعالَوْا إِلی کَلِمَهٍ سَواءٍ بَیْنَنا وَ بَیْنَکُمْ X -إلی أن قال-X وَ لا یَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» :(آل عمران:۶۴).

و علی هذا فقوله :«إِنَّمَا الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ رَسُولُ اللَّهِ» (إلخ)تخصیص فی الخطاب بعد التعمیم أخذا بتکلیف طائفه من المخاطبین بما یخص بهم.

هذا،لکن یبعده أن ظاهر السیاق کون قوله: «إِنَّمَا الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ رَسُولُ اللَّهِ»، تعلیلا لقوله:« لا تَغْلُوا فِی دِینِکُمْ»، و لازمه اختصاص الخطاب بالنصاری و قوله «إِنَّمَا الْمَسِیحُ» أی المبارک «عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ» تصریح بالاسم و اسم الأم لیکون أبعد من التفسیر و التأویل بأی معنی مغایر،و لیکون دلیلا علی کونه إنسانا مخلوقا کأی إنسان ذی أم.« وَ کَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلی مَرْیَمَ» تفسیر لمعنی الکلمه،فإنه کلمه«کن»التی ألقیت إلی مریم البتول،لم یعمل فی تکونه الأسباب العادیه کالنکاح و الأب،قال تعالی:« إِذا قَضی أَمْراً فَإِنَّما یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ» :(آل عمران:۴۷)فکل شیء کلمه له تعالی غیر أن سائر الأشیاء مختلطه بالأسباب العادیه،و الذی اختص لأجله عیسی(ع)بوقوع اسم الکلمه هو فقدانه بعض الأسباب العادیه فی تولده «وَ رُوحٌ مِنْهُ» و الروح من الأمر،قال تعالی:

«قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی» :(إسراء:۸۵)و لما کان عیسی(ع)کلمه«کن»التکوینیه و هی أمر فهو روح.

و قد تقدم البحث عن الآيه فى الكلام على خلقه المسيح فى الجزء الثالث من هذا الكتاب.

قوله تعالى:« فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللّٰهُ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ» تفريع على صدر الكلام بما أنه معلل بقوله:« إِنَّمَا الْمَسِيحُ» (إلخ)أى فإذا كان كذلك وجب عليكم الإيمان على هذا النحو،و هو أن يكون إيمانا بالله بالربوبيه و لرسله-و منهم عيسى-بالرساله،و لا تقولوا ثلاثه انتهوا حال كون الانتهاء أو حال كون الإيمان بالله و رسله و نفى الثلاثه خيرا لكم.

و الثلاثه هم الأقانيم الثلاثه:الأب و الابن و روح القدس،و قد تقدم البحث عن ذلك فى الآيات النازله فى أمر المسيح(ع)من سوره آل عمران.

قوله تعالى:« سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ»، السبحان مفعول مطلق مقدر الفعل،يتعلق به قوله:« أَنْ يَكُونَ»، و هو منصوب بنزع الخافض،و التقدير:أسبحه تسبيحا و أنزهه تنزيها من أن يكون له ولد،و الجمله اعتراض مأتى به للتعظيم.

و قوله« لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ» حال أو جمله استيناف،و هو على أى حال احتجاج على نفى الولد عنه سبحانه،فإن الولد كيفما فرض هو الذى يماثل المولد فى سنخ ذاته متكونا منه،و إذا كان كل ما فى السماوات و الأرض مملوكا فى أصل ذاته و آثاره لله تعالى و هو القيوم لكل شىء وحده فلا يماثله شىء من هذه الأشياء فلا ولد له.

و المقام مقام التعميم لكل ما فى الوجود غير الله عز اسمه و لازم هذا أن يكون قوله «مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ» تعبيرا كنائيا عن جميع ما سوى الله سبحانه إذ نفس السماوات و الأرض مشموله لهذه الحجه،و ليست مما فى السماوات و الأرض بل هى نفسها.

ثم لما كان ما فى الآيه من أمر و نهى هدايه عامه لهم إلى ما هو خير لهم فى دنياهم و أخراهم ذيل الكلام بقوله «وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلاً» أى وليا لشئونكم،مدبرا لأموركم، يهديكم إلى ما هو خير لكم و يدعوكم إلى صراط مستقيم.

قوله تعالى:« لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَ لاَ الْمَلاٰئِكَهُ الْمُقَرَّبُونَ» احتجاج آخر على نفى ألوهيه المسيح(ع)مطلقا سواء فرض كونه ولدا أو أنه ثالث

ثلاثه،فإن المسيح عبد الله لن يستنكف أبدا عن عبادته،و هذا مما لا ينكره النصارى، و الأناجيل الدائره عندهم صريحه فى أنه كان يعبد الله تعالى،و لا معنى لعباده الولد الذى هو سنخ إله و لا لعباده الشىء لنفسه و لا لعباده أحد الثلاثه لثالثها الذى ينطبق وجوده على كل منها،و قد تقدم الكلام على هذا البرهان فى مباحث المسيح(ع).

و قوله «وَ لاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ» تعميم للكلام على الملائكه لجريان الحجه بعينها فيهم و قد قال جماعه من المشركين- كمشركى العرب-:بكونهم بنات الله فالجمله استطراديه.

و التعبير فى الآيه أعنى قوله «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَ لاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ» عن عيسى(ع)بالمسيح،و كذا توصيف الملائكه بالمقربين مشعر بالعليه لما فيهما من معنى الوصف،أى إن عيسى لن يستنكف عن عبادته و كيف يستنكف و هو مسيح مبارك؟و لا الملائكه و هم مقربون؟و لو رجى فيهم أن يستنكفوا لم يبارك الله فى هذا و لا قرب هؤلاء،و قد وصف الله المسيح أيضا بأنه مقرب فى قوله:« وَجِيهاً فِى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَهِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ» :(آل عمران:۴۵).

قوله تعالى:« وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً» حال.

من المسيح و الملائكه و هو فى موضع التعليل أى و كيف يستنكف المسيح و الملائكه المقربون عن عبادته و الحال أن الذين يستنكفون عن عبادته و يستكبرون من عباده من الإنس و الجن و الملائكه يحشرون إليه جميعا،فيجزون حسب أعمالهم،و المسيح و الملائكه يعلمون ذلك و يؤمنون به و يتقونه.

و من الدليل على أن قوله:« وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ» (إلخ)فى معنى أن المسيح و الملائكه المقربين عالمون بأن المستنكفين يحشرون إليه قوله «وَ يَسْتَكْبِرْ» إنما قيد به قوله «وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ» لأن مجرد الاستنكاف لا يوجب السخط الإلهى إذا لم يكن عن استكبار كما فى الجهلاء و المستضعفين،و أما المسيح و الملائكه فإن استنكافهم لا يكون إلا عن استكبار لكونهم عالمين بمقام ربهم،و لذلك اكتفى بذكر الاستنكاف فحسب فيهم،فيكون معنى تعليل هذا بقوله:« وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ»، أنهم عالمون بأن من يستنكف عن عبادته(إلخ».

و قوله «جَمِيعاً» أى صالحا و طالحا و هذا هو المصحح للتفضيل الذى يتلوه من قوله:

«فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ»

(إلخ).

قوله تعالى:« وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً» التعرض لنفى الولى و النصير مقابله لما قيل به من ألوهيه المسيح و الملائكه.

قوله تعالى:« يا أَيُّهَا النّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً قال الراغب:البرهان بيان للحجه،و هو فعلان مثل الرجحان و الثنيان.و قال بعضهم:

هو مصدر بره يبره إذا ابيض.انتهى،فهو على أى حال مصدر.و ربما استعمل بمعنى الفاعل كما إذا أطلق على نفس الدليل و الحجه.

و المراد بالنور هو القرآن لا محاله بقرينه قوله «وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ» و يمكن أن يراد بالبرهان أيضا ذلك،و الجملتان إذا تؤكد إحداهما الأخرى.

و يمكن أن يراد به النبى ص،و يؤيده وقوع الآيه فى ذيل الآيات المبينه لصدق النبى فى رسالته،و نزول القرآن من عند الله تعالى،و كون الآيه تفريعا لذلك و يؤيده أيضا قوله تعالى فى الآيه التاليه. «وَ اعْتَصَمُوا بِهِ» لما تقدم فى الكلام على قوله «وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» :(آل عمران.١٠١)إن المراد بالاعتصام الأخذ بكتاب الله و الاتباع لرسوله(ص).

قوله تعالى :«فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ»، بيان لثواب من اتبع برهان ربه و النور النازل من عنده.

و الآيه كأنها منتزعه من الآيه السابقه المبينه لثواب الذين آمنوا و عملوا الصالحات أعنى قوله «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ»، و لعله لذلك لم يذكر هاهنا جزاء المتخلف من تبعيه البرهان و النور،لأنه بعينه ما ذكر فى الآيه السابقه،فلا حاجه إلى تكراره ثانيا بعد الإشعار بأن جزاء المتبعين هاهنا جزاء المتبعين هنالك،و ليس هناك إلا فريقان:المتبعون و المتخلفون.

و على هذا فقوله فى هذه الآيه:« فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَهٍ مِنْهُ» يحاذى قوله فى تلك الآيه:« فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ» و هو الجنه،و أيضا قوله فى هذه الآيه:« وَ فَضْلٍ» يحاذى قوله فى تلك الآيه:« وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» و أما قوله «وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً» فهو

من آثار ما ذكر فيها من الاعتصام بالله كما فى قوله: «وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ :(آل عمران:١٠١).

[سوره النساء (۴): آيه ۱۷۶]

اشاره

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اَللّٰهُ يُفْتِيكُمْ فِي اَلْكَلاٰلَةِ إِنِ اِمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَهٰا نِصْفُ مٰا تَرَكَ وَ هُوَ يَرِثُهٰا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهٰا وَلَدٌ فَإِنْ كٰانَتَا اِثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا اَلثُّلُثٰانِ مِمّٰا تَرَكَ وَ إِنْ كٰانُوا إِخْوَةً رِجٰالاً وَ نِسٰاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ اَلْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اَللّٰهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَ اَللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۷۶)

(بيان)

آيه تبين فرائض الكلاله من جهه الأبوين أو الأب على ما يفسرها به السنه،كما أن ما ذكر من سهام الكلاله فى أول السوره سهام كلاله الأم بحسب البيان النبوى،و من الدليل على ذلك أن الفرائض المذكوره هاهنا أكثر مما ذكر هناك، و من المستفاد من الآيات أن سهام الذكور أكثر من سهام الإناث.

قوله تعالى: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّٰهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاٰلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ»، قد تقدم الكلام فى معنى الاستفتاء و الإفتاء و معنى الكلاله فى الآيات السابقه من السوره.

و قوله «لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ» ظاهره الأعم من الذكر و الأنثى على ما يفيده إطلاق الولد وحده.و قال فى المجمع:،فمعناه:ليس له ولد و لا والد،و إنما أضمرنا فيه الوالد للإجماع، انتهى.و لو كان لأحد الأبوين وجود لم تخل الآيه من ذكر سهمه فالمفروض عدمهما.

و قوله «وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَهٰا نِصْفُ مٰا تَرَكَ وَ هُوَ يَرِثُهٰا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهٰا وَلَدٌ» سهم الأخت من أخيها،و الأخ من أخته،و منه يظهر سهم الأخت من أختها و الأخ من أخيه،و لو كان للفرضين الأخيرين فريضه أخرى لذكرت.

على أن قوله «وَ هُوَ يَرِثُها» فی معنی قولنا لو انعکس الأمر-أی کان الأخ مکان الأخت-لـذهب بالجمیع،و علی أن قوله «فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثانِ مِمّا تَرَكَ وَ إِنْ كانُوا إِخْوَةً رِجالاً وَ نِساءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ» و هو سـهم الأختین،و سـهم الإخوه لم یقید فیهما المیت بکونه رجلا أو امرأه فلا دخل لذکور المیت و أنوثته فی السهام.

و الذی صـرحت به الآیه من السـهام سهم الأخت الواحده،و الأخ الواحد،و الأختین، و الإخوه المختلطه من الرجال و النساء،و من ذلک یعلم سهام باقی الفروض:منها:الأخوان یذهبان بجمیع المال و یقتسمان بالسویه یعلم ذلک من ذهاب الأخ الواحد بالجمیع، و منها الأخ الواحـد مع أخت واحده،و یصدق علیهما الإخوه کما تقدم فی أول السوره فیشـمله «وَ إِنْ كانُوا إِخْوَةً» علی أن السـنه مبینه لجمیع ذلک.

و السـهام المـذکوره تختص بما إذا کان هناک کلاله الأب وحـده،أو کلاله الأبوین وحده، و أما إذا اجتمعا کالأخت لأبوین مع الأخت لأب.لم ترث الأخت لأب و قد تقدم ذکره فی الکلام علی آیات أول السوره.

قوله تعالی:« يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا»، أی حذر أن تضلوا،أو لئلا تضلوا و هو شائع فی الکلام،قال عمرو بن کلثوم.

«فعجلنا القری أن تشتمونا».

(بحث روائی)

فی المجمع،عن جـابر بن عبـد الله الأنصاری قال: اشـتکیت و عنـدی تسـعه أخوات لی-أو سـبع-فـدخل علی النبی ص فنفـخ فی وجهی فأفقت،فقلت:یا رسول الله أ لا أوصی لأخواتی بالثلثین؟قال:أحسن،قلت:الشطر؟قال أحسن،ثم خرج و ترکنی و رجع إلی- فقال:یا جابر إنی لا أراک میتا من وجعک هذا،و إن الله قد أنزل فی الذی لأخواتک فجعل لهن الثلثین.

قالوا:و کانوا جابر یقول:أنزلت هذه الآیه فی.

أقول:و روی ما یقرب عنه فی الدر المنثور.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی شیبه و البخاری و مسلم و الترمذی و النسائی و ابن ضریس و ابن جریر و ابن المنذر و البیهقی فی الدلائل عن البراء قال" :آخر سوره نزلت کامله:براءه،و آخر آیه نزلت خاتمه سوره النساء: یَسْتَفْتُونَکَ قُلِ اللَّهُ یُفْتِیکُمْ فِی الْکَلالَهِ .

أقول:و روی فیه عده روایات أن رسول الله ص و الصحابه کانوا یسمون الآیه بآیه الصیف،قال فی المجمع:و ذلک أن الله تعالی أنزل فی الکلاله آیتین:إحداهما فی الشتاء،و هی التی فی أول هذه السوره،و أخری فی الصیف،و هی هذه الآیه.

و فیه،أخرج أبو الشیخ فی الفرائض عن البراء قال: سئل رسول الله ص عن الکلاله-فقال:ما خلا الولد و الوالد.

و فی تفسیر القمی،قال:حدثنی أبی،عن ابن أبی عمیر،عن ابن أذینه،عن بکیر،عن أبی جعفر(ع)قال: إذا مات الرجل و له أخت-لها نصف ما ترک من المیراث بالآیه-کما تأخذ البنت لو کانت،و النصف الباقی یرد علیها بالرحم-إذا لم یکن للمیت وارث أقرب منها،فإن کان موضع الأخت أخ-أخذ المیراث کله لقول الله« وَ هُوَ یَرِثُها إِنْ لَمْ یَکُنْ لَها وَلَدٌ» -فإن کانتا أختین أخذتا الثلثین بالآیه،و الثلث الباقی بالرحم،و إن کانوا إخوه رجالا و نساء فللذکر مثل حظ الأنثیین،و ذلک کله إذا لم یکن للمیت ولد أو أبوان أو زوجه.

أقول:و روی العیاشی فی تفسیره ذیل الروایه فی عده أخبار عن أبی جعفر و أبی عبد الله(ع).

و فی تفسیر العیاشی،عن بکیر قال:دخل رجل علی أبی جعفر(ع) فسأله عن امرأه-ترکت زوجها و إخوتها لأمها و أختا لأب،قال:للزوج النصف:ثلاثه أسهم، و للإخوه من الأم الثلث:سهمان،و للأخت للأب سهم.

فقال الرجل:فإن فرائض زید و ابن مسعود-و فرائض العامه و القضاه علی غیر ذا، یا أبا جعفرایقولون:للأخت للأب و الأم ثلاثه أسهم-نصیب من سته یقول:إلی ثمانیه.

فقال أبو جعفر:و لم قالوا ذلک؟قال لأن الله قال: «وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَها نِصْفُ ما تَرَکَ» فقال أبو جعفر(ع):فما لکم نقصتم الأخ إن کنتم تحتجون بأمر الله؟فإن الله سمی لها النصف،و إن الله سمی للأخ الکل-فالکل أکثر من النصف فإنه تعالی قال:« فَلَهَا النِّصْفُ» -و قال للأخ:« وَ هُوَ یَرِثُها» یعنی جمیع المال« إِنْ لَمْ یَکُنْ لَها وَلَدٌ» -فلا تعطون

الذی جعل الله له الجمیع-فی بعض فرائضکم شیئا-و تعطون الذی جعل الله له النصف تاما؟.

و فی الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و الحاکم و البیهقی عن ابن عباس":

أنه سئل عن رجل توفی و ترک ابنته و أخته لأبیه و أمه-فقال:للبنت النصف و لیس للأخت شیء،و ما بقی فلعصبته فقیل:إن عمر جعل للأخت النصف-فقال ابن عباس:أنتم أعلم أم الله؟قال الله:« إِنِ امْرُؤٌ هَلَکَ لَیْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مٰا تَرَکَ» - فقلتم أنتم:

لها النصف و إن کان له ولد.

:أقول:و فی المعانی السابقه روایات أخر

(۵)«سوره المائده مدنیه و هی مائه و عشرون آیه»(۱۲۰)

[سوره المائده (۵): الآیات ۱ الی ۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَکُمْ بَهِیمَهُ اَلْأَنْعٰامِ إِلاّٰ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ غَیْرَ مُحِلِّی اَلصَّیْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اَللّٰهَ یَحْکُمُ مٰا یُرِیدُ (۱) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تُحِلُّوا شَعٰائِرَ اَللّٰهِ وَ لاَ اَلشَّهْرَ اَلْحَرٰامَ وَ لاَ اَلْهَدْیَ وَ لاَ اَلْقَلاٰئِدَ وَ لاَ آمِّینَ اَلْبَیْتَ اَلْحَرٰامَ یَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوٰاناً وَ إِذٰا حَلَلْتُمْ فَاصْطٰادُوا وَ لاٰ یَجْرِمَنَّکُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوکُمْ عَنِ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَ تَعٰاوَنُوا عَلَی اَلْبِرِّ وَ اَلتَّقْویٰ وَ لاٰ تَعٰاوَنُوا عَلَی اَلْإِثْمِ وَ اَلْعُدْوٰانِ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ شَدِیدُ اَلْعِقٰابِ (۲) حُرِّمَتْ عَلَیْکُمُ اَلْمَیْتَهُ وَ اَلدَّمُ وَ لَحْمُ اَلْخِنْزِیرِ وَ مٰا أُهِلَّ لِغَیْرِ اَللّٰهِ بِهِ وَ اَلْمُنْخَنِقَهُ وَ اَلْمَوْقُوذَهُ وَ اَلْمُتَرَدِّیَهُ وَ اَلنَّطِیحَهُ وَ مٰا أَکَلَ اَلسَّبُعُ إِلاّٰ مٰا ذَکَّیْتُمْ وَ مٰا ذُبِحَ عَلَی اَلنُّصُبِ وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاٰمِ ذٰلِکُمْ فِسْقٌ اَلْیَوْمَ یَئِسَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اِخْشَوْنِ اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ اَلْإِسْلاٰمَ دِیناً فَمَنِ اُضْطُرَّ فِی مَخْمَصَهٍ غَیْرَ مُتَجٰانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۳)

(بيان)

الغرض الجامع فى السوره على ما يعطيه التدبر فى مفتتحها و مختتمها،و عامه الآيات الواقعه فيها،و الأحكام و المواعظ و القصص التى تضمنتها هو الدعوه إلى الوفاء بالعهود و حفظ المواثيق الحقه كائنه ما كانت،و التحذير البالغ عن نقضها و عدم الاعتناء بأمرها، و أن عادته تعالى جرت بالرحمه و التسهيل و التخفيف على من اتقى و آمن ثم اتقى و أحسن و التشديد على من بغى و اعتدى و طغا بالخروج عن ربقه العهد بالطاعه،و تعدى حدود المواثيق المأخوذه عليه فى الدين.

و لذلك ترى السوره تشتمل على كثير من أحكام الحدود و القصاص،و على مثل قصه المائده،و سؤال المسيح،و قصه ابنى آدم،و على الإشاره إلى كثير من مظالم بنى إسرائيل و نقضهم المواثيق المأخوذه منهم، و على كثير من الآيات التى يمتن الله تعالى فيها على الناس بأمور كإكمال الدين،و إتمام النعمه،و إحلال الطيبات،و تشريع ما يطهر الناس من غير أن يريد بهم الحرج و العسر.

و هذا هو المناسب لزمان نزول السوره إذ لم يختلف أهل النقل أنها آخر سوره مفصله نزلت على رسول الله ص فى أواخر أيام حياته و قد ورد فى روايات الفريقين:

أنها ناسخه غير منسوخه،و المناسب لذلك تأكيد الوصيه بحفظ المواثيق المأخوذه لله تعالى على عباده و للتثبت فيها.

قوله تعالى. «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» العقود جمع عقد و هو شد أحد شيئين بالآخر نوع شد يصعب معه انفصال أحدهما عن الآخر،كعقد الحبل و الخيط بآخر من مثله،و لازمه التزام أحدهما الآخر،و عدم انفكاكه عنه،و قد كان معتبرا عندهم فى

الأمور المحسوسه أولا ثم أستعير فعمم للأمور المعنويه كعقود المعاملات الدائره بينهم من بيع أو إجاره أو غير ذلك،و كجميع العهود و المواثيق فأطلقت عليها الكلمه لثبوت أثر المعنى الذى عرفت أنه اللزوم و الالتزام فيها.

و لما كان العقد-و هو العهد-يقع على جميع المواثيق الدينيه التى أخذها الله من عباده من أركان و أجزاء كالتوحيد و سائر المعارف الأصليه و الأعمال العباديه و الأحكام المشروعه تأسيسا أو إمضاء،و منها عقود المعاملات و غير ذلك،و كان لفظ العقود أيضا جمعا محلى باللام لا جرم كان الأوجه حمل العقود فى الآيه على ما يعم كل ما يصدق عليه أنه عقد.

و بذلك يظهر ضعف ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالعقود العقود التى يتعاقدها الناس بينهم كعقد البيع و النكاح و العهد،أو يعقدها الإنسان على نفسه كعقد اليمين.

و كذا ما ذكره بعض آخر:أن المراد بها العهود التى كان أهل الجاهليه عاهد بعضهم بعضا فيها على النصره و المؤازره على من يقصدهم بسوء أو يبغى عليهم،و هذا هو الحلف الدائر بينهم.

و كذا ما ذكره آخرون:أن المراد بها المواثيق المأخوذه من أهل الكتاب بالعمل بما فى التوراه و الإنجيل فهذه وجوه لا دليل على شىء منها من جهه اللفظ.على أن ظاهر الجمع المحلى باللام و إطلاق العقد عرفا بالنسبه إلى كل عقد و حكم لا يلائمها،فالحمل على العموم هو الأوجه.

(كلام فى معنى العقد)

يدل الكتاب كما ترى من ظاهر قوله تعالى:« أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» على الأمر بالوفاء بالعقود،و هو بظاهره عام يشمل كل ما يصدق عليه العقد عرفا مما يلائم الوفاء.و العقد هو كل فعل أو قول يمثل معنى العقد اللغوى،و هو نوع ربط شىء بشىء آخر بحيث يلزمه و لا ينفك عنه كعقد البيع الذى هو ربط المبيع بالمشترى ملكا بحيث كان له أن يتصرف فيه ما شاء،و ليس للبائع بعد العقد ملك و لا تصرف،و كعقد النكاح الذى يربط المرأه بالرجل بحيث له أن يتمتع منها تمتع النكاح،و ليس للمرأه أن تمتع غيره من نفسها،و كالعهد

الذی یمکن فیه العاهد المعهود له من نفسه فیما عهده و لیس له أن ینقضه.

و قد أکد القرآن فی الوفاء بالعقد و العهد جمیع معانیه و فی جمیع معانیه و فی جمیع مصادیقه و شدد فیه کل التشدید،و ذم الناقضین للمواثیق ذما بالغا،و أوعدهم إیعادا عنیفا و مدح الموفین بعهدهم إذا عاهدوا فی آیات کثیره لا حاجه إلی نقلها.

و قد أرسلت الآیات القول فیه إرسالا یدل علی أن ذلک مما یناله الناس بعقولهم الفطریه،و هو کذلک.

و لیس ذلک إلا لأن العهد و الوفاء به مما لا غنی للإنسان فی حیاته عنه أبدا،و الفرد و المجتمع فی ذلک سیان،و إنا لو تأملنا الحیاه الاجتماعیه التی للإنسان وجدنا جمیع المزایا التی نستفید منها و جمیع الحقوق الحیویه الاجتماعیه التی نطمئن إلیها مبنیه علی أساس العقد الاجتماعی العام و العقود و العهود الفرعیه التی تترتب علیه،فلا نملک من أنفسنا للمجتمعین شیئا و لا نملک منهم شیئا إلا عن عقد عملی و إن لم نأت بقول فإنما القول لحاجه البیان، و لو صح للإنسان أن ینقض ما عقده و عهد به اختیارا لتمکنه منه بقوه أو سلطه أو بطش أو لعذر یعتذر به کان أول ما انتقض بنقضه هو العدل الاجتماعی،و هو الرکن الذی یلوذ به و یأوی إلیه الإنسان من إساره الاستخدام و الاستثمار.

و لذلک أکد الله سبحانه فی حفظ العهد و الوفاء به قال تعالی:« وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ کانَ مَسْؤُلاً» :(إسراء:۳۴)و الآیه تشمل العهد الفردی الذی یعاهد به الفرد الفرد مثل غالب الآیات المادحه للوفاء بالعهد و الذامه لنقضه کما تشمل العهد الاجتماعی الدائر بین قوم و قوم و أمه و أمه،بل الوفاء به فی نظر الدین أهم منه بالعهد الفردی لأن العدل عنده أتم و البلیه فی نقضه أعم.

و لذلک أتی الکتاب العزیز فی أدق موارده و أهونها نقضا بالمنع عن النقض بأصرح القول و أوضح البیان قال تعالی:« بَراءَهٌ مِنَ اللّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَی الَّذِینَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِکِینَ فَسِیحُوا فِی الْأَرْضِ أَرْبَعَهَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّکُمْ غَیْرُ مُعْجِزِی اللّهِ وَ أَنَّ اللّهَ مُخْزِی الْکافِرِینَ وَ أَذانٌ مِنَ اللّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَی النّاسِ یَوْمَ الْحَجِّ الْأَکْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِیءٌ مِنَ الْمُشْرِکِینَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَیْرٌ لَکُمْ وَ إِنْ تَوَلَّیْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّکُمْ غَیْرُ مُعْجِزِی اللّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِینَ کَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِیمٍ إِلاَّ الَّذِینَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِکِینَ ثُمَّ لَمْ یَنْقُصُوکُمْ شَیْئاً وَ لَمْ یُظاهِرُوا عَلَیْکُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَیْهِمْ

عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ» :(براءه:۵)و الآیات کما یدل سیاقها نزلت بعد فتح مکه و قد أذل الله رقاب المشرکین،و أفنی قوتهم و أذهب شوکتهم، و هی تعزم علی المسلمین أن یطهروا الأرض التی ملکوها و ظهروا علیها من قذاره الشرک، و تهدر دماء المشرکین من دون أی قید و شرط إلا أن یؤمنوا،و مع ذلک تستثنی قوما من المشرکین بینهم و بین المسلمین عهد عدم التعرض،و لا تجیز للمسلمین أن یمسوهم بسوء حینما استضعفوا و استذلوا فلا مانع من ناحیتهم یمنع و لا دافع یدفع،کل ذلک احتراما للعهد و مراعاه لجانب التقوی.

نعم علی ناقض العهد بعد عقده أن ینقض العهد الذی نقضه و یتلقی هباء باطلا، اعتداء علیه بمثل ما اعتدی به،قال تعالی:« كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ X-إلی أن قال-X لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَ لا ذِمَّةً وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ»:

(براءه:۱۲)،و قال تعالی:« فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللّهَ» :(البقره:۱۹۴)،و قال تعالی:« وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ لا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ اتَّقُوا اللّهَ»: (المائده:۲).

و جمله الأمر أن الإسلام یری حرمه العهد و وجوب الوفاء به علی الإطلاق سواء انتفع به العاهد أو تضرر بعد ما أوثق المیثاق فإن رعایه جانب العدل الاجتماعی ألزم و أوجب من رعایه أی نفع خاص أو شخصی إلا أن ینقض أحد المتعاهدین عهده فللمتعاهد الآخر نقضه بمثل ما نقضه و الاعتداء علیه بمثل ما اعتدی علیه،فإن فی ذلک خروجا عن رقیه الاستخدام و الاستعلاء المذمومه التی ما نهض ناهض الدین إلا لإماطتها.

و لعمری إن ذلک أحد التعالیم العالیه التی أتی بها دین الإسلام لهدایه الناس إلی رعایه الفطره الإنسانیه فی حکمها و التحفظ علی العدل الاجتماعی الذی لا ینتظم سلک الاجتماع

الإنسانى إلاـ على أساسه و إماطه مظلمه الاستخدام و الاستثمار،و قد صرح به الكتاب العزيز و سار به النبى ص فى سيرته الشريفه،و لو لا أن البحث بحث قرآنى لذكرنا لك طرفا من قصصه عليه أفضل الصلاه و السلام فى ذلك،و عليك بالرجوع إلى الكتب المؤلفه فى سيرته و تاريخ حياته.

و إذا قايست بين ما جرت عليه سنه الإسلام من احترام العهد و ما جرت عليه سنن الأمم المتمدنه و غير المتمدنه و لا سيما ما نسمعه و نشاهده كل يوم من معامله الأمم القويه مع الضعيفه فى معاهداتهم و معاقداتهم و حفظها لها ما درت لهم أو استوجبته مصالح دولتهم و نقضها بما يسمى عذرا وجدت الفرق بين السنتين فى رعايه الحق و خدمه الحقيقه.

و من الحرى بالدين ذاك و بسننهم ذلك فإنما هناك منطقان:منطق يقول:إن الحق تجب رعايته كيفما كان و فى رعايته منافع المجتمع،و منطق يقول:إن منافع الأمه تجب رعايتها بأى وسيله اتفقت و إن دحضت الحق،و أول المنطقين منطق الدين،و ثانيهما منطق جميع السنن الاجتماعيه الهمجيه أو المتمدنه من السنن الاستبداديه و الديموقراطيه و الشيوعيه و غيرها.

و قد عرفت مع ذلك أن الإسلام فى عزيمته فى ذلك لا يقتصر على العهد المصطلح بل يعمم حكمه إلى كل ما بنى عليه بناء و يوصى برعايته و لهذا البحث أذيال ستعثر عليها فى مستقبل الكلام إن شاء الله تعالى.

[(بيان)]

قوله تعالى:« أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَهُ الْأَنْعامِ إِلاّ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ» (إلخ) الإحلال هو الإباحه و البهيمه اسم لكل ذى أربع من دواب البر و البحر على ما فى المجمع،و على هذا فإضافه البهيمه إلى الأنعام من قبيل إضافه النوع إلى أصنافه كقولنا:نوع الإنسان و جنس الحيوان،و قيل:البهيمه جنين الأنعام،و عليه فالإضافه لاميه.و كيف كان فقوله «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَهُ الْأَنْعامِ» أى الأزواج الثمانيه أى أكل لحومها،و قوله «إِلاّ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ» إشاره إلى ما سيأتى من قوله:« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَهُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ» (الآيه).

و قوله «غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ» حال من ضمير الخطاب فى قوله «أُحِلَّتْ لَكُمْ»

و مفاده حرمه هذا الذی أحل إذا کان اصطیاده فی حال الإحرام،کالوحشی من الظباء و البقره و الحمر إذا صیدت، و ربما قیل:إنه حال من قوله «أَوْفُوا» أو حال من ضمیر الخطاب فی قوله «یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ» و الصید مصدر بمعنی المفعول،کما أن الحرم بضمتین جمع الحرام بمعنی المحرم اسم فاعل.

قوله تعالی:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تُحِلُّوا شَعٰائِرَ اللّٰهِ وَ لاَ الشَّهْرَ الْحَرٰامَ وَ لاَ الْهَدْیَ وَ لاَ الْقَلاٰئِدَ وَ لاَ آمِّینَ الْبَیْتَ الْحَرٰامَ یَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوٰاناً» خطاب مجدد للمؤمنین یفید شده العنایه بحرمات الله تعالی.

و الإحلال هو الإباحه الملازمه لعدم المبالاه بالحرمه و المنزله،و یتعین معناه بحسب ما أضیف إلیه:فإحلال شعائر الله عدم احترامها و ترکها،و إحلال الشهر الحرام عدم حفظ حرمته و القتال فیه،و هکذا.

و الشعائر جمع شعیره و هی العلامه،و کان المراد بها أعلام الحج و مناسکه.و الشهر الحرام ما حرمه الله من شهور السنه القمریه و هی:المحرم و رجب و ذو القعده و ذو الحجه.

و الهدی ما یساق للحج من الغنم و البقر و الإبل.و القلائد جمع قلاده،و هی ما یقلد به الهدی فی عنقه من نعل و نحوه لیعلم أنه هدی للحج فلا یتعرض له.و الآمین جمع آم اسم فاعل من أم إذا قصد،و المراد به القاصدون لزیاره البیت الحرام.و قوله «یَبْتَغُونَ فَضْلاً»، حال من «آمِّینَ» و الفضل هو المال،أو الربح المالی فقد أطلق علیه فی قوله تعالی «فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَهٍ مِنَ اللّٰهِ وَ فَضْلٍ لَمْ یَمْسَسْهُمْ سُوءٌ» :(آل عمران:۱۷۴)و غیر ذلک أو هو الأجر الأخروی أو الأعم من المال و الأجر.

و قد اختلفوا فی تفسیر الشعائر و القلائد و غیرهما من مفردات الآیه علی أقوال شتی، و الذی آثرنا ذکره هو الأنسب لسیاق الآیه،و لا جدوی فی التعرض لتفاصیل الأقوال.

قوله تعالی:« وَ إِذٰا حَلَلْتُمْ فَاصْطٰادُوا» أمر واقع بعد الحظر لا یدل علی أزید من الإباحه بمعنی عدم المنع،و الحل و الإحلال-مجردا و مزیدا فیه-بمعنی و هو الخروج من الإحرام.

قوله تعالی:« وَ لاٰ یَجْرِمَنَّکُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوکُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ أَنْ تَعْتَدُوا» یقال: جرمه یجرمه أی حمله،و منه الجریمه للمعصیه لأنها محموله من حیث وبالها،و للعقوبه

المـاليه و غيرهـا لأنهـا محمـوله على المجرم.و ذكر الراغب أن الأصـل فى معناهـا القطع.و الشـنآن العـداوه و البغض.و قـوله «أَنْ صَـدُّوكُمْ» أى منعـوكم بـدل أو عطـف بيـان من الشـنآن، و محصـل معنى الآـيه:و لاـ يحملنكم عـداوه قوم و هو أن منعوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا عليهم بعد ما أظهركم الله عليهم.

قوله تعالى:« وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوىٰ وَ لا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ» المعنى واضح،و هذا أساس السنه الإسلاميه، و قد فسر الله سبحانه البر فى كلامه بالإيمان و الإحسان فى العبادات و المعاملات،كما مر فى قوله تعالى:« وَ لٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» XالآيهX:(البقره:۱۷۷)و قـد تقـدم الكلاـم فيه.و التقـوى مراقبه أمر الله و نهيه،فيعـود معنى التعـاون على البـر و التقوى إلى الاجتماع على الإيمان و العمل الصالح على أساس تقوى الله،و هو الصلاح و التقوى الاجتماعيان،و يقابله التعاون على الإثم الذى هو العمل السـيئ المسـتتبع للتأخر فى أمور الحياه السـعيده،و على العدوان و هو التعدى على حقوق الناس الحقه بسـلب الأمن من نفوسـهم أو أعراضـهم أو أموالهم و قـد مر شـطر من الكلاـم فى هـذا المعنى فى ذيـل قوله تعـالى:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا» XالآيهX:(آل عمران:۲۰۰)فى الجزء الرابع من هذا الكتاب.

ثم أكـد سـبحانه نهيه عن الاجتماع على الإثم و العـدوان بقوله: «وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ شَدِيـدُ الْعِقابِ» و هو فى الحقيقه تأكيـد على تأكيد.

قوله تعالى:« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَهُ وَ الـدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ مـا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّٰهِ بِهِ» هـذه الأربعه مذكوره فيما نزل من القرآن قبل هذه السوره كسورتى الأنعام و النحل و هما مكيتان،و سوره البقره و هى أول سوره مفصـله نازله بالمـدينه قال تعالى:« قُلْ لا أَجِـدُ فِى مـا أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّماً عَلىٰ طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَهً أَوْ دَماً مَسْـفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْـقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّٰهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بـاغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»:

(الأنعام:۱۴۵)و قال تعالى:« إِنَّمـا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَهَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ مـا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّٰهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بـاغٍ وَ لا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» :(البقره:۱۷۳).

و الآيـات جميعـا-كمـا ترى-تحرم هـذه الأربعه المـذكوره فى صـدر هـذه الآيه و تماثل الآيه أيضا فى الاسـتثناء الواقع فى ذيلها بقوله:« فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَهٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ

فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»

فآیه المائده بالنسبه إلی هذه المعانی المشترکه بینها و بین تلک مؤکده لتلک الآیات.

بل النهی عنها و خاصه عن الثلاثه الأول أعنی المیته و الدم و لحم الخنزیر أسبق تشریعا من نزول سورتی الأنعام و النحل المکیتین،فإن آیه الأنعام تعلل تحریم الثلاثه أو خصوص لحم الخنزیر بأنه رجس،فتدل علی تحریم أکل الرجز،و قد قال تعالی فی سوره المدثر- و هی من السور النازله فی أول البعثه-: «وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ» :(المدثر:۵).

و کذلک ما عده تعالی بقوله «وَ الْمُنْخَنِقَهُ وَ الْمَوْقُوذَهُ وَ الْمُتَرَدِّیَهُ وَ النَّطِیحَهُ وَ مٰا أَکَلَ السَّبُعُ» جمیعا من مصادیق المیته بدلیل قوله «إِلاّٰ مٰا ذَکَّیْتُمْ» فإنما ذکرت فی الآیه لنوع عنایه بتوضیح أفراد المیته و مزید بیان للمحرمات من الأطعمه من غیر أن تتضمن الآیه فیها علی تشریع حدیث.

و کذلک ما عده الله تعالی بقوله «وَ مٰا ذُبِحَ عَلَی النُّصُبِ وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاٰمِ ذٰلِکُمْ فِسْقٌ» فإنهما و إن کانا أول ما ذکرا فی هذه السوره لکنه تعالی علل تحریمهما أو تحریم الثانی منهما-علی احتمال ضعیف-بالفسق،و قد حرم الفسق فی آیه الأنعام، و کذا قوله «غَیْرَ مُتَجٰانِفٍ لِإِثْمٍ» یدل علی تحریم ما ذکر فی الآیه لکونه إثما،و قد دلت آیه البقره علی تحریم الإثم،و قال تعالی أیضا:« وَ ذَرُوا ظٰاهِرَ الْإِثْمِ وَ بٰاطِنَهُ» :(الأنعام:

۱۲۰)،و قال تعالی: قُلْ إِنَّمٰا حَرَّمَ رَبِّیَ الْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ وَ الْإِثْمَ»:

(الأعراف:۳۳).

فقد اتضح و بان أن الآیه لا تشتمل فیما عدته من المحرمات علی أمر جدید غیر مسبوق بالتحریم فیما تقدم علیها من الآیات المکیه أو المدنیه المتضمنه تعداد محرمات الأطعمه من اللحوم و نحوها.

قوله تعالی:« وَ الْمُنْخَنِقَهُ وَ الْمَوْقُوذَهُ وَ الْمُتَرَدِّیَهُ وَ النَّطِیحَهُ وَ مٰا أَکَلَ السَّبُعُ إِلاّٰ مٰا ذَکَّیْتُمْ» المنخنقه هی البهیمه التی تموت بالخنق،و هو أعم من أن یکون عن اتفاق أو بعمل عامل اختیارا،و من أن یکون بأی آله و وسیله کانت کحبل یشد علی عنقها و یسد بضغطه مجری تنفسها،أو بإدخال رأسها بین خشبتین،کما کانت هذه الطریقه و أمثالها دائره بینهم فی الجاهلیه.

و الموقوذه هی التی تضرب حتی تموت،و المتردیه هی التی تردت أی سقطت من مکان عال کشاهق جبل أو بئر و نحوهما.

و النطیحه هی التی ماتت عن نطح نطحها به غیرها،و ما أکل السبع هی التی أکلها أی أکل من لحمها السبع فإن الأکل یتعلق بالمأکول سواء أفنی جمیعه أو بعضه و السبع هو الوحش الضاری کالأسد و الذئب و النمر و نحوها.

و قوله «إِلاّ ما ذَکَّیْتُمْ» استثناء لما یقبل التذکیه بمعنی فری الأوداج الأربعه منها کما إذا کانت فیها بقیه من الحیاه یدل علیها مثل حرکه ذنب أو أثر تنفس و نحو ذلک و الاستثناء کما ذکرنا آنفا متعلق بجمیع ما یقبله من المعدودات من دون أن یتقید بالتعلق بالأخیر من غیر دلیل علیه.

و هذه الأمور الخمسه أعنی المنخنقه و الموقوذه و المتردیه و النطیحه و ما أکل السبع کل ذلک من أفراد المیته و مصادیقها،بمعنی أن المتردیه أو النطیحه مثلا إنما تحرمان إذا ماتتا بالتردی و النطح،و الدلیل علی ذلک قوله:« إِلاّ ما ذَکَّیْتُمْ» فإن من البدیهی أنهما لا تؤکلان ما دامت الروح فی جثمانهما،و إنما تؤکلان بعد زهوقها و حینئذ فإما أن تذکیا أو لا،و قد استثنی الله سبحانه التذکیه فلم یبق للحرمه إلا إذا ماتتا عن ترد أو نطح من غیر تذکیه،و أما لو تردت شاه-مثلا-فی بئر ثم أخرجت سلیمه مستقیمه الحال فعاشت قلیلا أو کثیرا ثم ماتت حتف أنفها أو ذکیت بذبح فلا تطلق علیها المتردیه، یدل علی ذلک السیاق فإن المذکورات فیها ما إذا هلکت،و استند هلاکها إلی الوصف الذی ذکر لها کالانخناق و الوقذ و التردی و النطح.

و الوجه فی تخصیص هذه المصادیق من المیته بالذکر رفع ما ربما یسبق إلی الوهم أنها لیست میته بناء علی أنها أفراد نادره منها و الذهن یسبق غالبا إلی الفرد الشائع،و هو ما إذا ماتت بمرض و نحوه من غیر أن یکون لمفاجاه سبب من خارج،فصرح تعالی بهذه الأفراد و المصادیق النادره بأسمائها حتی یرتفع اللبس و تتضح الحرمه.

قوله تعالی:« وَ ما ذُبِحَ عَلَی النُّصُبِ» قال الراغب فی المفردات:، نصب الشیء وضعه وضعا ناتئا کنصب الرمح و البناء و الحجر،و النصیب الحجاره تنصب علی الشیء،و جمعه نصائب و نصب،و کان للعرب حجاره تعبدها و تذبح علیها قال:« کَأَنَّهُمْ إِلی نُصُبٍ

يُوفِضُونَ»، قال:« وَ مٰا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ» و قد يقال فى جمعه:أنصاب قال وَ الْأَنْصٰابُ وَ الْأَزْلاٰمُ». و النصب و النصب: التعب.

فالمراد من النهى عن أكل لحوم ما ذبح على النصب أن يستن بسنن الجاهليه فى ذلك فإنهم كانوا نصبوا حول الكعبه أحجارا يقدسونها و يذبحون عليها،و كان من سنن الوثنيه.

قوله تعالى:« وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاٰمِ» و الأزلام هى القداح،و الاستقسام بالقداح أن يؤخذ جزور-أو بهيمه أخرى-على سهام ثم يضرب بالقداح فى تشخيص من له سهم ممن لا سهم له،و فى تشخيص نفس السهام المختلفه و هو الميسر،و قد مر شرحه عند قوله تعالى: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ» XالآيهX:(البقره:٢١٩)فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

قال الراغب: القسم إفراز النصيب يقال:قسمت كذا قسما و قسمه،و قسمه الميراث و قسمه الغنيمه تفريقهما على أربابهما،قال: «لِكُلِّ بٰابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ» «وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمٰاءَ قِسْمَهٌ بَيْنَهُمْ» و استقسمته سألته أن يقسم،ثم قد يستعمل فى معنى قسم قال:

« وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاٰمِ»، و ما ذكره من كون استقسم بمعنى قسم إنما هو بحسب الانطباق مصداقا،و المعنى بالحقيقه طلب القسمه بالأزلام التى هى آلات هذا الفعل،فاستعمال الآله طلب لحصول الفعل المترتب عليها فيصدق الاستفعال.فالمراد بالاستقسام بالأزلام المنهى عنه على ظاهر السياق هو ضرب القداح على الجزور و نحوه للذهاب بما فى لحمه من النصيب.

و أما ما ذكره بعضهم أن المراد بالاستقسام بالأزلام الضرب بالقداح لاستعلام الخير و الشر فى الأفعال،و تمييز النافع منها من الضار كمن يريد سفرا أو ازدواجا أو شروعا فى عمل أو غير ذلك فيضرب بالقداح لتشخيص ما فيه الخير منها مما لا خير فيه قالوا:

و كان ذلك دائرا بين عرب الجاهليه،و ذلك نوع من الطيره،و سيأتى زياده شرح له فى البحث الروائى التالى-ففيه:أن سياق الآيه يأبى عن حمل اللفظ على الاستقسام بهذا المعنى،و ذلك أن الآيه-و هى مقام عد محرمات الأطعمه،و قد أشير إليها قبلا فى قوله :«إِلاّٰ مٰا يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ»- تعد من محرماتها عشرا،و هى الميته و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير الله به و المنخنقه و الموقوذه و المتردیه و النطيحه و ما أكل السبع و ما ذبح على النصب،ثم تذكر الاستقسام بالأزلام الذى من معناه قسمه اللحم بالمقامره،و من معناه استعلام الخير و الشر فى الأمور،فكيف يشك بعد ذلك السياق الواضح و القرائن المتواليه

فی تعین حمل اللفظ علی استقسام اللحم قمارا و هل یرتاب عارف بالکلام فی ذلک.

نظیر ذلک أن العمره مصدر بمعنی العماره،و لها معنی آخر و هو زیاره البیت الحرام،فإذا أضیف إلی البیت صح کل من المعنیین لکن لا یحتمل فی قوله تعالی:« وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَهَ لِلّهِ» :البقره:۱۱۹ إلا المعنی الأول،و الأمثله فی ذلک کثیره.

و قوله:« ذٰلِکُمْ فِسْقٌ» یحتمل الإشاره إلی جمیع المذکورات،و الإشاره إلی الأخیرین المذکورین بعد قوله:« إِلاّ مٰا ذَکَّیْتُمْ» لحیلوله الاستثناء،و الإشاره إلی الأخیر و لعل الأوسط خیر الثلاثه.

قوله تعالی :«اَلْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» أمر الآیه فی حلولها محلها ثم فی دلالتها عجیب،فإنک إذا تأملت صدر الآیه أعنی قوله تعالی:

«حُرِّمَتْ عَلَیْکُمُ الْمَیْتَهُ وَ الدَّمُ-

إلی قوله:- ذٰلِکُمْ فِسْقٌ» و أضفت إلیه ذیلها أعنی قوله:

«فَمَنِ اضْطُرَّ فِی مَخْمَصَهٍ غَیْرَ مُتَجٰانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ»

وجدته کلاما تاما غیر متوقف فی تمام معناه و إفاده المراد منه إلی شیء من قوله:« اَلْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ» (إلخ)أصلا،و ألفیته آیه کامله مماثله لما تقدم علیها فی النزول من الآیات الواقعه فی سوره الأنعام و النحل و البقره المبینه لمحرمات الطعام،ففی سوره البقره: «إِنَّمٰا حَرَّمَ عَلَیْکُمُ الْمَیْتَهَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِیرِ وَ مٰا أُهِلَّ بِهِ لِغَیْرِ اللّٰهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَیْرَ بٰاغٍ وَ لاٰ عٰادٍ فَلاٰ إِثْمَ عَلَیْهِ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ» و یماثله ما فی سورتی الأنعام و النحل.

و ینتج ذلک أن قوله: «اَلْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا» (إلخ)کلام معترض موضوع فی وسط هذه الآیه غیر متوقف علیه لفظ الآیه فی دلالتها و بیانها،سواء قلنا:إن الآیه نازله فی وسط الآیه فتخللت بینها من أول ما نزلت،أو قلنا إن النبی ص هو الذی أمر کتاب الوحی بوضع الآیه فی هذا الموضع مع انفصال الآیتین و اختلافهما نزولا.أو قلنا:

إنها موضوعه فی موضعها الذی هی فیه عند التألیف من غیر أن تصاحبها نزولا،فإن شیئا من هذه الاحتمالات لا یؤثر أثرا فیما ذکرناه من کون هذا الکلام المتخلل معترضا إذا قیس إلی صدر الآیه و ذیلها.

و یؤید ذلک أن جل الروایات الوارده فی سبب النزول-لو لم یکن کلها،و هی أخبار جمه-یخص قوله:« اَلْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا» (إلخ)بالذکر من غیر أن یتعرض

لأصل الآيه أعنى قوله:« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ»، أصلا،و هذا يؤيد أيضا نزول قوله:

«الْيَوْمَ يَئِسَ»

(إلخ)نزولا مستقلا منفصلا عن الصدر و الذيل،و إن وقوع الآيه فى وسط الآيه مستند إلى تأليف النبى ص أو إلى تأليف المؤلفين بعده.

و يؤيده ما رواه فى الدر المنثور،عن عبد بن حميد عن الشعبى قال" :نزل على النبى ص هذه الآيه-و هو بعرفه- :«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» -و كان إذا أعجبته آيات جعلهن صدر السوره،قال:و كان جبرئيل يعلمه كيف ينسك.

ثم إن هاتين الجملتين أعنى قوله:« اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» و قوله:« اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ متقاربتان مضمونا،مرتبطتان مفهوما بلا ريب،لظهور ما بين يأس الكفار من دين المسلمين و بين إكمال دين المسلمين من الارتباط القريب، و قبول المضمونين لأن يمتزجا فيتركبا مضمونا واحدا مرتبط الأجزاء،متصل الأطراف بعضها ببعض، مضافا إلى ما بين الجملتين من الاتحاد فى السياق.

و يؤيد ذلك ما نرى أن السلف و الخلف من مفسرى الصحابه و التابعين و المتأخرين إلى يومنا هذا أخذوا الجملتين متصلتين يتم بعضهما،بعضا و ليس ذلك إلا لأنهم فهموا من هاتين الجملتين ذلك،و بنوا على نزولهما معا،و اجتماعهما من حيث الدلاله على مدلول واحد.

و ينتج ذلك أن هذه الآيه المعترضه أعنى قوله:« اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ- إلى قوله:- وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً» كلام واحد متصل بعض أجزائه ببعض مسوق لغرض واحد قائم بمجموع الجملتين من غير تشتت سواء قلنا بارتباطه بالآيه المحيطه بها أو لم نقل،فإن ذلك لا يؤثر البته فى كون هذا المجموع كلاما واحدا معترضا لا كلامين ذوى غرضين،و إن اليوم المتكرر فى قوله:« اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا»، و فى قوله:« اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »،أريد به يوم واحد يئس فيه الكفار و أكمل فيه الدين.

ثم ما المراد بهذا اليوم الواقع فى قوله تعالى :«اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ»؟ فهل المراد به زمان ظهور الإسلام ببعثه النبى ص و دعوته فيكون المراد أن الله أنزل إليكم الإسلام،و أكمل لكم الدين و أتم عليكم النعمه و أيأس منكم الكفار؟.

لا سبيل إلى ذلك لأن ظاهر السياق أنه كان لهم دين كان الكفار يطمعون فى إبطاله أو تغييره،و كان المسلمون يخشونهم على دينهم فأيأس الله الكافرين مما طمعوا فيه و آمن

المسلمين و أنه كان ناقصا فأكمله الله و أتم نعمته عليهم و لم يكن لهم قبل الإسلام دين حتى يطمع فيه الكفار أو يكمله الله و يتم نعمته عليهم.

على أن لازم ما ذكر من المعنى أن يتقدم قوله:« اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ»، على قوله:« اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا »،حتى يستقيم الكلام فى نظمه.

أو أن المراد باليوم هو ما بعد فتح مكه حيث أبطل الله فيه كيد مشركى قريش و أذهب شوكتهم،و هدم فيه بنيان دينهم،و كسر أصنامهم فانقطع رجاؤهم أن يقوموا على ساق،و يضادوا الإسلام و يمانعوا نفوذ أمره و انتشار صيته.

لا سبيل إلى ذلك أيضا فإن الآيه تدل على إكمال الدين و إتمام النعمه و لما يكمل الدين بفتح مكه-و كان فى السنه الثامنه من الهجره-فكم من فريضه نزلت بعد ذلك،و كم من حلال أو حرام شرع فيما بينه و بين رحله النبى ص.

على أن قوله:« اَلَّذِينَ كَفَرُوا يعم جميع مشركى العرب و لم يكونوا جميعا آيسين من دين المسلمين،و من الدليل عليه أن كثيرا من المعارضات و المواثيق على عدم التعرض كانت باقيه بعد على اعتبارها و احترامها،و كانوا يحجون حجه الجاهليه على سنن المشركين، و كانت النساء يحججن عاريات مكشوفات العوره حتى بعث رسول الله ص عليا(ع) بآيات البراءه فأبطل بقايا رسوم الجاهليه.

أو أن المراد باليوم ما بعد نزول البراءه من الزمان حيث انبسط الإسلام على جزيره العرب تقريبا،و عفت آثار الشرك،و ماتت سنن الجاهليه فما كان المسلمون يرون فى معاهد الدين و مناسك الحج أحدا من المشركين،وصفا لهم الأمر،و أبدلهم الله بعد خوفهم أمنا يعبدونه و لا يشركون به شيئا.

لا سبيل إلى ذلك فإن مشركى العرب و إن أيسوا من دين المسلمين بعد نزول آيات البراءه و طى بساط الشرك من الجزيره و إعفاء رسوم الجاهليه إلا- أن الدين لم يكمل بعد و قد نزلت فرائض و أحكام بعد ذلك و منها ما فى هذه السوره:(سوره المائده)،و قد اتفقوا على نزولها فى آخر عهد النبى ص،و فيها شىء كثير من أحكام الحلال و الحرام و الحدود و القصاص.

فتحصل أنه لا سبيل إلى احتمال أن يكون المراد باليوم فى الآيه معناه الوسيع مما

يناسب مفاد الآيه بحسب بادئ النظر كزمان ظهور الدعوه الإسلاميه أو ما بعد فتح مكه من الزمان،أو ما بعد نزول آيات البراءه فلا سبيل إلا أن يقال:إن المراد باليوم يوم نزول الآيه نفسها،و هو يوم نزول السوره إن كان قوله:« اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا»، معترضا مرتبطا بحسب المعنى بالآيه المحيطه بها،أو بعد نزول سوره المائده فى أواخر عهد النبى ص،و ذلك لمكان قوله تعالى :«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ» .

فهل المراد باليوم يوم فتح مكه بعينه؟أو يوم نزول البراءه بعينه؟يكفى فى فساده ما تقدم من الإشكالات الوارده على الاحتمال الثانى و الثالث المتقدمين.

أو أن المراد باليوم هو يوم عرفه من حجه الوداع كما ذكره كثير من المفسرين و به ورد بعض الروايات؟فما المراد من يأس الذين كفروا يومئذ من دين المسلمين فإن كان المراد باليأس من الدين يأس مشركى قريش من الظهور على دين المسلمين فقد كان ذلك يوم الفتح عام ثمانيه لا يوم عرفه من السنه العاشره،و إن كان المراد يأس مشركى العرب من ذلك فقد كان ذلك عند نزول البراءه و هو فى السنه التاسعه من الهجره،و إن كان المراد به يأس جميع الكفار الشامل لليهود و النصارى و المجوس و غيرهم-و ذلك الذى يقتضيه إطلاق قوله :«الَّذِينَ كَفَرُوا»- فهؤلاء لم يكونوا آيسين من الظهور على المسلمين بعد،و لما يظهر للإسلام قوه و شوكه و غلبه فى خارج جزيره العرب اليوم.

و من جهه أخرى يجب أن نتأمل فيما لهذا اليوم-و هو يوم عرفه تاسع ذى الحجه سنه عشر من الهجره-من الشأن الذى يناسب قوله:« اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى» فى الآيه.

فربما أمكن أن يقال:إن المراد به إكمال أمر الحج بحضور النبى ص بنفسه فيه، و تعليمه الناس تعليما عمليا مشفوعا بالقول.

لكن فيه أن مجرد تعليمه الناس مناسك حجهم-و قد أمرهم بحج التمتع و لم يلبث دون أن صار مهجورا،و قد تقدمه تشريع أركان الدين من صلاه و صوم و حج و زكاه و جهاد و غير ذلك-لا يصح أن يسمى إكمالا للدين،و كيف يصح أن يسمى تعليم شىء من واجبات الدين إكمالا لذلك الواجب فضلا عن أن يسمى تعليم واجب من واجبات الدين لمجموع الدين.

على أن هذا الاحتمال يوجب انقطاع رابطه الفقره الأولى أعنى قوله:« اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ بهذه الفقره أعنى قوله:« اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» و أى ربط

ليأس الكفار عن الدين بتعليم رسول الله ص حج التمتع للناس.

و ربما أمكن أن يقال إن المراد به إكمال الدين بنزول بقايا الحلال و الحرام فى هذا اليوم فى سوره المائده،فلا حلال بعده و لا حرام،و بإكمال الدين استولى اليأس على قلوب الكفار،و لاحت آثاره على وجوههم.

لكن يجب أن نتبصر فى تمييز هؤلاء الكفار الذين عبر عنهم فى الآيه بقوله:« اَلَّذِينَ كَفَرُوا» على هذا التقدير و أنهم من هم؟فإن أريد بهم كفار العرب فقد كان الإسلام عمهم يومئذ و لم يكن فيهم من يتظاهر بغير الإسلام و هو الإسلام حقيقه،فمن هم الكفار الآيسون؟.

و إن أريد بهم الكفار من غيرهم كسائر العرب من الأمم و الأجيال فقد عرفت آنفا أنهم لم يكونوا آيسين يومئذ من الظهور على المسلمين.

ثم نتبصر فى أمر انسداد باب التشريع بنزول سوره المائده و انقضاء يوم عرفه فقد وردت روايات كثيره لا يستهان بها عددا بنزول أحكام و فرائض بعد اليوم كما فى آيه الصيف (۱)و آيات الربا،حتى أنه روى عن عمر أنه قال فى خطبه خطبها:من آخر القرآن نزولا آيه الربا،و إنه مات رسول الله و لم يبينه لنا،فدعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم، الحديث

و روى البخارى فى الصحيح،عن ابن عباس قال": آخر آيه نزلت على النبى ص آيه الربا، إلى غير ذلك من الروايات.

و ليس للباحث أن يضعف الروايات فيقدم الآيه عليها،لأن الآيه ليست بصريحه و لا ظاهره فى كون المراد باليوم فيها هذا اليوم بعينه و إنما هو وجه محتمل يتوقف فى تعينه على انتفاء كل احتمال ينافيه،و هذه الأخبار لا تقصر عن الاحتمال المجرد عن السند.

أو يقال:إن المراد بإكمال الدين خلوص البيت الحرام لهم،و إجلاء المشركين عنه حتى حجه المسلمون و هم لا يخالطهم المشركون.

و فيه:أنه قد كان صفا الأمر للمسلمين فيما ذكر قبل ذلك بسنه،فما معنى تقييده باليوم فى قوله: «اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»؟ على أنه لو سلم كون هذا الخلوص إتماما

۱- ۱) و هى آيه الكلاله المذكوره فى آخر سوره النساء.

للنعمه لم يسلم كونه إكمالا- للدين،و أى معنى لتسميه خلوص البيت إكمالا- للدين،و ليس الدين إلا- مجموعه من عقائد و أحكام،و ليس إكماله إلا أن يضاف إلى عدد أجزائها و أبعاضها عدد؟و أما صفاء الجو لإجرائها،و ارتفاع الموانع و المزاحمات عن العمل بها فليس يسمى إكمالا للدين البته.على أن إشكال يأس الكفار عن الدين على حاله.

و يمكن أن يقال:إن المراد من إكمال الدين بيان هذه المحرمات بيانا تفصيليا ليأخذ به المسلمون،و يجتنبوها و لا يخشوا الكفار فى ذلك لأنهم قد يئسوا من دينهم بإعزاز الله المسلمين،و إظهار دينهم و تغليبهم على الكفار.

توضيح ذلك أن حكمه الاكتفاء فى صدر الإسلام بذكر المحرمات الأربعه أعنى الميته و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير الله به الواقعه فى بعض السور المكيه و ترك تفصيل ما يندرج فيها مما كرهه الإسلام للمسلمين من سائر ما ذكر فى هذه الآيه إلى ما بعد فتح مكه إنما هى التدرج فى تحريم هذه الخبائث و التشديد فيها كما كان التدريج فى تحريم الخمر لئلا ينفر العرب من الإسلام،و لا يروا فيه حرجا يرجون به رجوع من آمن من فقرائهم و هم أكثر السابقين الأولين.

جاء هذا التفصيل للمحرمات بعد قوه الإسلام،و توسعه الله على أهله و إعزازهم و بعد أن يئس المشركون بذلك من نفور أهله منه،و زال طمعهم فى الظهور عليهم،و إزاله دينهم بالقوه القاهره،فكان المؤمنون أجدر بهم أن لا يبالوهم بالمداراه،و لا يخافوهم على دينهم و على أنفسهم.

فالمراد باليوم يوم عرفه من عام حجه الوداع،و هو اليوم الذى نزلت فيه هذه الآيه المبينه لما بقى من الأحكام التى أبطل بها الإسلام بقايا مهانه الجاهليه و خبائثها و أوهامها، و المبشره بظهور المسلمين على المشركين ظهورا تاما لا مطمع لهم فى زواله،و لا حاجه معه إلى شىء من مداراتهم أو الخوف من عاقبه أمرهم.

فالله سبحانه يخبرهم فى الآيه أن الكفار أنفسهم قد يئسوا من زوال دينهم و أنه ينبغى لهم-و قد بدلهم بضعفهم قوه،و بخوفهم أمنا،و بفقرهم غنى- أن لا يخشوا غيره تعالى، و ينتهوا عن تفاصيل ما نهى الله عنه فى الآيه ففيها كمال دينهم.كذا ذكره بعضهم بتلخيص ما فى النقل.

و فيه:أن هذا القائل أراد الجمع بين عده من الاحتمالات المذكوره ليدفع بكل احتمال ما يتوجه إلى الاحتمال الآخر من الإشكال فتورط بين المحاذير برمتها و أفسد لفظ الآيه و معناها جميعا.

فذهل عن أن المراد باليأس إن كان هو اليأس المستند إلى ظهور الإسلام و قوته و هو ما كان بفتح مكه أو بنزول آيات البراءه لم يصح أن يقال يوم عرفه من السنه العاشره:

«الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ»

و قد كانوا يئسوا قبل ذلك بسنه أو سنتين،و إنما اللفظ الوافى له أن يقال:قد يئسوا كما عبر به القائل نفسه فى كلامه فى توضيح المعنى أو يقال:إنهم آيسون.

و ذهل عن أن هذا التدرج الذى ذكره فى محرمات الطعام،و قاس تحريمها بتحريم الخمر إن أريد به التدرج من حيث تحريم بعض الأفراد بعد بعض فقد عرفت أن الآيه لا تشتمل على أزيد مما تشتمل عليه آيات التحريم السابقه نزولا على هذه الآيه أعنى آيات البقره و الأنعام و النحل،و أن المنخنقه و الموقوذه(إلخ)من أفراد ما ذكر فيها.

و إن أريد به التدرج من حيث البيان الإجمالى و التفصيلى خوفا من امتناع الناس من القبول ففى غير محله،فإن ما ذكر بالتصريح فى السور السابقه على المائده أعنى الميته و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير الله به أغلب مصداقا،و أكثر ابتلاء،و أوقع فى قلوب الناس من أمثال المنخنقه و الموقوذه و غيرها،و هى أمور نادره التحقق و شاذه الوجود، فما بال تلك الأربعه و هى أهم و أوقع و أكثر يصرح بتحريمها من غير خوف من ذلك ثم يتقى من ذكرها ما لا يعبأ بأمره بالإضافه إليها فيتدرج فى بيان حرمتها،و يخاف من التصريح بها.

على أن ذلك لو سلم لم يكن إكمالا للدين،و هل يصح أن يسمى تشريع الأحكام دينا و إبلاغها و بيانها إكمالا للدين؟و لو سلم فإنما ذلك إكمال لبعض الدين و إتمام لبعض النعمه لا للكل و الجميع،و قد قال تعالى:« اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى» فأطلق القول من غير تقييد.

على أنه تعالى قد بين أحكاما كثيره فى أيام كثيره،فما بال هذا الحكم فى هذا اليوم خص بالمزيه فسماه الله أو سمى بيانه تفصيلا بإشمال الدين و إتمام النعمه.

أو أن المراد بإكمال الدين إكماله بسد باب التشريع بعد هذه الآيه المبينه لتفصيل محرمات الطعام،فما شأن الأحكام النازله ما بين نزول المائده و رحله النبى ص؟بل ما شأن سائر الأحكام النازله بعد هذه الآيه فى سوره المائده؟تأمل فيه.

و بعد ذلك كله ما معنى قوله تعالى:« وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً»- و تقديره:

اليوم رضيت(إلخ)-لو كان المراد بالكلام الامتنان بما ذكر فى الآيه من المحرمات يوم عرفه من السنه العاشره؟و ما وجه اختصاص هذا اليوم بأن الله سبحانه رضى فيه الإسلام دينا،و لا أمر يختص به اليوم مما يناسب هذا الرضا؟.

و بعد ذلك كله يرد على هذا الوجه أكثر الإشكالات الوارده على الوجوه السابقه أو ما يقرب منها مما تقدم بيانه و لا نطيل بالإعاده.

أو أن المراد باليوم واحد من الأيام التى بين عرفه و بين ورود النبى ص المدينه على بعض الوجوه المذكوره فى معنى يأس الكفار و معنى إكمال الدين.

و فيه من الإشكال ما يرد على غيره على التفصيل المتقدم.

فهذا شطر من البحث عن الآيه بحسب السير فيما قيل أو يمكن أن يقال فى توجيه معناها،و لنبحث عنها من طريق آخر يناسب طريق البحث الخاص بهذا الكتاب.

قوله:« اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ»- و اليأس يقابل الرجاء، و الدين إنما نزل من عند الله تدريجا-يدل على أن الكفار قد كان لهم مطمع فى دين المسلمين و هو الإسلام،و كانوا يرجون زواله بنحو منذ عهد و زمان،و إن أمرهم ذلك كان يهدد الإسلام حينا بعد حين،و كان الدين منهم على خطر يوما بعد يوم،و إن ذلك كان من حقه أن يحذر منه و يخشاه المؤمنون.

فقوله:« فَلا تَخْشَوْهُمْ»، تأمين منه سبحانه للمؤمنين مما كانوا منه على خطر،و من تسر به على خشيه،قال تعالى:« وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ» :(آل عمران:۶۹)،و قال تعالى:« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» :(البقره:۱۰۹).

و الكفار لم يكونوا يتربصون الدوائر بالمسلمين إلا لدينهم،و لم يكن يضيق صدورهم و ينصدع قلوبهم إلا من جهه أن الدين كان يذهب بسؤددهم و شرفهم و استرسالهم فى اقتراف كل ما تهواه طباعهم،و تألفه و تعتاد به نفوسهم،و يختم على تمتعهم بكل ما يشتهون بلا قيد و شرط.

فقد كان الدين هو المبغوض عندهم دون أهل الدين إلا من جهه دينهم الحق فلم يكن فى قصدهم إباده المسلمين و إفناء جمعهم بل إطفاء نور الله و تحكيم أركان الشرك المتزلزله المضطربه به،و رد المؤمنين كفارا كما مر فى قوله:« لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفّاراً» (الآيه)قال تعالى:« يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ اللّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» الصف:۹):(الصف:۹).

و قال تعالى:« فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ» :(المؤمن:۱۴).

و لذلك لم يكن لهم هم إلا أن يقطعوا هذه الشجره الطيبه من أصلها،و يهدموا هذا البنيان الرفيع من أسه بتفتين المؤمنين و تسريه النفاق فى جماعتهم و بث الشبه و الخرافات بينهم لإفساد دينهم.

و قد كانوا يأخذون بادئ الأمر يفترون عزيمه النبى ص و يستمحقون همته فى الدعوه الدينيه بالمال و الجاه،كما يشير إليه قوله تعالى:« وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ» :(-ص:۶)أو بمخالطه أو مداهنه،كما يشير إليه قوله:« وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ» :(القلم:۹)،و قوله: «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً» :(إسراء:۷۴)،و قوله:« قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ» :(الكافرون:۳)على ما ورد فى أسباب النزول.

و كان آخر ما يرجونه فى زوال الدين،و موت الدعوه المحقه،أنه سيموت بموت هذا القائم بأمره و لا عقب له،فإنهم كانوا يرون أنه ملك فى صوره النبوه،و سلطنه فى لباس الدعوه و الرساله،فلو مات أو قتل لانقطع أثره و مات ذكره و ذكر دينه على ما هو المشهود عاده من حال السلاطين و الجبابره أنهم مهما بلغ أمرهم من التعالى و التجبر و ركوب رقاب الناس فإن ذكرهم يموت بموتهم،و سننهم و قوانينهم الحاكمه بين الناس و عليهم تدفن معهم فى قبورهم،يشير إلى رجائهم هذا قوله تعالى:« إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ:» (الكوثر:۳)

على ما ورد فى أسباب النزول.

فقد كان هذه و أمثالها أمانى تمكن الرجاء من نفوسهم،و تطمعهم فى إطفاء نور الدين،و تزين لأوهامهم أن هذه الدعوه الطاهره ليست إلا أحدوثه ستكذبه المقادير و يقضى عليها و يعفو أثرها مرور الأيام و الليالى،لكن ظهور الإسلام تدريجا على كل ما نازله من دين و أهله،و انتشار صيته،و اعتلاء كلمته بالشوكه و القوه قضى على هذه الأمانى فيئسوا من إفساد عزيمه النبى ص،و إيقاف همته عند بعض ما كان يريده،و تطميعه بمال أو جاه.

قوه الإسلام و شوكته أيأستهم من جميع تلك الأسباب أسباب:-الرجاء-إلا واحدا،و هو أنه(ص)مقطوع العقب لا ولد له تخلفه فى أمره،و يقوم على ما قام عليه من الدعوه الدينيه فسيموت دينه بموته،و ذلك أن من البديهى أن كمال الدين من جهه أحكامه و معارفه-و إن بلغ ما بلغ-لا يقوى بنفسه على حفظ نفسه،و أن سنه من السنن المحدثه و الأديان المتبعه لا تبقى على نضارتها و صفائها لا بنفسها و لا بانتشار صيتها و لا بكثره المنتحلين بها،كما أنها لا تنمحى و لا تنطمس بقهر أو جبر أو تهديد أو فتنه أو عذاب أو غير ذلك إلا بموت حملتها و حفظتها و القائمين بتدبير أمرها.

و من جميع ما تقدم يظهر أن تمام يأس الكفار إنما كان يتحقق عند الاعتبار الصحيح بأن ينصب الله لهذا الدين من يقوم مقام النبى ص فى حفظه و تدبير أمره،و إرشاد الأمه القائمه به فيتعقب ذلك يأس الذين كفروا من دين المسلمين لما شاهدوا خروج الدين عن مرحله القيام بالحامل الشخصى إلى مرحله القيام بالحامل النوعى،و يكون ذلك إكمالا للدين بتحويله من صفه الحدوث إلى صفه البقاء،و إتماما لهذه النعمه،و ليس يبعد أن يكون قوله تعالى:« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» :(البقره:۱۰۹)باشتماله على قوله:« حَتّى يَأْتِيَ»، إشاره إلى هذا المعنى.

و هذا يؤيد ما ورد من الروايات أن الآيه نزلت يوم غدير خم،و هو اليوم الثامن عشر من ذى الحجه سنه عشر من الهجره فى أمر ولايه على(ع)،و على هذا فيرتبط الفقرتان أوضح الارتباط،و لا يرد عليه شىء من الإشكالات المتقدمه.

ثم إنک بعد ما عرفت معنى اليأس فى الآيه تعرف أن اليوم:«فى قوله اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكَمْ ظرف متعلق بقوله :«يَئِسَ» و إن التقديم للدلاله على تفخيم أمر اليوم،و تعظيم شأنه،لما فيه من خروج الدين من مرحله القيام بالقيم الشخصى إلى مرحله القيام بالقيم النوعى،و من صفه الظهور و الحدوث إلى صفه البقاء و الدوام.

و لا يقاس الآيه بما سيأتى من قوله:« اَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ» (الآيه)فإن سياق الآيتين مختلف فقوله: «الْيَوْمَ يَئِسَ»، فى سياق الاعتراض،و قوله:« اَلْيَوْمَ أُحِلَّ»، فى سياق الاستيناف،و الحكمان مختلفان:فحكم الآيه الأولى تكوينى مشتمل على البشرى من وجه و التحذير من وجه آخر، و حكم الثانيه تشريعى منبئ عن الامتنان.فقوله:« اَلْيَوْمَ يَئِسَ»، يدل على تعظيم أمر اليوم لاشتماله على خير عظيم الجدوى و هو يأس الذين كفروا من دين المؤمنين،و المراد بالذين كفروا-كما تقدمت الإشاره إليه-مطلق الكفار من الوثنيين و اليهود و النصارى و غيرهم لمكان الإطلاق.

و أما قوله: «فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» فالنهى إرشادى لا مولوى،معناه أن لا موجب للخشيه بعد يأس الذين كنتم فى معرض الخطر من قبلهم-و من المعلوم أن الإنسان لا يهم بأمر بعد تمام اليأس من الحصول عليه و لا يسعى إلى ما يعلم ضلال سعيه فيه-فأنتم فى أمن من ناحيه الكفار،و لا ينبغى لكم مع ذلك الخشيه منهم على دينكم فلا تخشوهم و اخشونى.

و من هنا يظهر أن المراد بقوله:« وَ اخْشَوْنِ» بمقتضى السياق أن اخشونى فيما كان عليكم أن تخشوهم فيه لو لا يأسهم و هو الدين و نزعه من أيديكم،و هذا نوع تهديد للمسلمين كما هو ظاهر،و لهذا لم نحمل الآيه على الامتنان.

و يؤيد ما ذكرنا أن الخشيه من الله سبحانه واجب على أى تقدير من غير أن يتعلق بوضع دون وضع،و شرط دون شرط،فلا وجه للإضراب من قوله:« فَلا تَخْشَوْهُمْ» إلى قوله: «وَ اخْشَوْنِ» لو لا أنها خشيه خاصه فى مورد خاص.

و لا تقاس الآيه بقوله تعالى :«فَلا تَخافُوهُمْ وَ خافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» :(آل عمران:

۱۷۵)لأن الأمر بالخوف من الله فى تلک الآيه مشروط بالإيمان،و الخطاب مولوى ،و مفاده أنه لا يجوز للمؤمنين أن يخافوا الكفار على أنفسهم بل يجب أن يخافوا الله سبحانه وحده.

فالآیه تنهاهم عما لیس لهم بحق و هو الخوف منهم علی أنفسهم سواء أمروا بالخوف من الله أم لا،و لذلک یعلل ثانیا الأمر بالخوف من الله بقید مشعر بالتعلیل،و هو قوله :

«إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ» و هذا بخلاف قوله:« فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» فإن خشیتهم هذه خشیه منهم علی دینهم،و لیست بمبغوضه لله سبحانه لرجوعها إلی ابتغاء مرضاته بالحقیقه،بل إنما النهی عنها لکون السبب الداعی إلیها-و هو عدم یأس الکفار منه-قد ارتفع و سقط أثره فالنهی عنه إرشادی،فکذا الأمر بخشیه الله نفسه،و مفاد الکلام أن من الواجب أن تخشوا فی أمر الدین،لکن سبب الخشیه کان إلی الیوم مع الکفار فکنتم تخشونهم لرجائهم فی دینکم و قد یئسوا الیوم و انتقل السبب إلی ما عند الله فاخشوه وحده فافهم ذلک.

فالآیه لمکان قوله:« فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» لا تخلو عن تهدید و تحذیر،لأن فیه أمرا بخشیه خاصه دون الخشیه العامه التی تجب علی المؤمن علی کل تقدیر و فی جمیع الأحوال فلننظر فی خصوصیه هذه الخشیه،و أنه ما هو السبب الموجب لوجوبها و الأمر بها.؟ لا إشکال فی أن الفقرتین أعنی قوله. «الْیَوْمَ یَئِسَ»، و قوله:« اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی»، فی الآیه مرتبطان مسوقتان لغرض واحد،و قد تقدم بیانه فالدین الذی أکمله الله الیوم،و النعمه التی أتمها الیوم-و هما أمر واحد بحسب الحقیقه- هو الذی کان یطمع فیه الکفار و یخشاهم فیه المؤمنون فأیأسهم الله منه و أکمله و أتمه و نهاهم عن أن یخشوهم فیه،فالذی أمرهم بالخشیه من نفسه فیه هو ذاک بعینه و هو أن ینزع الله الدین من أیدیهم،و یسلبهم هذه النعمه الموهوبه.

و قد بین الله سبحانه أن لا سبب لسلب النعمه إلا الکفر بها،و هدد الکفور أشد التهدید،قال تعالی:« ذلِکَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ یَکُ مُغَیِّراً نِعْمَهً أَنْعَمَهَا عَلی قَوْمٍ حَتّی یُغَیِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ» :(الأنفال:۵۳)و قال تعالی:« وَ مَنْ یُبَدِّلْ نِعْمَهَ اللّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِیدُ الْعِقابِ» :(البقره:۲۱۱)و ضرب مثلا کلیا لنعمه و ما یئول إلیه أمر الکفر بها فقال وَ«ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْیَهً کانَتْ آمِنَهً مُطْمَئِنَّهً یَأْتِیها رِزْقُها رَغَداً مِنْ کُلِّ مَکانٍ فَکَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِما کانُوا یَصْنَعُونَ»:

(النحل:۱۱۲).

فالآیه أعنی قوله: «الْیَوْمَ یَئِسَ- إلی قوله- دِیناً» تؤذن بأن دین المسلمین فی أمن

من جهه الكفار،مصون من الخطر المتوجه من قبلهم،و أنه لا يتسرب إليه شيء من طوارق الفساد و الهلاك إلا من قبل المسلمين أنفسهم،و إن ذلك إنما يكون بكفرهم بهذه النعمه التامه،و رفضهم هذا الدين الكامل المرضى،و يومئذ يسلبهم الله نعمته و يغيرها إلى النقمه، و يذيقهم لباس الجوع و الخوف،و قد فعلوا و فعل.

و من أراد الوقوف على مبلغ صدق هذه الآيه فى ملحمتها المستفاده من قوله:« فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» فعليه أن يتأمل فيما استقر عليه حال العالم الإسلامى اليوم ثم يرجع القهقرى بتحليل الحوادث التاريخيه حتى يحصل على أصول القضايا و أعراقها.

و لآيات الولايه فى القرآن ارتباط تام بما فى هذه الآيه من التحذير و الإيعاد و لم يحذر الله العباد عن نفسه فى كتابه إلا فى باب الولايه،فقال فيها مره بعد مره: « وَ يُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ» :(آل عمران:۳۰۲۸)و تعقيب هذا البحث أزيد من هذا خروج عن طور الكتاب.

قوله تعالى:« اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً» الإكمال و الإتمام متقاربا المعنى،قال الراغب: كمال الشيء حصول ما هو الغرض منه.و قال: تمام الشيء انتهاؤه إلى حد لا يحتاج إلى شيء خارج عنه.و الناقص ما يحتاج إلى شيء خارج عنه.

و لك أن تحصل على تشخيص معنى اللفظين من طريق آخر،و هو أن آثار الأشياء التى لها آثار على ضربين.فضرب منها ما يترتب على الشيء عند وجود جميع أجزائه- إن كان له أجزاء-بحيث لو فقد شيئا من أجزائه أو شرائطه لم يترتب عليه ذلك الأمر كالصوم فإنه يفسد إذا أخل بالإمساك فى بعض النهار،و يسمى كون الشيء على هذا الوصف بالتمام،قال تعالى: «ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ» :(البقره:۱۸۷)و قال:« وَ تَمَّتْ كَلِمَهُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلاً» :(الأنعام:۱۱۵).

و ضرب آخر:الأثر الذى يترتب على الشيء من غير توقف على حصول جميع أجزائه،بل أثر المجموع كمجموع آثار الأجزاء،فكلما وجد جزء ترتب عليه من الأثر ما هو بحسبه،و لو وجد الجميع ترتب عليه كل الأثر المطلوب منه، قال تعالى:« فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَهِ أَيّامٍ فِى الْحَجِّ وَ سَبْعَهٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَهٌ كامِلَهٌ» :(البقره:۱۹۶)و قال:

«وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ» :(البقره:۱۸۵)فإن هـذا العـدد يترتب الأثر على بعضه كما يترتب على كله،و يقال:تم لفلان أمره و كمل عقله:و لا يقال تم عقله و كمل أمره.

و أمـا الفرق بين الإكمـال و التكميـل،و كـذا بين الإتمـام و التتميم فإنمـا هو الفرق بين بـابى الإفعـال و التفعيـل،و هو أن الإفعـال بحسب الأصـل يـدل على الـدفعه و التفعيـل على التدريـج، و إن كان التوسع الكلامى أو التطور اللغوى ربما يتصـرف فى البابين بتحويلهما إلى ما يبعـد من مجرى المجرد أو من أصـلهما كالإحسان و التحسـين،و الإصـداق و التصـديق،و الإمـداد و التمديـد و الإفراط و التفريط،و غير ذلك،فإنما هى معان طرأت بحسب خصوصيات الموارد ثم تمكنت فى اللفظ بالاستعمال.

و ينتـج مـا تقـدم أن قوله:« أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى» يفيـد أن المراد بالـدين هو مجموع المعارف و الأحكام المشـرعه و قد أضيف إلى عددها اليوم شىء و إن النعمه أيا ما كانت أمر معنوى واحد كأنه كان ناقصا غير ذى أثر فتمم و ترتب عليه الأثر المتوقع منه.

و النعمه بنـاء نوع و هى مـا يلائـم طبع الشـىء من غير امتنـاعه منه،و الأشـياء و إن كـانت بحسب وقوعها فى نظام التـدبير متصـله مرتبطه متلائما بعضـها مع بعض،و أكثرها أو جميعها نعم إذا أضيفت إلى بعض آخر مفروض كما قال تعالى:« وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللّٰهِ لا تُحْصُوها» :(إبراهيم:۳۴)و قال:« وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً» :(لقمان:۲۰).

إلا أنه تعالى وصف بعضـها بالشر و الخسه و اللعب و اللهو و أوصاف أخر غير ممدوحه كما قال:« وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» :(آل عمران:۱۷۸)،و قال:« وَ ما هٰذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاّ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ» :(العنكبوت:۶۴)،و قال:« لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى الْبِلادِ مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ» :(آل عمران:۱۹۷)إلى غير ذلك.

و الآيات تـدل على أن هـذه الأشـياء المعدوده نعما إنما تكون نعمه إذا وافقت الغرض الإلهى من خلقتها لأجل الإنسان فإنها إنما خلقـت لتكـون إمـدادا إلهيـا للإنسـان يتصـرف فيهـا فى سبيـل سـعادته الحقيقيـه،و هى القرب منه سـبحانه بـالعبوديه و الخضـوع للربوبيه،قال

تعالى:« وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ» :(الذاريات:۵۶).

فكل ما تصرف فيه الإنسان للسلوك به إلى حضره القرب من الله و ابتغاء مرضاته فهو نعمه،و إن انعكس الأمر عاد نقمه فى حقه،فالأشياء فى نفسها عزل،و إنما هى نعمه لاشتمالها على روح العبوديه،و دخولها من حيث التصرف المذكور تحت ولايه الله التى هى تدبير الربوبيه لشئون العبد،و لازمه أن النعمه بالحقيقه هى الولايه الإلهيه،و أن الشىء إنما يصير نعمه إذا كان مشتملا على شىء منها،قال تعالى :«اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ» :(البقره:۲۵۷)،و قال تعالى:« ذلِكَ بِأَنَّ اللّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ» :(محمد:۱۱)و قال فى حق رسوله:« فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً» :(النساء:۶۵)إلى غير ذلك.

فالإسلام و هو مجموع ما نزل من عند الله سبحانه ليعبده به عباده دين،و هو من جهه اشتماله-من حيث العمل به-على ولايه الله و ولايه رسوله و أولياء الأمر بعده نعمه.

و لا يتم ولايه الله سبحانه أى تدبيره بالدين لأمور عباده إلا بولايه رسوله،و لا ولايه رسوله إلا بولايه أولى الأمر من بعده،و هى تدبيرهم لأمور الأمه الدينيه بإذن من الله قال تعالى:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» (النساء: ۵۹)و قد مر الكلام فى معنى الآيه،و قال:« إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ» :(المائده:۵۵)و سيجىء الكلام فى معنى الآيه إن شاء الله تعالى.

فمحصل معنى الآيه:اليوم-و هو اليوم الذى يئس فيه الذين كفروا من دينكم- أكملت لكم مجموع المعارف الدينيه التى أنزلتها إليكم بفرض الولايه،و أتممت عليكم نعمتى و هى الولايه التى هى إداره أمور الدين و تدبيرها تدبيرا إلهيا،فإنها كانت إلى اليوم ولايه الله و رسوله،و هى أنما تكفى ما دام الوحى ينزل،و لا تكفى لما بعد ذلك من زمان انقطاع الوحى،و لا رسول بين الناس يحمى دين الله و يذب عنه بل من الواجب أن ينصب من يقوم بذلك،و هو ولى الأمر بعد رسول الله ص القيم على أمور الدين و الأمه.

فالولايه مشروعه واحده،كانت ناقصه غير تامه حتى إذا تمت بنصب ولى الأمر

بعد النبی.

و إذا کمل الدین فی تشریعه،و تمت نعمه الولایه فقد رضیت لکم من حیث الدین الإسلام الذی هو دین التوحید الذی لا یعبد فیه إلا الله و لا یطاع فیه-و الطاعه عباده- إلا الله و من أمر بطاعته من رسول أو ولی.

فالآیه تنبئ عن أن المؤمنین الیوم فی أمن بعد خوفهم،و أن الله رضی لهم أن یتدینوا بالإسلام الذی هو دین التوحید فعلیهم أن یعبدوه و لا یشرکوا به شیئا بطاعه غیر الله أو من أمر بطاعته.و إذا تدبرت قوله تعالی:« وَعَدَ اللّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ کَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَیُمَکِّنَنَّ لَهُمْ دِینَهُمُ الَّذِی ارْتَضی لَهُمْ وَ لَیُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً یَعْبُدُونَنِی لا یُشْرِکُونَ بِی شَیْئاً وَ مَنْ کَفَرَ بَعْدَ ذلِکَ فَأُولئِکَ هُمُ الْفاسِقُونَ» :(النور:۵۵)ثم طبقت فقرات الآیه علی فقرات قوله تعالی:

«الْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ»

(إلخ)وجدت آیه سوره المائده من مصادیق إنجاز الوعد الذی یشتمل علیه آیه سوره النور علی أن یکون قوله:« یَعْبُدُونَنِی لا یُشْرِکُونَ بِی شَیْئاً» مسوقا سوق الغایه کما ربما یشعر به قوله:« وَ مَنْ کَفَرَ بَعْدَ ذلِکَ فَأُولئِکَ هُمُ الْفاسِقُونَ» .

و سوره النور قبل المائده نزولا کما یدل علیه اشتمالها علی قصه الإفک و آیه الجد و آیه الحجاب و غیر ذلک.

قوله تعالی:« فَمَنِ اضْطُرَّ فِی مَخْمَصَهٍ غَیْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ» المخمصه هی المجاعه،و التجانف هو التمایل من الجنف بالجیم و هو میل القدمین إلی الخارج مقابل الحنف بالحاء الذی هو میلهما إلی الداخل.

و فی سیاق الآیه دلاله أولا علی أن الحکم حکم ثانوی اضطراری،و ثانیا علی أن التجویز و الإباحه مقدر بمقدار یرتفع به الاضطرار و یسکن به ألم الجوع،و ثالثا علی أن صفه المغفره و مثلها الرحمه کما تتعلق بالمعاصی المستوجبه للعقاب کذلک یصح أن تتعلق بمنشئها،و هو الحکم الذی یستتبع مخالفته تحقق عنوان المعصیه الذی یستتبع العقاب.

(بحث علمی فی فصول ثلاثه)

۱-العقائد فی أکل اللحم:

لا ریب أن الإنسان کسائر الحیوان و النبات مجهز بجهاز التغذی یجذب به إلی نفسه من الأجزاء المادیه ما یمکنه أن یعمل فیه ما ینضم بذلک إلی بدنه و ینحفظ به بقاؤه،فلا مانع له بحسب الطبع من أکل ما یقبل الازدراد و البلع إلا أن یمتنع منه لتضرر أو تنفر.

أما التضرر فهو کان یجد المأکول یضر ببدنه ضرا جسمانیا لمسمومیه و نحوها فیمتنع عندئذ عن الأکل،أو یجد الأکل یضر ضرا معنویا کالمحرمات التی فی الأدیان و الشرائع المختلفه،و هذا القسم امتناع عن الأکل فکری.

و أما التنفر فهو الاستقذار الذی یمتنع معه الطبع عن القرب منه کما أن الإنسان لا یأکل مدفوع نفسه لاستقذاره إیاه ،و قد شوهد ذلک فی بعض الأطفال و المجانین، و یلحق بذلک ما یستند إلی عوامل اعتقادیه کالمذهب أو السنن المختلفه الرائجه فی المجتمعات المتنوعه مثل أن المسلمین یستقذرون لحم الخنزیر،و النصاری یستطیبونه، و یتغذی الغربیون من أنواع الحیوانات أجناسا کثیره یستقذرها الشرقیون کالسرطان و الضفدع و الفأر و غیرها،و هذا النوع من الامتناع امتناع بالطبع الثانی و القریحه المکتسبه.

فتبین أن الإنسان فی التغذی باللحوم علی طرائق مختلفه ذات عرض عریض من الاسترسال المطلق إلی الامتناع،و أن استباحته ما استباح منها اتباع للطبع کما أن امتناعه عما یمتنع عنه أنما هو عن فکر أو طبع ثانوی.

و قد حرمت سنه بوذا أکل لحوم الحیوانات عامه،و هذا تفریط یقابله فی جانب الإفراط ما کان دائرا بین أقوام متوحشین من إفریقیه و غیرها إنهم کانوا یأکلون أنواع اللحوم حتی لحم الإنسان.

و قد کانت العرب تأکل لحوم الأنعام و غیرها من الحیوان حتی أمثال الفأر و الوزغ، و تأکل من الأنعام ما قتلته بذبح و نحوه،و تأکل غیر ذلک کالمیته بجمیع أقسامها کالمنخنقه

و الموقوذه و المتردیه و النطیحه و ما أکل السبع،و کان القائل منهم یقول:ما لکم تأکلون مما قتلتموه و لا تأکلون مما قتله الله؟!کما ربما یتفوه بمثله الیوم کثیرون؟یقول قائلهم:

ما الفارق بین اللحم و اللحم إذا لم یتضرر به بدن الإنسان و لو بعلاج طبی فنی فجهاز التغذی لا یفرق بین هذا و ذاک.

و کانت العرب أیضا تأکل الدم،کانوا یملئون المعی من الدم و یشوونه و یطعمونه الضیف،و کانوا إذا أجدبوا جرحوا إبلهم بالنصال و شربوا ما ینزل من الدم،و أکل الدم رائج الیوم بین کثیر من الأمم غیر المسلمه.

و أهل الصین من الوثنیه أوسع منهم سنه،فهم-علی ما ینقل-یأکلون أصناف الحیوان حتی الکلب و الهر و حتی الدیدان و الأصداف و سائر الحشرات.

و قد أخذ الإسلام فی ذلک طریقا وسطا فأباح من اللحوم ما تستطیعه الطباع المعتدله من الإنسان،ثم فسره فی ذوات الأربع بالبهائم کالضأن و المعز و البقر و الإبل علی کراهیه فی بعضها کالفرس و الحمار،و فی الطیر-بغیر الجوارح-مما له حوصله و دفیف و لا مخلب له،و فی حیوان البحر ببعض أنواع السمک علی التفصیل المذکور فی کتب الفقه.

ثم حرم دماءها و کل میته منها و ما لم یذک بالإهلال به لله عز اسمه،و الغرض فی ذلک أن تحیا سنه الفطره،و هی إقبال الإنسان علی أصل أکل اللحم،و یحترم الفکر الصحیح و الطبع المستقیم اللذین یمتنعان من تجویز ما فیه الضرر نوعا،و تجویز ما یستقذر و یتنفر منه.

۲-کیف أمر بقتل الحیوان و الرحمه تأباه؟

ربما یسأل السائل فیقول إن الحیوان ذو روح شاعره بما یشعر به الإنسان من ألم العذاب و مراره الفناء و الموت و غریزه حب الذات التی تبعثنا إلی الحذر من کل مکروه و الفرار من ألم العذاب و الموت تستدعی الرحمه لغیرنا من أفراد النوع لأنه یؤلمهم ما یؤلمنا،و یشق علیهم ما یشق علینا،و النفوس سواء.

و هذا القیاس جار بعینه فی سائر أنواع الحیوان،فکیف یسوغ لنا أن نعذبهم بما نتعذب به، و نبدل لهم حلاوه الحیاه من مراره الموت،و نحرمهم نعمه البقاء التی هی أشرف نعمه؟و الله سبحانه أرحم الراحمین فکیف یسع رحمته أن یأمر بقتل حیوان لیلتذ به إنسان و هما جمیعا فی أنهما خلقه سواء؟.

و الجواب عنه أنه من تحكيم العواطف على الحقائق و التشريع إنما يتبع المصالح الحقيقيه دون العواطف الوهميه.

توضيح ذلک أنک إذا تتبعت الموجودات التی تحت مشاهدتک بالميسور مما عندک وجدتها فی تکونها و بقائها تابعه لناموس التحول،فما من شیء إلا و فی إمکانه أن يتحول إلی آخر،و أن يتحول الآخر إليه بغير واسطه أو بواسطه،لا يوجد واحد إلا و يعدم آخر،و لا يبقی هذا إلا و يفنی ذاک،فعالم الماده عالم التبديل،و التبدل و إن شئت فقل:

عالم الآکل و المأکول.

فالمرکبات الأرضيه تأکل الأرض بضمها إلی أنفسها و تصويرها بصوره تناسبها أو تختص بها ثم الأرض تأکلها و تفنيها.

ثم النبات يتغذی بالأرض و يستنشق الهواء ثم الأرض تأکله و تجزئه إلی أجزائه الأصليه و عناصره الأوليه،و لا يزال أحدهما يراجع الآخر.

ثم الحيوان يتغذی بالنبات و الماء و يستنشق الهواء،و بعض أنواعه يتغذی ببعض کالسباع تأکل لحوم غيرها بالاصطياد،و جوارح الطير تأکل أمثال الحمام و العصافير لا يسعها بحسب جهاز التغذی الذی يخصها إلا ذلک،و هی تتغذی بالحبوب و أمثال الذباب و البق و البعوض و هی تتغذی بدم الإنسان و سائر الحيوان و نحوه،ثم الأرض تأکل الجميع.

فنظام التکوين و ناموس الخلقه الذی له الحکومه المطلقه المتبعه علی الموجودات هو الذی وضع حکم التغذی باللحوم و نحوها،ثم هدی أجزاء الوجود إلی ذلک،و هو الذی سوی الإنسان تسويه صالحه للتغذی بالحيوان و النبات جميعا.و فی مقدم جهازه الغذائی أسنانه المنضوده نضدا صالحا للقطع و الکسر و النهش و الطحن من ثنايا و رباعيات و أنياب و طواحن،فلا هو مثل الغنم و البقر من الأنعام لا تستطيع قطعا و نهشا،و لا هو کالسباع لا تستطيع طحنا و مضغا.

ثم القوه الذائقه المعده فی فمه التی تستلذ طعم اللحوم ثم الشهوه المودعه فی سائر أعضاء هضمه جميع هذه تستطيب اللحوم و تشتهيها.کل ذلک هدايه تکوينيه و إباحه من مؤتمن الخلقه،و هل يمکن الفرق بين الهدايه التکوينيه،و إباحه العمل المهدی إليه بتسليم أحدهما و إنکار الآخر؟.

و الإسلام دين فطرى لا- هم له إلا- إحياء آثار الفطره التى أعفتها الجهاله الإنسانيه، فلا مناص من أن يستباح به ما تهدى إليه الخلقه و تقضى به الفطره.

و هو كما يحيى بالتشريع هذا الحكم الفطرى يحيى أحكاما أخرى وضعها واضع التكوين،و هو ما تقدم ذكره من الموانع من الاسترسال فى حكم التغذى أعنى حكم العقل بوجوب اجتناب ما فيه ضرر جسمانى أو معنوى من اللحوم،و حكم الإحساسات و العواطف الباطنيه بالتحذر و الامتناع عما يستقذره و يتنفر منه الطباع المستقيمه، و هذان الحكمان أيضا ينتهى أصولهما إلى تصرف من التكوين،و قد اعتبرهما الإسلام فحرم ما يضر نماء الجسم،و حرم ما يضر بمصالح المجتمع الإنسانى،مثل ما أهل به لغير الله،و ما اكتسب من طريق الميسر و الاستقسام بالأزلام و نحو ذلك،و حرم الخبائث التى تستقذرها الطباع.

و أما حديث الرحمه المانعه من التعذيب و القتل فلا شك أن الرحمه موهبه لطيفه تكوينيه أودعت فى فطره الإنسان و كثير مما اعتبرنا حاله من الحيوان،إلا- أن التكوين لم يوجدها لتحكم فى الأمور حكومه مطلقه و تطاع طاعه مطلقه،فالتكوين نفسه لا يستعمل الرحمه استعمالا مطلقا،و لو كان ذلك لم يوجد فى دار الوجود أثر من الآلام و الأسقام و المصائب و أنواع العذاب.

ثم الرحمه الإنسانيه فى نفسها ليست خلقا فاضلا على الإطلاق كالعدل،و لو كان كذلك لم يحسن أن نؤاخذ ظالما على ظلمه أو نجازى مجرما على جرمه و لا أن نقابل عدوانا بعدوان و فيه هلاك الأرض و من عليها.

و مع ذلك لم يهمل الإسلام أمر الرحمه بما أنها من مواهب التكوين،فأمر بنشر الرحمه عموما،و نهى عن زجر الحيوان فى القتل،و نهى عن قطع أعضاء الحيوان المذبوح و سلخه قبل زهاق روحه-و من هذا الباب تحريم المنخنقه و الموقوذه-و نهى عن قتل الحيوان و آخر ينظر إليه، و وضع للتذكيه أرفق الأحكام بالحيوان المذبوح و أمر بعرض الماء عليه و نحو ذلك مما يوجد تفصيله فى كتب الفقه.

و مع ذلك كله الإسلام دين التعقل لا دين العاطفه فلا يقدم حكم العاطفه على الأحكام المصلحه لنظام المجتمع الإنسانى و لا يعتبر منه إلا ما اعتبره العقل،و مرجع ذلك

إلی اتباع حکم العقل.

و أما حدیث الرحمه الإلهیه و أنه تعالی أرحم الراحمین،فهو تعالی غیر متصف بالرحمه بمعنی رقه القلب أو التأثر الشعوری الخاص الباعث للراحم علی التلطف بالمرحوم، فإن ذلک صفه جسمانیه ماديه تعالی عن ذلک علوا کبیرا،بل معناها إفاضته تعالی الخیر علی مستحقه بمقدار ما یستحقه،و لذلک ربما کان ما نعده عذابا رحمه منه تعالی و بالعکس،فلیس من الجائز فی الحکمه أن یبطل مصلحه من مصالح التدبیر فی التشریع اتباعا لما تقترحه عاطفه الرحمه الکاذبه التی فینا،أو یساهل فی جعل الشرائع محاذیه للواقعیات.

فتبین من جمیع ما مر أن الإسلام یحاکی فی تجویز أکل اللحوم و فی القیود التی قید بها الإباحه و الشرائط التی اشترطها جمیعا أمر الفطره:فطره الله التی فطر الناس علیها لا تبدیل لخلق الله ذلک الدین القیم!.

۳-لما ذا بنی الإسلام علی التذکیه؟

و هذا سؤال آخر یتفرع علی السؤال المتقدم، و هو أنا سلمنا أن أکل اللحوم مما تبیحه الفطره و الخلقه فهلا اقتصر فی ذلک بما یحصل علی الصدفه و نحوها بأن یقتصر فی اللحوم بما یهیئه الموت العارض حتف الأنف،فیجمع فی ذلک بین حکم التکوین بالجواز،و حکم الرحمه بالإمساک عن تعذیب الحیوان و زجره بالقتل أو الذبح من غیر أن یعدل عن ذلک إلی التذکیه و الذبح؟.

و قد تبین الجواب عنه مما تقدم فی الفصل الثانی،فإن الرحمه بهذا المعنی غیر واجب الاتباع بل اتباعه یفضی إلی إبطال أحکام الحقائق.و قد عرفت أن الإسلام مع ذلک لم یأل جهدا فی الأمر بإعمال الرحمه قدر ما یمکن فی هذا الباب حفظا لهذه الملکه اللطیفه بین النوع.

علی أن الاقتصار علی إباحه المیته و أمثالها مما لا ینتج التغذی به إلا فساد المزاج و مضار الأبدان هو بنفسه خلاف الرحمه،و بعد ذلک کله لا یخلو عن الحرج العام الواجب نفیه.

(بحث روائی)

فی تفسیر العیاشی،عن عکرمه عن ابن عباس قال": ما نزلت آیه:« یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا» إلا و علی شریفها و أمیرها،و لقد عاتب الله أصحاب محمد ص فی غیر مکان-و ما ذکر علیا إلا بخیر:.

أقول:و روی فی تفسیر البرهان،عن موفق بن أحمد،عن عکرمه، عن ابن عباس":

مثله إلی قوله:و أمیرها.و رواه أیضا العیاشی عن عکرمه. و قد نقلنا الحدیث سابقا عن الدر المنثور.

و فی بعض الروایات عن الرضا(ع)قال: لیس فی القرآن «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا» إلا فی حقنا و هو من الجری أو من باطن التنزیل.

و فیه،عن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله:« یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ قال:العهود:.

أقول:و رواه القمی،أیضا فی تفسیره عنه.

و فی التهذیب،مسندا عن محمد بن مسلم قال: سألت أحدهما(ع)عن قول الله عز و جل:« أُحِلَّتْ لَکُمْ بَهِیمَهُ الْأَنْعامِ» فقال:الجنین فی بطن أمه إذا أشعر و أوبر فذکاته ذکاه أمه الذی عنی الله تعالی:.

أقول:و الحدیث مروی فی الکافی،و الفقیه،عنه عن أحدهما،

و روی هذا المعنی العیاشی فی تفسیره عن محمد بن مسلم عن أحدهما،و عن زراره عن الصادق(ع)،و رواه القمی فی تفسیره،و رواه فی المجمع،عن أبی جعفر و أبی عبد الله(ع).

و فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی:« یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ» (الآیه) الشعائر:الإحرام و الطواف-و الصلاه فی مقام إبراهیم و السعی بین الصفا و المروه،و المناسک کلها من شعائر الله،و من الشعائر إذا ساق الرجل بدنه فی حج-ثم أشعرها أی قطع سنامها أو جلدها-أو قلدها لیعلم الناس أنها هدی-فلا یتعرض لها أحد.و إنما سمیت الشعائر لیشعر الناس بها فیعرفوها،و قوله:« وَ لاَ الشَّهْرَ الْحَرامَ» -و هو ذو الحجه و هو من الأشهر الحرم، و قوله:« وَ لاَ الْهَدْیَ» -و هو الذی یسوقه إذا أحرم المحرم،و قوله:« وَ لاَ الْقَلائِدَ» قال:

يقلدها النعل التى قد صلى فيها.قوله:« وَ لاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ» قال:الذين يحجون البيت

و فى المجمع،قال أبو جعفر الباقر(ع): نزلت هذه الآيه فى رجل من بنى ربيعه يقال له:الحطم.

قال:و قال السدى: أقبل الحطم بن هند البكرى حتى أتى النبى ص وحده- و خلف خيله خارج المدينه فقال:إلى ما تدعو؟و قد كان النبى ص قال لأصحابه:

يدخل عليكم اليوم رجل من بنى ربيعه-يتكلم بلسان شيطان-فلما أجابه النبى ص قال؟أنظرنى لعلى أسلم و لى من أشاوره،فخرج من عنده فقال رسول الله ص:لقد دخل بوجه كافر،و خرج بعقب غادر،فمر بسرح من سروح المدينه فساقه-و انطلق به و هو يرتجز و يقول:

قد لفها الليل بسواق حطم*

ليس براعى إبل و لا غنم

و لا بجزار على ظهر وضم*

باتوا نياما و ابن هند لم ينم

بات يقاسيها غلام كالزلم*

خدلج الساقين ممسوح القدم

ثم أقبل من عام قابل حاجا قد قلد هديا-فأراد رسول الله ص أن يبعث إليه فنزلت هذه الآيه:« وَ لاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ» .

قال:و قال ابن زيد:نزلت يوم الفتح-فى ناس يؤمون البيت من المشركين يهلون بعمره،فقال المسلمون:يا رسول الله-إن هؤلاء مشركون مثل هؤلاء دعنا نغير عليهم- فأنزل الله تعالى الآيه.

أقول:روى الطبرى القصه عن السدى و عكرمه،و القصه الثانيه عن ابن زيد و روى فى الدر المنثور،القصه الثانيه عن ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم و فيه:أنه كان يوم الحديبيه.و القصتان جميعا لا توافقان ما هو كالمتسلم عليه عند المفسرين و أهل النقل أن سوره المائده نزلت فى حجه الوداع،إذ لو كان كذلك كان قوله :«إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا» :(البراءه:٢٨)،و قوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» :(البراءه:٥)الآيتان جميعا نازلتين قبل قوله:« وَ لاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ» و لا محل حينئذ للنهى عن التعرض للمشركين إذا قصدوا البيت الحرام.

و لعل شيئا من هاتين القصتين أو ما يشابههما هو السبب لما نقل عن ابن عباس و مجاهد

و قتاده و الضحاک:أن قوله:« وَ لاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ» منسوب بقوله:« فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» (الآيه)و قوله :«إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ» (الآيه)،و قد وقع حديث النسخ فى تفسير القمى،و ظاهره أنه روايه.

و مع ذلک كله تأخر سوره المائده نزولا يدفع ذلک كله،و قد ورد من طرق أئمه أهل البيت(ع)أنها ناسخه غير منسوخه على أن قوله تعالى فيها:« اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» (الآيه)يأبى أن يطرء على بعض آيها نسخ و على هذا يكون مفاد قوله:

«وَ لاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ»

كالمفسر بقوله بعد:« وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا»، أى لا تذهبوا بحرمه البيت بالتعرض لقاصديه لتعرض منهم لكم قبل هذا،و لا غير هؤلاء ممن صدوكم قبلا عن المسجد الحرام أن تعتدوا عليهم بإثم كالقتل أو عدوان كالذى دون القتل من الظلم بل تعاونوا على البر و التقوى.

و فى الدر المنثور،:أخرج أحمد و عبد بن حميد: فى هذه الآيه يعنى قوله:« وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ» (الآيه):و البخارى فى تاريخه،عن وابصه قال:أتيت رسول الله ص و أنا لا أريد- أن أدع شيئا من البر و الإثم إلا سألته عنه-فقال لى:يا وابصه أخبرک عما جئت تسأل عنه أم تسأل؟قلت:يا رسول الله أخبرنى-قال:جئت لتسأل عن البر و الإثم، ثم جمع أصابعه الثلاث فجعل ينكت بها فى صدرى و يقول:يا وابصه استفت قلبک استفت نفسک البر-ما اطمأن إليه القلب و اطمأنت إليه النفس،و الإثم ما حاک فى القلب،و تردد فى الصدر و إن أفتاک الناس و أفتوک.

و فيه:،أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن حبان و الطبرانى و الحاكم و صححه و البيهقى عن أبى أمامه: أن رجلا سأل النبى ص عن الإثم-فقال:ما حاک فى نفسک فدعه.

قال:فما الإيمان؟قال:من ساءته سيئته و سرته حسنته فهو مؤمن.

و فيه:أخرج ابن أبى شيبه و أحمد و البخارى فى الأدب و مسلم و الترمذى و الحاكم و البيهقى فى الشعب عن النواس بن سمعان قال: سئل رسول الله ص عن البر و الإثم فقال:البر حسن الخلق و الإثم ما حاک فى نفسک-و كرهت أن يطلع عليه الناس.

أقول:الروايات-كما ترى-تبتنى على قوله تعالى:« وَ نَفْسٍ وَ ما سَوّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها» :(الشمس:٨)و تؤيد ما تقدم من معنى الإثم.

و فی المجمع:و اختلف فی هذا یعنی قوله: وَ لاَ آمِّینَ الْبَیْتَ الْحَرامَ) فقیل:منسوخ بقوله:« فَاقْتُلُوا الْمُشْرِکِینَ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» - عن أکثر المفسرین،و قیل:

ما نسخ من هذه السوره شیء،و لا من هذه الآیه،لأنه لا یجوز أن یبتدأ المشرکون-فی الأشهر الحرم بالقتال إلا إذا قاتلوا": ثم قال و هو المروی عن أبی جعفر(ع)

و فی الفقیه،بإسناده عن أبان بن تغلب عن أبی جعفر محمد بن علی الباقر(ص) أنه قال: المیته و الدم و لحم الخنزیر معروف،و ما أهل لغیر الله به یعنی ما ذبح علی الأصنام،و أما المنخنقه فإن المجوس-کانوا لا یأکلون الذبائح و یأکلون المیته،و کانوا یخنقون البقر و الغنم-فإذا خنقت و ماتت أکلوها،و الموقوذه کانوا یشدون أرجلها-و یضربونها حتی تموت فإذا ماتت أکلوها،و المتردیه کانوا یشدون عینها-و یلقونها عن السطح فإذا ماتت أکلوها،و النطیحه کانوا یتناطحون بالکباش-فإذا مات أحدهما أکلوه،و ما أکل السبع إلا ما ذکیتم-فکانوا یأکلون ما یقتله الذئب و الأسد و الدب-فحرم الله عز و جل ذلک،و ما ذبح علی النصب کانوا یذبحون لبیوت النیران،و قریش کانوا یعبدون الشجر و الصخر فیذبحون لهما،و أن تستقسموا بالأزلام ذلکم فسق-قال:کانوا یعمدون إلی جزور فیجتزون عشره أجزاء-ثم یجتمعون علیه فیخرجون السهام-فیدفعونها إلی رجل و السهام عشره،و هی:سبعه لها أنصباء،و ثلاثه لا أنصباء لها.

فالتی لها أنصباء:الفذ و التوأم و المسبل-و النافس و الحلس و الرقیب و المعلی،فالفذ له سهم،و التوأم له سهمان،و المسبل له ثلاثه أسهم،و النافس له أربعه أسهم،و الحلس له خمسه أسهم،و الرقیب له سته أسهم،و المعلی له سبعه أسهم.

و التی لا أنصباء لها:السفیح،و المنیح،و الوغد-و ثمن الجزور علی من لم یخرج له من الأنصباء شیء-و هو القمار فحرمه الله.

أقول:و ما ذکر فی الروایه فی تفسیر المنخنقه و الموقوذه و المتردیه من قبیل البیان بالمثال کما یظهر من الروایه التالیه،و کذا ذکر قوله:، إِلاّ مٰا ذَکَّیْتُمْ مع قوله:« وَ مٰا أَکَلَ السَّبُعُ» و قوله:« ذٰلِکُمْ فِسْقٌ مع قوله وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاٰمِ» لا دلاله فیه علی التقیید.

و فی تفسیر العیاشی،عن عیوق بن قسوط:عن أبی عبد الله(ع) فی قول الله:

«الْمُنْخَنِقَهُ»

قال:التی تنخنق فی رباطها« وَ الْمَوْقُوذَهُ» المریضه التی لا تجد ألم الذبح-و لا تضطرب و لا تخرج لها دم- وَ«الْمُتَرَدِّیَهُ» التی تردی من فوق بیت أو نحوه- «وَ النَّطِیحَهُ» التی تنطح صاحبها.

و فیه،عن الحسن بن علی الوشاء عن أبی الحسن الرضا(ع)قال:سمعته یقول:

المتردیه و النطیحه و ما أکل السبع-أن أدرکت ذکاته فکله.

و فیه،عن محمد بن عبد الله عن بعض أصحابه قال: قلت لأبی عبد الله(ع):

جعلت فداک لم حرم الله المیته و الدم و لحم الخنزیر؟فقال:إن الله تبارک و تعالی لم یحرم ذلک علی عباده-و أحل لهم ما سواه من رغبه منه-تبارک و تعالی-فیما حرم علیهم،و لا زهد فیما أحل لهم،و لکنه خلق الخلق،و علم ما یقوم به أبدانهم و ما یصلحهم-فأحله و أباحه تفضلا منه علیهم لمصلحتهم،و علم ما یضرهم فنهاهم عنه-و حرمه علیهم ثم أباحه للمضطر-و أحله لهم فی الوقت الذی لا یقوم بدنه إلا به-فأمره أن ینال منه بقدر البلغه لا غیر ذلک.

ثم قال:أما المیته فإنه لا یدنو منها أحد-و لا یأکلها إلا ضعف بدنه،و نحل جسمه، و وهنت قوته،و انقطع نسله،و لا یموت آکل المیته إلا فجأه.

و أما الدم فإنه یورث الکلب،و قسوه القلب،و قله الرأفه و الرحمه،لا یؤمن أن یقتل ولده و والدیه،و لا یؤمن علی حمیمه،و لا یؤمن علی من صحبه.

و أما لحم الخنزیر فإن الله مسخ قوما-فی صور شتی شبه الخنزیر و القرد و الدب- و ما کان من الأمساخ-ثم نهی عن أکل مثله- لکی لا ینقع بها و لا یستخف بعقوبته.

و أما الخمر فإنه حرمها لفعلها و فسادها،و قال.إن مدمن الخمر کعابد وثن-و یورثه ارتعاشا و یذهب بنوره،و ینهدم مروته،و یحمله علی أن یکسب علی المحارم-من سفک الدماء و رکوب الزنا،و لا یؤمن إذا سکر أن یثبت علی حرمه و هو لا یعقل ذلک،و الخمر لم یؤد شاربها إلا إلی کل شر.

(بحث روائی آخر)

فی غایه المرام،عن أبی المؤید موفق بن أحمد فی کتاب فضائل علی،قال:أخبرنی

سید الحفاظ شهردار بن شیرویه بن شهردار الدیلمی فیما کتب إلی من همدان،أخبرنا أبو الفتح عبدوس بن عبد الله بن عبدوس الهمدانی کتابه،حدثنا عبد الله بن إسحاق البغوی،حدثنا الحسین بن علیل الغنوی،حدثنا محمد بن عبد الرحمن الزراع،حدثنا قیس بن حفص،حدثنا علی بن الحسین،حدثنا أبو هریره عن أبی سعید الخدری: أن النبی ص یوم دعا الناس إلی غدیر خم-أمر بما تحت الشجره من شوک فقم،و ذلک یوم الخمیس-یوم دعا الناس إلی علی و أخذ بضبعه-ثم رفعها حتی نظر الناس إلی بیاض إبطیه- ثم لم یفترقا حتی نزلت هذه الآیه: «الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ-وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلاٰمَ دِیناً» -فقال رسول الله ص:الله أکبر علی إکمال الدین و إتمام النعمه-و رضا الرب برسالتی و الولایه لعلی،ثم قال:اللهم وال من والاه،و عاد من عاداه،و انصر من نصره،و اخذل من خذله.

و قال حسان بن ثابت:أ تأذن لی یا رسول الله أن أقول أبیاتا؟قال:قل ینزله الله تعالی،فقال حسان بن ثابت:

ینادیهم یوم الغدیر نبیهم

بخم و أسمع بالنبی منادیا

بأنی مولاکم نعم و ولیکم

*فقالوا و لم یبدو هناک التعامیا

إلهک مولانا و أنت ولینا

*و لا تجدن فی الخلق للأمر عاصیا

فقال له قم یا علی فإننی

*رضیتک من بعدی إماما و هادیا

و عن کتاب نزول القرآن،فی أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب للحافظ أبی نعیم رفعه إلی قیس بن الربیع،عن أبی هارون العبدی،عن أبی سعید الخدری": مثله، و قال فی آخر الأبیات:

فمن کنت مولاه فهذا ولیه

*فکونوا له أنصار صدق مواالیا

هناک دعا اللهم وال ولیه

*و کن للذی عادی علیا معادیا

و عن نزول القرآن،أیضا یرفعه إلی علی بن عامر عن أبی الحجاف عن الأعمش عن عضه قال": نزلت هذه الآیه علی رسول الله

ص-فی علی بن أبی طالب:« يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ» -و قد قال الله تعالی: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ-وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ

نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلٰامَ دِیناً»

.

و عن إبراهیم بن محمد الحموینی قال:أنبأنی الشیخ تاج الدین أبو طالب علی بن الحسین بن عثمان بن عبد الله الخازن،قال:أنبأنا الإمام برهان الدین ناصر بن أبی المکارم المطرزی إجازه،قال:أنبأنا الإمام أخطب خوارزم أبو المؤید موفق بن أحمد المکی الخوارزمی، قال:أنبأنی سید الحفاظ فی ما کتب إلی من همدان،أنبأنا الرئیس أبو الفتح کتابه، حدثنا عبد الله بن إسحاق البغوی،نبأنا الحسن بن عقیل الغنوی،نبأنا محمد بن عبد الله الزراع،نبأنا قیس بن حفص قال:حدثنی علی بن الحسین العبدی عن أبی هارون العبدی عن أبی سعید الخدری،و ذکر مثل الحدیث الأول.

و عن الحموینی أیضا عن سید الحفاظ و أبو منصور شهردار بن شیرویه بن شهردار الدیلمی،قال:أخبرنا الحسن بن أحمد بن الحسن الحداد المقرئ الحافظ عن أحمد بن عبد الله بن أحمد،قال:نبأنا محمد بن أحمد بن علی،قال:نبأنا محمد بن عثمان بن أبی شیبه، قال:نبأنا یحیی الحمانی،قال:حدثنا قیس بن الربیع عن أبی هارون العبدی عن أبی سعید الخدری،و ذکر مثل الحدیث الأول.

قال:قال الحموینی عقیب هذا الحدیث:هذا حدیث له طرق کثیره إلی أبی سعید سعد بن مالک الخدری الأنصاری.

و عن المناقب الفاخره،للسید الرضی-رحمه الله-عن محمد بن إسحاق،عن أبی جعفر،عن أبیه عن جده قال: لما انصرف رسول الله ص من حجه الوداع نزل أرضا- یقال له:ضوجان،فنزلت هذه الآیه: «یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ-وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ وَ اللّٰهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النّٰاسِ» -فلما نزلت عصمته من الناس نادی:

الصلاه جامعه فاجتمع الناس إلیه،و قال:من أولی منکم بأنفسکم:فضجوا بأجمعهم فقالوا:الله و رسوله فأخذ بید علی بن أبی طالب،و قال:من کنت مولاه فعلی مولاه،اللهم وال من والاه،و عاد من عاداه،و انصر من نصره،و اخذل من خذله-لأنه منی و أنا منه،و هو منی بمنزله هارون من موسی إلا أنه لا نبی بعدی-و کانت آخر فریضه فرضها الله تعالی علی أمه محمد-ثم أنزل الله تعالی علی نبیه:« اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی-وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلٰامَ دِیناً» -.

قال أبو جعفر:فقبلوا من رسول الله ص كل ما أمرهم الله-من الفرائض فی الصلاه و الصوم و الزکاه و الحج،و صدقوه علی ذلک-
.

قال ابن إسحاق:قلت لأبی جعفر:ما کان ذلک؟قال-لتسع (۱)عشره لیله خلت من ذی الحجه سنه عشره-عند منصرفه من حجه الوداع،و کان بین ذلک و بین النبی ص مائه یوم-و کان سمع (۲)رسول الله بغدیر خم اثنا عشر.

و عن المناقب،لابن المغازلی یرفعه إلی أبی هریره قال: من صام یوم ثمانیه عشر من ذی الحجه-کتب الله له صیامه ستین شهرا،و هو یوم غدیر خم،بها أخذ النبی بیعه علی بن أبی طالب،و قال:من کنت مولاه فعلی مولاه- اللهم وال من والاه و عاد من عاداه، و انصر من نصره،فقال له عمر بن الخطاب:بخ بخ لک یا ابن أبی طالب-أصبحت مولای و مولی کل مؤمن و مؤمنه،فأنزل الله تعالی: «الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ» .

و عن المناقب،لابن مردویه و کتاب سرقات الشعر،للمرزبانی عن أبی سعید الخدری مثل ما تقدم عن الخطیب.

أقول:و روی الحدیثین فی الدر المنثور،عن أبی سعید و أبی هریره و وصف سندیهما بالضعف.و قد روی بطرق کثیره تنتهی من الصحابه(لو دقق فیها)إلی عمر بن الخطاب و علی بن أبی طالب و معاویه و سمره:أن الآیه نزلت یوم عرفه من حجه الوداع و کان یوم الجمعه،و المعتمد منها ما روی عن عمر فقد رواه عن الحمیدی و عبد بن حمید و أحمد البخاری و مسلم و الترمذی و النسائی و ابن جریر و ابن المنذر و ابن حبان و البیهقی فی سننه عن طارق بن شهاب عن عمر،و عن ابن راهویه فی مسنده و عبد بن حمید عن أبی العالیه عن عمر، و عن ابن جریر عن قبیصه بن أبی ذؤیب عن عمر،و عن البزاز عن ابن عباس،و الظاهر أنه یروی عن عمر.

ثم أقول:أما ما ذکره من ضعف سندی الحدیثین فلا یجدیه فی ضعف المتن شیئا فقد أوضحنا فی البیان المتقدم إن مفاد الآیه الکریمه لا یلائم غیر ذلک من جمیع الاحتمالات

۱- ۱) سبع فی نسخه البرهان.

۲- ۲) سمی رسول الله بغدیر خم اثنا عشر رجلا.نسخه البرهان

و المعانی المذکوره فیها،فهاتان الروایتان و ما فی معناهما هی الموافقه للکتاب من بین جمیع الروایات فهی المتعینه للأخذ.

علی أن هذه الأحادیث الداله علی نزول الآیه فی مسأله الولایه-و هی تزید علی عشرین حدیثا من طرق أهل السنه و الشیعه- مرتبطه بما ورد فی سبب نزول قوله تعالی:«یا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ»: XالآیهX(المائده:۶۷)و هی تربو علی خمسه عشر حدیثا رواها الفریقان،و الجمیع مرتبط بحدیث الغدیر:«من کنت مولاه فعلی مولاه» و هو حدیث متواتر مروی عن جم غفیر من الصحابه،اعترف بتواتره جمع کثیر من علماء الفریقین.

و من المتفق علیه أن ذلک کان فی منصرف رسول الله ص من مکه إلی المدینه.

و هذه الولایه(لو لم تحمل علی الهزل و التهکم)فریضه من الفرائض کالتولی و التبری اللذین نص علیهما القرآن فی آیات کثیره،و إذا کان کذلک لم یجز أن یتأخر جعلها نزول الآیه أعنی قوله: «الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ»، فالآیه إنما نزلت بعد فرضها من الله سبحانه،و لا اعتماد علی ما ینافی ذلک من الروایات لو کانت منافیه.

و أما ما رواه من الروایه فقد عرفت ما ینبغی أن یقال فیها غیر أن هاهنا أمرا یجب التنبه له،و هو أن التدبر فی الآیتین الکریمتین: «یا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ» (الآیه)علی ما سیجیء من بیان معناه،و قوله:

«الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ»

(الآیه)و الأحادیث الوارده من طرق الفریقین فیهما و روایات الغدیر المتواتره،و کذا دراسه أوضاع المجتمع الإسلامی الداخلیه فی أواخر عهد رسول الله ص و البحث العمیق فیها یفید القطع بأن أمر الولایه کان نازلا قبل یوم الغدیر بأیام، و کان النبی ص یتقی الناس فی إظهاره،و یخاف أن لا یتلقوه بالقبول أو یسیئوا القصد إلیه فیختل أمر الدعوه،فکان لا یزال یؤخر تبلیغه الناس من یوم إلی غد حتی نزل قوله:

«یا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ» (الآیه)فلم یمهل فی ذلک.

و علی هذا فمن الجائز أن ینزل الله سبحانه معظم السوره و فیه قوله:« اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ» (الآیه)و ینزل معه أمر الولایه کل ذلک یوم عرفه فأخر النبی ص بیان الولایه إلی غدیر خم،و قد کان تلا آیتها یوم عرفه و أما اشتمال بعض الروایات علی

نزولها يوم الغدير فليس من المستبعد أن يكون ذلك لتلاوته(ص)الآيه مقارنه لتبليغ أمر الولايه لكونها فى شأنها.

و على هـذا فلا تنافى بين الروايات أعنى ما دل على نزول الآيه فى أمر الولايه،و ما دل على نزولها يوم عرفه كما روى عن عمر و على و معـاويه و سـمره،فإن التنافى إنما كان يتحقق لو دل أحـد القبيلين على النزول يوم غـدير خم،و الآخر على النزول على يوم عرفه.

و أما ما فى القبيل الثانى من الروايات أن الآيه تدل على كمال الدين بالحج و ما أشبهه فهو من فهم الراوى لا ينطبق به الكتاب و لا بيان من النبى ص يعتمد عليه.

و ربما استفيد هذا الذى ذكرناه

مما رواه العياشـى فى تفسـيره،عن جعفر بن محمد بن محمد الخزاعى عن أبيه قال:سمعت أبا عبد الله(ع)يقول: لما نزل رسول الله ص عرفـات يوم الجمعه أتـاه جبرئيل-فقال له:إن الله يقرئك السـلام،و يقول لك:قل لأمتك:اليوم أكملت دينكم بولايه على بن أبى طالب-و أتممت عليكم نعمتى و رضيت لكم الإسلام دينا- و لست أنزل عليكم بعد هذا،قد أنزلت عليكم الصلاه و الزكاه و الصوم و الحج،و هى الخامسه،و لست أقبل عليكم بعد هذه الأربعه إلا بها.

على أن فيما نقل عن عمر من نزول الآيه يوم عرفه إشكالا آخر،و هو أنها جميعا تذكر أن بعض أهل الكتاب

و فى بعضـها": أنه كعب قال لعمر:إن فى القرآن آيه-لو نزلت مثلها علينا معشـر اليهود-لاتخـذنا اليوم الذى نزلت فيه عيدا،و هى قوله:« اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» (الآيه)فقال له عمر:و الله إنى لأعلم اليوم-و هو يوم عرفه من حجه الوداع.

و لفـظ مـا رواه ابن راهويه و عبـد بن حميـد عن أبى العاليه هكـذا": قال كانوا عنـد عمر فـذكروا هـذه الآيه،فقال رجل من أهل الكتاب:لو علمنا أى يوم نزلت هـذه الآيه لاتخـذناه عيدا،فقال عمر الحمد لله الذى جعله لنا عيدا-و اليوم الثانى،نزلت يوم عرفه-و اليوم الثانى يوم النحر فأكمل لنا الأمر-فعلمنا أن الأمر بعد ذلك فى انتقاص.

و ما يتضمنه آخر الروايه مروى بشكل آخر ففى الدر المنثور:عن ابن أبى شيبه و ابن جرير عن عنتره قال: لما نزلت «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» -و ذلـك يوم الحـج الأـكبر بكى عمر-فقـال له النبى ص ما يبكيك؟قال:أبكانى أنا كنا فى زياده من ديننا- فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شىء قط إلا نقص،فقال:صدقت.

و نظیره الروایه بوجه روایه أخری رواها أیضا فی الدر المنثور،عن أحمد عن علقمه بن عبد الله المزنی قال:حدثنی رجل قال: کنت فی مجلس عمر بن الخطاب-فقال عمر لرجل من القوم:کیف سمعت رسول الله ص ینعت الإسلام؟قال:سمعت رسول الله ص یقول:إن الإسلام بدئ جذعا-ثم ثنیا ثم رباعیا ثم سدسیا ثم بازلا.قال عمر:فما بعد البزول إلا النقصان.

فهذه الروایات-کما تری-تروم بیان أن معنی نزول الآیه یوم عرفه إلفات نظر الناس إلی ما کانوا یشاهدونه من ظهور أمر الدین و استقلاله بمکه فی الموسم،و تفسیر إکمال الدین و إتمام النعمه بصفاء جو مکه و محوضه الأمر للمسلمین یومئذ فلا دین یعبد به یومئذ هناک إلا دینهم من غیر أن یخشوا أعداءهم و یتحذروا منهم.

و بعباره أخری المراد بکمال الدین و تمام النعمه کمال ما بأیدیهم یعملون به من غیر أن یختلط بهم أعداؤهم أو یکلفوا بالتحذر منهم دون الدین بمعنی الشریعه المجعوله عند الله من المعارف و الأحکام،و کذا المراد بالإسلام ظاهر الإسلام الموجود بأیدیهم فی مقام العمل.

و إن شئت فقل: المراد بالدین صوره الدین المشهوده من أعمالهم،و کذا فی الإسلام،فإن هذا المعنی هو الذی یقبل الانتقاص بعد الإزدیاد.

و أما کلیات المعارف و الأحکام المشرعه من الله فلا یقبل الانتقاص بعد الإزدیاد الذی یشیر إلیه قوله فی الروایه:«أنه لم یکمل شیء قط إلا نقص»فإن ذلک سنه کونیه تجری أیضا فی التاریخ و الاجتماع بتبع الکون،و أما الدین فإنه غیر محکوم بأمثال هذه السنن و النوامیس إلا عند من قال:إن الدین سنه اجتماعیه متطوره متغیره کسائر السنن الاجتماعیه.

إذا عرفت ذلک علمت أنه یرد علیه أولا:أن ما ذکر من معنی کمال الدین لا یصدق علیه قوله تعالی: «الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ» و قد مر بیانه.

و ثانیا:أنه کیف یمکن أن یعد الله سبحانه الدین بصورته التی کان یتراءی علیها کاملا-و ینسبه إلی نفسه امتنانا بمجرد خلو الأرض من ظاهر المشرکین،و کون المجتمع علی ظاهر الإسلام فارغا من أعدائهم المشرکین،و فیهم من هو أشد من المشرکین إضرارا و إفسادا،و هم المنافقون علی ما کانوا علیه من المجتمعات السریه و التسرب فی داخل المسلمین، و إفساد الحال،و تقلیب الأمور،و الدس فی الدین،و إلقاء الشبه،فقد کان لهم نبأ عظیم

تعرض لذلک آیات جمه من القرآن کسوره المنافقین و ما فی سور البقره و النساء و المائده و الأنفال و البراءه و الأحزاب و غیرها.

فلیت شعری أین صار جمعهم؟و کیف خمدت أنفاسهم؟و علی أی طریق بطل کیدهم و زهق باطلهم؟و کیف یصح مع وجودهم أن یمتن الله یومئذ علی المسلمین بإکمال ظاهر دینهم، و إتمام ظاهر النعمه علیهم،و الرضا بظاهر الإسلام بمجرد أن دفع من مکه أعداءهم من المسلمین،و المنافقون أعدی منهم و أعظم خطرا و أمر أثرا!و تصدیق ذلک قوله تعالی یخاطب نبیه فیهم:« هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ» :(المنافقون:۴).

و کیف یمتن الله سبحانه و یصف بالکمال ظاهر دین هذا باطنه،أو یذکر نعمه بالتمام و هی مشوبه بالنقمه،أو یخبر برضاه صوره إسلام هذا معناه!و قد قال تعالی :«وَ مٰا کُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّینَ عَضُداً» :(الکهف:۵۱)و قال فی المنافقین:-و لم یرد إلا دینهم- «فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَرْضیٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفٰاسِقِینَ» :(البراءه:۹۶)و الآیه بعد هذا کله مطلقه لم تقید شیئا من الإکمال و الإتمام و الرضا و لا الدین و الإسلام و النعمه بجهه دون جهه.

فإن قلت:الآیه-کما تقدمت الإشاره إلیه-إنجاز للوعد الذی یشتمل علیه قوله تعالی: «وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ کَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَیُمَکِّنَنَّ لَهُمْ دِینَهُمُ الَّذِی ارْتَضیٰ لَهُمْ وَ لَیُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً یَعْبُدُونَنِی لاٰ یُشْرِکُونَ بِی شَیْئاً»: XالآیهX(النور:۵۵).

فالآیه کما تری-تعدهم بتمکین دینهم المرضی لهم،و یحاذی ذلک من هذه الآیه قوله:

«أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ»

و قوله: «وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلاٰمَ دِیناً» فالمراد بإکمال دینهم المرضی تمکینه لهم أی تخلیصه من مزاحمه المشرکین،و أما المنافقون فشأنهم شأن آخر غیر المزاحمه، و هذا هو المعنی الذی تشیر إلیه روایات نزولها یوم عرفه،و یذکر القوم أن المراد به تخلیص الأعمال الدینیه و العاملین بها من المسلمین من مزاحمه المشرکین.

قلت کون آیه: «الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ»، من مصادیق إنجاز ما وعد فی قوله:« وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا» (الآیه)و کذا کون قوله فی هذه الآیه :«أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ»، محاذیا لقوله:

«وَ لَیُمَکِّنَنَّ لَهُمْ دِینَهُمُ الَّذِی ارْتَضیٰ لَهُمْ»، فی تلک الآیه و مفیدا معناه کل ذلک لا ریب فیه.

إلا أن آیه سوره النور تبدأ بقوله: «وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ»

و هم طائفه خاصه من المسلمين ظاهر أعمالهم يوافق باطنها،و ما فى مرتبه أعمالهم من الدين يحاذى و ينطبق على ما عند الله سبحانه من الدين المشرع،فتمكين دينهم المرضى لله سبحانه لهم إكمال ما فى علم الله و إرادته من الدين المرضى بإفراغه فى قالب التشريع، و جمع أجزائه عندهم بالإنزال ليعبدوه بذلك بعد إياس الذين كفروا من دينهم.

و هذا ما ذكرناه:أن معنى إكماله الدين إكماله من حيث تشريع الفرائض فلا فريضه مشرعه بعد نزول الآيه لا تخليص أعمالهم و خاصه حجهم من أعمال المشركين و حجهم، بحيث لا تختلط أعمالهم بأعمالهم.و بعباره أخرى يكون معنى إكمال الدين رفعه إلى أعلى مدارج الترقى حتى لا يقبل الانتقاص بعد الإزدياد.

و فى تفسير القمى،قال:حدثنى أبى،عن صفوان بن يحيى،عن العلاء،عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر(ع)قال: آخر فريضه أنزلها الولايه-ثم لم ينزل بعدها فريضه ثم أنزل: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» بكراع الغميم،فأقامها رسول الله ص بالجحفه-فلم ينزل بعدها فريضه.

أقول:و روى هذا المعنى الطبرسى فى المجمع،عن الإمامين:الباقر و الصادق(ع) و رواه العياشى فى تفسيره عن زراره عن الباقر(ع).

و فى أمالى الشيخ،بإسناده،عن محمد بن جعفر بن محمد،عن أبيه أبى عبد الله(ع)، عن على أمير المؤمنين(ع)قال:سمعت رسول الله ص يقول: بناء الإسلام على خمس خصال:على الشهادتين،و القرينتين.قيل له:أما الشهادتان فقد عرفنا فما القرينتان؟ قال:الصلاه و الزكاه-فإنه لا تقبل إحداهما إلا بالأخرى،و الصيام و حج بيت الله من استطاع إليه سبيلا،و ختم ذلك بالولايه فأنزل الله عز و جل: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى-وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً» .

و فى روضه الواعظين،للفتال،ابن الفارسى عن أبى جعفر(ع)و ذكر قصه خروج النبى ص للحج ثم نصبه عليا للولايه عند منصرفه إلى المدينه و نزول الآيه،و فيه خطبه رسول الله ص يوم الغدير و هى خطبه طويله جدا.

أقول:روى مثله الطبرسى فى الإحتجاج،بإسناد متصل عن الحضرمى عن أبى جعفر الباقر(ع)،و روى نزول الآيه فى الولايه أيضا الكلينى فى الكافى،و الصدوق فى العيون،

جميعا مسندا عن عبد العزيز بن مسلم عن الرضا(ع)،و روى نزولها فيها أيضا الشيخ فى أماليه بإسناده عن ابن أبى عمير عن المفضل بن عمر عن الصادق عن جده أمير المؤمنين (ع)،و روى ذلك أيضا الطبرسى فى المجمع،بإسناده عن أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى،و روى ذلك الشيخ فى أماليه،بإسناده عن إسحاق بن إسماعيل النيسابورى عن الصادق عن آبائه عن الحسن بن على(ع)و قد تركنا إيراد الروايات على طولها إيثارا للاختصار فمن أرادها فليراجع محالها و الله الهادى.

[سوره المائده (۵): الآيات ۴ الى ۵]

اشاره

يَسْئَلُونَكَ مٰا ذٰا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ اَلطَّيِّبٰاتُ وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ اَلْجَوٰارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّٰا عَلَّمَكُمُ اَللّٰهُ فَكُلُوا مِمّٰا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَ اُذْكُرُوا اِسْمَ اَللّٰهِ عَلَيْهِ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ سَرِيعُ اَلْحِسٰابِ (۴) اَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ اَلطَّيِّبٰاتُ وَ طَعٰامُ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتٰابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعٰامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَ اَلْمُحْصِنٰاتُ مِنَ اَلْمُؤْمِنٰاتِ وَ اَلْمُحْصِنٰاتُ مِنَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذٰا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسٰافِحِينَ وَ لاٰ مُتَّخِذِي أَخْدٰانٍ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمٰانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِي اَلْآخِرَةِ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ (۵)

(بيان)

قوله تعالى: «يَسْئَلُونَكَ مٰا ذٰا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبٰاتُ» سؤال مطلق أوجب عنه بجواب عام مطلق فيه إعطاء الضابط الكلى الذى يميز الحلال من الحرام،و هو أن يكون ما يقصد التصرف فيه بما يعهد فى مثله من التصرفات أمرا طيبا،و إطلاق الطيب أيضا من غير تقييده بشىء يوجب أن يكون المعتبر فى تشخيص طيبه استطابه الأفهام

المتعارفه ذلک فما یستطاب عند الأفهام العادیه فهو طیب،و جمیع ما هو طیب حلال.

و إنما نزلنا الحلیه و الطیب علی المتعارف المعهود لمکان أن الإطلاق لا یشمل غیره علی ما بین فی فن الأصول.

قوله تعالی: «وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوٰارِحِ مُکَلِّبِینَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّٰا عَلَّمَکُمُ اللّٰهُ فَکُلُوا مِمّٰا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ وَ اذْکُرُوا اسْمَ اللّٰهِ عَلَیْهِ» قیل:إن الکلام معطوف علی موضع الطیبات أی و أحل لکم ما علمتم من الجوارح أی صید ما علمتم من الجوارح،فالکلام بتقدیر مضاف محذوف اختصارا لدلاله السیاق علیه.

و الظاهر أن الجمله معطوفه علی موضع الجمله الأولی. و «مٰا» فی قوله:« وَ مٰا عَلَّمْتُمْ» شرطیه و جزاؤها قوله «فَکُلُوا مِمّٰا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ» من غیر حاجه إلی تکلف التقدیر.

و الجوارح جمع جارحه و هی التی تکسب الصید من الطیر و السباع کالصقر و البازی و الکلاب و الفهود،و قوله: «مُکَلِّبِینَ» حال،و أصل التکلیب تعلیم الکلاب و تربیتها للصید أو اتخاذ کلاب الصید و إرسالها لذلک،و تقیید الجمله بالتکلیب لا یخلو من دلاله علی کون الحکم مختصا بکلب الصید لا یعدوه إلی غیره من الجوارح.

و قوله: «مِمّٰا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ» التقیید بالظرف للدلاله علی أن الحل محدود بصوره صیدها لصاحبها لا لنفسها.

و قوله: «وَ اذْکُرُوا اسْمَ اللّٰهِ عَلَیْهِ» تتمیم لشرائط الحل و أن یکون الصید مع کونه مصطادا بالجوارح و من طریق التکلیب و الإمساک علی الصائد مذکورا علیه اسم الله تعالی.

و محصل المعنی أن الجوارح المعلمه بالتکلیب-أی کلاب الصید-إذا کانت معلمه و اصطادت لکم شیئا من الوحش الذی یحل أکله بالتذکیه و قد سمیتم علیه فکلوا منه إذا قتلته دون أن تصلوا إلیه فذلک تذکیه له،و أما دون القتل فالتذکیه بالذبح و الإهلال به لله یغنی عن هذا الحکم.

ثم ذیل الکلام بقوله: «وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ سَرِیعُ الْحِسٰابِ» إشعارا بلزوم اتقاء الله فیه حتی لا یکون الاصطیاد إسرافا فی القتل،و لا عن تله و تجبر کما فی صید اللهو و نحوه فإن الله سریع الحساب یجازی سیئه الظلم و العدوان فی الدنیا قبل الآخره،و لا

يسلك أمثال هذه المظالم و العدوانات بالاغتيال و الفك بالحيوان العجم إلا إلى عاقبه سوأى على ما شاهدنا كثيرا.

قوله تعالى: «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ» إعاده ذكر حل الطيبات مع ذكره فى الآيه السابقه،و تصديره بقوله: «الْيَوْمَ» للدلاله على الامتنان منه تعالى على المؤمنين بإحلال طعام أهل الكتاب و المحصنات من نسائهم للمؤمنين.

و كان ضم قوله: «أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ» إلى قوله: «وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» (إلخ)من قبيل ضم المقطوع به إلى المشكوك فيه لإيجاد الطمأنينه فى نفس المخاطب و إزاله ما فيه من القلق و الاضطراب كقول السيد لخادمه:لك جميع ما ملكتكه و زياده هى كذا و كذا فإنه إذا ارتاب فى تحقق ما يعده سيده من الإعطاء شفع ما يشك فيه بما يقطع به ليزول عن نفسه أذى الريب إلى راحه العلم،و من هذا الباب يوجه قوله تعالى:

«لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَ زِيادَةٌ» :(يونس:۲۶)و قوله تعالى: «لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ» :(ق:۳۵).

فكان نفوس المؤمنين لا تسكن عن اضطراب الريب فى أمر حل طعام أهل الكتاب لهم بعد ما كانوا يشاهدون التشديد التام فى معاشرتهم و مخالطتهم و مساسهم و ولايتهم حتى ضم إلى حديث حل طعامهم أمر حل الطيبات بقول مطلق ففهموا منه أن طعامهم من سنخ سائر الطيبات المحلله فسكن بذلك طيش نفوسهم، و اطمأنت قلوبهم و كذلك القول فى قوله: «وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ».

و أما قوله: «وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ» فالظاهر أنه كلام واحد ذو مفاد واحد،إذ من المعلوم أن قوله: «وَ طَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ» ليس فى مقام تشريع حكم الحل لأهل الكتاب،و توجيه التكليف إليهم و إن قلنا بكون الكفار مكلفين بالفروع الدينيه كالأصول،فإنهم غير مؤمنين بالله و رسوله و بما جاء به رسوله و لا هم يسمعون و لا هم يقبلون،و ليس من دأب القرآن أن يوجه خطابا أو يذكر حكما إذا استظهر من المقام أن الخطاب معه يكون لغوا و التكليم معه يذهب سدى.اللهم إلا إذا أصلح ذلك بشيء من فنون التكليم كالالتفات من خطاب الناس إلى خطاب النبى و نحو ذلك

كقوله:« قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ» :(آل عمران:۶۴) و قوله:« قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاّ بَشَراً رَسُولاً» :(إسراء:۹۳)إلى غير ذلك من الآيات.

و بالجمله ليس المراد بقوله: «وَ طَعامُ الَّذِينَ»، بيان حل طعام أهل الكتاب للمسلمين حكما مستقلا و حل طعام المسلمين لأهل الكتاب حكما مستقلا آخر،بل بيان حكم واحد و هو ثبوت الحل و ارتفاع الحرمه عن الطعام،فلا منع فى البين حتى يتعلق بأحد الطرفين نظير قوله تعالى:« فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ» :(الممتحنه:۱۰) أى لا حل فى البين حتى يتعلق بأحد الطرفين.

ثم إن الطعام بحسب أصل اللغه كل ما يقتات به و يطعم لكن قيل:إن المراد به البر و سائر الحبوب ففى لسان العرب:و أهل الحجاز إذا أطلقوا اللفظ بالطعام عنوا به البر خاصه.قال:و قال الخليل:العالى فى كلام العرب أن الطعام هو البر خاصه،انتهى.

و هو الذى يظهر من كلام ابن الأثير فى النهايه،و لهذا ورد فى أكثر الروايات المرويه عن أئمه أهل البيت(ع):أن المراد بالطعام فى الآيه هو البر و سائر الحبوب إلا ما فى بعض الروايات مما يظهر به معنى آخر و سيجىء الكلام فيه فى البحث الروائى الآتى.

و على أى حال لا يشمل هذا الحل ما لا يقبل التذكيه من طعامهم كلحم الخنزير،أو يقبلها من ذبائحهم لكنهم لم يذكوها كالذى لم يهل به لله،و لم يذك تذكيه إسلاميه فإن الله سبحانه عد هذه المحرمات المذكوره فى آيات التحريم-و هى الآى الأربع التى فى سور البقره و المائده و الأنعام و النحل-رجسا و فسقا و إثما كما بيناه فيما مر،و حاشاه سبحانه أن يحل ما سماه رجسا أو فسقا أو إثما امتنانا بمثل قوله «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ» .

على أن هذه المحرمات بعينها واقعه قبيل هذه الآيه فى نفس السوره،و ليس لأحد أن يقول فى مثل المورد بالنسخ و هو ظاهر،و خاصه فى مثل سوره المائده التى ورد فيها أنها ناسخه غير منسوخه.

قوله تعالى: «وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ»، الإتيان فى متعلق الحكم بالوصف أعنى ما فى قوله: «الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» من غير أن يقال:من اليهود و النصارى مثلا أو يقال:من أهل الكتاب،لا يخلو من إشعار بالعليه

و اللسان لسان الامتنان،و المقام مقام التخفيف و التسهيل،فالمعنى:أنا نمتن عليكم بالتخفيف و التسهيل فى رفع حرمه الازدواج بين رجالكم و المحصنات من نساء أهل الكتاب لكونهم أقرب إليكم من سائر الطوائف غير المسلمه،و هم أوتوا الكتاب و أذعنوا بالتوحيد و الرساله بخلاف المشركين و الوثنيين المنكرين للنبوه،و يشعر بما ذكرنا أيضا تقييد قوله: «أُوتُوا الْكِتابَ» بقوله: «مِنْ قَبْلِكُمْ» فإن فيه إشعارا واضحا بالخطط و المزج و التشريك.

و كيف كان لما كانت الآيه واقعه موقع الامتنان و التخفيف لم تقبل النسخ بمثل قوله تعالى:« وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتّى يُؤْمِنَّ» :(البقره:۲۲۱)و قوله تعالى:« وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ» :(الممتحنه:۱۰)و هو ظاهر.

على أن الآيه الأولى واقعه فى سوره البقره،و هى أول سوره مفصله نزلت بالمدينه قبل المائده:و كذا الآيه الثانيه واقعه فى سوره الممتحنه،و قد نزلت بالمدينه قبل الفتح، فهى أيضا قبل المائده نزولا،و لا وجه لنسخ السابق للاحق مضافا إلى ما ورد:أن المائده آخر ما نزلت على النبى ص فنسخت ما قبلها،و لم ينسخها شىء.

على أنك قد عرفت فى الكلام على قوله تعالى:« وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتّى يُؤْمِنَّ»:

XالآيهX(البقره:۲۲۱)فى الجزء الثانى من الكتاب أن الآيتين أعنى آيه البقره و آيه الممتحنه أجنبيتان من الدلاله على حرمه نكاح الكتابيه.

و لو قيل بدلاله آيه الممتحنه بوجه على التحريم كما يدل على سبق المنع الشرعى ورود آيه المائده فى مقام الامتنان و التخفيف-و لا- امتنان و لا- تخفيف لو لم يسبق منع-كانت آيه المائده هى الناسخه لآيه الممتحنه لا بالعكس لأن النسخ شأن المتأخر،و سيأتى فى البحث الروائى كلام فى الآيه الثانيه.

ثم المراد بالمحصنات فى الآيه:العفائف و هو أحد معان الإحصان،و ذلك أن قوله:

«وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ،

يدل على أن المراد بالمحصنات غير ذوات الأزواج و هو ظاهر،ثم الجمع بين المحصنات من أهل الكتاب و المؤمنات على ما مر من توضيح معناها يقضى بأن المراد بالمحصنات فى الموضعين معنى واحد،و ليس هو الإحصان بمعنى الإسلام لمكان قوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتابَ،

و ليس المراد بالمحصنات الحرائر فإن الامتنان المفهوم من الآيه لا يلائم تخصيص الحل بالحرائر دون الإماء،فلم يبق من معانى الإحصان إلا العفه فتعين أن المراد بالمحصنات العفائف.

و بعد ذلك كله إنما تصرح الآيه بتشريع حل المحصنات من أهل الكتاب للمؤمنين من غير تقييد بدوام أو انقطاع إلا ما ذكره من اشتراط الأجر و كون التمتع بنحو الإحصان لا بنحو المسافحه و اتخاذ الأخدان،فينتج أن الذى أحل للمؤمنين منهن أن يكون على طريق النكاح عن مهر و أجر دون السفاح،من غير شرط آخر من نكاح دوام أو انقطاع،و قد تقدم فى قوله تعالى:« فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ»: XالآيهX(النساء:

۲۴)فى الجزء الرابع من الكتاب أن المتعه نكاح كالنكاح الدائم،و للبحث بقايا تطلب من علم الفقه.

قوله تعالى:« إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَ لا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ» الآيه فى مساق قوله تعالى فى آيات محرمات النكاح:« وَ أُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ» :(النساء:۲۴)و الجمله قرينه على كون المراد بالآيه بيان حليه التزوج بالمحصنات من أهل الكتاب من غير شمول منها لملك اليمين.

قوله تعالى:« وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَهِ مِنَ الْخاسِرِينَ» الكفر فى الأصل هو الستر فتحقق مفهومه يتوقف على أمر ثابت يقع عليه الستر كما أن الحجاب لا يكون حجابا إلا إذا كان هناك محجوب فالكفر يستدعى مكفورا به ثابتا كالكفر بنعمه الله و الكفر بآيات الله و الكفر بالله و رسوله و اليوم الآخر.

فالكفر بالإيمان يقتضى وجود إيمان ثابت،و ليس المراد به المعنى المصدرى من الإيمان بل معنى اسم المصدر و هو الأثر الحاصل و الصفه الثابته فى قلب المؤمن أعنى الاعتقادات الحقه التى هى منشأ الأعمال الصالحه،فيئول معنى الكفر بالإيمان إلى ترك العمل بما يعلم أنه حق كتولى المشركين، و الاختلاط بهم،و الشركه فى أعمالهم مع العلم بحقيه الإسلام، و ترك الأركان الدينيه من الصلاه و الزكاه و الصوم و الحج مع العلم بثبوتها أركانا للدين.

فهذا هو المراد من الكفر بالإيمان لكن هاهنا نكته و هى أن الكفر لما كان سترا و ستر الأمور الثابته لا يصدق بحسب ما يسبق إلى الذهن إلا مع المداومه و المزاوله فالكفر

بالإيمان إنما يصدق إذا ترك الإنسان العمل بما يقتضيه إيمانه،و يتعلق به علمه،و دام عليه،و أما إذا ستر مره أو مرتين من غير أن يدوم عليه فلا يصدق عليه الكفر و إنما هو فسق أتى به.

و من هنا يظهر أن المراد بقوله:« وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ» هو المداومه و الاستمرار عليه و إن كان عبر بالفعل دون الوصف.فتارك الاتباع لما حق عنده من الحق،و ثبت عنده من أركان الدين كافر بالإيمان،حابط العمل كما قال تعالى:« فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» .

فالآيه تنطبق على قوله تعالى:« وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» : (الأعراف:۱۴۷)فوصفهم باتخاذ سبيل الغى و ترك سبيل الرشد بعد رؤيتهما و هى العلم بهما ثم بدل ذلك بتوصيفهم بتكذيب الآيات،و الآيه إنما تكون آيه بعد العلم بدلالتها،ثم فسره بتكذيب الآخره لما أن الآخره لو لم تكذب منع العلم بها عن ترك الحق،ثم أخبر بحبط أعمالهم.

و نظير ذلك قوله تعالى:« قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ وَزْناً» :(الكهف:۱۰۵)و انطباق الآيات على مورد الكفر بالإيمان بالمعنى الذى تقدم بيانه ظاهر.

و بالتأمل فيما ذكرنا يظهر وجه اتصال الجمله أعنى قوله:« وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»، بما قبله فالجمله متممه للبيان السابق،و هى فى مقام التحذير عن الخطر الذى يمكن أن يتوجه إلى المؤمنين بالتساهل فى أمر الله،و الاسترسال مع الكفار فإن الله سبحانه إنما أحل طعام أهل الكتاب و المحصنات من نسائهم للمؤمنين ليكون ذلك تسهيلا و تخفيفا منه لهم،و ذريعه إلى انتشار كلمه التقوى،و سرايه الأخلاق الطاهره الإسلاميه من المسلمين المتخلقين بها إلى غيرهم،فيكون داعيه إلى العلم النافع،و باعثه نحو العمل الصالح.

فهذا هو الغرض من التشريع لا لأن يتخذ ذلك وسيله إلى السقوط فى مهابط الهوى، و الإصعاد فى أوديه الهوسات،و الاسترسال فى حبهن و الغرام بهن،و التوله فى جمالهن، فيكن قدوه تتسلط بذلك أخلاقهن و أخلاق قومهن على أخلاق المسلمين،و يغلب فسادهن

على صلاحهم،ثم يكون البلوى و يرجع المؤمنون إلى أعقابهم القهقرى،و مآل ذلك عود هذه المنه الإلهيه فتنه و محنه مهلكه،و صيروره هذا التخفيف الذى هو نعمه نقمه.

فحذر الله المؤمنين بعد بيان حليه طعامهم و المحصنات من نسائهم أن لا يسترسلوا فى التنعم بهذه النعمه استرسالا يؤدى إلى الكفر بالإيمان،و ترك أركان الدين،و الإعراض عن الحق فإن ذلك يوجب حبط العمل،و ينجر إلى خسران السعى فى الآخره.

و اعلم أن للمفسرين فى هذه الآيه أعنى قوله:« اَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ» (إلى آخر الآيه)خوضا عظيما ردهم إلى تفاسير عجيبه لا يحتملها ظاهر اللفظ،و ينافيها سياق الآيه كقول بعضهم:إن قوله: «أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ» يعنى من الطعام كالبحيره و السائبه و الوصيله و الحامى،و قول بعضهم:إن قوله: «وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ» أى بمقتضى الأصل الأولى لم يحرمه الله عليكم قط،و إن اللحوم من الحل و إن لم يذكوها إلا بما عندهم من التذكيه،و قول بعضهم:إن المراد بقوله: «وَ طَعامُ الَّذِينَ» هو مؤاكلتهم،و قول بعضهم:إن المراد بقوله:(وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» بيان الحليه بحسب الأصل من غير أن يكون محرما قبل ذلك بل قوله تعالى:« وَ أُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ» :(النساء:۲۴) كاف فى إحلالهن،و قول بعضهم:إن المراد بقوله: « وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» التحذير عن رد ما فى صدر الآيه من قضيه حل طعام أهل الكتاب و المحصنات من نسائهم.

فهذه و أمثالها معان احتملوها،و هى بين ما لا يخلو من مجازفه و تحكم كتقييد قوله:« اَلْيَوْمَ أُحِلَّ»، بما تقدم من غير دليل عليه و بين ما يدفعه ظاهر السياق من التقييد باليوم و الامتنان و التخفيف و غير ذلك مما تقدم بيانه و البيان السابق الذى استظهرنا فيه باعتبار ظواهر الآيات الكريمه كاف فى إبطالها و إبانه وجه الفساد فيها.

و أما كون آيه:« وَ أُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ» داله على حل نكاح الكتابيه فظاهر البطلان لظهور كون الآيه فى مقام بيان محرمات النساء و محللاتهن بحسب طبقات النسب و السبب لا بحسب طبقات الأديان و المذاهب.

(بحث روائی)

فی الدر المنثور،":فی قوله تعالی:« یَسْئَلُونَکَ مَا ذَا أُحِلَّ لَهُمْ» (الآیه)":أخرج ابن جریر عن عکرمه": أن النبی ص بعث أبا رافع فی قتل الکلاب-فقتل حتی بلغ العوالی، فدخل عاصم بن عدی-و سعد بن خیثمه و عویم بن ساعده فقالوا:ما ذا أحل لنا یا رسول الله؟فنزلت: «یَسْئَلُونَکَ مَا ذَا أُحِلَّ لَهُمْ» (الآیه.

و فیه،أخرج ابن جریر عن محمد بن کعب القرظی قال": لما أمر النبی ص بقتل الکلاب قالوا:یا رسول الله ما ذا أحل لنا من هذه الأمه؟فنزلت:« یَسْئَلُونَکَ مَا ذَا أُحِلَّ لَهُمْ» (الآیه.

أقول:الروایتان یشرح بعضهما بعضا فالمراد السؤال عما یحل لهم من الکلاب من حیث اتخاذها و استعمالها فی مآرب مختلفه کالصید و نحوه،و قوله تعالی:« یَسْئَلُونَکَ مَا ذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَکُمُ الطَّیِّبَاتُ» لا یلائم هذا المعنی لتقیدها و إطلاق الآیه.

علی أن ظاهر الروایتین و الروایه الآتیه إن قوله:« وَ مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ» معطوف علی موضع الطیبات،و المعنی:و أحل لکم ما علمتم،و لذلک التزم جمع من المفسرین علی تقدیر ما فیه کما تقدم،و قد تقدم أن الظاهر کون قوله:« وَ مَا عَلَّمْتُمْ» شرطا جزاؤه قوله:« فَکُلُوا مِمَّا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ .

و المراد بالأمه المسئول عنها فی الروایه نوع الکلاب علی ما تفسره الروایه الآتیه.

و فیه،أخرج الفاریابی و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی و الحاکم- و صححه-و البیهقی فی سننه عن أبی رافع قال: جاء جبرئیل إلی النبی ص فاستأذن علیه-فأذن له فأبطأ فأخذ رداءه فخرج-فقال:قد أذنا لک-قال:أجل و لکنا لا ندخل بیتا فیه کلب و لا صوره-فنظروا فإذا فی بعض بیوتهم جرو-.

قال أبو رافع:فأمرنی أن أقتل کل کلب بالمدینه ففعلت،و جاء الناس فقالوا:

یا رسول الله-ما ذا یحل لنا من هذه الأمه التی أمرت بقتلها؟فسکت النبی ص فأنزل

الله:« يَسْئَلُونَکَ مٰا ذٰا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَکُمُ الطَّيِّبٰاتُ-وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوٰارِحِ مُکَلِّبِينَ» - فقال رسول الله ص:إذا أرسل الرجل کلبه و ذکر اسم الله-فأمسک عليه فليأکل ما لم يأکل.

أقول ما ذکر فی الروايه من کيفيه نزول جبرئيل غريب فی بابه علی أن الروايه لا تخلو عن اضطراب حيث تدل علی إمساک جبرائيل عن الدخول علی النبی ص لوجود جرو فی بعض بيوتهم علی أنها لا تنطبق علی ظاهر الآيه من إطلاق السؤال و الجواب و العطف الذی فی قوله وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوٰارِحِ فالروايه أشبه بالموضوعه.

و فيه،أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن عامر": أن عدی بن حاتم الطائی أتی رسول الله ص-فسأله عن صيد الکلاب فلم يدر ما يقول له-حتی أنزل الله عليه هذه الآيه فی المائده- تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّٰا عَلَّمَکُمُ اللّٰهُ .

أقول و فی معناه غيره من الأخبار و الإشکال المتقدم آت فيه و الظاهر أن هذه الروايات و ما فی معناها من تطبيق الحوادث علی الآيه غير أنه تطبيق غير تام و الظاهر أنهم ذکروا له(ص)صيد الکلاب ثم سألوه عن ضابط کلی فی تمييز الحلال من الحرام فذکر فی الآيه سؤالهم ثم أجيب بإعطاء الضابط الکلی بقوله يَسْئَلُونَکَ مٰا ذٰا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَکُمُ الطَّيِّبٰاتُ ثم أجيبوا فی خصوص ما تذاکروا فيه فهذا هو الذی يفيده لحن القول فی الآيه.

و فی الکافی،بإسناده عن حماد عن الحلبی عن أبی عبد الله(ع)قال: فی کتاب علی(ع)فی قوله عز و جل- وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوٰارِحِ مُکَلِّبِينَ قال هی الکلاب:

أقول:و رواه العياشی فی تفسيره،عن سماعه بن مهران عنه(ع).

و فيه،بإسناده عن ابن مسکان عن الحلبی قال:قال أبو عبد الله(ع): کان أبی يفتی و کان يتقی-و نحن نخاف فی صيد البزاه و الصقور،فأما الآن فإنا لا نخاف و لا يحل صيدها-إلا أن تدرک ذکاته،فإنه فی کتاب علی(ع):أن الله عز و جل قال: «وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوٰارِحِ مُکَلِّبِينَ» فی الکلاب.

و فيه،بإسناده عن أبی بکر الحضرمی عن أبی عبد الله(ع)،قال: سألته عن

صید البزاه و الصقور و الفهود و الکلاب-قال لا تأکلوا إلا ما ذکیتم إلا الکلاب،قلت:

فإن قتله؟قال:کل فإن الله یقول: «وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوٰارِحِ مُکَلِّبِینَ-تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّٰا عَلَّمَکُمُ اللّٰهُ فَکُلُوا مِمّٰا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ، -ثم قال:کل شیء من السباع یمسک الصید علی نفسها-إلا الکلاب معلمه؟فإنها تمسک علی صاحبها قال:و إذا أرسلت الکلب فاذکر اسم الله علیه فهو ذکاته.

و فی تفسیر العیاشی،عن أبی عبیده عن أبی عبد الله(ع): عن الرجل سرح الکلب المعلم،و یسمی إذا سرحه،قال:یأکل مما أمسکن علیه و إن أدرکه و قتله.و إن وجد معه کلب غیر معلم فلا تأکل منه.قلت:فالصقور و العقاب و البازی؟قال:إن أدرکت ذکاته فکل منه،و إن لم تدرک ذکاته فلا تأکل منه.قلت:فالفهد لیس بمنزله الکلب؟ قال:فقال:لا،لیس شیء مکلب إلا الکلب.

و فیه،عن أبی بصیر عن أبی عبد الله(ع): فی قول الله :«مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوٰارِحِ مُکَلِّبِینَ-تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّٰا عَلَّمَکُمُ اللّٰهُ فَکُلُوا مِمّٰا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ-وَ اذْکُرُوا اسْمَ اللّٰهِ عَلَیْهِ -قال:

لا بأس بأکل ما أمسک الکلب-مما لم یأکل الکلب منه-فإذا أکل الکلب منه قبل أن تدرکه فلا تأکله.

أقول:و الخصوصیات المأخوذه فی الروایات کاختصاص الحل عند القتل بصید الکلب لقوله تعالی:« مُکَلِّبِینَ» و قوله:« مِمّٰا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ» و اشتراط أن لا یشارکه کلب غیر معلم کل ذلک مستفاد من الآیه.و قد تقدم بعض الکلام فی ذلک.

و فیه،عن حریز عن أبی عبد الله(ع)قال: سئل عن کلب المجوس یکلبه المسلم و یسمی و یرسله-قال:نعم إنه مکلب إذا ذکر اسم الله علیه فلا بأس.

أقول:و فیه الأخذ بإطلاق قوله «مُکَلِّبِینَ»

و قد روی فی الدر المنثور،عن ابن أبی حاتم عن ابن عباس": فی المسلم یأخذ کلب المجوسی المعلم أو بازه أو صقره-مما علمه المجوسی فیرسله فیأخذه-قال:لا تأکله و إن سمیت-لأنه من تعلیم المجوسی و إنما قال:« تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّٰا عَلَّمَکُمُ اللّٰهُ» و ضعفه ظاهر،فإن الخطاب فی قوله:« مِمّٰا عَلَّمَکُمُ اللّٰهُ» و إن کان متوجها إلی المؤمنین ظاهرا إلا أن الذی علمهم الله مما یعلمونه الکلاب لیس غیر ما علمه الله المجوس و غیرهم.و هذا المعنی یساعد فهم السامع أن یفهم أن لا خصوصیه لتعلیم المؤمن من حیث

إنه تعليم المؤمن،فلا فرق فى الكلب المعلم بين أن يكون معلمه مسلما أو غير مسلم كما لا فرق من جهه الملك بين كونه مملوكا للمسلم و مملوكا لغيره.

و فى تفسير العياشى،عن هشام بن سالم عن أبى عبد الله(ع): فى قول الله تبارك و تعالى:«و طعامهم حل لكم»قال:العدس و الحبوب و أشباه ذلك يعنى أهل الكتاب) أقول:و رواه فى التهذيب،عنه،و لفظه:قال: العدس و الحمص و غير ذلك

و فى الكافى،و التهذيب،فى روايات عن عمار بن مروان و سماعه عن أبى عبد الله(ع):

فى طعام أهل الكتاب و ما يحل منه،قال:الحبوب

و فى الكافى،بإسناده عن ابن مسكان،عن قتيبه الأعشى قال: سأل رجل أبا عبد الله و أنا عنده فقال له:الغنم يرسل فيها اليهودى و النصرانى-فتعرض فيها العارضه فتذبح أ يؤكل ذبيحته؟فقال أبو عبد الله(ع):لا تدخل ثمنها فى مالك و لا تأكلها-فإنما هى الاسم و لا يؤمن عليها إلا مسلم،فقال له الرجل:قال الله تعالى:« اَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ» -فقال أبو عبد الله(ع):كان أبى يقول:إنما هى الحبوب و أشباهها:.

أقول:و رواه الشيخ فى التهذيب،و العياشى فى تفسيره عن قتيبه الأعشى عنه(ع).

و الأحاديث-كما ترى-تفسر طعام أهل الكتاب المحلل فى الآيه بالحبوب و أشباهها، و هو الذى يدل عليه لفظ الطعام عند الإطلاق كما هو ظاهر من الروايات و القصص المنقوله عن الصدر الأول،و لذلك ذهب المعظم من علمائنا إلى حصر الحل فى الحبوبات و أشباهها و ما يتخذ منها مما يتغذى به.

و قد شدد النكير عليهم بعضهم (1)بأن ذلك مما يخالف عرف القرآن فى استعمال الطعام.

قال،ليس هذا هو الغالب فى لغه القرآن،فقد قال الله تعالى فى هذه السوره-أى المائده-: «أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَهِ» و لا يقول أحد:إن الطعام من صيد البحر هو البر أو الحبوب.و قال:« كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا لِبَنِى إِسْرائِيلَ إِلاّ ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ» و لم يقل أحد:إن الطعام هنا البر أو الحب مطلقا،

١- ١) صاحب المنار فى تفسيره.

إذ لم يحرم شيء منه على بنى إسرائيل لا قبل التوراه و لا بعدها،فالطعام فى الأصل كل ما يطعم أى يذاق أو يؤكل،قال تعالى فى ماء النهر حكايه عن طالوت:« فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى»، و قال:« فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا» أى أكلتم.

و ليت شعرى ما ذا فهم من قولهم:«الطعام إذا أطلق كان المراد به الحبوب و أشباهها» فلم يلبث حتى أورد عليهم بمثل قوله:« يَطْعَمُهُ» و قوله: «طَعِمْتُمْ» من مشتقات الفعل؟ و إنما قالوا ما قالوا فى لفظ الطعام،لا فى الأفعال المصوغه منه.و أورد بمثل:«و طعام البحر»و الإضافه أجلى قرينه، فليس ينبت فى البحر بر و لا شعير.و أورد بمثل:« كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا لِبَنِى إِسْرائِيلَ» ثم ذكر هو نفسه أن من المعلوم من دينهم أنهم لم يحرم عليهم البر أو الحب.و كان ينبغى عليه أن يراجع من القرآن موارد أطلق اللفظ فيها إطلاقا ثم يقول ما هو قائله كقوله:« فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ» :(البقره:۱۸۴)و قوله:

«أَوْ كَفّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ» :(المائده:۹۵)و قوله:« وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ» :(الإنسان:

۸ و قوله: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ» :(عبس:۲۴)و نحو ذلك.

ثم قال:و ليس الحب مظنه للتحليل و التحريم،و إنما اللحم هو الذى يعرض له ذلك لوصف حسى كموت الحيوان حتف أنفه،أو معنوى كالتقرب به إلى غير الله و لذلك قال تعالى:« قُلْ لا أَجِدُ فِى ما أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَهً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً»: XالآيهX(الأنعام:۱۴۵)و كله يتعلق بالحيوان و هو نص فى حصر التحريم فيما ذكر،فتحريم ما عداه يحتاج إلى نص.

و كلامه هذا أعجب من سابقه:أما قوله:ليس الحب مظنه للتحليل و التحريم و إنما اللحم هو الذى يعرض له ذلك،فيقال له:فى أى زمان يعنى ذلك؟أ فى مثل هذه الأزمنه و قد استأنس الأذهان بالإسلام و عامه أحكامه منذ عده قرون،أم فى زمان النزول و لم يمض من عمر الدين إلا عده سنين؟و قد سألوا النبى ص عن أشياء هى أوضح من حكم الحبوب و أشباهها و أجلى،و قد حكى الله تعالى بعض ذلك كما فى قوله:« يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ» :(البقره:۲۱۵)

و قد روى عبد بن حميد عن قتاده قال": ذكر لنا أن رجالا قالوا:كيف نتزوج نساءهم و هم على دين و نحن على دين-فأنزل الله:« وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» الحديث.و قد مر و سيجىء لهذا القول نظائر فى تضاعيف الروايات كما نقلناه فى حج التمتع و غير ذلك.

و إذا كانوا يقولون مثل هذا القول بعد نزول الآيه بحليه المحصنات من نساء أهل الكتاب فما الذى يمنعهم أن يسألوا قبل نزول الآيه عن مؤاكله أهل الكتاب،و الأكل مما يؤخذ منهم من الحبوب،و الأغذيه المتخذه من ذلك كالخبز و الهريسه و سائر الأغذيه التى تتخذ من الحبوب و أمثالها إذا عملها أهل الكتاب،و هم على دين،و نحن على دين و قد حذر الله المؤمنين عن موادتهم و موالاتهم و الاقتراب منهم،و الركون إليهم فى آيات كثيره؟.

بل هذا الكلام مقلوب عليه فى قوله:إن اللحم هو المظنه للتحريم و التحليل فكيف يسعهم أن يسألوا عنه و قد بين الله عامه محرمات اللحوم فى آيه الأنعام:« قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ» :(الأنعام:۱۴۵)ثم فى آيه النحل و هما مكيتان، ثم فى آيه البقره و هى قبل المائده نزولا،ثم فى قوله:« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَهُ» و هى قبل هذه الآيه؟.و الآيه على قول هذا القائل نص أو كالنص فى عدم تحريم ذبائحهم،فكيف صح لهؤلاء أن يسألوا عن حليه ذبائح أهل الكتاب و قد نزلت الآيات مكيتها و مدنيتها مره بعد أخرى فى أمرها و دلت على حليتها،و استقر العمل على حفظها و تلاوتها و تعلمها و العمل بها؟.

و أما قوله:إن آيه الأنعام نص فى حصر المحرمات فيما ذكر فيها فحرمه غيرها كذبيحه أهل الكتاب يحتاج إلى دليل،فلا شك فى احتياج كل حكم إلى دليل يقوم عليه، و هذا الكلام صريح منه فى أن هذا الحصر إنما ينفع إذا لم يكن هناك دليل يقوم على تحريم أمر آخر وراء ما ذكر فى الآيه.

و على هذا فإن كان مراده بالدليل ما يشمل السنه فالقائل بتحريم ذبائح أهل الكتاب يستند فى ذلك إلى ما ورد من الروايات فى الآيه و قد نقلنا بعضا منها فيما تقدم.

و إن أراد الدليل من الكتاب فمع أنه تحكم لا دليل عليه إذ السنه قرينه الكتاب لا يفترقان فى الحجيه يسأل عنه ما ذا يقول فى ذبيحه الكفار غير أهل الكتاب كالوثنيين و الماديين؟أ فيحرمها لكونها ميته فاقده للتذكيه الشرعيه؟فما الفرق بين عدم التذكيه بعدم الاستقبال و عدم ذكر الله عليه أصلا و بين التذكيه التى هى غير التذكيه الإسلاميه و ليس يرتضيها الله سبحانه و قد نسخها؟فالجميع خبائث فى نظر الدين،و قد حرم الله الخبائث،قال تعالى:« وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ» : (الأعراف:۱۵۷)و قد

قال تعالى فى الآيه:«السابقه على هذه الآيه يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أَحِلَّ لَهُمْ قُلْ أَحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ» و لحن السؤال و الجواب فيها أوضح دليل على حصر الحل فى الطيبات،و كذا ما فى أول هذه الآيه من قوله:« اَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ» و المقام مقام الامتنان يدل على الحصر المذكور.

و إن كان تحريم ذبائح الكفار لكونها بالإهلال به لغير الله كالذبح باسم الأوثان عاد الكلام بعدم الفرق بين الإهلال به لغير الله،و الإهلال به لله على طريقه منسوخه لا يرتضيها الله سبحانه.

ثم قال:و قد شدد الله فيما كان عليه مشركو العرب من أكل الميته بأنواعها المتقدمه و الذبح للأصنام لئلا يتساهل به المسلمون الأولون تبعا للعاده،و كان أهل الكتاب أبعد منهم عن أكل الميته و الذبح للأصنام.

و قد نسى أن النصارى من أهل الكتاب يأكلون لحم الخنزير،و قد ذكره الله تعالى و شدد عليه،و أنهم يأكلون جميع ما تستبيحه المشركون لارتفاع التحريم عنهم بالتفديه.

على أن هذا استحسان سخيف لا يجدى نفعا و لا يعول على مثله فى تفسير كلام الله و فهم معانى آياته،و لا فى فقه أحكام دينه.

ثم قال:و لأنه كان من سياسه الدين التشديد فى معامله مشركى العرب حتى لا يبقى فى الجزيره أحد إلا و يدخل فى الإسلام و خفف فى معامله أهل الكتاب،ثم ذكر موارد من فتيا بعض الصحابه بحليه ما ذبحوه للكنائس و غير ذلك.

و هذا الكلام منه مبنى على ما يظهر من بعض الروايات أن الله اختار العرب على غيرهم من الأمم،و أن لهم كرامه على غيرهم.و لذلك كانوا يسمون غيرهم بالموالى،و لا يلائمه ظاهر الآيات القرآنيه،و قد قال الله تعالى:« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» :(الحجرات:۱۳)و من طرق أئمه أهل البيت(ع)أحاديث كثيره فى هذا المعنى.

و لم يجعل الإسلام فى دعوته العرب فى جانب و غيرهم فى جانب،بل إنما جعل غير أهل الكتاب من المشركين سواء كانوا عربا أو غيرهم فى جانب،فلم يقبل منهم إلا أن يسلموا و يؤمنوا،و أهل الكتاب سواء كانوا عربا أو غيرهم فى جانب،فقبل منهم الدخول فى الذمه و إعطاء الجزيه إلا أن يسلموا.

و هذا الوجه بعد تمامه لا يدل على أزيد من التساهل فى حقهم فى الجمله لإبهامه،و أما أنه يجب أن يكون بإباحه ذبائحهم إذا ذبحوها على طريقتهم و سنتهم فمن أين له الدلاله على ذلك؟و هو ظاهر.

و أما ما ذكره من عمل بعض الصحابه و قولهم إلى غير ذلك فلا حجيه فيه.

فقد تبين من جميع ما تقدم عدم دلاله الآيه و لا أى دليل آخر على حليه ذبائح أهل الكتاب إذا ذبحت بغير التذكيه الإسلاميه.فإن قلنا بحليه ذبائحهم للآيه كما نقل عن بعض أصحابنا فلنقيدها بما إذا علم وقوع الذبح عن تذكيه شرعيه

كما يظهر من قول الصادق (ع)فى خبر الكافى،و التهذيب،المتقدم: «فإنما هى الاسم و لا يؤمن عليها إلا مسلم» الحديث.و للكلام تتمه تطلب من الفقه.

و فى تفسير العياشى،عن الصادق(ع): فى قوله تعالى:« وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» (الآيه)قال:هن العفائف

و فيه،عنه(ع):فى قوله: « وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ» (الآيه)قال:هن المسلمات.

و فى تفسير القمى،عن النبى ص قال: و إنما يحل نكاح أهل الكتاب الذين يؤدون الجزيه،و غيرهم لم تحل مناكحتهم.

أقول:و ذلك لكونهم محاربين حينئذ.

و فى الكافى،و التهذيب،عن الباقر(ع): إنما يحل منهن نكاح البله.

و فى الفقيه،عن الصادق(ع): فى الرجل المؤمن يتزوج النصرانيه و اليهوديه قال:إذا أصاب المسلمه فما يصنع باليهوديه و النصرانيه؟فقيل:يكون له فيها الهوى فقال:إن فعل فليمنعها من شرب الخمر و أكل لحم الخنزير-و اعلم أن عليه فى دينه غضاضه

و فى التهذيب،عن الصادق(ع)قال: لا بأس أن يتمتع الرجل باليهوديه و النصرانيه- و عنده حره.

و فى الفقيه،عن الباقر(ع): أنه سئل عن الرجل المسلم أ يتزوج المجوسيه؟قال:لا، و لكن إن كانت له أمه مجوسيه فلا بأس أن يطأها،و يعزل عنها،و لا يطلب ولدها.

و فى الكافى،بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبى عبد الله(ع)فى حديث:قال:

و ما أحب للرجل المسلم أن يتزوج اليهوديه و النصرانيه-مخافه أن يتهود ولده أو يتنصر.

و فی الکافی،بإسناده عن زراره،و فی تفسیر العیاشی،عن مسعده بن صدقه قال:

سألت أبا جعفر(ع)عن قول الله تعالی:« وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ مِنْ قَبْلِکُمْ» -فقال:منسوخه بقوله:« وَ لا تُمْسِکُوا بِعِصَمِ الْکَوافِرِ».

أقول:و یشکل بتقدم قوله:« وَ لا تُمْسِکُوا» (الآیه)علی قوله:« وَ الْمُحْصَناتُ» (الآیه)نزولا- و لا- یجوز تقدم الناسخ علی المنسوخ.مضافا إلی ما ورد أن سوره المائده ناسخه غیر منسوخه،و قد تقدم الکلام فیه.و من الدلیل علی أن الآیه غیر منسوخه ما تقدم من الروایه الداله علی جواز التمتع بالکتابیه و قد عمل بها الأصحاب و قد تقدم فی آیه المتعه أن التمتع نکاح و تزویج.

نعم لو قیل بکون قوله:« وَ لا تُمْسِکُوا بِعِصَمِ الْکَوافِرِ» (الآیه)مخصصا متقدما خرج به النکاح الدائم من إطلاق قوله:« وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ مِنْ قَبْلِکُمْ» لدلالته علی النهی عن الإمساک بالعصمه،و هو ینطبق علی النکاح الدائم کما ینطبق علی إبقاء عصمه الزوجیه بعد إسلام الزوج و هو مورد نزول الآیه.

و لا یصغی إلی قول من یعترض علیه بکون الآیه نازله فی إسلام الزوج مع بقاء الزوجه علی الکفر،فإن سبب النزول لا یقید اللفظ فی ظهوره،و قد تقدم فی تفسیر آیه النسخ من سوره البقره فی الجزء الأول من الکتاب أن النسخ فی عرف القرآن و بحسب الأصل یعم غیر النسخ المصطلح کالتخصیص.

و فی بعض الروایات أیضا أن الآیه منسوخه بقوله:« وَ لا تَنْکِحُوا الْمُشْرِکاتِ» (الآیه) و قد تقدم الإشکال فیه،و للکلام تتمه تطلب من الفقه.

و فی تفسیر العیاشی،:فی قوله تعالی:« وَ مَنْ یَکْفُرْ بِالْإِیمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» (الآیه):

عن أبان بن عبد الرحمن قال:سمعت أبا عبد الله(ع)یقول: أدنی ما یخرج به الرجل من الإسلام-أن یری الرأی بخلاف الحق فیقیم علیه قال:« وَ مَنْ یَکْفُرْ بِالْإِیمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»، -و قال(ع):الذی یکفر بالإیمان-الذی لا یعمل بما أمر الله به و لا یرضی به.

و فیه،عن محمد بن مسلم عن أحدهما(ع)قال: هو ترک العمل حتی یدعه أجمع.

أقول:و قد تقدم ما يتضح به ما فى هذه الأخبار من خصوصيات التفسير.

و فيه،عن عبيد بن زراره قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله عز و جل:

«وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»

-قال:ترك العمل الذى أقربه،من ذلك أن يترك الصلاه من غير سقم و لا شغل.

أقول:و قد سمى الله تعالى الصلاه إيمانا فى قوله: «وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ» (البقره:۱۴۳)و لعله(ع)خصها بالذكر لذلك.

و فى تفسير القمى،قال(ع): من آمن ثم أطاع أهل الشرك

و فى البصائر،عن أبى حمزه قال: سألت أبا جعفر(ع)عن قول الله تبارك و تعالى:

«وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ-وَ هُوَ فِي الْآخِرَهِ مِنَ الْخاسِرِينَ»

-قال:تفسيرها فى بطن القرآن:و من يكفر بولايه على.و على هو الإيمان.

أقول:هو من البطن المقابل للظهر بالمعنى الذى بيناه فى الكلام على المحكم و المتشابه فى الجزء الثالث من الكتاب و يمكن أن يكون من الجرى و التطبيق على المصداق، و قد سمى رسول الله ص عليا(ع)إيمانا حينما برز إلى عمرو بن عبد ود يوم الخندق

حيث قال(ص): «برز الإيمان كله إلى الكفر كله».

و فى هذا المعنى بعض روايات أخر

[سوره المائده (۵): الآيات ۶ الى ۷]

اشاره

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاهِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۶) وَ اذْكُرُوا نِعْمَهَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ مِيثاقَهُ الَّذِي واثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۷)

(بيان)

تتضمن الآيه الأولى حكم الطهارات الثلاث:الوضوء و غسل الجنابه و التيمم و الآيه التاليه كالمتممه أو المؤكده لحكم الآيه الأولى،و فى بيان حكم الطهارات الثلاث آيه أخرى تقدمت فى سوره النساء،و هى قوله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ وَ لا جُنُباً إِلاَّ عابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا غَفُوراً» : (النساء:۴۳).

و هذه الآيه أعنى آيه المائده أوضح و أبين من آيه النساء،و أشمل لجهات الحكم و لذلك أخرنا بيان آيه النساء إلى هاهنا لسهوله التفهم عند المقايسه.

قوله تعالى. «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ» القيام إذا عدى بإلى ربما كنى به عن إراده الشىء المذكور للملازمه و القران بينهما،فإن إراده الشىء لا تنفك عن الحركه إليه،و إذا فرض الإنسان مثلا قاعدا لأنه حال سكونه و لازم سباته عاده،و فرض الشىء المراد فعلا متعارفا يتحرك إليه عاده كان مما يحتاج فى إتيانه إلى القيام غالبا،فأخذ الإنسان فى ترك السكون و الانتصاب لإدراك العمل هو القيام إلى الفعل،و هو يلازم الإراده.و نظيره قوله تعالى :«وَ إِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ» : (النساء:۱۰۲) أى أردت أن تقيم لهم الصلاه.و عكسه من وجه قوله تعالى:« وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ وَ آتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً» :(النساء:۲۰)أى إذا طلقتم زوجا و تزوجتم بأخرى،فوضعت إراده الفعل و طلبه مقام القيام به.

و بالجمله الآيه تدل على اشتراط الصلاه بما تذكره من الغسل و المسح أعنى الوضوء

و لو تم لهـا إطلاق لـدل على اشتراط كل صـلاه بوضوء مع الغض عن قوله:« وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا» لكن الآيات المشـرعه قلما يتم لهـا الإطلاـق من جميع الجهـات.على أنه يمكن أن يكون قوله الآتى: «وَ لكِنْ يُرِيـدُ لِيُطَهِّرَكُمْ» مفسـرا لهـذا الاشتراط على ما سيجىء من الكلام.هذا هو المقدار الذى يمكن أن يبحث عنه فى تفسير الآيه،و الزائد عليه مما أطنب فيه المفسـرون بحث فقهى خارج عن صناعه التفسير.

قوله تعالى: «فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ» الغسل بفتح الغين إمرار الماء على الشىء،و يكون غالبا لغرض التنظيف و إزاله الوسـخ و الـدرن و الوجه ما يسـتقبلك من الشـىء،و غلب فى الجانب المقبل من رأس الإنسان مثلا،و هو الجانب الـذى فيه العين و الأـنف و الفم،و يعين بـالظهور عنـد المشـافهه،و قـد فسـر فى الروايـات المنقوله عن أئمه أهل البيت(ص)بما بين قصاص الشـعر من الناصـيه و آخر الـذقن طولا،و ما دارت عليه الإبهام و الوسـطى و السـبابه،و هناك تحديدات أخر ذكرها المفسـرون و الفقهاء.

و الأيدى جمع يد و هى العضو الخاص الذى به القبض و البسط و البطش و غير ذلك، و هو ما بين المنكب و أطراف الأصابع،و إذ كانت العنايه فى الأعضاء بالمقاصـد التى يقصـدها الإنسان منها كالقبض و البسط فى اليـد مثلا،و كان المعظم من مقاصد اليد تحصـل بما دون المرفق إلى أطراف الأصابع سـمى أيضا باليـد،و لـذلك بعينه ما سـمى ما دون الزنـد إلى أطراف الأصابع فصار اللفظ بذلك مشتركا أو كالمشترك بين الكل و الأبعاض.

و هـذا الاشتراك هو الموجب لـذكر القرينه المعينه إذا أريـد به أحـد المعانى،و لـذلك قيـد تعالى قوله: «وَ أَيْدِيَكُمْ» بقوله: «إِلَى الْمَرافِقِ» ليتعين أن المراد غسـل اليـد الـتى تنتهى إلى المرافق،ثم القرينه أفـادت أن المراد به القطعه من العضو التى فيهـا الكف،و كـذا فسـرتها السـنه. و الـذى يفيـده الاسـتعمال فى لفظه «إِلَى» أنهـا لانتهـاء الفعل الـذى لا يخلو من امتـداد الحركه،و أما دخول مـدخول «إِلَى» فى حكم مـا قبله أو عـدم دخوله فـأمر خـارج عن معنى الحرف،فشـمول حكم الغسل للمرافق لا يسـتند إلى لفظه «إِلَى» بل إلى ما بينه السنه من الحكم.

و ربما ذكر بعضهم أن «إِلَى» فى الآيه بمعنى مع كقوله تعالى: «وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ» :(النساء:٢)و قد استند فى ذلك إلى ما ورد فى الروايات أن النبى ص

كان يغسلهما إذا توضأ،و هو من عجيب الجرأه فى تفسير كلام الله،فإن ما ورد من السنه فى ذلك إما فعل و الفعل مبهم ذو وجوه فكيف يسوغ أن يحصل بها معنى لفظ من الألفاظ حتى يعد ذلك أحد معانى اللفظ؟و إما قول وارد فى بيان الحكم دون تفسير الآيه،و من الممكن أن يكون وجوب الغسل للمقدمه العلميه أو مما زاده النبى ص و كان له ذلك كما فعله(ص)فى الصلوات الخمس على ما وردت به الروايات الصحيحه.

و أما قوله تعالى:« وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ» فهو من قبيل تضمين الأكل معنى الضم و نحوه مما يتعدى بإلى لا أن لفظه «إِلَى» هنالك بمعنى مع.

و قد تبين بما مر أن قوله «إِلَى الْمَرافِقِ» قيد لقوله «أَيْدِيَكُمْ» فيكون الغسل المتعلق بها مطلقا غير مقيد بالغايه يمكن أن يبدأ فيه من المرفق إلى أطراف الأصابع و هو الذى يأتى به الإنسان طبعا إذا غسل يده فى غير حال الوضوء من سائر الأحوال أو يبدأ من أطراف الأصابع و يختم بالمرفق،لكن الأخبار الوارده من طرق أئمه أهل البيت(ع) تفتى بالنحو الأول دون الثانى.

و بذلك يندفع ما ربما يقال:إن تقييد الجمله بقوله «إِلَى الْمَرافِقِ» يدل على وجوب الشروع فى الغسل من أطراف الأصابع و الانتهاء إلى المرافق.وجه الاندفاع أن الإشكال مبنى على كون قوله «إِلَى الْمَرافِقِ» قيدا لقوله «فَاغْسِلُوا» و قد تقدم أنه قيد للأيدى، و لا مناص منه لكونه مشتركا محتاجا إلى القرينه المعينه،و لا معنى لكونه قيدا لهما جميعا.

على أن الأمه أجمعت على صحه وضوء من بدأ فى الغسل بالمرافق و انتهى إلى أطراف الأصابع كما فى المجمع،و ليس إلا لأن الآيه تحتمله:و ليس إلا لأن قوله «إِلَى الْمَرافِقِ» قيد للأيدى دون الغسل.

قوله تعالى:« وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ» المسح: إمرار اليد أو كل عضو لامس على الشىء بالمباشره،يقال.مسحت الشىء و مسحت بالشىء،فإذا عدى بنفسه أفاد الاستيعاب،و إذا عدى بالباء دل على المسح ببعضه من غير استيعاب و إحاطه.

فقوله: «وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ» يدل على مسح بعض الرأس فى الجمله،و أما أنه أى بعض من الرأس فمما هو خارج من مدلول الآيه،و المتكفل لبيانه السنه،و قد صح أنه جانب الناصيه من الرأس.

و أما قوله:« وَ أَرْجُلَكَمْ» فقد قرئ بالجر،و هو لا محاله بالعطف على رءوسكم.

و ربما قال القائل:إن الجر للإتباع،كقوله:« وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ»: (الأنبياء:

۳۰)و هو خطأ فإن الإتباع على ما ذكروه لغه رديئه لا يحمل عليها كلام الله تعالى.و أما قوله:« كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ» فإنما الجعل هناك بمعنى الخلق،و ليس من الإتباع فى شىء.

على أن الإتباع-كما قيل-إنما ثبت فى صوره اتصال التابع و المتبوع كما قيل فى قولهم:جحر ضب خرب بجر الخرب،اتباعا لا فى مثل المورد مما يفضل العاطف بين الكلمتين.

و قرأ: وَ أَرْجُلَكُمْ- بالنصب و أنت إذا تلقيت الكلام مخلى الذهن غير مشوب الفهم لم يلبث دون أن تقضى أن «أَرْجُلَكُمْ» معطوف على موضع «بِرُؤُسِكُمْ» و هو النصب، و فهمت من الكلام وجوب غسل الوجه و اليدين،و مسح الرأس و الرجلين،و لم يخطر ببالك أن ترد «أَرْجُلَكُمْ» إلى «وُجُوهَكُمْ» فى أول الآيه مع انقطاع الحكم فى قوله:

«فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ»

بحكم آخر و هو قوله:« فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ»، فإن الطبع السليم يأبى عن حمل الكلام البليغ على ذلك،و كيف يرضى طبع متكلم بليغ أن يقول مثلا:قبلت وجه زيد و رأسه و مسحت بكتفه و يده بنصب يد عطفا على«وجه زيد»مع انقطاع الكلام الأول،و صلاحيه قوله«يده»لأن يعطف على محل المجرور المتصل به،و هو أمر جائز دائر كثير الورود فى كلامهم.

و على ذلك وردت الروايات عن أئمه أهل البيت(ع)و أما الروايات من طرق أهل السنه فإنها و إن كانت غير ناظره إلى تفسير لفظ الآيه،و إنما تحكى عمل النبى ص و فتوى بعض الصحابه،لكنها مختلفه:منها ما يوجب مسح الرجلين،و منها ما يوجب غسلهما.

و قد رجح الجمهور منهم أخبار الغسل على أخبار المسح،و لا كلام لنا معهم فى هذا المقام لأنه بحث فقهى راجع إلى علم الفقه،خارج عن صناعه التفسير.

لكنهم مع ذلك حاولوا تطبيق الآيه على ما ذهبوا إليه من الحكم الفقهى بتوجيهات مختلفه ذكروها فى المقام،و الآيه لا تحتمل شيئا منها إلا مع ردها من أوج بلاغتها إلى مهبط الرداءه.

فربما قيل:إن «أَرْجُلَكَمْ» عطف على «وُجُوهَكَمْ» كما تقدم هذا على قراءه النصب،و أما على قراءه الجر فتحمل على الإتباع،و قد عرفت أن شيئا منهما لا يحتمله الكلام البليغ الذى يطابق فيه الوضع الطبع.

و ربما قيل فى توجيه قراءه الجر:إنه من قبيل العطف فى اللفظ دون المعنى كقوله:

علفتها تبنا و ماء باردا.

و فيه أن مرجعه إلى تقدير فعل يعمل عملا يوافق إعراب حال العطف كما يدل عليه ما استشهد به من الشعر.و هذا المقدر فى الآيه إما «فَاغْسِلُوا» و هو يتعدى بنفسه لا- بحرف الجر،و إما غيره و هو خلاف ظاهر الكلام لا دليل عليه من جهه اللفظ البته و أيضا ما استشهد به من الشعر إما من قبيل المجاز العقلى،و إما بتضمين علفت معنى أعطيت و أشبعت و نحوهما.و أيضا الشعر المستشهد به يفسد معناه لو لم يعالج بتقدير و نحوه،فهناك حاجه إلى العلاج قطعيه،و أما الآيه فلا حاجه فيها إلى ذلك من جهه اللفظ يقطع بها.

و ربما قيل فى توجيه الجر بناء على وجوب غسل الأرجل:أن العطف فى محله غير أن المسح خفيف الغسل فهو غسل بوجه فلا مانع من أن يراد بمسح الأرجل غسلها،و يقوى ذلك أن التحديد و التوقيت أنما جاء فى المغسول و هو الوجه،و لم يجىء فى الممسوح فلما رفع التحديد فى المسح و هو قوله:« وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ» علم أنه فى حكم الغسل لموافقته الغسل فى التحديد.

و هذا من أردإ الوجوه،فإن المسح غير الغسل و لا- ملازمه بينهما أصلا.على أن حمل مسح الأرجل على الغسل دون مسح الرءوس ترجيح بلا- مرجح.و ليت شعرى ما ذا يمنعه أن يحمل كل ما ورد فيه المسح مطلقا فى كتاب أو سنه على الغسل و بالعكس و ما المانع حينئذ أن يحمل روايات الغسل على المسح،و روايات المسح على الغسل فتعود الأدله عن آخرها مجملات لا مبين لها؟.

و أما ما قواه به فهو من تحميل الدلاله على اللفظ بالقياس،و هو من أفسد القياسات.

و ربما قيل إن الله أمر بعموم مسح الرجلين بالماء فى الوضوء كما أمر بعموم مسح الوجه بالتراب فى التيمم فإذا فعل ذلك بهما المتوضئ كان مستحقا اسم ماسح غاسل،لأن

غسلهما إمرار الماء عليهما أو إصابتهما بالماء،و مسحهما إمرار اليد أو ما قام مقام اليد عليهما، فإذا فعل ذلك بهما فاعل فهو غاسل ماسح،فالنصب فى قوله:« أَرْجُلَكُمْ» بعنايه أن الواجب هو غسلهما،و الجر بعنايه أنه ماسح بالماء غسلا،انتهى ملخصا.

و ما أدرى كيف يثبت بهذا الوجه أن المراد بمسح الرأس فى الآيه هو المسح من غير غسل،و بمسح الرجلين هو المسح بالغسل؟و هذا الوجه هو الوجه السابق بعينه و يزيد عليه فسادا،و لذلك يرد على هذا ما يرد على ذاك.

و يزيد عليه إشكالا أن قوله:إن الله أمر بعموم مسح الرجلين فى الوضوء(إلخ)الذى قاس فيه الوضوء على التيمم إن أراد به قياس الحكم على الحكم أعنى ما ثبت عنده بالروايات فأى دلاله له على دلاله الآيه على ذلك؟و ليست الروايات-كما عرفت-بصدد تفسير لفظ الكتاب،و إن أراد به قياس قوله: «وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ» فى الوضوء على قوله:« فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ» فى التيمم فهو ممنوع فى المقيس و المقيس عليه جميعا فإن الله تعالى عبر فى كليهما بالمسح المتعدى بالباء،و قد تقدم أن المسح المتعدى بالباء لا يدل فى اللغه على استيعاب المسح الممسوح،و أن الذى يدل على ذلك هو المسح المتعدى بنفسه.

و هذه الوجوه و أمثالها مما وجهت بها الآيه بحملها على خلاف ظاهرها حفظا للروايات فرارا من لزوم مخالفه الكتاب فيها،و لو جاز لنا تحميل معنى الروايه على الآيه بتأويل الآيه بحملها على خلاف ظاهرها لم يتحقق لمخالفه الكتاب مصداق.

فالأحرى للقائل بوجوب غسل الرجلين فى الوضوء أن يقول كما قال بعض السلف كأنس و الشعبى و غيرهما على ما نقل عنهم:أنه نزل جبرئيل بالمسح و السنه الغسل،و معناه نسخ الكتاب بالسنه.و ينتقل البحث بذلك عن المسأله التفسيريه إلى المسأله الأصوليه:

هل يجوز نسخ الكتاب بالسنه أو لا يجوز،و البحث فيه من شأن الأصولى دون المفسر، و ليس قول المفسر بما هو مفسر:أن الخبر الكذائى مخالف للكتاب إلا للدلاله على أنه غير ما يدل عليه ظاهر الكتاب دلاله معولا عليها فى الكشف عن المراد دون الفتيا بالحكم الشرعى الذى هو شأن الفقيه.

و أما قوله تعالى:« إِلَى الْكَعْبَيْنِ» فالكعب هو العظم الناتئ فى ظهر القدم.و ربما

قيل:إن الكعب هو العظم الناتئ فى مفصل الساق و القدم،و هما كعبان فى كل قدم فى المفصل.

قوله تعالى:« وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا» الجنب فى الأصل مصدر غلب عليه الاستعمال بمعنى اسم الفاعل،و لذلك يستوى فيه المذكر و المؤنث و المفرد و غيره،يقال:

رجل جنب و امرأه جنب و رجلان أو امرأتان جنب،و رجال أو نساء جنب،و اختص الاستعمال بمعنى المصدر للجنابه.

و الجمله أعنى قوله: «وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا» معطوفه على قوله: «فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» لأن الآيه مسوقه لبيان اشتراط الصلاه بالطهاره فالتقدير:و تطهروا إن كنتم جنبا،فيئول إلى تقدير شرط الخلاف فى جانب الوضوء و تقدير الكلام:فاغسلوا وجوهكم و أيديكم و امسحوا برءوسكم و أرجلكم إن لم تكونوا جنبا و إن كنتم جنبا فاطهروا و يستفاد من ذلك أن تشريع الوضوء إنما هو فى حال عدم الجنابه،و أما عند الجنابه فالغسل فحسب كما دلت عليه الأخبار.

و قد بين الحكم بعينه فى آيه النساء بقوله :«وَ لا جُنُباً إِلَّا عابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا» فهذه الآيه تزيد على تلك الآيه بيانا بتسميه الاغتسال تطهرا،و هذا غير الطهاره الحاصله بالغسل،فإنها أثر مترتب،و هذا نفس الفعل الذى هو الاغتسال و قد سمى تطهرا كما يسمى غسل أوساخ البدن بالماء تنظفا.

و يستفاد من ذلك ما

ورد فى بعض الأخبار من قوله(ع): «ما جرى عليه الماء فقد طهر».

قوله تعالى :«وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا» شروع فى بيان حكم من لا يقدر على الماء حتى يغسل أو يغتسل.

و الذى ذكر من الموارد و عد بالترديد ليس بعضها يقابل بعضا مقابله حقيقيه،فإن المرض و السفر ليسا بنفسهما يوجبان حدثا مستدعيا للطهاره بالوضوء أو الغسل بل إنما يوجبانه إذا أحدث المكلف معهما حدثا صغيرا أو كبيرا،فالشقان الأخيران لا يقابلان

الأولين بل كل من الأولين كالمنقسم إلى الأخيرين،و لذلك احتمل بعضهم أن يكون «أَوْ» فى قوله: « أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْكَمْ»، بمعنى الواو كما سيجىء،على أن العذر لا ينحصر فى المرض و السفر بل له مصاديق أخر.

لكن الله سبحانه ذكر المرض و السفر و هما مظنه عدم التمكن من الماء غالبا،و ذكر المجىء من الغائط و ملامسه النساء و فقدان الماء معهما اتفاقى،و من جهه أخرى-و هى عكس الجهه الأولى-عروض المرض و السفر للإنسان بالنظر إلى بنيته الطبيعيه أمر اتفاقى بخلاف التردد إلى الغائط و ملامسه النساء فإنهما من حاجه الطبيعه:أحدهما يوجب الحدث الأصغر الذى يرتفع بالوضوء،و الآخر الحدث الأكبر الذى يرتفع بالغسل.

فهذه الموارد الأربع موارد يبتلى الإنسان ببعضها اتفاقا و ببعضها طبعا.و هى تصاحب فقدان الماء غالبا كالمرض و السفر أو اتفاقا كالتخلى و المباشره إذا انضم إليها عدم وجدان الماء فالحكم هو التيمم.

و على هذا يكون عدم وجدان الماء كنايه عن عدم القدره على الاستعمال.كنى به عنه لأن الغالب هو استناد عدم القدره إلى عدم الوجدان،و لازم ذلك أن يكون عدم الوجدان قيدا لجميع الأمور الأربعه المذكوره حتى المرض.

و قد تبين بما قدمناه أولا:أن المراد بالمرض فى قوله:« كُنْتُمْ مَرْضىٰ» هو المرض الذى يتحرج معه الإنسان من استعمال الماء و يتضرر به على ما يعطيه التقييد بقوله:« فَلَمْ تَجِدُوا مٰاءً» و يفيده أيضا سياق الكلام فى الآيه.

و ثانيا:أن قوله:« أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ» شق برأسه يبتلى به الإنسان اتفاقا و يغلب عليه فيه فقدان الماء،فليس بمقيد بقوله: «أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ» (إلخ)بل هو معطوف على قوله: «فَاغْسِلُوا» و التقدير: إذا قمتم إلى الصلاه و كنتم على سفر و لم تجدوا ماء فتيمموا، فحال هذا الفرض فى إطلاقه و عدم تقيده بوقوع أحد الحدثين حال المعطوف عليه أعنى قوله:« إِذٰا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاٰهِ فَاغْسِلُوا» (إلخ)فكما لم يحتج إلى التقييد ابتداء لم يحتج إليه ثانيا عند العطف.

و ثالثا:أن قوله: «أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغٰائِطِ» شق آخر مستقلا و ليس كما قيل:إن «أَوْ» فيه بمعنى الواو كقوله تعالى: «وَ أَرْسَلْنٰاهُ إِلىٰ مِائَهِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ» :

(الصافات:۱۴۷)لما عرفت من عدم الحاجه إلى ذلك.على أن «أَوْ» فى الآيه المستشهد بها ليس إلا بمعناها الحقيقى،و إنما الترديد راجع إلى كون المقام مقاما يتردد فيه بالطبع لا لجهل فى المتكلم كما يقال بمثله فى الترجى و التمنى الواقعين فى القرآن كقوله:« لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» :(البقره:۲۱)،و قوله: «لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ» :(البقره:۱۰۲).

و حكم هذه الجمله فى العطف حكم سابقتها،و التقدير:إذا قمتم إلى الصلاه و كان جاء أحد منكم من الغائط و لم تجدوا ماء فتيمموا.

و ليس من البعيد أن يستفاد من ذلك عدم وجوب إعاده التيمم أو الوضوء لمن لم تنتقض طهارته بالحدث الأصغر إن كان على طهاره بناء على مفهوم الشرط فيتأيد به من الروايات ما يدل على عدم وجوب التطهر لمن كان على طهاره.

و فى قوله تعالى:« أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ» من الأدب البارع ما لا يخفى للمتدبر حيث كنى عن المراد بالمجىء من الغائط،و الغائط هو المكان المنخفض من الأرض و كانوا يقصدونه لقضاء الحاجه ليتستروا به من الناس تأدبا،و استعمال الغائط فى معناه المعروف اليوم استعمال مستحدث من قبيل الكنايات المبتذله كما أن لفظ العذره كذلك، و الأصل فى معناها عتبه الباب سميت بها لأنهم كانوا يخلون ما اجتمع فى كنيف البيت فيها على ما ذكره الجوهرى فى الصحاح،.

و لم يقل:أو جئتم من الغائط لما فيه من تعيين المنسوب إليه،و كذا لم يقل:أو جاء أحدكم من الغائط لما فيه من الإضافه التى فيها شوب التعيين بل بالغ فى الإبهام فقال:

«أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ»

رعايه لجانب الأدب.

و رابعا:أن قوله: «أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ» كسابقه شق من الشقوق المفروضه مستقل و حكمه فى العطف و المعنى حكم سابقه،و هو كنايه عن الجماع أدبا صونا للسان من التصريح بما تأبى الطباع عن التصريح به.

فإن قلت:لو كان كذلك كان التعبير بمثل ما عبر به عنه سابقا بقوله:« وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً» أولى لكونه أبلغ فى رعايه الأدب.

قلت:نعم لكنه كان يفوت نكته مرعيه فى الكلام،و هى الدلاله على كون الأمر مما يقتضيه الطبيعه كما تقدم بيانه،و التعبير بالجنابه فاقد للإشعار بهذه النكته.

و ظهر أيضا فساد ما نسب إلى بعضهم:أن المراد بملامسه النساء هو الملامسه حقيقه بنحو التصريح من غير أن تكون كنايه عن الجماع.وجه فساده أن سياق الآيه لا يلائمه، و إنما يلائم الكنايه فإن الله سبحانه ابتدأ فى كلامه ببيان حكم الحدث الأصغر بالوضوء و حكم الجنابه بالغسل فى الحال العادى،و هو حال وجدان الماء،ثم انتقل الكلام إلى بيان الحكم فى الحال غير العادى،و هو حال فقدان الماء فبين فيه حال بدل الوضوء و هو التيمم فكان الأحرى و الأنسب بالطبع أن يذكر حال بدل الغسل أيضا،و هو قرين الوضوء،و قد ذكر ما يمكن أن ينطبق عليه، و هو قوله:« أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ» على سبيل الكنايه،فالمراد به ذلك لا محاله،و لا وجه لتخصيص الكلام ببيان حكم بدل الوضوء و هو أحد القرينين،و إهمال حكم بدل القرين الآخر و هو الغسل رأسا.

و خامسا:يظهر بما تقدم فساد ما أورد على الآيه من الإشكالات:فمنها أن ذكر المرض و السفر مستدرك،فإنهما أنما يوجبان التيمم بانضمام أحد الشقين الأخيرين و هو الحدث و الملامسه،مع أنهما يوجبانه و لو لم يكن معهما مرض أو سفر فذكر الأخيرين يغنى عن ذكر الأولين.و الجواب أن ذكر الشقين الأخيرين ليس لغرض انضمامهما إلى أحد الأولين بل كل من الأربعه شق مستقل مذكور لغرض خاص به يفوت بحذفه من الكلام على ما تقدم بيانه.

و منها:أن الشق الثانى و هو قوله:« أَوْ عَلى سَفَرٍ» مستدرك و ذلك بمثل ما وجه به الإشكال السابق غير أن المرض لما كان عذره الموجب للانتقال إلى البدل هو عدم التمكن من استعمال الماء الموجود لا عدم وجدان الماء كان من اللازم أن يقدر له ذلك فى الكلام،و لا يغنى عن ذكره ذكر الشقين الأخيرين مع عدم وجدان الماء،و نتيجه هذا الوجه كون السفر مستدركا فقط.و الجواب أن عدم الوجدان فى الآيه كنايه عن عدم التمكن من استعمال الماء أعم من صوره وجدانه أو فقدانه كما تقدم.

و منها:أن قوله:« فَلَمْ تَجِدُوا ماءً» يغنى عن ذكر جميع الشقوق،و لو قيل مكان قوله:« وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى» (إلخ):«و إن لم تجدوا ماء»لكان أوجز و أبين،و الجواب:

أن فيه إضاعه لما تقدم من النكات.

و منها:أن لو قيل:و إن لم تقدروا على الماء أو ما يفيد معناه كان أولى،لشموله

عذر المرض مضافا إلى عذر غيره.و الجواب:أنه أفيد بالكنايه،و هى أبلغ.

قوله تعالى:« فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ» التيمم هو القصد،و الصعيد هو وجه الأرض،و توصيفه بالطيب-و الطيب فى الشىء كونه على حال يقتضيه طبعه-للإشاره إلى اشتراط كونه على حاله الأصلى كالتراب و الأحجار العاديه دون ما خرج من الأرضيه بطبخ أو نضج أو غير ذلك من عوامل التغيير كالجص و النوره و الخزف و المواد المعدنيه،قال تعالى: «وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاّ نَكِداً» :(الأعراف:۵۸)و من ذلك يستفاد الشروط التى أخذت السنه فى الصعيد الذى يتيمم به.

و ربما يقال:إن المراد بالطيب الطهاره،فيدل على اشتراط الطهاره فى الصعيد.

و قوله:« فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ» ينطبق ما ذكره فى التيمم للمسح على ما ذكره فى الوضوء للغسل،فالتيمم فى الحقيقه وضوء أسقطت فيه المسحتان:مسح الرأس و مسح الرجلين،و أبدلت فيه الغسلتان:غسله الوجه و اليدين إلى المرفقين بالمسحتين، و أبدل الماء بالتراب تخفيفا.

و هذا يشعر بأن العضوين فى التيمم هما العضوان فى الوضوء،و لما عبر تعالى بالمسح المتعدى بالباء دل ذلك على أن المعتبر فى التيمم هو مسح بعض عضوى الغسل فى الوضوء أعنى بعض الوجه،و بعض اليد إلى المرفق،و ينطبق على ما ورد من طرق أئمه أهل البيت(ع)من تحديد الممسوح من الوجه بما بين الجبينين و الممسوح من اليد بما دون الزند منها.

و بذلك يظهر فساد ما ذكره بعضهم من تحديد اليد بما دون الإبطين.و ما ذكره آخرون أن المعتبر من اليد فى التيمم عين ما اعتبر فى الوضوء و هو ما دون المرفق،و ذلك أنه لا يلائم المسح المتعدى بالباء الدال على مرور الماسح ببعض الممسوح.

و«من»فى قوله:« مِنْهُ» كأنها ابتدائيه و المراد أن يكون المسح بالوجه و اليدين مبتدأ من الصعيد،و قد بينته السنه بأنه بضرب اليدين على الصعيد و مسحهما بالوجه و اليدين.

و يظهر من بعضهم:أن«من»هاهنا تبعيضيه فتفيد أن يكون فى اليدين بعد الضرب

بقيه من الصعيد كغبار و نحوه بمسح الوجه و اليدين و استنتج منه وجوب كون الصعيد المضروب عليه مشتملا على شيء من الغبار يمسح منه بالوجه و اليدين فلا يصح التيمم على حجر أملس لم يتعلق به غبار،و الظاهر ما قدمناه-و الله أعلم-و ما استنتجه من الحكم لا يختص بما احتمله.

قوله تعالى :«مٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ» دخول «مِنَ» على مفعول «مٰا يُرِيدُ» لتأكيد النفى،فلا حكم يراد به الحرج بين الأحكام الدينيه أصلا،و لذلك علق النفى على إراده الجعل دون نفس الحرج.

و الحرج حرجان:حرج يعرض ملاك الحكم و مصلحته المطلوبه،و يصدر الحكم حينئذ حرجيا بذاته لتبعيه ملاكه كما لو حرم الالتذاذ من الغذاء لغرض حصول ملكه الزهد،فالحكم حرجى من رأس،و حرج بعرض الحكم من خارج عن أسباب اتفاقيه فيكون بعض أفراده حرجيا و يسقط الحكم حينئذ فى تلك الأفراد الحرجيه لا فى غيرها مما لا حرج فيه،كمن يتحرج عن القيام فى الصلاه لمرض يضره معه ذلك،و يسقط حينئذ وجوب القيام عنه لا عن غيره ممن يستطيعه.

و إضرابه تعالى بقوله:« وَ لٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ»، عن قوله:« مٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ» يدل على أن المراد بالآيه نفى الحرج الذى فى الملاك أى أن الأحكام التى يجعلها عليكم ليست بحرجيه شرعت لغرض الحرج،و ذلك لأن معنى الكلام أن مرادنا بهذه الأحكام المجعوله تطهيركم و إتمام النعمه و هو الملاك،لا أن نشق عليكم و نحرجكم،و لذلك لما وجدنا الوضوء و الغسل حرجيين عليكم عند فقدان الماء انتقلنا من إيجاب الوضوء و الغسل إلى إيجاب التيمم الذى هو فى وسعكم،و لم يبطل حكم الطهاره من رأس لإراده تطهيركم و إتمام النعمه عليكم لعلكم تشكرون.

قوله تعالى:« وَ لٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» لازم ما تقدم من معنى نفى إراده الحرج أن يكون المراد بقوله :«يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ» أن تشريع الوضوء و الغسل و التيمم إنما هو حصول الطهاره فيكم لكونها أسبابا لذلك،و هذه الطهاره أيا ما كانت ليست بطهاره عن الخبث بل هى طهاره معنويه حاصله بأحد هذه الأعمال الثلاثه،و هى التى تشترط بها الصلاه فى الحقيقه.

و من الممكن أن يستفاد من ذلك عدم وجوب الإتيان بعمل الطهاره عند القيام إلى كل صلاه إذا كان المصلى على طهاره غير منقوضه،و لا ينافى ذلك ظهور صدر الآيه فى الإطلاق لأن التشريع أعم مما يكون على سبيل الوجوب.

و أما قوله. «وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ»، فقد مر معنى النعمه و إتمامها فى الكلام على قوله تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» :(المائده:۳)و معنى الشكر فى الكلام على قوله تعالى :وَ سَيَجْزِى اللّهُ الشّاكِرِينَ :(آل عمران:۱۴۴)فى الجزء الرابع من الكتاب.

فالمراد بالنعمه فى الآيه هو الدين لا من حيث أجزائه من المعارف و الأحكام،بل من حيث كونه إسلام الوجه لله فى جميع الشئون،و هو ولايه الله على العباد بما يحكم فيهم، و إنما يتم ذلك باستيفاء التشريع جميع الأحكام الدينيه التى منها حكم الطهارات الثلاث.

و من هنا يظهر أن بين الغايتين أعنى قوله:« لِيُطَهِّرَكُمْ» و قوله:« لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ» فرقا، و هو أن الطهاره غايه لتشريع الطهارات الثلاث بخلاف إتمام النعمه،فإنه غايه لتشريع جميع الأحكام،و ليس للطهارات الثلاث منها إلا سهمها،فالغايتان خاصه و عامه.

و على هذا فالمعنى:و لكن نريد بجعل الطهارات الثلاث حصول الطهاره بها خاصه لكم،و لأنها بعض الدين الذى يتم بتشريع جميعها نعمه الله عليكم لعلكم تشكرون الله على نعمته فيخلصكم لنفسه،فافهم ذلك.

قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا نِعْمَهَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَ مِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا، هذا هو الميثاق الذى كان مأخوذا منهم على الإسلام كما تشهد به تذكرته لهم بقوله:« إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا» فإنه السمع المطلق،و الطاعه المطلقه،و هو الإسلام لله فالمعنى بالنعمه فى قوله:« وَ اذْكُرُوا نِعْمَهَ اللّهِ عَلَيْكُمْ» هو المواهب الجميله التى وهبهم الله سبحانه إياها فى شعاع الإسلام،و هو التفاضل الذى بين حالهم فى جاهليتهم و حالهم فى إسلامهم من الأمن و العافيه و الثروه و صفاء القلوب و طهاره الأعمال كما قال تعالى:« وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَ كُنْتُمْ عَلى شَفَا حُفْرَهٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا» :(آل عمران:۱۰۳).

أو أن الإسلام بحقيقته هو المراد بالنعمه،فإنه أم النعم ترتضع منها كل نعمه كما

تقدم بيانه،و غير مخفى عليك أن المراد بكون النعمه هى الإسلام بحقيقته أو الولايه أنما هو تعيين المصداق دون تشخيص مفهوم اللفظ،فإن المفهوم هو الذى يشخصه اللغه، و لا كلام لنا فيه.

ثم ذكرهم نفسه و أنه عالم بخفايا زوايا القلوب،فأمرهم بالتقوى بقوله:« وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ».

.

(بحث روائى)

فى التهذيب،مسندا عن الصادق(ع): فى قوله تعالى:« إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاهِ» -قال:

إذا قمتم من النوم-قال الراوى:-و هو ابن بكير-قلت:ينقض النوم الوضوء فقال:

نعم إذا كان يغلب على السمع و لا يسمع الصوت.

أقول:و هذا المعنى مروى فى غيره من الروايات،و رواه السيوطى فى الدر المنثور، عن زيد بن أسلم و النحاس:و هذا لا ينافى ما قدمنا أن المراد بالقيام إلى الصلاه إرادتها، لأن ما ذكرناه هو معنى القيام من حيث تعديه بإلى،و ما فى الروايه معناه من حيث تعديه بمن.

و فى الكافى،بإسناده عن زراره قال: قلت لأبى جعفر(ع): من أين علمت و قلت:

إن المسح ببعض الرأس و بعض الرجلين؟فضحك ثم قال؟يا زراره قال رسول الله ص، و نزل به الكتاب من الله،لأن الله عز و جل يقول:« فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» فعرفنا أن الوجه كله ينبغى أن يغسل ثم قال:« وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ» -فوصل اليدين إلى المرفقين بالوجه فعرفنا أنه ينبغى لهما أن تغسلا إلى المرفقين،ثم فصل بين الكلام فقال:« وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ» فعرفنا حين قال: «بِرُؤُسِكُمْ» أن المسح ببعض الرأس لمكان الباء،ثم وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه فقال:« وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ» فعرفنا حين وصلهما بالرأس أن المسح على بعضهما،ثم فسر ذلك رسول الله ص للناس فضيعوه ثم قال: «فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً-فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ» -فلما وضع الوضوء إن لم يجدوا ماء أثبت بعض الغسل مسحا-لأنه قال:« بِوُجُوهِكُمْ» ثم وصل بها «وَ أَيْدِيَكُمْ» -ثم قال:« مِنْهُ» أى من ذلك التيمم،لأنه علم أن ذلك أجمع لم يجر على

الوجه-لأنه يعلق من ذلك الصعيد ببعض الكف و لا يعلق ببعضها،ثم قال الله:« مٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ» -و الحرج الضيق .

أقول:قوله:«ثم قال:فإن لم تجدوا ماء»،نقل الآيه بالمعنى.

و فيه،بإسناده عن زراره و بكير: أنهما سألا أبا جعفر(ع)عن وضوء رسول الله ص-فدعا بطست-أو تور-فيه ماء فغمس يده اليمنى-فغرف بها غرفه فصبها على وجهه فغسل بها وجهه،ثم غمس يده اليسرى فغرف بها غرفه-فأفرغ على ذراعه اليمنى-فغسل بها ذراعه من المرافق إلى الكف-لا يردها إلى المرافق،ثم غمس كفه اليمنى-فأفرغ بها على ذراعه اليسرى من المرفق،و صنع بها ما صنع باليمنى،ثم مسح رأسه و قدميه ببلل كفه لا يحدث لهما ماء جديدا،ثم قال:و لا يدخل أصابعه تحت الشراك.ثم قال:إن الله عز و جل يقول: «إِذٰا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ» -فليس له أن يدع شيئا من وجهه إلا غسله،و أمر أن يغسل اليدين إلى المرفقين،فليس له أن يدع من يديه إلى المرفقين شيئا إلا غسله-لأن الله يقول:« فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ-وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرٰافِقِ»، -ثم قال:

«وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ»

-فإذا مسح بشيء من رأسه-أو بشيء من قدميه ما بين الكعبين إلى أطراف الأصابع-فقد أجزأه.قال:فقلنا:أين الكعبان؟ قال:هنا يعنى المفصل دون عظم الساق،فقلنا:هذا ما هو؟فقال:هذا من عظم الساق، و الكعب أسفل من ذلك،فقلنا:أصلحك الله و الغرفه الواحده تجزى للوجه-و غرفه للذراع؟قال:نعم إذا بالغت فيها،و اثنتان تأتيان على ذلك كله.

أقول:و الروايه من المشهورات،و رواها العياشى عن بكير و زراره عن أبى جعفر (ع)،و عن عبد الله بن سليمان عن أبى جعفر(ع)مثله،و فى معناها و معنى الروايه السابقه روايات أخر.

فى تفسير البرهان،العياشى عن زراره بن أعين،و أبو حنيفه عن أبى بكر بن حزم قال: توضأ رجل فمسح على خفيه فدخل المسجد فصلى-فجاء على(ع)فوطأ على رقبته فقال:ويلك تصلى على غير وضوء؟فقال:أمرنى عمر بن الخطاب-قال:فأخذ بيده فانتهى به إليه،فقال:انظر ما يروى هذا عليك،و رفع صوته،فقال:نعم أنا أمرته أن رسول الله مسح،قال:قبل المائده أو بعدها؟قال:لا أدرى،قال:فلم تفتى و أنت

لا تدری؟سبق الکتاب الخفین.

أقول:و قد شاع علی عهد عمر الخلاف فی المسح علی الخفین و قول علی(ع)بکونه منسوخا بآیه المائده علی ما یظهر من الروایات،و لذلک روی عن بعضهم کالبراء و بلال و جریر بن عبد الله أنهم رووا عن النبی ص المسح علی الخفین بعد نزول المائده و لا یخلو من شیء فکأنه ظن أن النسخ إنما ادعی بأمر غیر مستند إلی الآیه،و لیس کذلک فإن الآیه إنما تثبت المسح علی القدمین إلی الکعبین و لیس الخف بقدم البته،و هذا معنی الروایه التالیه.

و فی تفسیر العیاشی،عن محمد بن أحمد الخراسانی-رفع الحدیث-قال: أتی أمیر المؤمنین(ع)رجل فسأله عن المسح علی الخفین-فأطرق فی الأرض ملیا ثم رفع رأسه فقال:إن الله تبارک و تعالی أمر عباده بالطهاره،و قسمها علی الجوارح فجعل للوجه منه نصیبا،و جعل للرأس منه نصیبا،و جعل للرجلین منه نصیبا،و جعل للیدین منه نصیبا- فإن کانتا خفاک من هذه الأجزاء فامسح علیهما

و فیه،أیضا عن الحسن بن زید عن جعفر بن محمد: أن علیا خالف القوم فی المسح علی الخفین-علی عهد عمر بن الخطاب قالوا:رأینا النبی ص یمسح علی الخفین-قال:فقال علی (ع): قبل نزول المائده أو بعدها؟فقالوا:لا ندری،قال:و لکنی أدری أن النبی ص-ترک المسح علی الخفین حین نزلت المائده،و لأن أمسح علی ظهر حمار-أحب إلی من أن أمسح علی الخفین،و تلا هذه الآیه:«یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا- -إلی قوله- اَلْمَرافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِکُمْ وَ أَرْجُلَکُمْ إِلَی الْکَعْبَیْنِ».

و فی الدر المنثور،أخرج ابن جریر و النحاس فی ناسخه عن علی: أنه کان یتوضأ عند کل صلاه و یقرأ:«یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَی الصَّلاهِ» (الآیه).

أقول:و قد تقدم توضیحها.

و فی الکافی،بإسناده عن الحلبی عن أبی عبد الله(ع)قال: سألته عن قول الله عز و جل:« أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ» قال:هو الجماع-و لکن الله ستیر یحب الستر فلم یسم کما تسمون.

و فی تفسیر العیاشی،عن زراره قال: سألت أبا جعفر(ع)عن التیمم فقال:إن

عمار بن یاسر أتی النبی ص فقال:أجنبت و لیس معی ماء،فقال:کیف صنعت یا عمار؟قال:نزعت ثیابی ثم تمعکت علی الصعید فقال:هکذا یصنع الحمار إنما قال الله:

«فَامْسَحُوا بِوُجُوهِکُمْ وَ أَیْدِیکُمْ مِنْهُ»

-ثم وضع یدیه جمیعا علی الصعید-ثم مسحهما ثم مسح من بین عینیه إلی أسفل حاجبیه،ثم دلک إحدی یدیه بالأخری علی ظهر الکف، بدأ بالیمین.

و فیه،عن زراره عن أبی جعفر(ع)قال: فرض الله الغسل علی الوجه و الذراعین و المسح علی الرأس و القدمین-فلما جاء حال السفر و المرض و الضروره-وضع الله الغسل و أثبت الغسل مسحا فقال:« وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضی أَوْ عَلی سَفَرٍ-أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ- إلی قوله- وَ أَیْدِیکُمْ مِنْهُ».

و فیه،عن عبد الأعلی مولی آل سام قال: قلت لأبی عبد الله(ع)إنی عثرت فانقطع ظفری-فجعلت علی إصبعی مراره کیف أصنع بالوضوء؟قال:فقال(ع):یعرف هذا و أشباهه من کتاب الله تبارک و تعالی:« ما جَعَلَ عَلَیْکُمْ فِی الدِّینِ مِنْ حَرَجٍ» أقول:إشاره إلی آیه سوره الحج النافیه للحرج،و فی عدوله عن ذیل آیه الوضوء إلی ما فی آخر سوره الحج دلاله علی ما قدمناه من معنی نفی الحرج.و فیما نقلناه من الأخبار نکات جمه تتبین بما قدمناه فی بیان الآیات فلیتلق بمنزله الشرح للروایات.

[سوره المائده (۵): الآیات ۸ الی ۱۴]

اشاره

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا کُونُوا قَوّامِینَ لِلّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَ لا یَجْرِمَنَّکُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلی أَلاّ تَعْدِلُوا اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوی وَ اِتَّقُوا اَللّهَ إِنَّ اَللّهَ خَبِیرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۸) وَعَدَ اَللّهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَهٌ وَ أَجْرٌ عَظِیمٌ (۹) وَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا أُولئِکَ أَصْحابُ اَلْجَحِیمِ (۱۰) یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اُذْکُرُوا نِعْمَتَ اَللّهِ عَلَیْکُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ یَبْسُطُوا إِلَیْکُمْ أَیْدِیَهُمْ فَکَفَّ أَیْدِیَهُمْ عَنْکُمْ وَ اِتَّقُوا اَللّهَ وَ عَلَی اَللّهِ فَلْیَتَوَکَّلِ اَلْمُؤْمِنُونَ (۱۱) وَ لَقَدْ أَخَذَ اَللّهُ مِیثاقَ بَنِی إِسْرائِیلَ وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اِثْنَیْ عَشَرَ نَقِیباً وَ قالَ اَللّهُ إِنِّی مَعَکُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ اَلصَّلاهَ وَ آتَیْتُمُ اَلزَّکاهَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِی وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ وَ أَقْرَضْتُمُ اَللّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُکَفِّرَنَّ عَنْکُمْ سَیِّئاتِکُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّکُمْ جَنّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهارُ فَمَنْ کَفَرَ بَعْدَ ذلِکَ مِنْکُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ اَلسَّبِیلِ (۱۲) فَبِما نَقْضِهِمْ مِیثاقَهُمْ لَعَنّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِیَهً یُحَرِّفُونَ اَلْکَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمّا ذُکِّرُوا بِهِ وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلی خائِنَهٍ مِنْهُمْ إِلاّ قَلِیلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اِصْفَحْ إِنَّ اَللّهَ یُحِبُّ اَلْمُحْسِنِینَ (۱۳) وَ مِنَ اَلَّذِینَ قالُوا إِنّا نَصاری أَخَذْنا مِیثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمّا ذُکِّرُوا بِهِ فَأَغْرَیْنا بَیْنَهُمُ اَلْعَداوَهَ وَ اَلْبَغْضاءَ إِلی یَوْمِ اَلْقِیامَهِ وَ سَوْفَ یُنَبِّئُهُمُ اَللّهُ بِما کانُوا یَصْنَعُونَ (۱۴)

(بیان)

اتصال الآیات ظاهر لا غبار علیه،فإنها سلسله خطابات للمؤمنین فیما یهمهم من کلیات أمورهم فی آخرتهم و دنیاهم منفردین و مجتمعین.

قوله تعالی :«یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا کُونُوا قَوّامِینَ لِلّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَ لا یَجْرِمَنَّکُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلی أَلاّ تَعْدِلُوا» الآیه نظیره الآیه التی فی سوره النساء «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا کُونُوا قَوّامِینَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلّهِ وَ لَوْ عَلی أَنْفُسِکُمْ أَوِ الْوالِدَیْنِ وَ الْأَقْرَبِینَ إِنْ یَکُنْ غَنِیًّا أَوْ فَقِیراً فَاللّهُ أَوْلی بِهِما فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوی أَنْ تَعْدِلُوا وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللّهَ کانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیراً» :(النساء:۱۳۵).

و إنما الفرق بين الآيتين أن آيه النساء فى مقام النهى عن الانحراف عن العدل فى الشهاده لاتباع الهوى بأن يهوى الشاهد المشهود له لقرابه و نحوها،فيشهد له بما ينتفع به على خلاف الحق،و هذه الآيه-أعنى آيه المائده-فى مقام الردع عن الانحراف عن العدل فى الشهاده لشنآن و بغض من الشاهد للمشهود عليه،فيقيم الشهاده عليه يريد بها نوع انتقام منه و دحض لحقه.

و هذا الاختلاف فى غرض البيان هو الذى أوجب اختلاف القيود فى الآيتين:فقال فى آيه النساء:« كُونُوا قَوّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلّهِ» و فى آيه المائده:« كُونُوا قَوّامِينَ لِلّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ .

و ذلك أن الغرض فى آيه المائده لما كان هو الردع عن الظلم فى الشهاده لسابق عداوه من الشاهد للمشهود عليه قيد الشهاده بالقسط،فأمر بالعدل فى الشهاده و أن لا يشتمل على ظلم حتى على العدو بخلاف الشهاده لأحد بغير الحق لسابق حب و هوى،فإنها لا تعد ظلما فى الشهاده و انحرافا عن العدل و إن كانت فى الحقيقه لا تخلو عن ظلم و حيف،و لذلك أمر فى آيه المائده بالشهاده بالقسط،و فرعه على الأمر بالقيام لله،و أمر فى آيه النساء بالشهاده لله أى أن لا يتبع فيها الهوى،و فرعه على الأمر بالقيام بالقسط.

و لذلك أيضا فرع فى آيه المائده على الأمر بالشهاده بالقسط قوله:« اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ وَ اتَّقُوا اللّهَ» فدعا إلى العدل،و عده ذريعه إلى حصول التقوى،و عكس الأمر فى آيه النساء ففرع على الأمر بالشهاده لله قوله:« فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوىٰ أَنْ تَعْدِلُوا» فنهى عن اتباع الهوى و ترك التقوى،و عده وسيله سيئه إلى ترك العدل.

ثم حذر فى الآيتين جميعا فى ترك التقوى تحذيرا واحدا فقال فى آيه النساء:« وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً» أى إن لم تتقوا،و قال فى آيه المائده:

«وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ»

و أما معنى القوامين لله شهداء بالقسط(إلخ)فقد ظهر فى الكلام على الآيات السابقه.

قوله تعالى:« اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ»، الضمير راجع إلى العدل المدلول عليه بقوله:« اِعْدِلُوا» و المعنى ظاهر.

قوله تعالى:« وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَهٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ» الجمله الثانيه أعنى قوله:« لَهُمْ مَغْفِرَهٌ»، إنشاء للوعد الذى أخبر عنه بقوله:« وَعَدَ اللّهُ»،

و هذا كما قيل:آكد بيانا من قوله:« وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً» :(الفتح:۲۹)لا لما قيل:إنه لكونه خبرا،بعد خبر فإن ذلك خطأ، بل لكونه تصريحا بإنشاء الوعد من غير أن يدل عليه ضمنا كآيه سوره الفتح.

قوله تعالى:« وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ» قال الراغب:

الجحمه شده تأجج النار و منه الجحيم،و الآيه تشتمل على نفس الوعيد،و تقابل قوله تعالى فى الآيه السابقه:« لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ» .

و تقييد الكفر بتكذيب الآيات للاحتراز عن الكفر الذى لا يقارن تكذيب الآيات الداله،و لا ينتهى إلى إنكار الحق مع العلم بكونه حقا كما فى صوره الاستضعاف،فإن أمره إلى الله إن يشأ يغفره و إن يشأ يعذب عليه فهاتان الآيتان وعد جميل للذين آمنوا و عملوا الصالحات،و إيعاد شديد للذين كفروا و كذبوا بآيات الله،و بين المرحلتين مراحل متوسطه و منازل متخلله أبهم الله سبحانه أمرها و عقباها.

قوله تعالى:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا» (إلخ)هذا المضمون يقبل الانطباق على وقائع متعدده مختلفه وقعت بين الكفار و المسلمين كغزوات بدر و أحد و الأحزاب و غير ذلك،فالظاهر أن المراد به مطلق ما هم به المشركون من قتل المؤمنين و إمحاء أثر الإسلام و دين التوحيد.

و ما ذكره بعض المفسرين أن المراد به ما هم بعض المشركين من قتل النبى ص أو ما هم به بعض اليهود من الفتك به-و سيجىء قصتهما-فبعيد من ظاهر اللفظ كما لا يخفى.

قوله تعالى:« وَ اتَّقُوا اللّهَ وَ عَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» أمر بالتقوى و التوكل على الله،و المراد بالحقيقه النهى و التحذير الشديد عن ترك التقوى و ترك التوكل على الله سبحانه،و الدليل على ذلك ما سرده تعالى من قصه أخذ الميثاق من بنى إسرائيل و من الذين قالوا إنا نصارى،ثم نقض الطائفتين الميثاق الإلهى و ابتلاء الله إياهم باللعن و تقسيه القلوب،و نسيان حظ من دينهم،و إغراء العداوه و البغضاء بينهم إلى يوم القيامه.

و لم يذكر القصه إلا ليستشهد بها على المؤمنين،و يجعلها نصب أعينهم ليعتبروا بها و ينتبهوا بأن اليهود و النصارى إنما ابتلوا بما ابتلوا به لنسيانهم ميثاق الله سبحانه و لم يكن إلا ميثاقا بالإسلام لله،واثقوه بالسمع و الطاعه،و كان لازم ذلك أن يتقوا مخالفه ربهم

و أن يتوكلوا عليه فى أمور دينهم أى يتخذوه وكيلا فيها يختارون ما يختاره لهم،و يتركون ما يكرهه لهم،و طريقه طاعه رسلهم بالإيمان بهم،و ترك متابعه غير الله و رسله،ممن يدعو إلى نفسه و الخضوع لأمره من الجبابره و الطغاه و غيرهم حتى الأحبار و الرهبان فلا طاعه إلا لله أو من أمر بطاعته.

لكنهم نبذوه وراءهم ظهريا فأبعدوا من رحمه الله و حرفوا الكلم عن مواضعه و فسروها بغير ما أريد بها فأوجب ذلك أن نسوا حظا من الدين و لم يكن إلا حظا و سهما يرتحل بارتحاله عنهم كل خير و سعاده و أفسد ذلك ما بقى بأيديهم من الدين فإن الدين مجموع من معارف و أحكام مرتبط بعضها ببعض يفسد بعضه بفساد بعض آخر سيما الأركان و الأصول و ذلك كمن يصلى لكن لا لوجه الله،أو ينفق لا لمرضاه الله،أو يقاتل لا لإعلاء كلمه الحق.

فلا ما بقى فى أيديهم نفعهم،إذ كان محرفا فاسدا،و لا ما نسوه من الدين أمكنهم أن يستغنوا عنه،و لا غنى عن الدين و لا سيما أصوله و أركانه.

فمن هنا يعلم أن المقام يقتضى أن يحذر المؤمنون عن مخالفه التقوى و ترك التوكل على الله بذكر هذه القصه و دعوتهم إلى الاعتبار بها.

و من هنا يظهر أيضا:أن المراد بالتوكل ما يشمل الأمور التشريعيه و التكوينيه جميعا أو ما يختص بالتشريعيات بمعنى أن الله سبحانه يأمر المؤمنين بأن يطيعوا الله و رسوله فى أحكامه الدينيه و ما أتاهم به و بينه لهم رسوله و يكلوا أمر الدين و القوانين الإلهيه إلى ربهم،و يكفوا عن الاستقلال بأنفسهم،و التصرف فيما أودعه عندهم من شرائعه كما يأمرهم أن يطيعوه فيما سن لهم من سنه الأسباب و المسببات فيجروا على هذه السنه من غير اعتماد بها و إعطاء استقلال و ربوبيه لها،و ينتظروا ما يريده الله و يختاره لهم من النتائج بتدبيره و مشيئته.

قوله تعالى :«وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً» (الآيه) قال الراغب: النقب فى الحائط و الجلد كالثقب فى الخشب.قال:و النقيب الباحث عن القوم و عن أحوالهم،و جمعه نقباء.

و الله سبحانه يقص على المؤمنين من هذه الأمه ما جرى على بنى إسرائيل من إحكام دينهم و تثبيت أمرهم بأخذ الميثاق،و بعث النقباء،و إبلاغ البيان،و إتمام الحجه ثم ما

قابلوه به من نقض الميثاق،و ما قابلهم به الله سبحانه من اللعن و تقسيه القلوب(إلخ).

فقال:« وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ» و هو الذى يذكره كثيرا فى سوره البقره و غيرها:« وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيباً» و الظاهر أنهم رؤساء الأسباط الاثنى عشر، كانوا كالولاه عليهم يتولون أمورهم فنسبتهم إلى أسباطهم بوجه كنسبه أولى الأمر إلى الأفراد فى هذه الأمه لهم المرجعيه فى أمور الدين و الدنيا غير أنهم لا يتلقون وحيا،و لا يشرعون شريعه و إنما ذلك إلى الله و رسوله «وَ قالَ اللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ» إيذان بالحفظ و المراقبه فيتفرع عليه أن ينصرهم إن أطاعوه و يخذلهم إن عصوه و لذلك ذكر الأمرين جميعا فقال:« لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِى وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ» و التعزير هو النصره مع التعظيم، و المراد بالرسل ما سيستقبلهم ببعثته و دعوته كعيسى و محمد(ع)و سائر من بعثه الله بين موسى و محمد(ع) «وَ أَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً» و هو الإنفاق المندوب دون الزكاه الواجبه «لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ» فهذا ما يرجع إلى جميل الوعد. ثم قال:« فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ» .

قوله تعالى:« فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَهً»، ذكر تعالى جزاء الكفر بالميثاق المذكور ضلال سواء السبيل،و هو ذكر إجمالى يفصله ما فى هذه الآيه من أنواع النقم التى نسب الله سبحانه بعضها إلى نفسه كاللعن و تقسيه القلوب مما تستقيم فيه النسبه،و بعضها إلى أنفسهم مما وقع باختيارهم كالذى يعنى بقوله:« وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَهٍ مِنْهُمْ» فهذا كله جزاؤهم بما كفروا بآيات الله التى على رأسها الميثاق المأخوذ منهم، أو جزاء كفرهم بالميثاق خاصه فإن سواء السبيل الذى ضلوه هو سبيل السعاده التى بها عماره دنياهم و أخراهم.

فقوله:« فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ» الظاهر أنه هو الكفر الذى توعد الله عليه فى الآيه السابقه،و لفظه«ما»فى قوله:« فَبِما» للتأكيد،و يفيد الإبهام لغرض التعظيم أو التحقير أو غيرهما،و المعنى:فبنقض ما منهم لميثاقهم «لَعَنّاهُمْ» و اللعن هو الإبعاد من الرحمه «وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَهً» و قسوه القلب مأخوذ من قسوه الحجاره و هى صلابتها و القسى من القلوب ما لا يخشع لحق و لا يتأثر برحمه،قال تعالى :«أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ» :(الحديد:۱۶).

و بالجمله عقبت قسوه قلوبهم أنهم عادوا «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوٰاضِعِهِ» بتفسيرها بما لا يرضى به الله سبحانه و بإسقاط أو زياده أو تغيير،فكل ذلك من التحريف،و أفضاهم ذلك إلى أن فاتهم حقائق ناصعه من الدين« وَ نَسُوا حَظًّا مِمّٰا ذُكِّرُوا بِهِ» و لم يكن إلا حظا من الأصول التى تدور على مدارها السعاده،و لا يقوم مقامها إلا ما يسجل عليهم الشقوه اللازمه كقولهم بالتشبيه،و خاتميه نبوه موسى،و دوام شريعه التوراه،و بطلان النسخ و البداء إلى غير ذلك.

«وَ لاٰ تَزٰالُ تَطَّلِعُ عَلىٰ خٰائِنَهٍ مِنْهُمْ»

أى على طائفه خائنه منهم،أو على خيانه منهم «إِلاّٰ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» و قد تقدم مرارا أن استثناء القليل منهم لا ينافى ثبوت اللعن و العذاب للجماعه التى هى الشعب و الأمه (۱)قوله تعالى:« وَ مِنَ الَّذِينَ قٰالُوا إِنّٰا نَصٰارىٰ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمّٰا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنٰا» ، قال الراغب: غرى بكذا أى لهج به و لصق،و أصل ذلك من الغراء و هو ما يلصق به،و أغريت فلانا بكذا نحو ألهجت به.

و قد كان المسيح عيسى بن مريم نبى رحمه يدعو الناس إلى الصلح و السلم،و يندبهم إلى الإشراف على الآخره،و الإعراض عن ملاذ الدنيا و زخارفها،و ينهاهم عن التكالب لأجل هذا العرض الأدنى (۲)فلما نسوا حظا مما ذكروا به أثبت الله سبحانه فى قلوبهم مكان السلم و الصلح حربا،و بدل المؤاخاه و المواده التى ندبوا إليها معاداه و مباغضه كما يقول:

«فَنَسُوا حَظًّا مِمّٰا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنٰا بَيْنَهُمُ الْعَدٰاوَهَ وَ الْبَغْضٰاءَ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَهِ»

.و هذه العداوه و البغضاء اللتان ذكرهما الله تعالى صارتا من الملكات الراسخه المرتكزه بين هؤلاء الأمم المسيحيه و كالنار الآخره التى لا مناص لهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها و ذوقوا عذاب الحريق.

۱- ۱) و من عجيب القول ما فى بعض التفاسير أن المراد بالقليل عبد الله بن سلام و أصحابه مع أن عبد الله بن سلام كان قد أسلم قبل نزول السوره بمده،و ظاهر الآيه استثناء بعض اليهود الذين لم يكونوا قد أسلموا إلى حين نزول الآيه.

۲- ۲) راجع فى ذلك إلى بيانات المسيح ع فى مختلف مواقفه المنقوله عنه فى الأناجيل الأربعه.

و لم يزل منذ رفع عيسى بن مريم(ع)،و اختلف حواريوه و الدعاه السائحون من تلامذتهم فيما بينهم نشب الاختلاف فيما بينهم،و لم يزل ينمو و يكثر حتى تبدل إلى الحروب و المقاتلات و الغارات و أنواع الشرد و الطرد و غير ذلك حتى انتهى إلى حروب عالميه كبرى تهدد الأرض بالخراب و الإنسانيه بالفناء و الانقراض.

كل ذلك من تبدل النعمه نقمه و إنتاج السعى ضلالا «وَ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ .

[سوره المائده (۵): الآيات ۱۵ الى ۱۹]

اشاره

يا أَهْلَ اَلْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ اَلْكِتابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اَللّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ (۱۵) يَهْدِي بِهِ اَللّهُ مَنِ اِتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ اَلسَّلامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ اَلظُّلُماتِ إِلَى اَلنُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱۶) لَقَدْ كَفَرَ اَلَّذِينَ قالُوا إِنَّ اَللّهَ هُوَ اَلْمَسِيحُ اِبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اَللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ اَلْمَسِيحَ اِبْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي اَلْأَرْضِ جَمِيعاً وَ لِلّهِ مُلْكُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ اَللّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۷) وَ قالَتِ اَلْيَهُودُ وَ اَلنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اَللّهِ وَ أَحِبّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ لِلّهِ مُلْكُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ إِلَيْهِ اَلْمَصِيرُ (۱۸) يا أَهْلَ اَلْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَهٍ مِنَ اَلرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَ لا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ وَ اَللّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۹)

(بيان)

لما ذكر تعالى أخذه الميثاق من أهل الكتاب على نصره رسله و تعزيرهم و على حفظ ما آتاهم من الكتاب ثم نقضهم ميثاقه تعالى الذى واثقهم به دعاهم إلى الإيمان برسوله الذى أرسله و كتابه الذى أنزله،بلسان تعريفهما لهم و إقامه البينه على صدق الرساله و حقيه الكتاب،و إتمام الحجه عليهم فى ذلك:

أما التعريف فهو الذى يشتمل عليه قوله:« يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً» (إلخ)،و قوله:« يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ» (إلخ).

و أما إقامه البينه فما فى قوله:« يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ» (إلخ)فإن ذلك نعم الشاهد على صدق الرساله من أمى يخبر بما لا سبيل إليه إلا للأخصاء من علمائهم،و كذا قوله:« يَهْدِى بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ» (إلخ)فإن المطالب الحقه التى لا غبار على حقيتها هى نعم الشاهد على صدق الرساله و حقيه الكتاب.

و أما إتمام الحجه فما يتضمنه قوله :«أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَ لا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ وَ اللّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .و قد رد الله تعالى عليهم فى ضمن الآيات قول البعض:« إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» و قول اليهود و النصارى.« نَحْنُ أَبْناءُ اللّهِ وَ أَحِبّاؤُهُ».

قوله تعالى:« يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» أما بيانه كثيرا كانوا يخفون من الكتاب فكبيانه آيات النبوه و بشاراتها كما يشير إليه قوله تعالى:« اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ»: Xالآيه(الأعراف:۱۵۷)و قوله تعالى:« يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ» Xالآيه: (البقره:۱۴۶)و قوله:« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدّاءُ عَلَى الْكُفّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ -Xإلى قوله-X ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْراةِ وَ مَثَلُهُمْ فِى الْإِنْجِيلِ»

XالآیهX:الفتح:۲۹)و کبیانه(ص)حکم الرجل الذی کتموه و کابروا فیه الحق علی ما یشیر إلیه قوله تعالی فیما سیأتی: « لَا یَحْزُنْکَ الَّذِینَ یُسَارِعُونَ فِی الْکُفْرِ» XالآیاتX:(المائده:۴۱)و هذا الحکم أعنی حکم الرجم موجود الآن فی الإصحاح الثانی و العشرین من سفر التثنیه من التوراه الدائره بینهم.

و أما عفوه عن کثیر فهو ترکه کثیرا مما کانوا یخفونه من الکتاب،و یشهد بذلک الاختلاف الموجود فی الکتابین،کاشتمال التوراه علی أمور فی التوحید و النبوه لا یصح استنادها إلیه تعالی کالتجسم و الحلول فی المکان و نحو ذلک،و ما لا یجوز العقل نسبته إلی الأنبیاء الکرام من أنواع الکفر و الفجور و الزلات،و کفقدان التوراه ذکر المعاد من رأس و لا یقوم دین علی ساق إلا بمعاد،و کاشتمال ما عندهم من الأناجیل و لا سیما إنجیل یوحنا علی عقائد الوثنیه.

قوله تعالی:« قَدْ جاءَکُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ کِتابٌ مُبِینٌ» ظاهر قوله:« قَدْ جاءَکُمْ مِنَ اللَّهِ» کون هذا الجائی قائما به تعالی نحو قیام کقیام البیان أو الکلام بالمبین و المتکلم و هذا یؤید کون المراد بالنور هو القرآن،و علی هذا فیکون قوله:« وَ کِتابٌ مُبِینٌ» معطوفا علیه عطف تفسیر،و المراد بالنور و الکتاب المبین جمیعا القرآن،و قد سمی الله تعالی القرآن نورا فی موارد من کلامه کقوله تعالی:« وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ» :(الأعراف:

۱۵۷)و قوله:« فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِی أَنْزَلْنا» :(التغابن:۸)و قوله:

«وَ أَنْزَلْنا إِلَیْکُمْ نُوراً مُبِیناً» :(النساء:۱۷۴).

و من المحتمل أن یکون المراد بالنور النبی ص علی ما ربما أفاده صدر الکلام فی الآیه،و قد عده الله تعالی نورا فی قوله:« وَ سِراجاً مُنِیراً» :(الأحزاب:۴۶).

قوله تعالی:« یَهْدِی بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ» الباء فی قوله:« بِهِ» للآله و الضمیر عائد إلی الکتاب أو إلی النور سواء أرید به النبی ص أو القرآن فمآل الجمیع واحد فإن النبی ص أحد الأسباب الظاهریه فی مرحله الهدایه،و کذا القرآن و حقیقه الهدایه قائمه به قال تعالی:« إِنَّکَ لا تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لکِنَّ اللَّهَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ»:

(القصص:۵۶)،و قال:« وَ کَذلِکَ أَوْحَیْنا إِلَیْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتابُ وَ لَا الْإِیمانُ وَ لکِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِی بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّکَ لَتَهْدِی إِلی

صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ صِراطِ اللّهِ الَّذِی لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ أَلاٰ إِلَی اللّهِ تَصِیرُ الْأُمُورُ» (الشوری:۵۳)و الآیات کما تری تنسب الهدایه إلی القرآن و إلی الرسول ص فی عین أنها ترجعها إلی الله سبحانه فهو الهادی حقیقه و غیره سبب ظاهری مسخر لإحیاء أمر الهدایه.

و قد قید تعالی قوله:« یَهْدِی بِهِ اللّهُ» بقوله:« مَنِ اتَّبَعَ رِضْوٰانَهُ» و یئول إلی اشتراط فعلیه الهدایه الإلهیه باتباع رضوانه،فالمراد بالهدایه هو الإیصال إلی المطلوب، و هو أن یورده الله تعالی سبیلا من سبل السلام أو جمیع السبل أو أکثرها واحدا بعد آخر.

و قد أطلق تعالی السلام فهو السلامه و التخلص من کل شقاء یختل به أمر سعاده الحیاه فی دنیا أو آخره،فیوافق ما وصف القرآن الإسلام لله و الإیمان و التقوی بالفلاح و الفوز و الأمن و نحو ذلک،و قد تقدم فی الکلام علی قوله تعالی:« اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِیمَ» :(الحمد:۶)فی الجزء الأول من الکتاب أن لله سبحانه بحسب اختلاف حال السائرین من عباده سبلا کثیره تتحد الجمیع فی طریق واحد منسوب إلیه تعالی یسمیه فی کلامه بالصراط المستقیم قال تعالی:« وَ الَّذِینَ جٰاهَدُوا فِینٰا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنٰا وَ إِنَّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِینَ» :(العنکبوت:۶۹)،و قال تعالی:« وَ أَنَّ هٰذٰا صِراطِی مُسْتَقِیماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِکُمْ عَنْ سَبِیلِهِ» : (الأنعام:۱۵۳)فدل علی أن له سبلا کثیره لکن الجمیع تتحد فی الإیصال إلی کرامته تعالی من غیر أن تفرق سالکیها و یبین کل سبیل سالکیه عن سالکی غیره من السبل کما هو شأن غیر صراطه تعالی من السبل.

فمعنی الآیه-و الله العالم-:یهدی الله سبحانه و یورد بسبب کتابه أو بسبب نبیه من اتبع رضاه سبلا من شأنها أنه یسلم من سار فیها من شقاء الحیاه الدنیا و الآخره، و کل ما تتکدر به العیشه السعیده.

فأمر الهدایه إلی السلام و السعاده یدور مدار اتباع رضوان الله،و قد قال تعالی:

«وَ لاٰ یَرْضیٰ لِعِبٰادِهِ الْکُفْرَ» :(الزمر:۷)،و قال:« فَإِنَّ اللّهَ لاٰ یَرْضیٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفٰاسِقِینَ»:

(التوبه:۹۶)و یتوقف بالآخره علی اجتناب سبیل الظلم و الانخراط فی سلک الظالمین، و قد نفی الله سبحانه عنهم هدایته و آیسهم من نیل هذه الکرامه الإلهیه بقوله:« وَ اللّهُ

لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ» :(الجمعه:۵)فالآيه أعنى قوله:« يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ» تجرى بوجه مجرى قوله:« الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» :(الأنعام:۸۲).

قوله تعالى :«وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ» فى جمع الظلمات و إفراد النور إشاره إلى أن طريق الحق لا اختلاف فيه و لا تفرق و إن تعددت بحسب المقامات و المواقف بخلاف طريق الباطل.

و الإخراج من الظلمات إلى النور إذا نسب إلى غيره تعالى كنبى أو كتاب فمعنى إذنه تعالى فيه إجازته و رضاه كما قال تعالى:« كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» :(إبراهيم:۱)فقيد إخراجه إياهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ليخرج بذلك عن الاستقلال فى السببيه فإن السبب الحقيقى لذلك هو الله سبحانه و قال:« وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ» :(إبراهيم:۵) فلم يقيده بالإذن لاشتمال الأمر على معناه.

و إذا نسب ذلك إلى الله تعالى فمعنى إخراجهم بإذنه إخراجهم بعلمه و قد جاء الإذن بمعنى العلم يقال: أذن به أى علم به،و من هذا الباب قوله تعالى:« وَ أَذانٌ مِنَ اللّهِ وَ رَسُولِهِ» :(التوبه:۳) «فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ» :(الأنبياء:۱۰۹)،و قوله:« وَ أَذِّنْ فِي النّاسِ بِالْحَجِّ» :(الحج:۲۷)إلى غيرها من الآيات.

و أما قوله تعالى :«وَ يَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ، فقد أعيد فيه لفظ الهدايه لحيلوله قوله:« وَ يُخْرِجُهُمْ»، بين قوله «يَهْدِي بِهِ اللّهُ»، و بين هذه الجمله،و لأن الصراط المستقيم كما تقدم بيانه فى سوره الفاتحه طريق مهيمن على الطرق كلها فالهدايه إليه أيضا هدايه مهيمنه على سائر أقسام الهدايه التى تتعلق بالسبل الجزئيه.

و لا ينافى تنكير قوله:« صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» كون المراد به هو الصراط المستقيم الوحيد الذى نسبه الله تعالى فى كلامه إلى نفسه-إلا فى سوره الفاتحه-لأن قرينه المقام تدل على ذلك،و إنما التنكير لتعظيم شأنه و تفخيم أمره.

قوله تعالى:« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» هؤلاء إحدى الطوائف الثلاثه التى تقدم نقل أقوالهم فى سوره آل عمران،و هى القائله باتحاد الله سبحانه

بالمسيح فهو إله و بشر بعينه،و يمكن تطبيق الجمله أعنى قولهم :«إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» على القول بالبنوه و على القول بثالث ثلاثه أيضا غير أن ظاهر الجمله هو حصول العينيه بالاتحاد.

قوله تعالى:« قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ»وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» (الآيه)هذا برهان على إبطال قولهم:من جهه مناقضه بعضه بعضا لأنهم لما وضعوا أن المسيح مع كونه إلها بشر كما وصفوه بأنه ابن مريم جوزوا له ما يجوز على أى بشر مفروض من سكان هذه الأرض،و هم جميعا كسائر أجزاء السماوات و الأرض و ما بينهما مملوكون لله تعالى مسخرون تحت ملكه و سلطانه،فله تعالى أن يتصرف فيهم بما أراد،و أن يحكم لهم أو عليهم كيفما شاء،فله أن يهلك المسيح كما له أن يهلك أمه و من فى الأرض على حد سواء من غير مزيه للمسيح على غيره،و كيف يجوز الهلاك على الله سبحانه؟!فوضعهم أن المسيح بشر يبطل وضعهم أنه هو الله سبحانه للمناقضه.

فقوله:« فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً» كنايه عن نفى المانع مطلقا فملك شىء من الله هو السلطنه عليه تعالى فى بعض ما يرجع إليه،و لازمها انقطاع سلطنته عن ذلك الشىء، و هو أن يكون سبب من الأسباب يستقل فى التأثير فى شىء بحيث يمانع تأثيره تعالى أو يغلب عليه فيه،و لا ملك إلا لله وحده لا شريك له إلا ما ملك غيره تمليكا لا يبطل ملكه و سلطانه.

و قوله:« إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» إنما قيد المسيح بقوله :«ابْنُ مَرْيَمَ» للدلاله على كونه بشرا تاما واقعا تحت التأثير الربوبى كسائر البشر،و لذلك بعينه عطف عليه «أُمَّهُ» لكونها مسانخه له من دون ريب،و عطف عليه «مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» لكون الحكم فى الجميع على حد سواء.

و من هنا يظهر أن فى هذا التقييد و العطف تلويحا إلى برهان الإمكان،و محصله أن المسيح يماثل غيره من أفراد البشر كأمه و سائر من فى الأرض فيجوز عليه ما يجوز عليهم لأن حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز واحد،و يجوز على غيره أن يقع تحت حكم الهلاك فيجوز عليه ذلك و لا مانع هناك يمنع،و لو كان هو الله سبحانه لما جاز عليه ذلك.

و قوله:« وَ لِلّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما» فى مقام التعليل للجمله السابقه،

و التصريح بقوله:« وَ مٰا بَيْنَهُمٰا» مع أن القرآن كثيرا ما يعبر عن عالم الخلقه بالسماوات و الأرض فقط إنما هو ليكون الكلام أقرب من التصريح،و أسلم من ورود التوهمات و الشبهات فليس لمتوهم أن يتوهم أنه إنما ذكر السماوات و الأرض و لم يذكر ما بينهما، و مورد الكلام مما بينهما.

و تقديم الخبر أعنى قوله:« وَ لِلّٰهِ» للدلاله على الحصر،و بذلك يتم البيان،و المعنى:

كيف يمكن أن يمنع مانع من إرادته تعالى إهلاك المسيح و غيره و وقوع ما أراده من ذلك، و الملك و السلطنه المطلقه فى السماوات و الأرض و ما بينهما لله تعالى لا ملك لأحد سواه؟ فلا مانع من نفوذ حكمه و مضى أمره.

و قوله:« يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فى مقام التعليل للجمله السابقه عليه أعنى قوله:« وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا» فإن الملك -بضم الميم-و هو نوع سلطنه و مالكيه على سلطنه الناس و ما يملكونه إنما يتقوم بشمول القدره و نفوذ المشيئه، و لله سبحانه ذلك فى جميع السماوات و الأرض و ما بينهما،فله القدره على كل شىء و هو يخلق ما يشاء من الأشياء فله الملك المطلق فى السماوات و الأرض و ما بينهما فخلقه ما يشاء و قدرته على كل شىء هو البرهان على ملكه كما أن ملكه هو البرهان على أن له أن يريد إهلاك الجميع ثم يمضى إرادته لو أراد،و هو البرهان على أنه لا يشاركه أحد منهم فى ألوهيته.

و أما البرهان على نفوذ مشيته و شمول قدرته فهو أنه الله عز اسمه،و لعله لذلك كرر لفظ الجلاله فى الآيه مرات فقد آل فرض الألوهيه فى شىء إلى أنه لا شريك له فى ألوهيته.

قوله تعالى:« وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصٰارىٰ نَحْنُ أَبْنٰاءُ اللّٰهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ» لا ريب أنهم لم يكونوا يدعون النبوه الحقيقيه كما يدعيه معظم النصارى للمسيح(ع)فلا اليهود كانت تدعى ذلك حقيقه و لا النصارى،و إنما كانوا يطلقونها على أنفسهم إطلاقا تشريفيا بنوع من التجوز،و قد ورد فى كتبهم المقدسه هذا الإطلاق كثيرا كما فى حق آدم (۱)و يعقوب (۲)و داود (۳)

۱- ۱) آيه ۳۸ من الإصحاح الثالث من إنجيل لوقا.

۲- ۲) آيه ۲۲ من الإصحاح الرابع من سفر الخروج من التوراه.

۳- ۳) آيه ۷ من المزمور ۲ من مزامير داود.

و إقرام (۱)و عیسی (۲)و أطلق (۳)أیضا علی صلحاء المؤمنین.

و کیف کان فإنما أرید بالأبناء أنهم من الله سبحانه بمنزله الأبناء من الأب،فهم بمنزله أبناء الملک بالنسبه إلیه المنحازین عن الرعیه المخصوصین بخصیصه القرب المقتضیه أن لا یعامل معهم معامله الرعیه کأنهم مستثنون عن إجراء القوانین و الأحکام المجراه بین الناس لأن تعلقهم بعرش الملک لا یلائم مجازاتهم بما یجازی به غیرهم و لا إیقافهم موقفا توقف فیه سائر الرعیه،فلا یستهان بهم کما یستهان بغیرهم فکل ذلک لما تتعقبه علقه النسب من علقه الحب و الکرامه.

فالمراد بهذه النبوه الاختصاص و التقرب،و یکون عطف قوله:« وَ أَحِبَّاؤُهُ» علی قوله:« أَبْنَاءُ اللَّهِ» کعطف التفسیر و لیس به حقیقه،و غرضهم من دعوی هذا الاختصاص و المحبوبیه إثبات لازمه و هو أنه لا سبیل إلی تعذیبهم و عقوبتهم فلن یصیروا إلا إلی النعمه و الکرامه لأن تعذیبه تعالی إیاهم یناقض ما خصهم به من المزیه،و حباهم به من الکرامه.

و الدلیل علیه ما ورد فی الرد علیهم من قوله تعالی:« یَغْفِرُ لِمَنْ یَشَاءُ وَ یُعَذِّبُ مَنْ یَشَاءُ»، إذ لو لا أنهم کانوا یریدون بقولهم:« نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ» أنه لا سبیل إلی عذابهم و إن لم یستجیبوا الدعوه الحقه لم یکن وجه لذکر هذه الجمله:« یَغْفِرُ»، ردا علیهم و لا لقوله:« بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ» موقع حسن مناسب فمعنی قولهم:« نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ» أنا خاصه الله و محبوبوه لا سبیل له تعالی إلی تعذیبنا و إن فعلنا، ما فعلنا و ترکنا ما ترکنا لأن انتفاء السبیل و وقوع الأمن التام من کل مکروه و محذور هو لازم معنی الاختصاص و الحب.

قوله تعالی:« قُلْ فَلِمَ یُعَذِّبُکُمْ بِذُنُوبِکُمْ» أمر نبیه بالاحتجاج علیهم و رد دعواهم بالحجه،و تلک حجتان:إحداهما:النقض علیهم بالتعذیب الواقع علیهم،و ثانیتهما:

معارضتهم بحجه تنتج نقیض دعواهم.

و محصل الحجه الأولی التی یشتمل علیها قوله:« فَلِمَ یُعَذِّبُکُمْ بِذُنُوبِکُمْ» أنه لو

۱- ۱) آیه ۹ من الإصحاح ۳۱ من نبوه إرمیا.

۲- ۲) موارد کثیره من الأناجیل و ملحقاتها.

۳- ۳) آیه ۹ من الإصحاح ۵ إنجیل متی،و فی غیره من الأناجیل.

صحت دعواكم أنكم أبناء الله و أحباؤه مأمونون من التعذيب الإلهى لا سبيل إليه فيكم لكنتم مأمونين من كل عذاب أخروى أو دنيوى فما هذا العذاب الواقع عليكم المستمر فيكم بسبب ذنوبكم؟فأما اليهود فلم تزل تذنب ذنوبا كقتلهم أنبياءهم و الصالحين من شعبهم و تفجر بنقض المواثيق الإلهيه المأخوذه منهم،و تحريف الكلم عن مواضعه و كتمان آيات الله و الكفر بها و كل طغيان و اعتداء،و تذوق وبال أمرها نكالا عليها من مسخ بعضهم و ضرب الذله و المسكنه على آخرين،و تسلط الظالمين عليهم يقتلون أنفسهم و يهتكون أعراضهم و يخربون بلادهم،و ما لهم من العيش إلا عيشه الحرض الذى لا هو حى فيرجى و لا ميت فينسى.

و أما النصارى فلا فساد المعاصى و الذنوب الواقعه فى أممهم يقل مما كان من اليهود، و لا أنواع العذاب النازل عليهم قبل البعثه و فى زمانها و بعدها حتى اليوم،فهو ذا التاريخ يحفظ عليهم جميع ذلك أو أكثرها،و القرآن يقص من ذلك شيئا كثيرا كما فى سوره البقره و آل عمران و النساء و المائده و الأعراف و غيرها.

و ليس لهؤلاء أن يقول:هذه المصائب و البلايا و الفتن النازله بنا إنما هى من قبيل «البلاء للولاء»و لا دليل على كونها عن سخط إلهى يسحب نكالا و وبالا و قد نزل أمثالها على صالحى عباد الله من الأنبياء و الرسل كإبراهيم و إسماعيل و يعقوب و يوسف و زكريا و يحيى و غيرهم،و نزل عليكم معاشر المسلمين نظائرها كما فى غزوه أحد و مؤته و غيرهما، فما بال هذه المكاره إذا حلت بنا عدت أعذبه إلهيه و إذا حلت بكم عادت نعما و كرامات؟ و ذلك أنه لا ريب لأحد أن هذه المكاره الجسمانيه و المصائب و البلايا الدنيويه توجد عند المؤمنين كما توجد عند الكافرين،و تأخذ الصالحين و الطالحين معا،سنه الله التى قد خلت فى عباده إلا أنها تختلف عنوانا و أثرا باختلاف موقف الإنسان من الصلاح، و الطلاح مقام العبد من ربه.

فلا ريب أن من استقر الصلاح فى نفسه و تمكنت الفضيله الإنسانيه من جوهره كالأنبياء الكرام و من يتلوهم لا تؤثر المصائب و المحن الدنيويه النازله عليه إلا فعليه الفضائل الكامنه فى نفسه مما ينتفع به و بآثاره الحسنه هو و غيره فهذا النوع من المحن المشتمله على ما يستكرهه الطبع ليس إلا تربيه إلهيه و إن شئت فقل ترفيعا للدرجه.

و من لم يثبت على سعاده أو شقاوه و لم يركب طريق السعاده اللازمه بعد إذا نزلت به النوازل و دارت عليه الدوائر عقبت تعين طريقه و تميز موقفه من كفر أو إيمان،و صلاح أو طلاح،و لا ينبغى أن يسمى هذا النوع من البلايا و المحن إلا امتحانات و ابتلاءات إلهيه تخد للإنسان خده إلى الجنه أو إلى النار.

و من لم يعتمد فى حياته إلا على هوى النفس و لم يألف إلا الفساد و الإفساد و الانغمار فى لجج الشهوه و الغضب،و لم يزل يختار الرذيله على الفضيله،و الاستعلاء على الله على الخضوع للحق كما يقصه القرآن من عاقبه أمر الأمم الظالمه كقوم نوح و عاد و ثمود و قوم فرعون و أصحاب مدين و قوم لوط،إثر ما فرطوا فى جنب الله.فالنوائب المنصبه عليهم المبيده لجمعهم لا يستقيم إلا أن تعد تعذيبات إلهيه و نكالات و وبالات عليهم لا غير.

و قد جمع الله تعالى هذه المعانى فى قوله عز من قائل:« وَ تِلْكَ الْأَيّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَ اللّهُ لا يُحِبُّ الظّالِمِينَ وَ لِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكافِرِينَ» :(آل عمران:۱۴۱).

و تاريخ اليهود من لدن بعثه موسى(ع)إلى أن بعث الله محمدا ص-فيما يزيد على ألفى سنه-و كذا تاريخ النصارى من لدن رفع المسيح إلى ظهور الإسلام-فيما يقرب من سته قرون على ما يقال-مملوء من أنواع الذنوب التى أذنبوها،و جرائم ارتكبوها، و لم يبقوا منها باقيه ثم أصروا و استكبروا من غير ندم،فالنوائب الحاله بساحتهم لا تستحق إلا اسم العذاب و النكال.

و أما أن المسلمين ابتلوا بأمثال ما ابتليت به هؤلاء الأمم فهذه الابتلاءات بالنظر إلى طبيعتها الكونيه ليست إلا حوادث ساقتها يد التدبير الإلهى سنه الله التى قد خلت من قبل و لن تجد لسنه الله تبديلا،و بالنظر إلى حال المسلمين المبتلين بها فيما كانوا على طريق الحق لم تكن إلا امتحانات إلهيه،و فيما انحرفوا عنه من قبيل النكال و العذاب،و ليس لأحد على الله كرامه،و لا لمتحكم عليه حق و لم يثبت القرآن لهم على ربهم كرامه،و لا عدهم أبناء الله و أحباءه،و لا اعتنى بما تسموا به من أسماء أو ألقاب.

قال تعالى مخاطبا لهم:« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّهَ وَ لَمّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصّابِرِينَ -Xإلى أن قال-X وَ ما مُحَمَّدٌ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ

مٰتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلىٰ أَعْقٰابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللّٰهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللّٰهُ الشّٰاكِرِينَ» :(آل عمران:۱۴۴)و قال تعالى:« لَيْسَ بِأَمٰانِيِّكُمْ وَ لاٰ أَمٰانِيِّ أَهْلِ الْكِتٰابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لاٰ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً» :(النساء:۱۲۳).

و فى الآيه أعنى قوله:« قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ» وجه آخر و هو أن يكون المراد بالعذاب الأخروى،و المضارع (يُعَذِّبُكُمْ) بمعنى الاستقبال دون الاستمرار كما فى الوجه السابق فإن أهل الكتاب معترفون بالعذاب بحذاء ذنوبهم فى الجمله:أما اليهود فقد نقل القرآن عنهم قولهم:« لَنْ تَمَسَّنَا النّٰارُ إِلاّٰ أَيّٰاماً مَعْدُودَهً» :(البقره:۸۰)و أما النصارى فإنهم و إن قالوا بالفداء لمغفره الذنوب لكنه إثبات فى نفسه للذنوب و العذاب الذى أصاب المسيح بالصلب و الأناجيل مع ذلك تثبت ذنوبا كالزنا و نحوه،و الكنيسه كانت تثبته عملا بما كانت تصدره من صكوك المغفره.هذا.لكن الوجه هو الأول.

قوله تعالى:« بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» حجه ثانيه مسوقه على نحو المعارضه محصلها:

أن النظر فى حقيقتكم يؤدى إلى بطلان دعواكم أنكم أبناء الله و أحباؤه،فإنكم بشر من جمله من خلقه الله من بشر أو غيره لا تمتازون عن سائر من خلقه الله منهم،و لا يزيد أحد من الخليقه من السماوات و الأرض و ما بينهما على أنه مخلوق لله الذى هو المليك الحاكم فيه و فى غيره بما شاء و كيفما شاء و سيصير إلى ربه المليك الحاكم فيه و فى غيره،و إذا كان كذلك كان لله سبحانه أن يغفر لمن شاء منهم،و يعذب من شاء منهم من غير أن تمانعه مزيه أو كرامه أو غير ذلك من أن يريد فى شىء ما يريده من مغفره أو عذاب أو يقطع سبيله قاطع أو يضرب دونه حجاب يحجبه عن نفوذ المشيئه و مضى الحكم.

فقوله:« بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ» بمنزله إحدى مقدمات الحجه،و قوله:« وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا» مقدمه أخرى و قوله:« وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» مقدمه ثالثه، و قوله:« يَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ» بمنزله نتيجه البيان التى تناقض دعواهم:أنه لا سبيل إلى تعذيبهم.

قوله تعالى:« يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ قَدْ جٰاءَكُمْ رَسُولُنٰا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلىٰ فَتْرَهٍ مِنَ الرُّسُلِ» قال الراغب: الفتور سكون بعد حده و لين بعد شده،و ضعف بعد قوه قال تعالى:

«يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ»

أى سكون خال عن مجىء رسول الله.

و الآيه خطاب ثان لأهل الكتاب متمم للخطاب السابق فإن الآيه الأولى بينت لهم أن الله أرسل إليهم رسولا أيده بكتاب مبين يهدى بإذن الله إلى كل خير و سعاده،و هذه الآيه تبين أن ذلك البيان الإلهى أنما هو لإتمام الحجه عليهم أن يقولوا:ما جاءنا من بشير و لا نذير.

و بهذا البيان يتأيد أن يكون متعلق الفعل (يُبَيِّنُ لَكُمْ) فى هذه الآيه هو الذى فى الآيه السابقه،و التقدير:يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب أى إن هذا الدين الذى تدعون إليه هو بعينه دينكم الذى كنتم تدينون به مصدقا لما معكم و الذى يرى فيه من موارد الاختلاف فإنما هو بيان لما أخفيتموه من معارف الدين التى بينته الكتب الإلهيه،و لازم هذا الوجه أن يكون قوله:«يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ من قبيل إعاده عين الخطاب السابق لضم بعض الكلام المفصول عن الخطاب السابق المتعلق به و هو قوله:« أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا» (إلخ)إليه و إنما جوز ذلك وقوع الفصل الطويل بين المتعلق و المتعلق به و هو شائع فى اللسان،قال:

قربا مربط النعامه منى

لقحت حرب وائل عن حيال

قربا مربط النعامه منى

إن بيع الكريم بالشسع غال

و يمكن أن يكون خطابا مستأنفا و الفعل (يُبَيِّنُ لَكُمْ) إنما حذف متعلقه.

للدلاله على العموم أى يبين لكم جميع ما يحتاج إلى البيان،أو لتفخيم أمره أى يبين لكم أمرا عظيما تحتاجون إلى بيانه،و قوله:« عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ» لا يخلو عن إشعار أو دلاله على هذه الحاجه فإن المعنى:يبين لكم ما مست حاجتكم إلى بيانه و الزمان خال من الرسل حتى يبينوا لكم ذلك.

و قوله:« أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَ لا نَذِيرٍ»، متعلق بقوله:« قَدْ جاءَكُمْ» بتقدير:حذر أن تقولوا،أو لئلا تقولوا.

و قوله :«وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» كأنه لدفع الدخل فإن اليهود كانت لا ترى

جواز تشريع شريعه بعد شريعه التوراه لذهابهم إلى امتناع النسخ و البداء فرد الله سبحانه مزعمتهم بأنها تنافى عموم القدره،و قد تقدم الكلام فى النسخ فى تفسير قوله تعالى:« مٰا نَنْسَخْ مِنْ آيَهٍ »XالآيهX:(البقره:۱۰۶)فى الجزء الأول من الكتاب.

(كلام فى طريق التفكر الذى يهدى إليه القرآن و هو بحث مختلط)

مما لا نرتاب فيه أن الحياه الإنسانيه حياه فكريه لا تتم له إلا بالإدراك الذى نسميه فكرا،و كان من لوازم ابتناء الحياه على الفكر أن الفكر كلما كان أصح و أتم كانت الحياه أقوم،فالحياه القيمه-بأيه سنه من السنن أخذ الإنسان،و فى أى طريق من الطرق المسلوكه و غير المسلوكه سلك الإنسان-ترتبط بالفكر القيم و تبتنى عليه،و بقدر حظها منه يكون حظها من الاستقامه.

و قد ذكر الله سبحانه فى كتابه العزيز بطرق مختلفه و أساليب متنوعه كقوله:

«أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّٰاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمٰاتِ لَيْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا» :(الأنعام:۱۲۲)،و قوله:« هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ»:

(الزمر:۹)،و قوله:« يَرْفَعِ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجٰاتٍ» :(المجادله:

۱۱)و قوله:« فَبَشِّرْ عِبٰادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدٰاهُمُ اللّٰهُ وَ أُولٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبٰابِ» : (الزمر:۱۸)إلى غير ذلك من الآيات الكثيره التى لا تحتاج إلى الإيراد.فأمر القرآن فى الدعوه إلى الفكر الصحيح و ترويج طريق العلم مما لا ريب فيه.

و القرآن الكريم مع ذلك يذكر أن ما يهدى إليه طريق من الطرق الفكريه،قال تعالى:« إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ» : (إسراء:۹)أى الملة أو السنه أو الطريقه التى هى أقوم،و على أى حال هى صراط حيوى كونه أقوم يتوقف على كون طريق الفكر فيه أقوم،و قال تعالى:« قَدْ جٰاءَكُمْ مِنَ اللّٰهِ نُورٌ وَ كِتٰابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللّٰهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوٰانَهُ سُبُلَ السَّلاٰمِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ» :(المائده:۱۶)و الصراط المستقيم هو الطريق البين الذى لا اختلاف فيه و لا تخلف أى لا يناقض الحق المطلوب،و لا يناقض بعض أجزائه بعضا.

و لم يعين فى الكتاب العزيز هذا الفكر الصحيح القيم الذى يندب إليه إلا- أنه أحال فيه إلى ما يعرفه الناس بحسب عقولهم الفطريه،و إدراكهم المركوز فى نفوسهم،و أنك لو تتبعت الكتاب الإلهى ثم تدبرت فى آياته وجدت ما لعله يزيد على ثلاثمائه آيه تتضمن دعوه الناس إلى التفكر أو التذكر أو التعقل،أو تلقن النبى ص الحجه لإثبات حق أو لإبطال باطل كقوله:« قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ» (الآيه)أو تحكى الحجه عن أنبيائه و أوليائه كنوح و إبراهيم و موسى و سائر الأنبياء العظام،و لقمان و مؤمن آل فرعون و غيرهما ع كقوله:« قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» :(إبراهيم:١٠)،و قوله:« وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» :(لقمان:١٣)،و قوله:« وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللّهُ وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ» Xالآيه: (غافر:٢٨)،و قوله حكايه عن سحره فرعون:« قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا» Xإلى آخر ما احتجوا بهX:(طه:٧٢).

و لم يأمر الله تعالى عباده فى كتابه و لا فى آيه واحده أن يؤمنوا به أو بشىء مما هو من عنده أو يسلكوا سبيلا على العمياء و هم لا- يشعرون،حتى أنه علل الشرائع و الأحكام التى جعلها لهم مما لا- سبيل للعقل إلا- تفاصيل ملاكاته بأمور تجرى مجرى الاحتجاجات كقوله:« إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ» :(العنكبوت:٤٥) و قوله:« كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» :(البقره:

١٨٣)،و قوله فى آيه الوضوء:« ما يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» : (المائده:٦)إلى غير ذلك من الآيات.

و هذا الإدراك العقلى أعنى طريق الفكر الصحيح الذى يحيل إليه القرآن الكريم و يبنى على تصديقه ما يدعو إليه من حق أو خير أو نفع،و يزجر عنه من باطل أو شر أو ضر أنما هو الذى نعرفه بالخلقه و الفطره مما يتغير و لا يتبدل و لا يتنازع فيه إنسان و إنسان،و لا- يختلف فيه اثنان،و إن فرض فيه اختلاف أو تنازع فإنما هو من قبيل المشاجره فى البديهيات ينتهى إلى عدم تصور أحد المتشاجرين أو كليهما حق المعنى المتشاجر فيه لعدم التفاهم الصحيح.

و أما أن هذا الطريق الذى نعرفه بحسب فطرتنا الإنسانيه ما هو؟فلئن شككنا فى شىء لسنا نشك أن هناك حقائق خارجيه واقعيه مستقله منفكه عن أعمالنا كمسائل المبدأ و المعاد،و مسائل أخرى رياضيه أو طبيعيه و نحو ما إذا أردنا أن نحصل عليها حصولا يقينيا استرحنا فى ذلك إلى قضايا أوليه بديهه غير قابله للشك،و أخرى تلزمها لزوما كذلك،و نرتبها ترتيبا فكريا خاصا نستنتج منها ما نطلبه كقولنا:أ.ب،و كل ب.ج،ف أ.ج،و كقولنا:لو كان أ.ب ف ج.د،و لو كان ج د ف ه.ز ينتج:لو كان أ ب،ف ه.ز و كقولنا:إن كان أ.ب فج.د و لو كان ج.د،ف ه.ز لكن أ.ليس ب،ينتج:ه ليس ز.

و هذه الأشكال التى ذكرناها و المواد الأوليه التى أشرنا إليها أمور بديهيه يمتنع أن يرتاب فيها إنسان ذو فطره سليمه إلا عن آفه عقليه أو لاختلاط فى الفهم مقتض لعدم تعقل هذه الأمور الضروريه بأخذ مفهوم تصورى أو تصديقى آخر مكان التصور أو التصديق البديهى،كما هو الغالب فيمن يتشكك فى البديهيات.

و نحن إذا راجعنا التشكيكات و الشبه التى أوردت على هذا الطريق المنطقى المذكور وجدنا أنهم يعتمدون فى استنتاج دعاويهم و مقاصدهم على مثل القوانين المدونه فى المنطق الراجعه إلى الهيئه و الماده بحيث لو حللنا كلامهم إلى المقدمات الابتدائيه المأخوذه فيه عاد إلى مواد و هيئات منطقيه،و لو غيرنا بعض تلك المقدمات أو الهيئات إلى ما يهتف المنطق بعدم إنتاجها عاد الكلام غير منتج،و رأيتهم لا يرضون بذلك،و هذا بعينه أوضح شاهد على أن هؤلاء معترفون بحسب فطرتهم الإنسانيه بصحه هذه الأصول المنطقيه مسلمون لها مستعملون إياها،جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم.

١-كقول بعض المتكلمين:«لو كان المنطق طريقا موصلا لم يقع الاختلاف بين أهل المنطق لكنا نجدهم مختلفين فى آرائهم»فقد استعمل القياس الاستثنائى من حيث لا يشعر، و قد غفل هذا القائل عن أن معنى كون المنطق آله الاعتصام أن استعماله كما هو حقه يعصم الإنسان من الخطإ،و أما أن كل مستعمل له فإنما يستعمله صحيحا فلا يدعيه أحد، و هذا كما أن السيف آله القطع لكن لا يقطع إلا عن استعمال صحيح.

٢-و قول بعضهم:«إن هذه القوانين دونت ثم كملت تدريجا فكيف يبتنى عليها ثبوت الحقائق الواقعيه؟و كيف يمكن إصابه الواقع لمن لم يعرفها أو لم يستعملها؟و هذا

کسابقه قیاس استثنائی و من أردإ المغالطه.و قد غلط القائل فی معنی التدوین،فإن معناه الکشف التفصیلی عن قواعد معلومه للإنسان بالفطره إجمالا لا إن معنی التدوین هو الإیجاد.

۳-و قول بعضهم:«إن هذه الأصول إنما روجت بین الناس لسد باب أهل البیت أو لصرف الناس عن اتباع الکتاب و السنه فیجب علی المسلمین اجتنابها» و هذا کلام منحل إلی أقیسه اقترانیه و استثنائیه.و لم یتفطن المستدل به أن تسویه طریق لغرض فاسد أو سلوکه لغایه غیر محموده لا ینافی استقامته فی نفسه کالسیف یقتل به المظلوم،و کالدین یستعمل لغیر مرضاه الله سبحانه.

۴-و قول بعضهم:«إن السلوک العقلی ربما انتهی بسالکه إلی ما یخالف صریح الکتاب و السنه کما نری من آراء کثیر من المتفلسفین»و هذا قیاس اقترانی مؤلف غولط فیه من جهه أن هذا المنهی لیس هو شکل القیاس و لا ماده بدیهیه بل ماده فاسده غریبه داخلت المواد الصحیحه.

۵-و قول بعضهم:«المنطق إنما یتکفل تمییز الشکل المنتج من الشکل الفاسد و أما المواد فلیس فیها قانون یعصم الإنسان من الخطإ فیها و لا یؤمن الوقوع فی الخطإ لو راجعنا غیر أهل العصمه،فالمتعین هو الرجوع إلیهم»و فیه مغالطه من جهه أنه سیق لبیان حجیه أخبار الآحاد أو مجموع الآحاد و الظواهر الظنیه من الکتاب،و من المعلوم أن الاعتصام بعصمه أهل العصمه(ع)إنما یحصل فیما أیقنا من کلامهم بصدوره و المراد منه معا یقینا صادقا،و أنی یحصل ذلک فی أخبار الآحاد التی هی ظنیه صدورا و دلاله؟و کذا فی کل ما دلالته ظنیه،و إذا کان المناط فی الاعتصام هو الماده الیقینیه فما الفرق بین الماده الیقینیه المأخوذه من کلامهم و الماده الیقینیه المأخوذه من المقدمات العقلیه؟و اعتبار الهیئه مع ذلک علی حاله.

و قولهم:«لا یحصل لنا الیقین بالمواد العقلیه بعد هذه الاشتباهات کلها»فیه:أولا أنه مکابره.و ثانیا:أن هذا الکلام بعینه مقدمه عقلیه یراد استعمالها یقینیه،و الکلام مشتمل علی الهیئه.

۶-و قول بعضهم:«إن جميع ما يحتاج إليه النفوس الإنسانيه مخزونه فى الكتاب العزيز،مودعه فى أخبار أهل العصمه(ع)فما الحاجه إلى أسآر الكفار و الملاحده؟».

و الجواب عنه أن الحاجه إليها عين الحاجه التى تشاهد فى هذا الكلام بعينه،فقد ألف تأليفا اقترانيا منطقيا،و استعملت فيه المواد اليقينيه لكن غولط فيه أولا-بأن تلك الأصول المنطقيه بعض ما هو مخزون مودع فى الكتاب و السنه،و لا طريق إليها إلا البحث المستقل.

و ثانيا:أن عدم حاجه الكتاب و السنه و استغناءهما عن ضميمه تنضم إليهما غير عدم حاجه المتمسك بهما و المتعاطى لهما،و فيه المغالطه،و ما مثل هؤلاء إلا كمثل الطبيب الباحث عن بدن الإنسان لو ادعى الاستغناء عن تعلم العلوم الطبيعيه و الاجتماعيه و الأدبيه،لأن الجميع متعلق بالإنسان.أو كمثل الإنسان الجاهل إذا استنكف عن تعلم العلوم معتذرا أن جميع العلوم مودعه فى الفطره الإنسانيه.

و ثالثا:أن الكتاب و السنه هما الداعيان إلى التوسع فى استعمال الطرق العقليه الصحيحه(و ليست إلا-المقدمات البديهيه أو المتكئه على البديهيه)قال تعالى:« فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ» :(الزمر:۱۸)إلى غير ذلك من الآيات و الأخبار الكثيره،نعم الكتاب و السنه ينهيان عن اتباع ما يخالفهما مخالفه صريحه قطعيه لأن الكتاب و السنه القطعيه من مصاديق ما دل صريح العقل على كونهما من الحق و الصدق،و من المحال أن يبرهن العقل ثانيا على بطلان ما برهن على حقيته أولا-و الحاجه إلى تمييز المقدمات العقليه الحقه من الباطله ثم التعلق بالمقدمات الحقه كالحاجه إلى تمييز الآيات و الأخبار المحكمه من المتشابهه ثم التعلق بالمحكمه منهما،و كالحاجه إلى تمييز الأخبار الصادره حقا من الأخبار الموضوعه و المدسوسه و هى أخبار جمه.

و رابعا:أن الحق حق أينما كان و كيفما أصيب و عن أى محل أخذ،و لا- يؤثر فيه إيمان حامله و كفره،و لا تقواه و فسقه،و الإعراض عن الحق بغضا لحامله ليس إلا- تعلقا بعصبيه الجاهليه التى ذمها الله سبحانه و ذم أهلها فى كتابه العزيز و بلسان رسله(ع).

۷-و قول بعضهم:«إن طریق الاحتیاط فی الدین المندوب إلیه فی الکتاب و السنه الاقتصار علی ظواهر الکتاب و السنه و الاجتناب عن تعاطی الأصول المنطقیه و العقلیه فإن فیه التعرض للهلاک الدائم و الشقوه التی لا سعاده بعدها أبدا».

و فیه أن هذا البیان بعینه قد تعوطی فیه الأصول المنطقیه و العقلیه فإنه مشتمل علی قیاس استثنائی أخذ فیه مقدمات عقلیه متبینه عند العقل و لو لم یکن کتاب و لا سنه.

علی أن البیان إنما یتم فیمن لا یفی استعداده بفهم الأمور الدقیقه العقلیه و أما المستعد الذی یطیق ذلک فلا دلیل من کتاب و لا سنه و لا عقل علی حرمانه من نیل حقائق المعارف التی لا کرامه للإنسان و لا شرافه إلا بها،و قد دل علی ذلک الکتاب و السنه و العقل جمیعا.

۸-و قول بعضهم-فیما ذکره-:«إن طریق السلف الصالح کان مباینا لطریق الفلسفه و العرفان و کانوا یستغنون بالکتاب و السنه عن استعمال الأصول المنطقیه و العقلیه کالفلاسفه،و عن استعمال طرق الریاضه کالعرفاء.

ثم لما نقلت فلسفه یونان فی عصر الخلفاء إلی العربیه رام المتکلمون من المسلمین و قد کانوا من تبعه القرآن إلی تطبیق المطالب الفلسفیه علی المعارف القرآنیه فتفرقوا بذلک إلی فرقتی الأشاعره و المعتزله،ثم نبغ آخرون فی زمان الخلفاء تسموا بالصوفیه و العرفاء کانوا یدعون کشف الأسرار و العلم بحقائق القرآن و کانوا یزعمون أنهم فی غنی عن الرجوع إلی أهل العصمه و الطهاره،و بذلک امتازت الفقهاء و الشیعه-و هم المتمسکون بذیلهم(ع) -عنهم،و لم یزل الأمر علی ذلک إلی ما یقرب من أواسط القرن الثالث عشر من الهجره(قبل مائه سنه تقریبا)و عند ذلک أخذ هؤلاء(یعنی الفلاسفه و العرفاء)فی التدلیس و التلبیس و تأویل مقاصد القرآن و الحدیث إلی ما یوافق المطالب الفلسفیه و العرفانیه حتی اشتبه الأمر علی الأکثرین.

و استنتج من ذلک أن هذه الأصول مخالفه للطریقه الحقه التی یهدی إلیها الکتاب و السنه.

ثم أورد بعض الإشکالات علی المنطق-مما أوردناه-کوجود الاختلاف بین المنطقیین أنفسهم،و وقوع الخطإ مع استعماله،و عدم وجود البدیهیات و الیقینیات بمقدار کاف فی المسائل الحقیقیه،ثم ذکر مسائل کثیره من الفلسفه و عدها جمیعا مناقضه لصریح ما یستفاد من الکتاب و السنه.

هذا محصل كلامه و قد لخصناه تلخيصا.

و ليت شعرى أى جهه من الجهات الموضوعه فى هذا الكلام على كثرتها تقبل الإصلاح و الترميم فقد استظهر الداء على الدواء.

أما ما ذكره من تاريخ المتكلمين و انحرافهم عن الأئمه(ع) و قصدهم إلى تطبيق الفلسفه على القرآن و انقسامهم بذلك إلى فرقتى الأشاعره و المعتزله و ظهور الصوفيه و زعمهم أنهم و متبعيهم فى غنى عن الكتاب و السنه و بقاء الأمر على هذا الحال و ظهور الفلسفه العرفانيه فى القرن الثالث عشر كل ذلك مما يدفعه التاريخ القطعى،و سيجىء إشاره إلى ذلك كله إجمالا.

على أن فيه خطأ فاحشا بين الكلام و الفلسفه فإن الفلسفه تبحث بحثا حقيقيا و يبرهن على مسائل مسلمه بمقدمات يقينيه و الكلام يبحث بحثا أعم من الحقيقى و الاعتبارى، و يستدل على مسائل موضوعه مسلمه بمقدمات هى أعم من اليقينيه و المسلمه،فبين الفنين أبعد مما بين السماء و الأرض،فكيف يتصور أن يروم أهل الكلام فى كلامهم تطبيق الفلسفه على القرآن؟على أن المتكلمين لم يزالوا منذ أول ناجم نجم منهم إلى يومنا هذا فى شقاق مع الفلاسفه و العرفاء،و الموجود من كتبهم و رسائلهم و المنقول من المشاجرات الواقعه بينهم أبلغ شاهد يشهد بذلك.

و لعل هذا الإسناد مأخوذ من كلام بعض المستشرقين القائل بأن نقل الفلسفه إلى الإسلام هو الذى أوجد علم الكلام بين المسلمين.هذا،و قد جهل هذا القائل معنى الكلام و الفلسفه و غرض الفنين و العلل الموجبه لظهور التكلم و رمى من غير مرمى.

و أعجب من ذلك كله أنه ذكر بعد ذلك:الفرق بين الكلام و الفلسفه بأن البحث الكلامى يروم إثبات مسائل المبدأ و المعاد مع مراعاه جانب الدين و البحث الفلسفى يروم ذلك من غير أن يعتنى بأمر الدين ثم جعل ذلك دليلا على كون السلوك من طريق الأصول المنطقيه و العقليه سلوكا مباينا لسلوك الدين مناقضا للطريق المشروع فيه هذا.فزاد فى الفساد،فكل ذى خبره يعلم أن كل من ذكر هذا الفرق بين الفنين أراد أن يشير إلى أن القياسات المأخوذه فى الأبحاث الكلاميه جدليه مركبه من مقدمات مسلمه: (المشهورات و المسلمات)لكون الاستدلال بها على مسائل مسلمه،و ما أخذ فى الأبحاث الفلسفيه منها

قياسات برهانيه يراد بها إثبات ما هو الحق لا- إثبات ما سلم ثبوتها تسليما،و هذا غير أن يقال.إن أحد الطريقين(طريق الكلام)طريق الدين و الآخر طريق مباين لطريق الدين لا يعتنى به و إن كان حقا.

و أما ما ذكره من الإشكال على المنطق و الفلسفه و العرفان فما اعترض به على المنطق قد تقدم الكلام فيه،و أما ما ذكره فى موضوع الفلسفه و العرفان فإن كان ما ذكره على ما ذكره و فهم منه ثم ناقض ما هو صريح الدين الحق فلا ريب لمرتاب فى أنه باطل و من هفوات الباحثين فى الفلسفه أو السالكين مسلك العرفان و أغلاطهم،لكن الشأن فى أن هفوات أهل فن و سقطاتهم و انحرافهم لا تحمل على عاتق الفن،و إنما يحمل على قصور الباحثين فى بحثهم.

و كان عليه أن يتأمل الاختلافات الناشئه بين المتكلمين:أشعريهم و معتزليهم و إماميهم فقد اقتسمت هذه الاختلافات الكلمه الواحده الإسلاميه فجعلتها بادئ بدء ثلاثه و سبعين فرقه ثم فرقت كل فرقه إلى فرق،و لعل فروع كل أصل لا ينقص عددا من أصولها.

فليت شعرى هل أوجد الاختلافات شيء غير سلوك طريق الدين؟و هل يسع لباحث أن يستدل بذلك على بطلان الدين و فساد طريقه؟أو يأتى هاهنا بعذر لا يجرى هناك أو يرمى أولئك برذيله معنويه لا توجد عينها أو مثلها فى هؤلاء؟!و نظير فن الكلام فى ذلك الفقه الإسلامى و انشعاب الشعب و الطوائف فيه ثم الاختلافات الناشئه بين كل طائفه أنفسهم،و كذلك سائر العلوم و الصناعات على كثرتها و اختلافها.

و أما ما استنتج من جميع كلامه من بطلان جميع الطرق المعموله و تعين طريق الكتاب و السنه و هو مسلك الدين فلا يسعه إلا أن يرى طريق التذكر و هو الذى نسب إلى أفلاطون اليونانى و هو أن الإنسان لو تجرد عن الهوسات النفسانيه و تحلى بحليه التقوى و الفضائل الروحيه ثم رجع إلى نفسه فى أمر بان له الحق فيه.

هذا هو الذى ذكروه،و قد اختاره بعض القدماء من يونان و غيرهم و جمع من المسلمين و طائفه من فلاسفه الغرب غير أن كلا من القائلين به قرره بوجه آخر:

فمنهم من قرره على أن العلوم الإنسانيه فطريه بمعنى أنها حاصله له،موجوده معه بالفعل فى أول وجوده،فلا- جرم يرجع معنى حدوث كل علم له جديد إلى حصول التذكر.

و منهم من قرره على أن الرجوع إلى النفس بالانصراف عن الشواغل الماديه يوجب انكشاف الحقائق لا بمعنى كون العلوم عند الإنسان بالفعل بل هى له بالقوه و إنما الفعليه فى باطن النفس الإنسانيه المفصوله عن الإنسان عند الغفله الموصوله به عند التذكر،و هذا ما يقول به العرفاء و أهل الإشراق و أترابهم من سائر الملل و النحل.و منهم من قرره على نحو ما قرره العرفاء غير أنه اشتراط فى ذلك التقوى و اتباع الشرع علما و عملا كعده من المسلمين ممن عاصرناهم و غيرهم زعما منهم أن اشتراط اتباع الشرع يفرق ما بينهم و بين العرفاء و المتصوفه،و قد خفى عليهم أن العرفاء سبقوهم فى هذا الاشتراط كما يشهد به كتبهم المعتبره الموجوده،فالقول عين ما قال به المتصوفه،و إنما الفرق بين الفريقين فى كيفيه الاتباع و تشخيص معنى التبعيه،و هؤلاء يعتبرون فى التبعيه مرحله الجمود على الظواهر محضا،فطريقهم طريق مولد من تناكح طريقى المتصوفه و الأخباريه إلى غير ذلك من التقريرات.

و القول بالتذكر إن لم يرد به إبطال الرجوع إلى الأصول المنطقيه و العقليه لا يخلو من وجه صحه فى الجمله فإن الإنسان حينما يوجد بهويته يوجد شاعرا بذاته و قوى ذاته و بعلله، عالما بها علما حضوريا،و معه من القوى ما يبدل علمه الحضورى إلى علم حصولى.و لا توجد قوه هى مبدأ الفعل إلا و هى تفعل فعلها فللإنسان فى أول وجوده شىء من العلوم و إن كانت متأخره عنه بحسب الطبع لكنه معه بالزمان.هذا،و أيضا حصول بعض العلوم للإنسان إذا انصرف عن التعلقات الماديه بعض الانصراف لا يسع لأحد إنكاره.

و إن أريد بالقول بالتذكر إبطال أثر الرجوع إلى الأصول المنطقيه و العقليه بمعنى أن ترتيب المقدمات البديهيه المتناسبه يوجب خروج الإنسان من القوه إلى الفعل بالنسبه إلى العلم بما يعد نتيجه لها،أو بمعنى أن التذكر بمعنى الرجوع إلى النفس بالتخليه يغنى الإنسان عن ترتيب المقدمات العلميه لتحصيل النتائج فهو من أسخف القول الذى لا يرجع إلى محصل.

أما القول بالتذكر بمعنى إبطاله الرجوع إلى الأصول المنطقيه و العقليه فيبطله أولا:

أن البحث العميق فى العلوم و المعارف الإنسانيه يعطى أن علومه التصديقيه تتوقف على علومه التصوريه و العلوم التصوريه تنحصر فى العلوم الحسيه أو المنتزع منها بنحو من الأنحاء (۱)و قد دل القياس و التجربه على أن فاقد حس من الحواس فاقد لجميع العلوم المنتهيه

۱- ۱) راجع أصول الفلسفه:المقاله الخامسه.

إلى ذلك الحس،تصوريه كانت أو تصديقيه،نظريه كانت أو بديهيه،و لو كانت العلوم موجوده للهويه الإنسانيه بالفعل لم يؤثر الفقد المفروض فى ذلك،و القول بأن العمى و الصمم و نحوهما مانعه عن التذكر رجوع عن أصل القول و هو أن التذكر بمعنى الرجوع إلى النفس بالانصراف عن التعلقات الماديه مفيد لذكر المطلوب بارتفاع الغفله.

و ثانيا:أن التذكر أنما يوفق له بعض أفراد هذا النوع،و عامه الأفراد يستعملون فى مقاصدهم الحيويه سنه التأليف و الاستنتاج و يستنتجون من ذلك الألوف بعد الألوف من النتائج المستقيمه،و على ذلك يجرى الحال فى جميع العلوم و الصناعات،و إنكار شىء من ذلك مكابره،و حمل ذلك على الاتفاق مجازفه فالأخذ بهذه السنه أمر فطرى للإنسان لا محيد عنه،و من المحال أن يجهز نوع من الأنواع بجهاز فطرى تكوينى ثم يخبط فى عمله و لا ينجح فى مسعاه.

و ثالثا:أن جميع ما ينال هؤلاء بما يسمونه تذكرا يعود بالتحليل إلى مقدمات مترتبه ترتيبا منطقيا بحيث يختل أمر النتيجه فيها باختلال شىء من الأصول المقرره فى هيئتها و مادتها،فهم يستعملون الأصول المنطقيه من حيث لا يحسون به، و الاتفاق و الصحابه الدائمان لا محصل لهما،و عليهم أن يأتوا بصوره علميه تذكريه صحيحه لا تجرى فيها أصول المنطق.

و أما القول بالتذكر بمعنى إغنائه عن الرجوع إلى الأصول المنطقيه-و يرجع محصله إلى أن هناك طريقين:طريق المنطق و طريق التذكر باتباع الشرع مثلا-و الطريقان سواء فى الإصابه أو إن طريق التذكر أفضل و أولى لإصابته دائما لموافقته قول المعصوم بخلاف طريق المنطق و العقل-ففيه خطر الوقوع فى الغلط دائما أو غالبا.

و كيف كان يرد عليه الإشكال الثانى الوارد على ما تقدمه فإن الإحاطه بجميع مقاصد الكتاب و السنه و رموزها و أسرارها على سعه نطاقها العجيبه غير متأت إلا للآحاد من الناس المتوغلين فى التدبر فى المعارف الدينيه على ما فيها من الارتباط العجيب،و التداخل البالغ بين أصولها و فروعها و ما يتعلق منها بالاعتقاد و ما يتعلق منها بالأعمال الفرديه و الاجتماعيه،و من المحال أن يكلف الإنسان تكوينا بالتجهيز التكوينى بما وراء طاقته و استطاعته أو يكلف بذلك تشريعا فليس على الناس إلا أن يعقلوا مقاصد الدين بما هو الطريق المألوف عندهم فى شئون حياتهم الفرديه و الاجتماعيه،و هو ترتيب المعلومات لاستنتاج

المجهولات،و المعلوم من الشرع بعض أفراد المعلومات لقيام البرهان على صدقه.

و من العجيب أن بعض القائلين بالتذكر جعل هذا بعينه وجها للتذكر على المنطق فذكر أن العلم بالحقائق الواقعيه إن صح حصوله باستعمال المنطق و الفلسفه-و لن يصح- فإنما يتأتى ذلك لمثل أرسطو و ابن سينا من أوحديى الفلسفه،و ليس يتأتى لعامه الناس فكيف يمكن أن يأمر الشارع باستعمال المنطق و الأصول الفلسفيه طريقا إلى نيل الواقعيات؟ و لم يتفطن أن الإشكال بعينه مقلوب عليه فإن أجاب بأن استعمال التذكر ميسور لكل أحد على حسب اتباعه أجيب بأن استعمال المنطق قليلا أو كثيرا ميسور لكل أحد على حسب استعداده لنيل الحقائق و لا يجب لكل أحد أن ينال الغايه،و يركب ما فوق الطاقه.

و يرد عليه ثانيا:الإشكال الثالث السابق فإن هؤلاء يستعملون طريق المنطق فى جميع المقاصد التى يبدونها باسم التذكر كما تقدم حتى فى البيان الذى أوردوه لإبطال طريق المنطق و تحقيق طريق التذكر و كفى به فسادا.

و يرد عليه ثالثا:أن الوقوع فى الخطإ واقع بل غالب فى طريق التذكر الذى ذكروه فإن التذكر كما زعموه هو الطريق الذى كان يسلكه السلف الصالح دون طريق المنطق، و قد نقل الاختلاف و الخطإ فيما بينهم بما ليس باليسير كعده من أصحاب النبى ص ممن اتفق المسلمون على علمه و اتباعه الكتاب و السنه،أو اتفق الجمهور على فقهه و عدالته، و كعده من أصحاب الأئمه على هذه النعوت كأبى حمزه و زراره و أبان و أبى خالد و الهشامين و مؤمن الطاق و الصفوانين و غيرهم،فالاختلافات الأساسيه بينهم مشهوره معروفه و من البين أن المختلفين لا ينال الحق إلا أحدهما،و كذلك الفقهاء و المحدثون من القدماء كالكلينى و الصدوق و شيخ الطائفه و المفيد و المرتضى و غيرهم رضوان الله عليهم،فما هو مزيه التذكر على التفكر المنطقى؟فكان من الواجب حينئذ التماس مميز آخر غير التذكر يميز بين الحق و الباطل،و ليس إلا التفكر المنطقى فهو المرجع و الموئل.

و يرد عليه رابعا:أن محصل الاستدلال أن الإنسان إذا تمسك بذيل أهل العصمه و الطهاره لم يقع فى خطإ،و لازمه ما تقدم أن الرأى المأخوذ من المعصوم فيما سمعه منه سمعا يقينيا و علم بمراده علما يقينيا لا يقع فيه خطأ،و هذا مما لا كلام فيه لأحد.

و فى الحقيقه المسموع من المعصوم أو المأخوذ منه ماده ليس هو عين التذكر و لا الفكر

المنطقی ثم یعقبه هو أن:هـذا ما یراه المعصوم،و کل ما یراه حق فهـذا حق و هـذا برهان قطعی النتیجه،و أما غیر هذه الصوره من مؤدیـات أخبـار الآحـاد أو مـا یماثلهـا ممـا لاـ یفیـد إلا الظن فإن ذلک لا یفیـد شـیئا و لا یوجـد دلیل علی حجیه الآحاد فی غیر الأحکام إلا مع موافقه الکتاب و لا الظن یحصل علی شیء مع فرض العلم علی خلافه من دلیل علمی.

۹-و قول بعضـهم:«إن الله سـبحانه خاطبنـا فی کلامه بما نألفه من الکلام الـدائر بیننا،و النظم و التألیف الـذی یعرفه أهل اللسان،و ظاهر البیانات المشـتمله علی الأمر و النهی و الوعـد و الوعیـد و القصـص و الحکمه و الموعظه و الجدال بالتی هی أحسن،و هذه أمور لا حاجه فی فهمها و تعقلها إلی تعلم المنطق و الفلسـفه و سائر ما هو تراث الکفار و المشـرکین و سبیل الظالمین،و قـد نهانا عن ولاـیتهم و الرکـون إلیهم و اتخـاذ دئوبهم و اتبـاع سـبلهم، فلیس علی من یؤمن بـالله و رسوله إلاـ أن یأخـذ بظواهر البیانـات الـدینیه،و یقف علی مـا یتلقـاه الفهم العـادی من تلـک الظواهر من غیر أن یأولها أو یتعـداها إلی غیرها»و هـذا ما یراه الحشویه و المشبهه و عده من أصحاب الحدیث.

و هو فاسد أما من حیث الهیئه فقد اسـتعمل فیه الأصول المنطقیه و قد أرید بذلک المنع عن استعمالها بعینها،و لم یقل القائل بأن القرآن یهدی إلی استعمال أصول المنطق:

أنه یجب علی کـل مسـلم أن یتعلم المنطق،لکن نفس الاسـتعمال ممـا لاـ محیص عنه،فمـا مثل هؤلاء فی قولهم هـذا إلا مثل من یقول:إن القرآن إنما یریـد أن یهـدینا إلی مقاصـد الـدین فلا حاجه لنا إلی تعلم اللسان الـذی هو تراث أهل الجاهلیه،فکما أنه لا وقع لهذا الکلام بعد کون اللسان طریقا یحتاج إلیه الإنسان فی مرحله التخاطب بحسب الطبع و قد استعمله الله سبحانه فی کتابه و النـبی ص فی سـنته کـذلک لاـ معنی لمـا اعترض به علی المنطق بعـد کونه طریقـا معنویـا یحتـاج إلیه الإنسـان فی مرحله التعقل بحسب الطبع و قد استعمله الله سبحانه فی کتابه و النبی ص فی سنته.

و أما بحسب الماده فقد أخذت فیه مواد عقلیه،غیر أنه غولط فیه من حیث التسویه بین المعنی الظاهر من الکلام و المصادیق التی تنطبق علیها المعانی و المفاهیم،فالذی علی المسـلم المؤمن بکتاب الله أن یفهمه من مثل العلم و القدره و الحیاه و السمع و البصر و الکلاـم و المشـیئه و الإـراده مثلاـ أن یفهم معانی تقابل الجهل و العجز و الممات و الصـمم و العمی و نحوها،و أما أن یثبت لله سبحانه علما کعلمنا و قدره کقدرتنا و حیاه کحیاتنا و سمعا و بصرا و کلاما

و مشیئه و إراده کذلک فلیس له ذلک لا- کتابا و لا سنه و لا عقلا،و قد تقدم شطر من الکلام المتعلق بهذا الباب فی بحث المحکم و المتشابه فی الجزء الثالث من الکتاب.

۱۰-و قول بعضهم:«إن الدلیل علی حجیه المقدمات التی قامت علیها الحجج العقلیه لیس إلا المقدمه العقلیه القائله بوجوب اتباع الحکم العقلی،و بعباره أخری لا حجه علی حکم العقل إلا نفس العقل و هذا دور مصرح فلا محیص فی المسائل الخلافیه عن الرجوع إلی قول المعصوم من نبی أو إمام من غیر تقلید».هذا،و هو أسخف تشکیک أورد فی هذا الباب و إنما أرید به تشیید بنیان فأنتج هدمه،فإن القائل أبطل به حکم العقل بالدور المصرح علی زعمه ثم لما عاد إلی حکم الشرع لزمه إما أن یستدل علیه بحکم العقل و هو الدور، أو بحکم الشرع و هو الدور فلم یزل حائرا یدور بین دورین.إلا أن یرجع إلی التقلید و هو حیره ثانیه.

و قد اشتبه علیه الأمر فی تحصیل معنی وجوب متابعه حکم العقل»فإن أرید بوجوب متابعه حکم العقل ما یقابل الحظر و الإباحه و یستتبع مخالفته ذما أو عقابا نظیر وجوب متابعه الناصح المشفق،و وجوب العدل فی الحکم و نحو ذلک فهو حکم العقل العملی و لا- کلام لنا فیه،و إن أرید بوجوب المتابعه أن الإنسان مضطر علی تصدیق النتیجه إذا استدل علیه بمقدمات علمیه و شکل صحیح علمی مع التصور التام لأطراف القضایا فهذا أمر یشاهده الإنسان بالوجدان،و لا معنی عندئذ لأن یسأل العقل عن الحجه،لحجیه حجته لبداهه حجیته.و هذا نظیر سائر البدیهیات،فإن الحجه علی کل بدیهی إنما هی نفسه،و معناه أنه مستغن عن الحجه.

۱۱-و قول بعضهم:«إن غایه ما یرومه المنطق هو الحصول علی الماهیات الثابته للأشیاء،و الحصول علی النتائج بالمقدمات الکلیه الدائمه الثابته،و قد ثبت بالأبحاث العلمیه الیوم أن لا کلی و لا دائم و لا ثابت فی خارج و لا ذهن و إنما هی الأشیاء تجری تحت قانون التحول العام من غیر أن یثبت شیء بعینه علی حال ثابته أو دائمه أو کلیه».

و هذا فاسد من جهه أنه استعمل فیه الأصول المنطقیه هیئه و ماده کما هو ظاهر لمن تأمل فیه.علی أن المعترض یرید بهذا الاعتراض بعینه أن یستنتج أن المنطق القدیم غیر صحیح البته،و هی نتیجه کلیه دائمه ثابته مشتمله علی مفاهیم ثابته،و إلا لم یفده شیئا

فالاعتراض يبطل نفسه.

و لعلنا خرجنا عما هو شريطه هذا الكتاب من إيثار الاختصار مهما أمكن فلنرجع إلى ما كنا فيه أولا:

القرآن الكريم يهدى العقول إلى استعمال ما فطرت على استعماله و سلوك ما تألفه و تعرفه بحسب طبعها و هو ترتيب المعلومات لاستنتاج المجهولات،و الذى فطرت العقول عليه هو أن تستعمل مقدمات حقيقيه يقينيه لاستنتاج المعلومات التصديقيه الواقعيه و هو البرهان،و أن تستعمل فيما له تعلق بالعمل من سعاده و شقاوه و خير و شر و نفع و ضرر و ما ينبغى أن يختار و يؤثر و ما لا ينبغى،و هى الأمور الاعتباريه،المقدمات المشهوره أو المسلمه،و هو الجدل،و أن تستعمل فى موارد الخير و الشر المظنونين مقدمات ظنيه لإنتاج الإرشاد و الهدايه إلى خير مظنون،أو الردع عن شر مظنون،و هى العظه قال تعالى:« اُدْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَهِ وَ الْمَوْعِظَهِ الْحَسَنَهِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ» :

(النحل:۱۲۵)و الظاهر أن المراد بالحكمه هو البرهان كما ترشد إلى ذلك مقابلته الموعظه الحسنه و الجدال.

فإن قلت:طريق التفكر المنطقى مما يقوى عليه الكافر و المؤمن،و يتأتى من الفاسق و المتقى،فما معنى نفيه تعالى العلم المرضى و التذكر الصحيح عن غير أهل التقوى و الاتباع كما فى قوله تعالى:« وَ مَا يَتَذَكَّرُ إِلاّ مَنْ يُنِيبُ» :(غافر:۱۳)،و قوله:« وَ مَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً» :(الطلاق:۲)،و قوله:« فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّى عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَياهَ الدُّنْيا ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى» :(النجم:۳۰)و الروايات الناطقه بأن العلم النافع لا ينال إلا بالعمل الصالح كثيره مستفيضه.

قلت:اعتبار الكتاب و السنه التقوى فى جانب العلم مما لا ريب فيه،غير أن ذلك ليس لجعل التقوى أو التقوى الذى معه التذكر طريقا مستقلا لنيل الحقائق وراء الطريق الفكرى الفطرى الذى يتعاطاه الإنسان تعاطيا لا مخلص له منه،إذ لو كان الأمر على ذلك لغت جميع الاحتجاجات الوارده فى الكتاب على الكفار و المشركين و أهل الفسق و الفجور ممن لا يتبع الحق،و لا يدرى ما هو التقوى و التذكر فإنهم لا سبيل لهم على هذا الفرض إلى

إدراک المطلوب و حالهم هـذا الحال،و مع فرض تبـدل الحال يلغو الاحتجاج معهم،و نظيرها ما ورد فی السـنه من الاحتجاج مع شتی الفرق و الطوائف الضاله.

بل اعتبار التقوی لرد النفس الإنسانيه المدرکه إلی استقامتها الفطريه،توضيح ذلک:

أن الإنسـان بحسب جسـميته مؤلف من قوی متضـاده بهيميه و سـبعيه محتـدها البـدن العنصـری، و کـل واحـده منها تعمل عملها الشـعوری الخـاص بهـا من غير أن ترتبـط بغيرها من القوی ارتباطا تراعی به حالها فی عملها إلا بنحو الممانعه و المضاده فشـهوه الغذاء تبعث الإنسان إلی الأکل و الشـرب من غير أن يحد بحد أو يقدر بقدر من ناحيه هذه القوه إلا أن يمتنع منهما المعده مثلا لأنهـا لا ـ تسع إلا ـ مقـدارا محـدودا،أو يمتنع الفـک مثلا ـ لتعب و کلال يصـيب عضـلته من المضغ إذا أکـثر من الأکـل و أمثـال ذلک،فهذه أمور نشاهدها من أنفسنا دائما.

و إذا کـان کـذلک کـان تمايـل الإنسـان إلی قوه من القوی،و استرسـاله فی طـاعه أوامرهـا، و الانبعاث إلی ما تبعث إليه يوجب طغيان القوه المطاعه،و اضـطهاد القوه المضاده لها اضطهادا ربما بلغ بها إلی حد البطلان أو کاد يبلغ،فالاسترسال فی شهوه الطعام أو شـهوه النکـاح يصـرف الإنسـان عن جميع مهمـات الحياه من کسب و عشـره و تنظيم أمر منزل و تربيه أولاد و سائر الواجبات الفرديه و الاجتمـاعيه التی يجب القيام بها، و نظيره الاسترسال فی طاعه سائر القوی الشـهويه و القوی الغضبيه،و هـذا أيضا مما لا نزال نشاهدها من أنفسنا و من غيرنا خلال أيام الحياه.

و فی هـذا الإفراط و التفريـط هلاـک الإنسـانيه فـإن الإنسـان هو النفس المسـخره لهـذه القوی المختلفه،و لا ـ شـأن له إلا ـ سوق المجموع من القوی بأعمالهـا فی طريق سـعادته فی الحيـاه الـدنيا و الآـخره،و ليست إلا ـ حياه علميه کماليه،فلا محيص له عن أن يعطی کلا من القوی من حظها ما لا تزاحم به القوی الأخری و لا تبطل من رأس.

فالإنسان لا يتم له معنی الإنسانيه إلا إذا عدل قواه المختلفه تعديلا يورد کلا منها وسط الطريق المشـروع لها،و ملکه الاعتدال فی کل واحده من القوی هی التی نسميها بخلقها الفاضل کالحکمه و الشجاعه و العفه و غيرها،و يجمع الجميع العداله.

و لا ـ ريب أن الإنسـان إنمـا يحصـل علی هـذه الأفکار الموجوده عنـده و يتوسع فی معارفه و علومه الإنسانيه باقتراح هـذه القوی الشعوريه أعمالها و مقتضياتها،بمعنی أن الإنسان فی

أول كينونته صفر الكف من هذه العلوم و المعارف الوسيعه حتى تشعر قواه الداخله بحوائجها، و تقترح عليه ما تشتهيها و تطلبها،و هذه الشعورات الابتدائيه هى مبادئ علوم الإنسان ثم لا يزال الإنسان يعمم و يخصص و يركب و يفصل حتى يتم له أمر الأفكار الإنسانيه.

و من هنا يحدس اللبيب أن توغل الإنسان فى طاعه قوه من قواه المتضاده و إسرافه فى إجابه ما تقترح عليه يوجب انحرافه فى أفكاره و معارفه بتحكيم جميع ما تصدقه هذه القوه على ما يعطيه غيرها من التصديقات و الأفكار،و غفلته عما يقتضيه غيرها.

و التجربه تصدق ذلك فإن هذا الانحراف هو الذى نشاهده فى الأفراد المسرفين المترفين من حلفاء الشهوه،و فى البغاه الطغاه الظلمه المفسدين أمر الحياه فى المجتمع الإنسانى فإن هؤلاء الخائضين فى لجج الشهوات،العاكفين على لذائذ الشرب و السماع و الوصال لا يكادون يستطيعون التفكر فى واجبات الإنسانيه،و مهام الأمور التى يتنافس فيها أبطال الرجال و قد تسربت روح الشهوه فى قعودهم و قيامهم و اجتماعهم و افتراقهم و غير ذلك و كذلك الطغاه المستكبرون أقسياء القلوب لا يتأتى لهم أن يتصوروا رأفه و شفقه و رحمه و خضوعا و تذللا حتى فيما يجب فيه ذلك،و حياتهم تمثل حالهم الخبيث الذى هم عليه فى جميع مظاهرها من تكلم و سكوت و نظر و غض و إقبال و إدبار،فهؤلاء جميعا سالكوا طريق الخطإ فى علومهم،كل طائفه منهم مكبه على ما تناله من العلوم و الأفكار المحرفه المنحرفه المتعلقه بما عنده،غافلون عما وراءه و فيما وراءه،العلوم النافعه و المعارف الحقه الإنسانيه فالمعارف الحقه و العلوم النافعه لا تتم للإنسان إلا إذا صلحت أخلاقه و تمت له الفضائل الإنسانيه القيمه و هو التقوى.

فقد تحصل أن الأعمال الصالحه هى التى تحفظ الأخلاق الحسنه،و الأخلاق الحسنه هى التى تحفظ المعارف الحقه و العلوم النافعه و الأفكار الصحيحه،و لا خير فى علم لا عمل معه.

و هذا البحث و إن سقناه سوقا علميا أخلاقيا لمسيس الحاجه إلى التوضيح إلا أنه هو الذى جمعه الله تعالى فى كلمه حيث قال:« وَ اقْصِدْ فِی مَشْیِکَ» :(لقمان:۱۹) فإنه كنايه عن أخذ وسط الاعتدال فى مسير الحياه،و قال:« إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ یَجْعَلْ لَکُمْ فُرْقاناً» : (الأنفال:

۲۹)و قال:« وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَیْرَ الزّادِ التَّقْوی وَ اتَّقُونِ یا أُولِی الْأَلْبابِ» :(البقره:۱۹۷)، أى لأنكم أولوا الألباب تحتاجون فى عمل لبكم إلى التقوى و الله أعلم،و قال تعالى:« وَ نَفْسٍ

وَ مٰا سَوّٰاهٰا فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰاهٰا وَ قَدْ خٰابَ مَنْ دَسّٰاهٰا» :(الشمس:

۱۰)و قال :«وَ اتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ :(آل عمران:۱۳۰).

و من طريق آخر:قال تعالى:« فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضٰاعُوا الصَّلاٰةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَوٰاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا إِلاّٰ مَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً» :(مريم:۶۰)فذكر أن اتباع الشهوات يسوق إلى الغي،و قال تعالى:« سَأَصْرِفُ عَنْ آيٰاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاٰ يُؤْمِنُوا بِهٰا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاٰ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ كٰانُوا عَنْهٰا غٰافِلِينَ» :(الأعراف:۱۴۶) فذكر أن أسراء القوى الغضبيه ممنوعون من اتباع الحق مسوقون إلى سبيل الغي،ثم ذكر أن ذلك بسبب غفلتهم عن الحق،و قال تعالى:« وَ لَقَدْ ذَرَأْنٰا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاٰ يَفْقَهُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لاٰ يُبْصِرُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ آذٰانٌ لاٰ يَسْمَعُونَ بِهٰا أُولٰئِكَ كَالْأَنْعٰامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰئِكَ هُمُ الْغٰافِلُونَ : (الأعراف:۱۷۹)فذكر أن هؤلاء الغافلين إنما هم غافلون عن حقائق المعارف التى للإنسان،فقلوبهم و أعينهم و آذانهم بمعزل عن نيل ما يناله الإنسان،السعيد فى إنسانيته،و إنما ينالون بها ما تناله الأنعام أو ما هو أضل من الأنعام و هى الأفكار التى إنما تصوبها و تميل إليها و تألف بها البهائم السائمه و السباع الضاريه.

فظهر من جميع ما تقدم أن القرآن الكريم إنما اشترط التقوى فى التفكر و التذكر و التعقل،و قارن العلم بالعمل للحصول على استقامه الفكر و إصابه العلم و خلوصه من شوائب الأوهام الحيوانيه و الإلقاءات الشيطانيه.

نعم هاهنا حقيقه قرآنيه لا مجال لإنكارها،و هو أن دخول الإنسان فى حظيره الولايه الإلهيه،و تقربه إلى ساحه القدس و الكبرياء يفتح له بابا إلى ملكوت السماوات و الأرض يشاهد منه ما خفى على غيره من آيات الله الكبرى،و أنوار جبروته التى لا تطفأ، قال الصادق(ع):لو لا أن الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لرأوا ملكوت السماوات و الأرض،و فيما رواه الجمهور عن النبى ص قال:لو لا تكثير فى كلامكم و تمريج فى قلوبكم لرأيتم ما أرى و لسمعتم ما أسمع،و قد قال تعالى:« وَ الَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنٰا وَ إِنَّ اللّٰهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» :(العنكبوت:۶۹)و يدل على ذلك ظاهر قوله تعالى:« وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتّٰى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» : (الحجر:۹۹)حيث فرع اليقين على العباده،و قال تعالى:« وَ كَذٰلِكَ نُرِي إِبْرٰاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» :(الأنعام:۷۵)فربط

وصف الإيقان بمشاهده الملكوت،و قال تعالى:« كَلاّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ» :(التكاثر:۷)و قال تعالى:« إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَ ما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ كِتابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ» :(المطففين:۲۱)و ليطلب البحث المستوفى فى هذا المعنى مما سيجىء من الكلام فى قوله تعالى: «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ» XالآيهX:(المائده:۵۵)و فى قوله تعالى:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» XالآيهX:(المائده:۱۰۵).

و لا ينافى ثبوت هذه الحقيقه ما قدمناه أن القرآن الكريم يؤيد طريق التفكر الفطرى الذى فطر عليه الإنسان و بنى عليه بنيه الحياه الإنسانيه،فإن هذا طريق غير فكرى، و موهبه إلهيه يختص بها من يشاء من عباده و العاقبه للمتقين.

(بحث تاريخى) [فى تاريخ التفكر الإسلامى إجمالا.]

ننظر فيه نظرا إجماليا فى تاريخ التفكير الإسلامى و الطريق الذى سلكته الأمه الإسلاميه على اختلاف طوائفها و مذاهبها،و لا نلوى فيه إلى مذهب من المذاهب بإحقاق أو إبطال،و إنما نعرض الحوادث الواقعه على منطق القرآن و نحكمه فى الموافقه و المخالفه، و أما ما باهى به موافق و ما اعتذر به مخالف فلا شأن لنا فى الغور فى أصوله و جذوره، فإنما ذلك طريق آخر من البحث مذهبى أو غيره.

القرآن الكريم يتعرض بمنطقه فى سنته المشروعه لجميع شئون الحياه الإنسانيه من غير أن تتقيد بقيد أو تشترط بشرط،يحكم على الإنسان منفردا أو مجتمعا،صغيرا أو كبيرا،ذكرا أو أنثى،على الأبيض و الأسود،و العربى و العجمى،و الحاضر و البادى، و العالم و الجاهل،و الشاهد و الغائب،فى أى زمان كان و فى أى مكان كان و يداخل كل شأن من شئونه من اعتقاد أو خلق أو عمل من غير شك.

فللقرآن اصطكاك مع جميع العلوم و الصناعات المتعلقه بأطراف الحياه الإنسانيه و من الواضح اللائح من خلال آياته النادبه إلى التدبر و التفكر و التذكر و التعقل أنه يحث حثا بالغا على تعاطى العلم و رفض الجهل فى جميع ما يتعلق بالسماويات و الأرضيات و النبات و الحيوان و الإنسان،من أجزاء عالمنا و ما وراءه من الملائكه و الشياطين و اللوح و القلم و غير ذلك ليكون ذريعه إلى معرفه الله سبحانه،و ما يتعلق نحوا من التعلق بسعاده

الحياه الإنسانيه الاجتماعيه من الأخلاق و الشرائع و الحقوق و أحكام الاجتماع.

و قد عرفت أنه يؤيد الطريق الفطرى من التفكر الذى تدعو إليه الفطره دعوه اضطراريه لا معدل عنها على حق ما تدعو إليه الفطره من السير المنطقى.

و القرآن نفسه يستعمل هذه الصناعات المنطقيه من برهان و جدل و موعظه،و يدعو الأمه التى يهديها إلى أن يتبعوه فى ذلك فيتعاطوا البرهان فيما كان من الواقعيات الخارجه من باب العمل و يستدلوا بالمسلمات فى غير ذلك أو بما يعتبر به.

و قد اعتبر القرآن فى بيان مقاصده السنه النبويه،و عين لهم الأسوه فى رسول الله ص فكانوا يحفظون عنه،و يقلدون مشيته العلميه تقليد المتعلم معلمه فى السلوك العلمى.

كان القوم فى عهد النبى ص(و نعنى به أيام إقامته بالمدينه)حديثى عهد بالتعليم الإسلامى،حالهم أشبه بحال الإنسان القديم فى تدوين العلوم و الصناعات،يشتغلون بالأبحاث العلميه اشتغالا ساذجا غير فنى على عنايه منهم بالتحصيل و التحرير،و قد اهتموا أولا بحفظ القرآن و قراءته،و حفظ الحديث عن النبى ص من غير كتابه،و نقله،و كان لهم بعض المطارحات الكلاميه فيما بينهم أنفسهم،و احتجاجات مع بعض أرباب الملل الأجنبيه و لا سيما اليهود و النصارى لوجود أجيال منهم فى الجزيره و الحبشه و الشام،و من هنا يبتدئ ظهور علم الكلام و كانوا،يشتغلون بروايه الشعر و قد كانت سنه عربيه لم يهتم بأمرها الإسلام و لم يمدح الكتاب الشعر و الشعراء بكلمه،و لا السنه بالغت فى أمره.

ثم لما ارتحل النبى ص كان من أمر الخلافه ما هو معروف و زاد الاختلاف الحادث عند ذلك بابا على الأبواب الموجوده.

و جمع القرآن فى زمن الخليفه الأول بعد غزوه يمامه و شهاده جماعه من القراء فيها.

و كان الأمر على هذا فى عهد خلافته-و هى سنتان تقريبا-ثم فى عهد الخليفه الثانى.

و الإسلام و إن انتشر صيته و اتسع نطاقه بما رزق المسلمون من الفتوحات العظيمه فى عهده لكن الاشتغال بها كان يعوقهم عن التعمق فى إجاله النظر فى روابط العلوم و التماس الارتقاء فى مدارجها،أو إنهم ما كانوا يرون لما عندهم من المستوى العلمى حاجه إلى التوسع و التبسط.

و ليس العلم و فضله أمرا محسوسا يعرفه أمه من أمه أخرى إلا أن يرتبط بالصنعه فيظهر أثره على الحس فيعرفه العامه.

و قد أيقظت هذه الفتوحات المتواليه الغزيره العرب الجاهليه من الغرور و النخوه بعد ما كانت فى سكن بالتربيه النبويه،فكانت تتسرب فيهم روح الأمم المستعليه الجباره،و تتمكن منهم رويدا،يشهد به شيوع تقسيم الأمه المسلمه يومئذ إلى العرب و الموالى،و سير معاويه-و هو والى الشام يومذاك-بين المسلمين بسيره ملوكيه قيصريه، و أمور أخرى كثيره ذكرها التاريخ عن جيوش المسلمين،و هذه نفسيات لها تأثير فى السير العلمى و لا سيما التعليمات القرآنيه.

و أما الذى كان عندهم من حاضر السير العلمى فالاشتغال بالقرآن كان على حاله و قد صار مصاحف متعدده تنسب إلى زيد و أبى و ابن مسعود و غيرهم.

و أما الحديث فقد راج رواجا بينا و كثر النقل و الضبط إلى حيث نهى عمر بعض الصحابه عن التحديث لكثره ما روى،و قد كان عده من أهل الكتاب دخلوا فى الإسلام و أخذ عنهم المحدثون شيئا كثيرا من أخبار كتبهم و قصص أنبيائهم و أممهم،فخلطوها بما كان عندهم من الأحاديث المحفوظه عن النبى ص،و أخذ الوضع و الدس يدوران فى الأحاديث،و يوجد اليوم فى الأحاديث المقطوعه المنقوله عن الصحابه و رواتهم فى الصدر الأول شىء كثير من ذلك يدفعه القرآن بظاهر لفظه.

و جمله السبب فى ذلك أمور ثلاثه:

١-المكانه الرفيعه التى كانت تعتقدها الناس لصحبه النبى و حفظ الحديث عنه،و كرامه الصحابه و أصحابهم النقله عنهم على الناس،و تعظيمهم لأمرهم،فدعا ذلك الناس إلى الأخذ و الإكثار(حتى عن مسلمى أهل الكتاب)و الرقابه الشديده بين حمله الحديث فى حيازه التقدم و الفخر.

٢-إن الحرص الشديد منهم على حفظ الحديث و نقله منعهم عن تمحيصه و التدبر فى معناه و خاصه فى عرضه على كتاب الله و هو الأصل الذى تبتنى عليه بنيه الدين و تستمد منه فروعه،

و قد وصاهم بذلك النبى ص فيما صح من قوله: «ستكثر على القاله»

الحدیث،و غیره.

و حصلت بذلک فرصه لأن تدور بینهم أحادیث موضوعه فی صفات الله و أسمائه و أفعاله،و زلات منسوبه إلی الأنبیاء الکرام،و مساوئ مشوهه تنسب إلی النبی ص و خرافات فی الخلق و الإیجاد،و قصص الأمم الماضیه،و تحریف القرآن و غیر ذلک مما لا تقصر عما تتضمنه التوراه و الإنجیل من هذا القبیل.

و اقتسم القرآن و الحدیث عند ذلک التقدم و العمل:فالتقدم الصوری للقرآن و الأخذ و العمل بالحدیث فلم یلبث القرآن دون أن هجر عملا،و لم تزل تجری هذه السیره و هی الصفح عن عرض الحدیث علی القرآن مستمره بین الأمه عملا حتی الیوم و إن کانت تنکرها قولا وَ قالَ الرَّسُولُ یا رَبِّ إِنَّ قَوْمِی اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً» اللهم إلا آحاد بعد آحاد.

و هذا التساهل بعینه هو أحد الأسباب فی بقاء کثیر من الخرافات القومیه القدیمه بین الأمم الإسلامیه بعد دخولهم فی الإسلام و الداء یجر الداء.

۳-إن ما جری فی أمر الخلافه بعد رسول الله ص أوجب اختلاف آراء عامه المسلمین فی أهل بیته فمن عاکف علیهم هائم بهم،و من معرض عنهم لا یعبأ بأمرهم و مکانتهم من علم القرآن أو مبغض شانئ لهم،و قد وصاهم النبی ص بما لا یرتاب فی صحته و دلالته مسلم أن یتعلموا منهم و لا یعلموهم و هم أعلم منهم بکتاب الله،و ذکر لهم أنهم لن یغلطوا فی تفسیره و لن یخطئوا فی فهمه

قال فی حدیث الثقلین المتواتر: إنی تارک فیکم الثقلین کتاب الله و عترتی-و لن یفترقا حتی یردا علی الحوض الحدیث.

و فی بعض طرقه: لا تعلموهم فإنهم أعلم منکم.

و قال فی المستفیض من کلامه: «من فسر القرآن برأیه فلیتبوأ مقعده من النار» و قد تقدم فی أبحاث المحکم و المتشابه فی الجزء الثالث من الکتاب.

و هذا أعظم ثلمه انثلم بها علم القرآن و طریق التفکر الذی ینبه إلیه.و من الشاهد علی هذا الإعراض قله الأحادیث المنقوله عنهم(ع)فإنک إذا تأملت ما علیه علم الحدیث فی عهد الخلفاء من المکانه و الکرامه،و ما کان علیه الناس من الولع و الحرص الشدید علی أخذه ثم أحصیت ما نقل فی ذلک عن علی و الحسن و الحسین،و خاصه ما نقل من ذلک فی تفسیر القرآن لرأیت عجبا:أما الصحابه فلم ینقلوا عن علی(ع) شیئا یذکر،و أما التابعون فلا یبلغ ما نقلوا عنه-إن أحصی-مائه روایه فی تمام القرآن

و أما الحسن(ع)فلعل المنقول عنه لا يبلغ عشرا،و أما الحسين فلم ينقل عنه شيء يذكر،و قد أنهى بعضهم الروايات الوارده فى التفسير إلى سبعه عشر ألف (۱)حديث من طريق الجمهور وحده،و هذه النسبه موجوده فى روايات الفقه أيضا (۲).

فهل هذا لأنهم هجروا أهل البيت و أعرضوا عن حديثهم؟أو لأنهم أخذوا عنهم و أكثروا ثم أخفيت و نسيت فى الدوله الأمويه لانحراف الأمويين عنهم؟ما أدرى.

غير أن عزله على و عدم اشتراكه فى جمع القرآن أولا و أخيرا و تاريخ حياه الحسن و الحسين(ع)يؤيد أول الاحتمالين.

و قد آل أمر حديثه إلى أن أنكر بعض كون ما اشتمل عليه كتاب نهج البلاغه من غرر خطبه من كلامه،و أما أمثال الخطبه البتراء لزياد بن أبيه و خمريات يزيد فلا يكاد يختلف فيها اثنان!.

و لم يزل أهل البيت مضطهدين،مهجورا حديثهم إلى أن انتهض الإمامان:محمد بن على الباقر و جعفر بن محمد الصادق(ع)فى برهه كالهدنه بين الدوله الأمويه و الدوله العباسيه فبينا ما ضاعت من أحاديث آبائهم،و جددا ما اندرست و عفيت من آثارهم.

غير أن حديثهما و غيرهما من آبائهما و أبنائهما من أئمه أهل البيت أيضا لم يسلم من الدخيل و لم يخلص من الدس و الوضع كحديث رسول الله ص،و قد ذكرا ذلك فى الصريح من كلامهما،و عدا رجالا من الوضاعين كمغيره بن سعيد و ابن أبى الخطاب و غيرهما،و أنكر بعض الأئمه روايات كثيره مرويه عنهم و عن النبى ص،و أمروا أصحابهم و شيعتهم بعرض الأحاديث المنقوله عنهم على القرآن و أخذ ما وافقه و ترك ما خالفه.

و لكن القوم(إلا آحاد منهم)لم يجروا عليها عملا فى أحاديث أهل البيت(ع) و خاصه فى غير الفقه،و كان السبيل الذى سلكوه فى ذلك هو السبيل الذى سلكه الجمهور فى أحاديث النبى ص.

۱- ۱) ذكر ذلك السيوطى فى الإتقان،و ذكر أنه عدد الروايات فى تفسيره المسمى بترجمان القرآن و تلخيصه المسمى بالدر المنثور.

۲- ۲) ذكر بعض المتتبعين أنه عثر على حديثين مرويين عن الحسين ع فى الروايات الفقهيه.

و قد أفرط فی الأمر إلی حیث ذهب جمع إلی عدم حجیه ظواهر الکتاب و حجیه مثل مصباح الشریعه و فقه الرضا و جامع الأخبار!و بلغ الإفراط إلی حیث ذکر بعضهم أن الحدیث یفسر القرآن مع مخالفته لصریح دلالته،و هذا یوازن ما ذکره بعض الجمهور:

أن الخبر ینسخ الکتاب.و لعل المتراءی من أمر الأمه لغیرهم من الباحثین کما ذکره بعضهم:

«أن أهل السنه أخذوا بالکتاب و ترکوا العتره،فآل ذلک إلی ترک الکتاب لقول النبی ص:«إنهما لن یفترقا»و أن الشیعه أخذوا بالعتره و ترکوا الکتاب،فآل ذلک منهم إلی ترک العتره لقوله(ص):«إنهما لن یفترقا»فقد ترکت الأمه القرآن و العتره(الکتاب و السنه)معا».

و هذه الطریقه المسلوکه فی الحدیث أحد العوامل التی عملت فی انقطاع رابطه العلوم الإسلامیه و هی العلوم الدینیه و الأدبیه عن القرآن مع أن الجمیع کالفروع و الثمرات من هذه الشجره الطیبه التی أصلها ثابت و فرعها فی السماء تؤتی أکلها کل حین بإذن ربها، و ذلک أنک إن تبصرت فی أمر هذه العلوم وجدت أنها نظمت تنظیما لا حاجه لها إلی القرآن أصلا حتی أنه یمکن لمتعلم أن یتعلمها جمیعا:الصرف و النحو و البیان و اللغه و الحدیث و الرجال و الدرایه و الفقه و الأصول فیأتی آخرها،ثم یتضلع بها ثم یجتهد و یتمهر فیها و هو لم یقرأ القرآن،و لم یمس مصحفا قط،فلم یبق للقرآن بحسب الحقیقه إلا التلاوه لکسب الثواب أو اتخاذه تمیمه للأولاد تحفظهم عن طوارق الحدثان!فاعتبر إن کنت من أهله.

و لنرجع إلی ما کنا فیه:

کان حال البحث عن القرآن و الحدیث فی عهد عمر ما سمعته،و قد اتسع نطاق المباحث الکلامیه فی هذا العهد لما أن الفتوحات الوسیعه أفضت بالطبع إلی اختلاط المسلمین بغیرهم من الأمم و أرباب الملل و النحل و فیهم العلماء و الأحبار و الأساقفه و البطارقه الباحثون فی الأدیان و المذاهب فارتفع منار الکلام لکن لم یدون بعد تدوینا،فإن ما عد من التآلیف فیه إنما ذکر فی ترجمات من هو بعد هذا العصر.

ثم کان الأمر علی ذلک فی عهد عثمان علی ما فیه من انقلاب الناس علی الخلافه،و إنما وفق لجمع المصاحف،و الاتفاق علی مصحف واحد.

ثم کان الأمر علی ذلک فی خلافه علی(ع)و شغله إصلاح ما فسد من مجتمع المسلمین

بالاختلافات الداخليه و وقع حروب متواليه فی إثر ذلک.

غير أنه(ع)وضع علم النحو و أملأ كلياته أبا الأسود الدئلی من أصحابه و أمره بجمع جزئيات قواعده،و لم يتأت له وراء ذلک إلا أن ألقی بيانات من خطب و أحاديث فيها جوامع مواد المعارف الدينيه و أنفس الأسرار القرآنيه،و له مع ذلک احتجاجات كلاميه مضبوطه فی جوامع الحديث.

ثم كان الأمر علی ذلک فی خصوص القرآن و الحديث فی عهد معاويه و من بعده من الأمويين و العباسيين إلی أوائل القرن الرابع من الهجره تقريبا و هو آخر عهد الأئمه الاثنی عشر عند الشيعه،فلم يحدث فی طريق البحث عن القرآن و الحديث أمر مهم غير ما كان فی عهد معاويه من بذل الجهد فی إماته ذكر أهل البيت(ع)و إعفاء أثرهم و وضع الأحاديث،و قد انقلبت الحكومه الدينيه إلی سلطنه استبداديه،و تغيرت السنه الإسلاميه إلی سيطره إمبراطوريه،و ما كان فی عهد عمر بن عبد العزيز من أمره بكتابه الحديث، و قد كان المحدثون يتعاطون الحديث إلی هذه الغايه بالأخذ و الحفظ من غير تقييد بالكتابه.

و فی هذه البرهه راج الأدب العربی غايه رواجه،شرع ذلک من زمن معاويه فقد كان يبالغ فی ترويج الشعر ثم الذين يلونه من الأمويين ثم العباسيين،و كان ربما يبذل بإزاء بيت من الشعر أو نكته أدبيه المئات و الألوف من الدنانير،و انكب الناس علی الشعر و روايته، و أخبار العرب و أيامهم،و كانوا يكتسبون بذلک الأموال الخطيره،و كانت الأمويون ينتفعون برواجه و بذل الأموال بحذائه لتحكيم موقعهم تجاه بنی هاشم ثم العباسيون تجاه بنی فاطمه كما كانوا يبالغون فی إكرام العلماء ليظهروا بهم علی الناس،و يحملوهم ما شاءوا و تحكموا.

و بلغ من نفوذ الشعر و الأدب فی المجتمع العلمی أنک ترى كثيرا من العلماء يتمثلون بشعر شاعر أو مثل سائر فی مسائل عقليه أو أبحاث علميه ثم يكون له القضاء،و كثيرا ما يبنون المقاصد النظريه علی مسائل لغويه و لا أقل من البحث اللغوی فی اسم الموضوع أولا ثم الورود فی البحث ثانيا،و هذه كلها أمور لها آثار عميقه فی منطق الباحثين و سيرهم العلمی.

و فی تلک الأيام راج البحث الكلامی،و كتب فيه الكتب و الرسائل،و لم يلبثوا أن

تفرقوا فرقتين عظيمتين و هما الأشاعره و المعتزله،و كانت أصول أقوالهم موجوده فى زمن الخلفاء بل فى زمن النبى ص يدل على ذلك ما روى من احتجاجات على(ع)فى الجبر و التفويض و القدر و الاستطاعه و غيرها،و ما روى عن النبى ص فى ذلك (۱)و إنما امتازت الطائفتان فى هذا الأوان بامتياز المسلكين و هو تحكيم المعتزله ما يستقل به العقل على الظواهر الدينيه كالقول بالحسن و القبح العقليين،و قبح الترجيح من غير مرجح،و قبح التكليف بما لا يطاق،و الاستطاعه،و التفويض،و غير ذلك،و تحكيم الأشاعره الظواهر على حكم العقل بالقول بنفى الحسن و القبح،و جواز الترجيح من غير مرجح،و نفى الاستطاعه،و القول بالجبر، و قدم كلام الله،و غير ذلك مما هو مذكور فى كتبهم.

ثم رتبوا الفن و اصطلحوا الاصطلاحات و زادوا مسائل قابلوا بها الفلاسفه فى المباحث المعنويه بالأمور العامه،و ذلك بعد نقل كتب الفلسفه إلى العربيه و انتشار دراستها بين المسلمين،و ليس الأمر على ما ذكره بعضهم:أن التكلم ظهر أو انشعب فى الإسلام إلى الاعتزال و الأشعريه بعد انتقال الفلسفه إلى العرب،يدل على ذلك وجود معظم مسائلهم و آرائهم فى الروايات قبل ذلك.

و لم تزل المعتزله تتكثر جماعتهم و تزداد شوكتهم و أبهتهم منذ أول الظهور إلى أوائل العهد العباسى(أوائل القرن الثالث الهجرى)ثم رجعوا يسلكون سبيل الانحطاط و السقوط حتى أبادتهم الملوك من بنى أيوب فانقرضوا و قد قتل فى عهدهم و بعدهم لجرم الاعتزال من الناس ما لا يحصيه إلا الله سبحانه و عند ذلك صفا جو البحث الكلامى للأشاعره من غير معارض فتوغلوا فيه بعد ما كان فقهاؤهم يتأثمون بذلك أولا،و لم يزل الأشعريه رائجه عندهم إلى اليوم.

و كان للشيعه قدم فى التكلم،كان أول طلوعهم بالتكلم بعد رحله النبى ص و كان جلهم من الصحابه كسلمان و أبى ذر و المقداد و عمار و عمرو بن الحمق و غيرهم و من التابعين كرشيد و كميل و ميثم و سائر العلويين أبادتهم أيدى الأمويين،ثم تأصلوا و قوى أمرهم ثانيا

۱- ۱) كقوله صلى الله عليه و آله فيما روى عنه:لا جبر و لا تفويض بل أمر بين أمرين،و قوله: القدريه مجوس هذه الأمه.

فی زمن الإمامین:الباقر و الصادق(ع)و أخذوا بالبحث و تألیف الکتب و الرسائل، و لم یزالوا یجدون الجد تحت قهر الحکومات و اضطهادها حتی رزقوا بعض الأمن فی الدوله البویهیه (۱)ثم أخنقوا ثانیا حتی صفا لهم الأمر بظهور الدوله الصفویه فی إیران (۲)، ثم لم یزالوا علی ذلک حتی الیوم.

و کانت سیماء بحثهم فی الکلام أشبه بالمعتزله منها بالأشاعره،و لذلک ربما اختلط بعض الآراء کالقول بالحسن و القبح و مسأله الترجیح من غیر مرجح و مسأله القدر و مسأله التفویض،و لذلک أیضا اشتبه الأمر علی بعض الناس فعد الطائفتین أعنی الشیعه و المعتزله ذواتی طریقه واحده فی البحث الکلامی،کفرسی رهان،و قد أخطأ،فإن الأصول المرویه عن أئمه أهل البیت(ع)و هی المعتبره عند القوم لا تلائم مذاق المعتزله فی شیء.

و علی الجمله فن الکلام فن شریف یذب عن المعارف الحقه الدینیه غیر أن المتکلمین من المسلمین أساءوا فی طریق البحث فلم یمیزوا بین الأحکام العقلیه و اختلط عندهم الحق بالمقبول علی ما سیجیء إیضاحه بعض الإیضاح.

و فی هذه البرهه من الزمن نقلت علوم الأوائل من المنطق و الریاضیات و الطبیعیات و الإلهیات و الطب و الحکمه العملیه إلی العربیه،نقل شطر منها فی عهد الأمویین ثم أکمل فی أوائل عهد العباسیین،فقد ترجموا مئات من الکتب من الیونانیه و الرومیه و الهندیه و الفارسیه و السریانیه إلی العربیه،و أقبل الناس یتدارسون مختلف العلوم و لم یلبثوا کثیرا حتی استقلوا بالنظر،و صنفوا فیها کتبا و رسائل،و کان ذلک یغیظ علماء الوقت،و لا سیما ما کانوا یشاهدونه من تظاهر الملاحده من الدهریه و الطبیعیه و المانویه و غیرهم علی المسائل المسلمه فی الدین،و ما کان علیه المتفلسفون من المسلمین من الوقیعه فی الدین و أهله،و تلقی أصول الإسلام و معالم الشرع الطاهره بالإهانه و الإزراء(و لا داء کالجهل).

و من أشد ما کان یغیظهم ما کانوا یسمعونه منهم من القول فی المسائل المبتنیه علی أصول موضوعه مأخوذه من الهیئه و الطبیعیات کوضع الأفلاک البطلیموسیه،و کونها

۱- ۱) فی القرن الرابع من الهجره تقریبا

۲- ۲) فی أوائل القرن العاشر من الهجره.

طبیعه خامسه،و استحاله الخرق و الالتیام فیها،و قدم الأفلاک و الفلکیات بالشخص و قدم العناصر بالنوع،و قدم الأنواع و نحو ذلک فإنها مسائل مبنیه علی أصول موضوعه لم یبرهن علیها فی الفلسفه لکن الجهله من المتفلسفین کانوا یظهرونها فی زی المسائل المبرهن علیها،و کانت الدهریه و أمثالهم و هم یومئذ منتحلون إلیها یضیفون إلی ذلک أمورا أخری من أباطیلهم کالقول بالتناسخ و نفی المعاد و لا سیما المعاد الجسمانی،و یطعنون بذلک کله فی ظواهر الدین و ربما قال القائل منهم:إن الدین مجموع وظائف تقلیدیه أتی بها الأنبیاء لتربیه العقول الساذجه البسیطه و تکمیلها،و أما الفیلسوف المتعاطی للعلوم الحقیقیه فهو فی غنی عنهم و عما أتوا به،و کانوا ذوی أقدام فی طرق الاستدلال.

فدعا ذلک الفقهاء و المتکلمین و حملهم علی تجبیههم بالإنکار و التدمیر علیهم بأی وسیله تیسرت لهم من محاجه و دعوه علیهم و براءه منهم و تکفیر لهم حتی کسروا سورتهم و فرقوا جمعهم و أفنوا کتبهم فی زمن المتوکل،و کادت الفلسفه تنقرض بعده حتی جدده ثانیا المعلم الثانی أبو نصر الفارابی المتوفی سنه ۳۳۹ ثم بعده الشیخ الرئیس أبو علی الحسین بن عبد الله بن سینا المتوفی سنه ۴۲۸ ثم غیرهما من معاریف الفلسفه کأبی علی بن مسکویه و ابن رشد الأندلسی و غیرهما،ثم لم تزل الفلسفه تعیش علی قله من متعاطیها و تجول بین ضعف و قوه.

و هی و إن انتقلت ابتداء إلی العرب لکن لم یشتهر بها منهم إلا الشاذ النادر کالکندی و ابن رشد،و قد استقرت أخیرا فی إیران،و المتکلمون من المسلمین و إن خالفوا الفلسفه و أنکروا علی أهلها أشد الإنکار لکن جمهورهم تلقوا المنطق بالقبول فألفوا فیها الرسائل و الکتب لما وجدوه موافقا لطریق الاستدلال الفطری.

غیر أنهم-کما سمعت-أخطئوا فی استعماله فجعلوا حکم الحدود الحقیقیه و أجزائها مطردا فی المفاهیم الاعتباریه،و استعملوا البرهان فی القضایا الاعتباریه التی لا مجری فیها إلا للقیاس الجدلی فتراهم یتکلمون فی الموضوعات الکلامیه کالحسن و القبح و الثواب و العقاب و الحبط و الفضل فی أجناسها و فصولها و حدودها،و أین هی من الحد؟و یستدلون فی المسائل الأصولیه و المسائل الکلامیه من فروع الدین بالضروره و الامتناع.و ذلک من استخدام الحقائق فی الأمور الاعتباریه و یبرهنون فی أمور ترجع إلی الواجب تعالی بأنه یجب علیه کذا و یقبح منه کذا فیحکمون الاعتبارات علی الحقائق،و یعدونه برهانا،و لیس بحسب

الحقیقه إلا من القیاس الشعری.

و بلغ الإفراط فی هذا الباب إلی حد قال قائلهم:إن الله سبحانه أنزه ساحه من أن یدب فی حکمه و فعله الاعتبار الذی حقیقته الوهم فکل ما کونه تکوینا أو شرعه تشریعا أمور حقیقیه واقعیه،و قال آخر:إن الله سبحانه أقدر من أن یحکم بحکم ثم لا یستطاع من إقامه البرهان علیه،فالبرهان یشمل التکوینیات و التشریعیات جمیعا.إلی غیر ذلک من الأقاویل التی هی لعمری من مصائب العلم و أهله،ثم الاضطرار إلی وضعها و البحث عنها فی المسفورات العلمیه أشد مصیبه.

و فی هذه البرهه ظهر التصوف بین المسلمین،و قد کان له أصل فی عهد الخلفاء یظهر فی لباس الزهد،ثم بان الأمر بتظاهر المتصوفه فی أوائل عهد بنی العباس بظهور رجال منهم کأبی یزید و الجنید و الشبلی و معروف و غیرهم.

یری القوم أن السبیل إلی حقیقه الکمال الإنسانی و الحصول علی حقائق المعارف هو الورود فی الطریقه،و هی نحو ارتیاض بالشریعه للحصول علی الحقیقه،و ینتسب المعظم منهم من الخاصه و العامه إلی علی(ع).

و إذا کان القوم یدعون أمورا من الکرامات،و یتکلمون بأمور تناقض ظواهر الدین و حکم العقل مدعین أن لها معانی صحیحه لا ینالها فهم أهل الظاهر ثقل علی الفقهاء و عامه المسلمین سماعها فأنکروا ذلک علیهم و قابلوهم بالتبری و التکفیر،فربما أخذوا بالحبس أو الجلد أو القتل أو الصلب أو الطرد أو النفی کل ذلک لخلاعتهم و استرسالهم فی أقوال یسمونها أسرار الشریعه،و لو کان الأمر علی ما یدعون و کانت هی لب الحقیقه و کانت الظواهر الدینیه کالقشر علیها و کان ینبغی إظهارها و الجهر بها لکان مشرع الشرع أحق برعایه حالها و إعلان أمرها کما یعلنون،و إن لم تکن هی الحق فما ذا بعد الحق إلا الضلال؟.

و القوم لم یدلوا فی أول أمرهم علی آرائهم فی الطریقه إلا باللفظ ثم زادوا علی ذلک بعد أن أخذوا موضعهم من القلوب قلیلا بإنشاء کتب و رسائل بعد القرن الثالث الهجری، ثم زادوا علی ذلک بأن صرحوا بآرائهم فی الحقیقه و الطریقه جمیعا بعد ذلک فانتشر منهم ما أنشئوه نظما و نثرا فی أقطار الأرض.

و لم يزالوا يزيدون عده و عده و وقوعا فى قلوب العامه و وجاهه حتى بلغوا غايه أوجهم فى القرنين السادس و السابع ثم انتكسوا فى المسير و ضعف أمرهم و أعرض عامه الناس عنهم.

و كان السبب فى انحطاطهم أولا أن شأنا من الشئون الحيويه التى لها مساس بحال عامه الناس إذا اشتد إقبال النفوس عليه و تولع القلوب إليه تاقت إلى الاستدرار من طريقه نفوس و جمع من أرباب المطامع فتزيوا بزيه و ظهروا فى صوره أهله و خاصته فأفسدوا فيه و تعقب ذلك تنفر الناس عنه.

و ثانيا:أن جماعه من مشايخهم ذكروا أن طريقه معرفه النفس طريقه مبتدعه لم يذكرها مشرع الشريعه فيما شرعه إلا أنها طريقه مرضيه ارتضاها الله سبحانه كما ارتضى الرهبانيه المبتدعه بين النصارى قال تعالى:« وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها» :(الحديد:٢٧).

و تلقاه الجمهور منهم بالقبول فأباح ذلك لهم أن يحدثوا للسلوك رسوما و آدابا لم تعهد فى الشريعه،فلم تزل تبتدع سنه جديده و تترك أخرى شرعيه،حتى آل إلى أن صارت الشريعه فى جانب،و الطريقه فى جانب،و آل بالطبع إلى انهماك المحرمات و ترك الواجبات من شعائر الدين و رفع التكاليف،و ظهور أمثال القلندريه و لم يبق من التصوف إلا التكدى و استعمال الأفيون و البنج و هو الفناء.

و الذى يقضى به فى ذلك الكتاب و السنه-و هما يهديان إلى حكم العقل-هو أن القول بأن تحت ظواهر الشريعه حقائق هى باطنها حق،و القول بأن للإنسان طريقا إلى نيلها حق،و لكن الطريق إنما هو استعمال الظواهر الدينيه على ما ينبغى من الاستعمال لا-غير، و حاشا أن يكون هناك باطن لا يهدى إليه ظاهر،و الظاهر عنوان الباطن و طريقه، و حاشا أن يكون هناك شىء آخر أقرب مما دل عليه شارع الدين غفل عنه أو تساهل فى أمره أو أضرب عنه لوجه من الوجوه بالمره و هو القائل عز من قائل:« وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَىْءٍ» :(النحل:٨٩)و بالجمله فهذه طرق ثلاثه فى البحث عن الحقائق و الكشف عنها:الظواهر الدينيه و طريق البحث العقلى و طريق تصفيه النفس، أخذ بكل منها طائفه من المسلمين على ما بين الطوائف الثلاث من التنازع و التدافع،و جمعهم

فی ذلک کزوایا المثلث کلما زدت فی مقدار واحده منها نقصت من الأخریین و بالعکس.

و کـان الکلام فی التفسیر یختلف اختلافا فاحشا بحسب اختلاف مشـرب المفسـرین بمعنی أن النظر العلمی فی غالب الأمر کان یحمل علی القرآن من غیر عکس إلا ما شذ.

و قـد عرفت أن الکتـاب یصـدق من کـل من الطرق مـا هو حق،و حاشـا أن یکون هناک باطن حق و لا یوافقه ظاهره،و حاشا أن یکون هناک حق من ظاهر أو باطن و البرهان الحق یدفعه و یناقضه.

و لـذلک رام جمع من العلمـاء بما عنـدهم من بضاعه العلم علی اختلاف مشاربهم أن یوفقوا بین الظواهر الـدینیه و العرفان کابن العربی و عبد الرزاق الکاشانی و ابن فهد و الشهید الثانی و الفیض الکاشانی.

و آخرون أن یوفقوا بین الفلسـفه و العرفان کأبی نصر الفارابی و الشیخ السهروردی صاحب الإشراق و الشیخ صائن الدین محمد ترکه.

و آخرون أن یوفقوا بین الظواهر الدینیه و الفلسفه کالقاضی سعید و غیره.

و آخرون أن یوفقوا بین الجمیع کـابن سـینا فی تفاسـیره و کتبه و صـدر المتألهین الشـیرازی فی کتبه و رسائله و عـده ممن تأخر عنه.

و مع ذلـک کله فالاختلاـف العریق علی حـاله لا تزیـد کثره المساعی فی قطع أصـله إلا شـده فی التعرق،و لا فی إخماد ناره إلا اشتعالا:

ألفیت کل تمیمه لا تنفع و أنت لا تری أهل کل فن من هـذه الفنون إلا ترمی غیره بجهاله أو زندقه أو سـفاهه رأی،و العامه تتبرأ منهم جمیعا.

کـل ذلـک لمـا تخلفت الأـمه فی أول یوم عن دعوه الکتـاب إلی التفکر الاجتمـاعی (و اعتصـموا بحبل الله جمیعا و لا تتفرقوا)و الکلام ذو شجون.

اللهم اهدنا إلی ما یرضیک عنا و اجمع کلمتنا علی الحق،و هب لنا من لدنک ولیا، و هب لنا من لدنک نصیرا.

(بحث روائی)

فی الدر المنثور،":فی قوله تعالی:«یا أَهْلَ الْکِتابِ قَدْ جاءَکُمْ رَسُولُنا-یُبَیِّنُ لَکُمْ کَثِیراً» (الآیه):أخرج ابن الضریس و النسائی و ابن جریر و ابن أبی حاتم و الحاکم-و صححه- عن ابن عباس قال": من کفر بالرجم فقد کفر بالقرآن من حیث لا یحتسب،قال تعالی:

«یا أَهْلَ الْکِتابِ قَدْ جاءَکُمْ رَسُولُنا-یُبَیِّنُ لَکُمْ کَثِیراً مِمّا کُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْکِتابِ»

قال:

فکان الرجم مما أخفوا.

أقول:إشاره إلی ما سیجیء فی تفسیر قوله تعالی:«یا أَیُّهَا الرَّسُولُ لا یَحْزُنْکَ» Xإلی آخر الآیاتX:(المائده:۴۱)من حدیث کتمان الیهود حکم الرجم فی عهد النبی ص و کشفه عن ذلک.

و فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی:« یُبَیِّنُ لَکُمْ عَلی فَتْرَهٍ مِنَ الرُّسُلِ» -(الآیه)قال:

قال:علی انقطاع من الرسل.

و فی الکافی،بإسناده عن أبی حمزه ثابت بن دینار الثمالی و أبی الربیع قال: حججنا مع أبی جعفر(ع)فی السنه-التی حج فیها هشام بن عبد الملک،و کان معه نافع مولی عمر بن الخطاب-فنظر إلی أبی جعفر(ع)فی رکن البیت-و قد اجتمع علیه الناس فقال نافع:

یا أمیر المؤمنین من هذا الذی تداک علیه الناس؟فقال:هذا نبی أهل الکوفه هذا محمد بن علی،فقال:اشهد لآتینه و لأسالنه عن مسائل-لا یجیبنی فیها إلا نبی أو وصی نبی قال:

فاذهب فاسأله لعلک تخجله.

فجاء نافع حتی اتکأ علی الناس-ثم أشرف علی أبی جعفر(ع)فقال:یا محمد بن علی إنی قرأت التوراه و الإنجیل-و الزبور و الفرقان، و قد عرفت حلالها و حرامها-و قد جئت أسألک عن مسائل لا یجیب فیها إلا نبی أو وصی نبی-قال فرفع أبو جعفر(ع) رأسه فقال:سل عما بدا لک فقال:أخبرنی کم بین عیسی و محمد من سنه؟فقال:أخبرک بقولی أو بقولک؟قال:أخبرنی بالقولین جمیعا-قال:أما فی قولی فخمسمائه سنه،و أما فی قولک فستمائه سنه.

أقول:و قد روی فی أسباب نزول الآیات،أخبار مختلفه کما

رواه الطبری عن

عکرمه: أن الیهود سألت رسول الله ص عن حکم الرجم-فسأل عن أعلمهم فأشاروا إلی ابن صوریا فناشده بالله-هل یجدون حکم الرجم فی کتابهم؟فقال:إنه لما کثر فینا جلدنا مائه و حلقنا الرءوس،فحکم علیهم بالرجم فأنزل الله:«یا أَهْلَ الْکِتابِ إلی قوله -صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ»

و ما رواه أیضا عن ابن عباس قال": أتی رسول الله ص ابن أبی،و بحری بن عمرو،و شاس بن عدی فکلمهم و کلموه،و دعاهم إلی الله و حذرهم نقمته فقالوا:ما تخوفنا یا محمد؟نحن و الله أبناء الله و أحباؤه-کقول النصاری-فأنزل الله فیهم:« وَ قالَتِ الْیَهُودُ وَ النَّصاری» (إلی آخر الآیه.

و ما رواه أیضا عن ابن عباس قال": دعا رسول الله الیهود إلی الإسلام-فرغبهم فیه و حذرهم فأبوا علیه؟فقال لهم معاذ بن جبل-و سعد بن عباده و عقبه بن وهب:یا معشر الیهود اتقوا الله-فوالله إنکم لتعلمون أنه رسول الله-لقد کنتم تذکرونه لنا قبل مبعثه، و تصفونه لنا بصفته،فقال رافع بن حریمه و وهب بن یهودا:ما قلنا لکم هذا،و ما أنزل الله من کتاب من بعد موسی،و لا أرسل بشیرا و لا نذیرا بعده فأنزل الله:«یا أَهْلَ الْکِتابِ قَدْ جاءَکُمْ رَسُولُنا-یُبَیِّنُ لَکُمْ عَلی فَتْرَهٍ» (الآیه)":و قد رواها فی الدر المنثور، عنه و عن غیره و روی غیر ذلک.

و مضامین الروایات کغالب ما ورد فی أسباب نظریه إنما هی تطبیقات للقضایا علی مضامین الآیات ثم قضاء بکونها أسبابا للنزول فهی أسباب نظریه و الآیات کأنها مطلقه نزولا

[سوره المائده (۵): الآیات ۲۰ الی ۲۶]

اشاره

وَ إِذْ قالَ مُوسی لِقَوْمِهِ یا قَوْمِ اُذْکُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَیْکُمْ إِذْ جَعَلَ فِیکُمْ أَنْبِیاءَ وَ جَعَلَکُمْ مُلُوکاً وَ آتاکُمْ مِا لَمْ یُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِینَ (۲۰) یا قَوْمِ اُدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَهَ الَّتِی کَتَبَ اللّهُ لَکُمْ وَ لا تَرْتَدُّوا عَلی أَدْبارِکُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِینَ (۲۱) قالُوا یا مُوسی إِنَّ فِیها قَوْماً جَبّارِینَ وَ إِنّا لَنْ نَدْخُلَها حَتّی یَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ یَخْرُجُوا مِنْها فَإِنّا داخِلُونَ (۲۲) قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِینَ یَخافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَیْهِما اُدْخُلُوا عَلَیْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّکُمْ غالِبُونَ وَ عَلَی اللّهِ فَتَوَکَّلُوا إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۲۳) قالُوا یا مُوسی إِنّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً مَا دامُوا فِیها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّکَ فَقاتِلا إِنّا هاهُنا قاعِدُونَ (۲۴) قالَ رَبِّ إِنِّی لا أَمْلِکُ إِلاّ نَفْسِی وَ أَخِی فَافْرُقْ بَیْنَنا وَ بَیْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِینَ (۲۵) قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَهٌ عَلَیْهِمْ أَرْبَعِینَ سَنَهً یَتِیهُونَ فِی الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَی الْقَوْمِ الْفاسِقِینَ (۲۶)

(بيان)

الآيات غير خاليه عن الاتصال بما قبلها فإنها تشتمل على نقضهم بعض المواثيق المأخوذه عليهم و هو الميثاق بالسمع و الطاعه لموسى،و تجبيههم موسى(ع)بالرد الصريح لما دعاهم إليه و ابتلائهم جزاء لذنبهم هذا بالتيه و هو عذاب إلهى.

و فى بعض الأخبار ما يشعر أن هذه الآيات نزلت قبل غزوه بدر فى أوائل الهجره، على ما ستجىء الإشاره إليها فى البحث الروائى التالى إن شاء الله.

قوله تعالى:« وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» (إلى آخر الآيه)الآيات النازله فى قصص موسى تدل على أن هذه القصه-دعوه موسى إياهم إلى دخول الأرض المقدسه-إنما كانت بعد خروجهم من مصر،كما أن قوله فى هذه الآيه:

«وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً»

يدل على ذلك أيضا.

و يدل قوله:« وَ آتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ» على سبق عده من الآيات النازله عليهم كالمن و السلوى و انفجار العيون من الحجاره و إضلال الغمام.

و يدل قوله:« اَلْقَوْمِ الْفاسِقِينَ» المتكرر مرتين على تحقق المخالفه و معصيه الرسول

منهم قبل القصه مره بعد مره حتى عادوا بذلك متلبسين بصفه الفسق.

فهذه قرائن تدل على وقوع القصه أعنى قصه التيه فى الشطر الأخير من زمان مكث موسى(ع)فيهم بعد أن بعثه الله تعالى إليهم و أن غالب القصص المقتصه فى القرآن عنهم إنما وقعت قبل ذلك.

فقول موسى لهم:« اُذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ» أريد به مجموع النعم التى أنعم الله بها عليهم،و حباهم بها و إنما بدأ بذلك مقدمه لما سيندبهم إليه من دخول الأرض المقدسه فذكرهم نعم ربهم لينشطوا بذلك لاستزاده النعمه و استتمامها فإن الله قد كان أنعم عليهم ببعثه موسى و هذا يتهم إلى دينه،و نجاتهم من آل فرعون،و إنزال التوراه،و تشريع الشريعه فلم يبق لهم من تمام النعمه إلا أن يمتلكوا أرضا مقدسه يستقلون فيها بالقطون و السؤدد.

و قد قسم النعمه التى ذكرهم بها ثلاثه أقسام حين التفصيل فقال:« إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيٰاءَ» و هم الأنبياء الذين فى عمود نسبهم كإبراهيم و إسحاق و يعقوب و من بعدهم من الأنبياء،أو خصوص الأنبياء من بنى إسرائيل كيوسف أو الأسباط و موسى و هارون، و النبوه نعمه أخرى.

ثم قال:« وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً» أى مستقلين بأنفسكم خارجين من ذل استرقاق الفراعنه و تحكم الجبابره،و ليس الملك إلا من استقل فى أمر نفسه و أهله و ماله،و قد كان بنو إسرائيل فى زمن موسى يسيرون بسنه اجتماعيه هى أحسن السنن و هى سنه التوحيد التى تأمرهم بطاعه الله و رسوله،و العدل التام فى مجتمعهم،و عدم الاعتداء على غيرهم من الأمم من غير أن يتأمر عليهم بعضهم أو يختلف طبقاتهم اختلافا يختل به أمر المجتمع،و ما عليهم إلا موسى و هو نبى غير سائر سيره ملك أو رئيس عشيره يستعلى عليهم بغير الحق.

و قيل:المراد بجعلهم ملوكا هو ما قدر الله فيهم من الملك الذى يبتدئ من طالوت فداود إلى آخر ملوكهم،فالكلام على هذا وعد بالملك إخبارا بالغيب فإن الملك لم يستقر فيهم إلا بعد موسى بزمان.و هذا الوجه لا بأس به لكن لا يلائمه قوله:« وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً» و لم يقل:و جعل منكم ملوكا،كما قال:« جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيٰاءَ».

و يمكن أن يكون المراد بالملك مجرد ركوز الحكم عند بعض الجماعه فيشمل سنه

الشيخوخه،و يكون على هذا موسى(ع)ملكا و بعده يوشع النبى و قد كان يوسف ملكا من قبل،و ينتهى إلى الملوك المعروفين طالوت و داود و سليمان و غيرهم. هذا،و يرد على هذا الوجه أيضا ما يرد على سابقه.

ثم قال:« وَ آتاكُمْ مٰا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعٰالَمِينَ» و هى العنايات و الألطاف الإلهيه التى اقترنت بآيات باهره قيمه بتعديل حياتهم لو استقاموا على ما قالوا،و داموا على ما واثقوا، و هى الآيات البينات التى أحاطت بهم من كل جانب أيام كانوا بمصر،و بعد إذ نجاهم الله من فرعون و قومه،فلم يتوافر و يتواتر من الآيات المعجزات و البراهين الساطعات و النعم التى يتنعم بها فى الحياه على أمه من الأمم الماضيه المتقدمه على عهد موسى ما توافرت و تواترت على بنى إسرائيل.

و على هذا فلا وجه لقول بعضهم:إن المراد بالعالمين عالمو زمانهم و ذلك أن الآيه تنفى أن يكون أمه من الأمم إلى ذلك الوقت أوتيت من النعم ما أوتى بنو إسرائيل، و هو كذلك.

قوله تعالى:« يٰا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَهَ الَّتِى كَتَبَ اللّٰهُ لَكُمْ وَ لاٰ تَرْتَدُّوا عَلىٰ أَدْبٰارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خٰاسِرِينَ» أمرهم بدخول الأرض المقدسه،و كان يستنبط من حالهم التمرد و التأبى عن القبول،و لذلك أكد أمره بالنهى عن الارتداد و ذكر استتباعه الخسران.و الدليل على أنه كان يستنبط منهم الرد توصيفه إياهم بالفاسقين بعد ردهم، فإن الرد و هو فسق واحد لا يصحح إطلاق «الْفٰاسِقِينَ» عليهم الدال على نوع من الاستمرار و التكرر.

و قد وصف الأرض بالمقدسه،و قد فسروه بالمطهره من الشرك لسكون الأنبياء و المؤمنين فيها،و لم يرد فى القرآن الكريم ما يفسر هذه الكلمه.و الذى يمكن أن يستفاد منه ما يقرب من هذا المعنى قوله تعالى:« إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بٰارَكْنٰا حَوْلَهُ»:

(إسراء:١)و قوله:« وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كٰانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشٰارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغٰارِبَهَا الَّتِى بٰارَكْنٰا فِيهٰا» :(الأعراف:١٣٧)و ليست المباركه فى الأرض إلا جعل الخير الكثير فيها،و من الخير الكثير إقامه الدين و إذهاب قذاره الشرك.

و قوله:« كَتَبَ اللّٰهُ لَكُمْ» ظاهر الآيات أن المراد به قضاء توطنهم فيها،و لا ينافيه

قوله فی آخرها:« فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً» بل یؤکده فإن قوله:« كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ» کلام مجمل أبهم فیه ذکر الوقت و حتی الأشخاص،فإن الخطاب للأمه من غیر تعرض لحال الأفراد و الأشخاص،کما قیل:إن السامعین لهذا الخطاب الحاضرین المکلفین به ماتوا و فنوا عن آخرهم فی التیه،و لم یدخل الأرض المقدسه إلا أبناؤهم و أبناء أبنائهم مع یوشع بن نون،و بالجمله لا یخلو قوله:« فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً» عن إشعار بأنها مکتوبه لهم بعد ذلک.

و هذه الکتابه هی التی یدل علیها قوله تعالی:« وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ» :(القصص:۶)و قد کان موسی(ع)یرجو لهم ذلک بشرط الاستعانه بالله و الصبر حیث یقول:« قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ الْعاقِبَهُ لِلْمُتَّقِينَ قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» :(الأعراف:۱۲۹).

و هذا هو الذی یخبر تعالی عن إنجازه بقوله:« وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا» :(الأعراف:۱۳۷)فدلت الآیه علی أن استیلاءهم علی الأرض المقدسه و توطنهم فیها کانت کلمه إلهیه و کتابا و قضاء مقضیا مشترطا بالصبر علی الطاعه و عن المعصیه، و فی مر الحوادث.

و إنما عممنا الصبر لمکان إطلاق الآیه،و لأن الحوادث الشاقه کانت تتراکم علیهم أیام موسی و معها الأوامر و النواهی الإلهیه،و کلما أصروا علی المعصیه اشتدت علیهم التکالیف الشاقه کما تدل علی ذلک أخبارهم المذکوره فی القرآن الکریم.

و هذا هو الظاهر من القرآن فی معنی کتابه الأرض المقدسه لهم،و الآیات مع ذلک مبهمه فی زمان الکتابه و مقدارها غیر أن قوله تعالی فی ذیل آیات سوره الإسراء:« وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَ جَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً» :(إسراء:۸)و کذا قول موسی لهم فی ذیل الآیه السابقه:« عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ

تَعْمَلُونَ» :(الأعراف:۱۲۹)و قوله أیضا:« وَ إِذْ قالَ مُوسی لِقَوْمِهِ اذْکُرُوا نِعْمَهَ اللّهِ عَلَیْکُمْ -Xإلی أن قال-X وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکُمْ لَئِنْ شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ وَ لَئِنْ کَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِی لَشَدِیدٌ» (إبراهیم:۷)و ما یناظرها من الآیات تدل علی أن هذه الکتابه کتابه مشترطه لا مطلقه غیر قابله للتغیر و التبدل.

و قد ذکر بعض المفسرین أن مراد موسی فی محکی قوله فی الآیه:« کَتَبَ اللّهُ لَکُمْ» ما وعد الله إبراهیم(ع)،ثم ذکر ما فی التوراه (۱)من وعد الله إبراهیم و إسحاق و یعقوب أنه سیعطی الأرض لنسلهم، و أطال البحث فی ذلک.

و لا یهمنا البحث فی ذلک علی شریطه الکتاب سواء کانت هذه العدات من التوراه الأصلیه أو مما لعبت به ید التحریف فإن القرآن لا یفسر بالتوراه.

قوله تعالی:« قالُوا یا مُوسی إِنَّ فِیها قَوْماً جَبّارِینَ وَ إِنّا لَنْ نَدْخُلَها حَتّی یَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ یَخْرُجُوا مِنْها فَإِنّا داخِلُونَ» قال الراغب:أصل الجبر إصلاح الشیء بضرب من القهر یقال:جبرته فانجبر و اجتبر.قال:و قد یقال الجبر تاره فی الإصلاح المجرد نحو

قول علی رضی الله عنه: یا جابر کل کسیر و یا مسهل کل عسیر ،و منه قولهم للخبز:جابر بن حبه، و تاره فی القهر المجرد نحو

قوله(ع): لا جبر و لا تفویض ،قال:و الإجبار فی الأصل حمل الغیر علی أن یجبر الآخر لکن تعورف فی الإکراه المجرد فقیل:أجبرته علی کذا کقولک:

أکرهته.قال:و الجبار فی صفه الإنسان یقال لمن یجبر نقیصه بادعاء منزله من التعالی لا یستحقها،و هذا لا یقال إلا علی طریق الذم کقوله عز و جل:« وَ خابَ کُلُّ جَبّارٍ عَنِیدٍ» و قوله تعالی.« وَ لَمْ یَجْعَلْنِی جَبّاراً شَقِیًّا» و قوله عز و جل:« إِنَّ فِیها قَوْماً جَبّارِینَ» قال:و لتصور القهر بالعلو علی الأقران قیل: نخله جباره و ناقه جباره انتهی موضع الحاجه.

۱- ۱) کما فی سفر التکوین أنه لما مر إبراهیم بأرض الکنعانیین ظهر له الرب:«و قال لنسلک أعطی هذه الأرض»۱۲:۷ و فیه أیضا:«فی ذلک الیوم قطع الرب مع إبرام میثاقا قائلا:لنسلک أعطی هذه الأرض من نهر مصر إلی النهر الکبیر نهر الفرات»۱۵:۱۸ و فی سفر تثنیه الاشتراع:«الرب إلهنا کلمنا فی حوریب قائلا:کفاکم قعودا فی هذا الجبل،تحولوا و ارتحلوا و ادخلوا جبل الأموریین و کل ما یلیه من القفر و الجبل و السهل و الجنوب و ساحل البحر أرض الکنعانی و لبنان إلی النهر الکبیر نهر الفرات.انظروا قد جعلت أمامکم الأرض ادخلوا و تملکوا الأرض التی أقسم الرب لآبائکم إبراهیم و إسحاق و یعقوب أن یعطیها لهم و لنسلهم من بعدهم»۱-۸.

فظهر أن المراد بالجبارين هم أولو السطوه و القوه من الذين يجبرون الناس على ما يريدون.

و قوله :«وَ إِنّا لَنْ نَدْخُلَها حَتّى يَخْرُجُوا مِنْها» اشتراط منهم خروج القوم الجبارين فى دخول الأرض،و حقيقته الرد لأمر موسى و إن وعدوه ثانيا الدخول على الشرط بقولهم:

«فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنّا داخِلُونَ»

.

و قد ورد فى عده من الأخبار فى صفه هؤلاء الجبارين من العمالقه و عظم أجسامهم و طول قامتهم أمور عجيبه لا يستطيع ذو عقل سليم أن يصدقها،و لا يوجد فى الآثار الأرضيه و الأبحاث الطبيعيه ما يؤيدها فليست إلا موضوعه مدسوسه.

قوله تعالى:« قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا» (إلى آخر الآيه) ظاهر السياق أن المراد بالمخافه مخافه الله سبحانه و أن هناك رجالا كانوا يخافون الله أن يعصوا أمره و أمر نبيه،و منهم هذان الرجلان اللذان قالا،ما قالا و أنهما كانا يختصان من بين أولئك الذين يخافون بأن الله أنعم عليهما،و قد مر فى موارد تقدمت من الكتاب أن النعمه إذا أطلقت فى عرف القرآن يراد بها الولايه الإلهيه فهما كانا من أولياء الله تعالى، و هذا فى نفسه قرينه على أن المراد بالمخافه مخافه الله سبحانه فإن أولياء الله لا يخشون غيره قال تعالى: «أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» :(يونس:۶۲).

و يمكن أن يكون متعلق «أَنْعَمَ» المحذوف أعنى المنعم به هو الخوف،فيكون المراد أن الله أنعم عليهما بمخافته،و يكون حذف مفعول «يَخافُونَ» للاكتفاء بذكره فى قوله:

«أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا»

إذ من المعلوم أن مخافتهما لم يكن من أولئك القوم الجبارين و إلا لم يدعو بنى إسرائيل إلى الدخول بقولهما:« اُدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ» .

و ذكر بعض المفسرين:أن ضمير الجمع فى «يَخافُونَ» عائد إلى بنى إسرائيل و الضمير العائد إلى الموصول محذوف،و المعنى:و قال رجلان من الذين يخافهم بنو إسرائيل قد أنعم الله على الرجلين بالإسلام،و أيدوه بما نسب إلى ابن جبير من قراءه «يَخافُونَ» بضم الياء قالوا.

و ذلك أن رجلين من العمالقه كانا قد آمنا بموسى،و لحقا بنى إسرائيل ثم قالا لبنى إسرائيل ما قالا إراءه لطريق الظفر على العمالقه و الاستيلاء على بلادهم و أرضهم.

و كان هذا التفسير باستناد منهم إلى بعض الأخبار الوارده فى تفسير الآيات لكنه من

الآحاد المشتمله على ما لا شاهد له من الكتاب و غيره.

و قوله:« اُدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ» لعل المراد به أول بلد من بلاد أولئك الجبابره يلى بنى إسرائيل، و قد كان على ما يقال:أريحا،و هذا استعمال شائع أو المراد باب البلده.

و قوله:« فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ» وعد منهما لهم بالفتح و الظفر على العدو، و إنما أخبرا إخبارا بتيا اتكالا منهما بما ذكره موسى(ع)أن الله كتب لهم تلك الأرض لإيمانهما بصدق إخباره،أو أنهما عرفا ذلك بنور الولايه الإلهيه.و قد ذكر المعظم من مفسرى الفريقين:أن الرجلين هما يوشع بن نون و كالب بن يوفنا و هما من نقباء بنى إسرائيل الاثنى عشر.

ثم دعواهم إلى التوكل على ربهم بقولهما:« وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» لأن الله سبحانه كافى من توكل عليه و فيه تطييب لنفوسهم و تشجيع لهم.

قوله تعالى:« قالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها» (الآيه)تكرارهم قولهم:« إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها» ثانيا لإيئاس موسى(ع)من أن يصر على دعوته فيعود إلى الدعوه بعد الدعوه.

و فى الكلام وجوه من الإهانه و الإزراء و التهكم بمقام موسى و ما ذكرهم به من أمر ربهم و وعده فقد سرد الكلام سردا عجيبا،فهم أعرضوا عن مخاطبه الرجلين الداعيين إلى دعوه موسى(ع)أولا،ثم أوجزوا الكلام مع موسى بعد ما أطنبوا فيه بذكر السبب و الخصوصيات فى بادئ كلامهم،و فى الإيجاز بعد الإطناب فى مقام التخاصم و التجاوب دلاله على استملال الكلام و كراهه استماع الحديث أن يمضى عليه المتخاصم الآخر.ثم أكدوا قولهم:« لَنْ نَدْخُلَها» ثانيا بقولهم:« أَبَداً» ثم جرأهم الجهاله على ما هو أعظم من ذلك كله،و هو قولهم مفرعين على ردهم الدعوه:« فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ».

و فى الكلام أوضح الدلاله على كونهم مشبهين كالوثنيين،و هو كذلك فإنهم القائلون على ما يحكيه الله سبحانه عنهم فى قوله:« وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» (الأعراف:۱۳۸)و لم يزالوا على التجسيم و التشبيه حتى اليوم على ما يدل عليه كتبهم

الدائره بينهم.

قوله تعالى:« قالَ رَبِّ إِنِّی لا أَمْلِکُ إِلاّ نَفْسِی وَ أَخِی فَافْرُقْ بَیْنَنا وَ بَیْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِینَ» السیاق یدل علی أن قوله:« إِنِّی لا أَمْلِکُ إِلاّ نَفْسِی وَ أَخِی» کنایه عن نفی القدره علی حمل غیر نفسه و أخیه علی ما أتاهم به من الدعوه.فإنه إنما کان فی مقدرته حمل نفسه علی إمضاء ما دعا إلیه و حمل أخیه هارون و قد کان نبیا مرسلا و خلیفه له فی حیاته لا یتمرد عن أمر الله سبحانه.أو إن المراد أنه لیس له قدره إلا علی نفسه و لا لأخیه قدره إلا کذلک.

و لیس مراده نفی مطلق القدره حتی من حیث إجابه المسئول لإیمان و نحوه حتی ینافی ظاهر سیاق الآیه أن الرجلین من الذین یخافون و آخرین غیرهما کانوا مؤمنین به مستجیبین لدعوته فإنه لم یذکر فیمن یملکه حتی أهله و أهل أخیه مع أن الظاهر أنهم ما کانوا لیتخلفوا عن أوامره.

و ذلک أن المقام لا یقتضی إلا ذلک فإنه دعاهم إلی خطب مشروع فأبلغ و أعذر فرد علیه المجتمع الإسرائیلی دعوته أشنع رد و أقبحه،فکان مقتضی هذا الحال أن یقول:

رب إنی أبلغت و أعذرت و لا أملک فی إقامه أمرک إلا نفسی و کذلک أخی،و قد قمنا بما علینا من واجب التکلیف و لکن القوم واجهونا بأشد الامتناع،و نحن الآن آیسان منهم،و السبیل منقطع فاحلل أنت هذه العقده و مهد بربوبیتک السبیل إلی نیل ما وعدته لهم من تمام النعمه و إیراثهم الأرض و استخلافهم فیها،و احکم و افصل بیننا و بین هؤلاء الفاسقین.

و هذا المورد علی خلاف جمیع الموارد التی عصوا فیها أمر موسی کمسأله الرؤیه و عباده العجل و دخول الباب و قول حطه و غیرها یختص بالرد الصریح من المجتمع الإسرائیلی لأمره من غیر أی رفق و ملاءمه،و لو ترکهم موسی علی حالهم،و أغمض عن أمره لبطلت الدعوه من أصلها،و لم یتمش له بعد ذلک أمر و لا نهی و تلاشت بینهم أرکان ما أوجده من الوحده.

و یتبین بهذا البیان أولا:أن مقتضی هذا الحال أن یتعرض موسی(ع)فی شکواه إلی ربه لحال نفسه و أخیه، و هما المبلغان عن الله تعالی،و لا یتعرض لحال غیرهما من المؤمنین و إن کانوا غیر متمردین.إذ لا شأن لهم فی التبلیغ و الدعوه،و المقام إنما یقتضی التعرض

لحال مبلغ الحكم لا العامل الآخذ به المستجيب له.

و ثانيا:أن المقام كان يقتضى رجوع موسى(ع)إلى ربه بالشكوى و هو فى الحقيقه استنصار منه فى إجراء الأمر الإلهى.

و ثالثا:أن قوله:« وَ أَخِي» معطوف على الياء فى قوله:« إِنِّي» و المعنى:و أخى مثلى لا يملك إلا نفسه لا على قوله:« نَفْسِي» فإنه خلاف ما يقتضيه السياق و إن كان المعنى صحيحا على جميع التقادير فإن موسى و هارون كما كانا يملك كل منهما من نفسه الطاعه و الامتثال كان موسى يملك من نفس هارون الطاعه لكونه خليفته فى حياته،و كذا كانا يملكان ممن أخلص لله من المؤمنين السمع و الطاعه.

و رابعا:أن قوله:« فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ» ليس دعاء منه على بنى إسرائيل بالحكم الفصل المستعقب لنزول العذاب عليهم أو بالتفريق بينهما و بينهم بإخراجهما من بينهم أو بتوفيهما فإنه(ع)كان يدعوهم إلى ما كتب الله لهم من تمام النعمه،و كان هو الذى كتب الله المن على بنى إسرائيل بإنجائهم و استخلافهم فى الأرض بيده كما قال تعالى:« وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ»:

(القصص:۵).

و كان بنو إسرائيل يعلمون ذلك منه كما يستفاد من قولهم على ما حكى الله:« قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا» XالآيهX:(الأعراف:۱۲۹).

و يشهد بذلك أيضا قوله تعالى:« فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ» فإنه يكشف عن أن موسى(ع)كان يشفق عليهم من نزول السخط الإلهى،و كان من المترقب أن يحزن بسبب حلول نقمه التيه بهم.

: «قوله تعالى قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ» الضمير فى قوله:« فَإِنَّها» راجعه إلى الأرض المقدسه،و المراد بالتحريم التحريم التكوينى و هو القضاء،و التيه التحير،و اللام فى «الْأَرْضِ» للعهد،و قوله «فَلا تَأْسَ» نهى من الأسى و هو الحزن،و قد أمضى الله تعالى قول موسى(ع)حيث وصفهم فى دعائه بالفاسقين.

و المعنى:أن الأرض المقدسه أى دخولها و تملكها محرمه عليهم،أى قضينا أن

لا- يوفقوا لدخولها أربعين سنه يسيرون فيها فى الأرض متحيرين لا هم مدنيون يستريحون إلى بلد من البلاد،و لا هم بدويون يعيشون عيشه القبائل و البدويين،فلا- تحزن على القوم الفاسقين من نزول هذه النقمه عليهم لأنهم فاسقون لا ينبغى أن يحزن عليهم إذا أذيقوا وبال أمرهم.

(بحث روائى)

فى الدر المنثور،أخرج ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ص قال: كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم دابه-و امرأه كتب ملكا.

و فيه:أخرج أبو داود فى مراسله عن زيد بن أسلم: فى قوله:« وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً» قال:قال رسول الله ص: زوجه و مسكن و خادم.

أقول:و روى غير هاتين الروايتين روايات أخرى فى هذا المعنى غير أن الآيه فى سياقها لا تلائم هذا التفسير،فإنه و إن كان من الممكن أن يكون من دأب بنى إسرائيل أن يسموا كل من كان له بيت و امرأه و خادم ملكا أو يكتبوه ملكا إلا أن من البديهى أنهم لم يكونوا كلهم حتى الخوادم على هذا النعت ذوى بيوت و نساء و خدام فالكائن منهم على هذه الصفه بعضهم و يماثلهم فى ذلك سائر الأمم و الأجيال فاتخاذ البيوت و النساء و الخدام عاده جاريه فى جميع الأمم لا يخلو عن ذلك أمه عن الأمم،و إذا كان كذلك لم يكن أمرا يخص بنى إسرائيل حتى يمتن الله عليهم فى كلامه بأنه جعلهم ملوكا،و الآيه فى مقام الامتنان.

و لعل التنبه على ذلك أوجب وقوع ما وقع فى بعض الروايات كما عن قتاده:أنهم أول من ملك الخدم،و التاريخ لا يصدقه.

و فى أمالى المفيد،بإسناده عن أبى حمزه عن أبى جعفر(ع)قال: لما انتهى لهم موسى إلى الأرض المقدسه قال لهم:« اُدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَهَ الَّتِى كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ-وَ لاَ تَرْتَدُّوا عَلىَ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ» - و قد كتبها الله لهم «قَالُوا يَا مُوسىَ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتّى يَخْرُجُوا مِنْهَا-فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ- قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ-فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ-وَ عَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُوا

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ- قالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها-فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ- قالَ رَبِّ إِنِّی لا أَمْلِكُ إِلاّ نَفْسِی وَ أَخِی-فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ»

-فلما أبوا أن يدخلوها حرمها الله عليهم-فتاهوا فی أربع فراسخ أربعين سنه يتيهون فی الأرض-فلا تأس علی القوم الفاسقين.

قال أبو عبد الله(ع):كانوا إذا أمسوا نادی مناديهم:الرحيل فيرتحلون بالحداء و الزجر حتی إذا أسحروا-أمر الله الأرض فدارت بهم فيصبحوا فی منزلهم-الذی ارتحلوا منه فيقولون:قد أخطأتم الطريق فمكثوا بهذا أربعين سنه،و نزل عليهم المن و السلوی حتی هلكوا جميعا إلا رجلان:يوشع بن نون و كالب بن يوفنا و أبناؤهم-و كانوا يتيهون فی نحو أربع فراسخ-فإذا أرادوا أن يرتحلوا-يبست ثيابهم عليهم و خفافهم.

قال:و كان معهم حجر-إذا نزلوا ضربه موسی بعصاه-فانفجرت منه اثنتا عشره عينا-لكل سبط عين،فإذا ارتحلوا رجع الماء إلی الحجر-و وضع الحجر علی الدابه، الحديث.

أقول:و الروايات فيما يقرب من هذه المعانی كثيره من طرق الشيعه و أهل السنه و قوله فی الروايه:و قال أبو عبد الله(إلخ)روايه أخری، و هذه الروايات و إن اشتملت فی معنی التيه و غيره علی أمور لا يوجد فی كلامه تعالی ما تتأيد به لكنها مع ذلك لا تشتمل علی شیء مما يخالف الكتاب،و أمر بنی إسرائيل فی زمن موسی(ع)كان عجيبا تحتف بحياتهم خوارق العاده من كل ناحيه فلا ضير فی أن يكون تيههم علی هذا النحو المذكور فی الروايات.

و فی تفسير العياشی،عن مسعده بن صدقه عن أبی عبد الله(ع): أنه سئل عن قول:« اُدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَهَ الَّتِی كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ» قال:كتبها لهم ثم محاها ثم كتبها لأبنائهم فدخلوها-و الله يمحو ما يشاء و يثبت و عنده أم الكتاب.

أقول.و روی هذا المعنی أيضا عن إسماعيل الجعفی عنه(ع)و عن زراره و حمران و محمد بن مسلم عن أبی جعفر(ع).و قد قاس(ع)الكتابه بالنسبه إلی السامعين لخطاب موسی(ع)بدخول الأرض،و إلی الداخلين فيها فأنتج البداء فی خصوص المكتوب لهم فلا ينافی ذلك ظاهر سياق الآيه أن المكتوب لهم هم الداخلون،و إنما حرموا الدخول أربعين سنه و رزقوه بعدها فإن الخطاب فی الآيه متوجه بحسب المعنی

إلى المجتمع الإسرائيلى فيتحد عليه المكتوب لهم الدخول مع الداخلين لكونهم جميعا أمه واحده كتب لها الدخول إجمالا ثم حرمت الدخول مده و رزقته بعدها و لا بداء على هذا و إن كان بالنظر إلى خصوص الأشخاص بداء.

و فى الكافى،بإسناده عن عبد الرحمن بن يزيد عن أبى عبد الله(ع)قال:

قال رسول الله ص: مات داود النبى يوم السبت مفجوا-فأظلته الطير بأجنحتها، و مات موسى كليم الله فى التيه-فصاح صائح من السماء مات موسى-و أى نفس لا تموت

[سوره المائده (۵): الآيات ۲۷ الى ۳۲]

اشاره

وَ اُتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ اِبْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ اَلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اَللّٰهُ مِنَ اَلْمُتَّقِينَ (۲۷) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مٰا أَنَا بِبٰاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخٰافُ اَللّٰهَ رَبَّ اَلْعٰالَمِينَ (۲۸) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحٰابِ اَلنّٰارِ وَ ذٰلِكَ جَزٰاءُ اَلظّٰالِمِينَ (۲۹) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ (۳۰) فَبَعَثَ اَللّٰهُ غُرٰاباً يَبْحَثُ فِي اَلْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوٰارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قٰالَ يٰا وَيْلَتىٰ أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هٰذَا اَلْغُرٰابِ فَأُوٰارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ اَلنّٰادِمِينَ (۳۱) مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنٰا عَلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِي اَلْأَرْضِ فَكَأَنَّمٰا قَتَلَ اَلنّٰاسَ جَمِيعاً وَ مَنْ أَحْيٰاهٰا فَكَأَنَّمٰا أَحْيَا اَلنّٰاسَ جَمِيعاً وَ لَقَدْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُنٰا بِالْبَيِّنٰاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ فِي اَلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (۳۲)

(بيان)

الآيات تنبئ عن قصه ابنى آدم،و تبين أن الحسد ربما يبلغ بابن آدم إلى حيث يقتل أخاه ظالما فيصبح من الخاسرين و يندم ندامه لا يستتبع نفعا،و هى بهذا المعنى ترتبط بما قبلها من الكلام على بنى إسرائيل و استنكافهم عن الإيمان برسول الله ص فإن إباءهم عن قبول الدعوه الحقه لم يكن إلا حسدا و بغيا،و هذا شأن الحسد يبعث الإنسان إلى قتل أخيه ثم يوقعه فى ندامه و حسره لا مخلص عنها أبدا،فليعتبروا بالقصه و لا يلحوا فى حسدهم ثم فى كفرهم ذاك الإلحاح.

قوله تعالى:« وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ» (الآيه) التلاوه من التلو و هى القراءه سميت بها لأن القارئ للنبأ يأتى ببعض أجزائه فى تلو بعض آخر.و النبأ هو الخبر إذا كان ذا جدوى و نفع.و القربان ما يتقرب به إلى الله سبحانه أو إلى غيره،و هو فى الأصل مصدر لا يثنى و لا يجمع.و التقبل هو القبول بزياده عنايه و اهتمام بالمقبول و الضمير فى قوله «عَلَيْهِمْ» لأهل الكتاب لما مر من كونهم هم المقصودين فى سرد الكلام.

و المراد بهذا المسمى بآدم هو آدم الذى يذكر القرآن أنه أبو البشر،و قد ذكر بعض المفسرين أنه كان رجلا من بنى إسرائيل تنازع ابناه فى قربان قرباه فقتل أحدهما الآخر، و هو قابيل أو قايين قتل هابيل و لذلك قال تعالى بعد سرد القصه:« مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنٰا عَلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ .

و هو فاسد أما أولا:فلأن القرآن لم يذكر ممن سمى بآدم إلا الذى يذكر أنه أبو البشر،و لو كان المراد بما فى الآيه غيره لكان من اللازم نصب القرينه على ذلك لئلا يبهم أمر القصه.

و أما ثانيا فلأن بعض ما ذكر من خصوصيات القصه كقوله:« فَبَعَثَ اللّٰهُ غُرٰاباً» إنما يلائم حال الإنسان الأولى الذى كان يعيش على سذاجه من الفكر و بساطه من الإدراك، يأخذ باستعداده الجبلى فى ادخار المعلومات بالتجارب الحاصله من وقوع الحوادث الجزئيه حادثه بعد حادثه،فالآيه ظاهره فى أن القاتل ما كان يدرى أن الميت يمكن أن يستر جسده بمواراته فى الأرض،و هذه الخاصه إنما تناسب حال ابن آدم أبى البشر لا حال رجل

من بنى إسرائيل، و قد كانوا أهل حضاره و مدنيه بحسب حالهم فى قوميتهم لا يخفى على أحدهم أمثال هذه الأمور قطعا.

و أما ثالثا فلأن قوله:و لذلك قال تعالى بعد تمام القصه- مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنٰا عَلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ، يريد به الجواب عن سؤال أورد على الآيه،و هو أنه ما وجه اختصاص الكتابه ببنى إسرائيل مع أن الذى تقتضيه القصه-و هو الذى كتبه الله-يعم حال جميع البشر،من قتل منهم نفسا فكأنما قتل الناس جميعا،و من أحيا منهم نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا.

فأجاب القائل بقوله و لذلك قال تعالى(إلخ)إن القاتل و المقتول لم يكونا ابنى آدم أبى البشر حتى تكون قصتهما مشتمله على حادثه من الحوادث الأوليه بين النوع الإنسانى فيكون عبره يعتبر بها كل من جاء بعدهما،و إنما هما ابنا رجل من بنى إسرائيل و كان نبأهما من الأخبار القوميه الخاصه و لذلك أخذ عبره مكتوبه لخصوص بنى إسرائيل.

لكن ذلك لا يحسم ماده الإشكال فإن السؤال بعد باق على حاله فإن كون قتل الواحد بمنزله قتل الجميع و إحياء الواحد بمنزله إحياء الجميع معنى يرتبط بكل قتل وقع بين هذا النوع من غير اختصاصه ببعض دون بعض،و قد وقع ما لا يحصى من القتل قبل بنى إسرائيل،و قبل هذا القتل الذى يشير إليه،فما باله رتب على قتل خاص و كتب على قوم خاص؟.

على أن الأمر لو كان كما يقول كان الأحسن أن يقال:من قتل منكم نفسا(إلخ) ليكون خاصا بهم،ثم يعود السؤال فى هذا التخصيص مع عدم استقامته فى نفسه.

و الجواب عن أصل الإشكال أن الذى يشتمل عليه قوله:« أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ» (الآيه)حكمه بالغه و ليس بحكم مشرع فالمراد بالكتابه عليهم بيان هذه الحكمه لهم مع عموم فائدتها لهم و لغيرهم كالحكم و المواعظ التى بينت فى القرآن لأمه النبى ص مع عدم انحصار فائدتها فيهم.و إنما ذكر فى الآيه أنه بينه لهم لأن الآيات مسوقه لعظتهم و تنبيههم و توبيخهم على ما حسدوا النبى ص و أصروا فى العناد و إشعال نار الفتن و التسبيب إلى القتال و مباشره الحروب على المسلمين،و لذلك ذيل قوله:« مَنْ قَتَلَ نَفْساً» (إلخ) بقوله:« وَ لَقَدْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُنٰا بِالْبَيِّنٰاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ»

على أن أصل القصه على النحو الذى ذكره لا مأخذ له روايه و لا تاريخا.

فتبين أن قوله:« نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ» يراد به قصه ابنى آدم أبى البشر،و تقييد الكلام بقوله:« بِالْحَقِّ»- و هو متعلق بالنبإ أو بقوله «وَ اتْلُ»- لا يخلو عن إشعار أو دلاله على أن المعروف الدائر بينهم من النبإ لا يخلو من تحريف و سقط،و هو كذلك فإن القصه موجوده فى الفصل الرابع من سفر التكوين من التوراه،و ليس فيها خبر بعث الغراب و بحثه فى الأرض،و القصه مع ذلك صريحه فى تجسم الرب تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

و قوله: «إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ» ظاهر السياق أن كل واحد منهما قدم إلى الرب تعالى شيئا يتقرب به و إنما لم يثن لفظ القربان لكونه فى الأصل مصدرا لا يثنى و لا يجمع.

و قوله: «قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» القائل الأول هو القاتل و الثانى هو المقتول،و سياق الكلام يدل على أنهما علما تقبل قربان أحدهما و عدم تقبله من الآخر،و أما أنهما من أين علما ذلك؟أو بأى طريق استدلوا عليه؟فالآيه ساكته عن ذلك.

غير أنه ذكر فى موضع من كلامه تعالى:أنه كان من المعهود عند الأمم السابقه أو عند بنى إسرائيل خاصه تقبل القربان المتقرب به بأكل النار إياه قال تعالى: «الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلاّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النّارُ قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وَ بِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» :(آل عمران:۱۸۳)و القربان معروف عند أهل الكتاب إلى هذا اليوم (۱)فمن الممكن أن يكون التقبل للقربان فى هذه القصه أيضا على ذلك النحو،و خاصه بالنظر إلى إلقاء القصه إلى أهل الكتاب المعتقدين لذلك،و كيف كان فالقاتل و المقتول جميعا كانا يعلمان قبوله من أحدهما و رده من الآخر.

ثم السياق يدل أيضا على أن القائل «لَأَقْتُلَنَّكَ» هو الذى لم يتقبل قربانه،و أنه

۱- ۱) القربان عند اليهود أنواع كذبائح الحيوان بالتضحيه،و تقدمه الدقيق و الزيت و اللبان و باكوره الثمار،و عند النصارى ما يقدمونه من الخبز و الخمر فيتبدل إلى لحم المسيح و دمه حقيقه فى زعمهم.

إنما قال ذلك حسدا من نفسه إذ لم يكن هناك سبب آخر،و لا أن المقتول كان قد أجرم إجراما باختيار منه حتى يواجه بمثل هذا القول و يهدد بالقتل.

فقول القاتل:« لَأَقْتُلَنَّكَ» تهديد بالقتل حسدا لقبول قربان المقتول دون القاتل فقول المقتول:« إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» إلى آخر ما حكى الله تعالى عنه جواب عما قاله القاتل فيذكر له أولا:أن مسأله قبول القربان و عدم قبوله لا صنع له فى ذلك و لا إجرام، و إنما الاجرام من قبل القاتل حيث لم يتق الله فجازاه الله بعدم قبول قربانه.

و ثانيا:أن القاتل لو أراد قتله و بسط إليه يده لذلك ما هو بباسط يده إليه ليقتله لتقواه و خوفه من الله سبحانه،و إنما يريد على هذا التقدير أن يرجع القاتل و هو يحمل إثم المقتول و إثم نفسه فيكون من أصحاب النار و ذلك جزاء الظالمين.

فقوله :«إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» مسوق لقصر الإفراد للدلاله على أن التقبل لا يشمل قربان التقى و غير التقى جميعا،أو لقصر القلب كأن القاتل كان يزعم أنه سيتقبل قربانه دون قربان المقتول زعما منه أن الأمر لا يدور مدار التقوى أو أن الله سبحانه غير عالم بحقيقه الحال،يمكن أن يشتبه عليه الأمر كما ربما يشتبه على الإنسان.

و فى الكلام بيان لحقيقه الأمر فى تقبل العبادات و القرابين،و موعظه و بلاغ فى أمر القتل و الظلم و الحسد،و ثبوت المجازاه الإلهيه و أن ذلك من لوازم ربوبيه رب العالمين فإن الربوبيه لا تتم إلا بنظام متقن بين أجزاء العالم يؤدى إلى تقدير الأعمال بميزان العدل و جزاء الظلم بالعذاب الأليم ليرتدع الظالم عن ظلمه أو يجزى بجزائه الذى أعده لنفسه و هو النار.

قوله تعالى:« لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مٰا أَنَا بِبٰاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ» (إلخ) اللام للقسم،و بسط اليد إليه كنايه عن الأخذ بمقدمات القتل و إعمال أسبابه،و قد أتى فى جواب الشرط بالنفى الوارد على الجمله الاسميه،و بالصفه (بِبٰاسِطٍ) دون الفعل و أكد النفى بالباء ثم الكلام بالقسم،كل ذلك للدلاله على أنه بمراحل من البعد من إراده قتل أخيه،لا يهم به و لا يخطر بباله.

و أكد ذلك كله بتعليل ما ادعاه من قوله:« مٰا أَنَا بِبٰاسِطٍ يَدِيَ» (إلخ):

«بقوله إِنِّي أَخٰافُ اللّهَ رَبَّ الْعٰالَمِينَ» فإن ذكر المتقين لربهم و هو الله رب العالمين الذى يجازى فى

كل إثم بما يتعقبه من العذاب ينبه فى نفوسهم غريزه الخوف من الله تعالى،و لا يخليهم و إن يرتكبوا ظلما يوردهم مورد الهلكه.

ثم ذكر تأويل قوله:« لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مٰا أَنَا بِبٰاسِطٍ يَدِيَ» (إلخ)بمعنى حقيقه هذا الذى أخبر به،و محصله أن الأمر على هذا التقدير يدور بين أن يقتل هو أخاه فيكون هو الظالم الحامل للإثم الداخل فى النار،أو يقتله أخوه فيكون هو كذلك، و ليس يختار قتل أخيه الظالم على سعاده نفسه و ليس بظالم،بل يختار أن يشقى أخوه الظالم بقتله و يسعد هو و ليس بظالم،و هذا هو المراد بقوله:« إِنِّي أُرِيدُ، إلخ»كنى بالإراده عن الاختيار على تقدير دوران الأمر.

فالآيه فى كونها تأويلا لقوله:« لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ» (إلخ)كالذى وقع فى قصه موسى و صاحبه حين قتل غلاما لقياه فاعترض عليه موسى بقوله:« أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّهً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً» فنبأه صاحبه بتأويل ما فعل بقوله:« وَ أَمَّا الْغُلاٰمُ فَكٰانَ أَبَوٰاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينٰا أَنْ يُرْهِقَهُمٰا طُغْيٰاناً وَ كُفْراً فَأَرَدْنٰا أَنْ يُبْدِلَهُمٰا رَبُّهُمٰا خَيْراً مِنْهُ زَكٰاهً وَ أَقْرَبَ رُحْماً» :(الكهف:٨١).

فقد أراد المقتول أى اختار الموت مع السعاده و إن استلزم شقاء أخيه بسوء اختياره على الحياه مع الشقاء و الدخول فى حزب الظالمين،كما اختار صاحب موسى موت الغلام مع السعاده و إن استلزم الحزن و الأسى من أبويه على حياته و صيرورته طاغيا كافرا يضل بنفسه و يضل أبويه،و الله يعوضهما منه من هو خير منه زكاه و أقرب رحما.

و الرجل أعنى ابن آدم المقتول من المتقين العلماء بالله،أما كونه من المتقين فلقوله:

«إِنَّمٰا يَتَقَبَّلُ اللّٰهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ»

المتضمن لدعوى التقوى،و قد أمضاها الله تعالى بنقله من غير رد،و أما كونه من العلماء بالله فلقوله:« إِنِّي أَخٰافُ اللّٰهَ رَبَّ الْعٰالَمِينَ» فقد ادعى مخافه الله و أمضاها الله سبحانه منه،و قد قال تعالى :«إِنَّمٰا يَخْشَى اللّٰهَ مِنْ عِبٰادِهِ الْعُلَمٰاءُ» :(فاطر:

٢٨)فحكايته تعالى قوله: «إِنِّي أَخٰافُ اللّٰهَ رَبَّ الْعٰالَمِينَ» و إمضاؤه له توصيف له بالعلم كما وصف صاحب موسى أيضا بالعلم إذ قال: «وَ عَلَّمْنٰاهُ مِنْ لَدُنّٰا عِلْماً» :(الكهف:٦٥).

و كفى له علما ما خاطب به أخاه الباغى عليه من الحكمه البالغه و الموعظه الحسنه فإنه بين عن طهاره طينته و صفاء فطرته: أن البشر ستكثر عدتهم ثم تختلف بحسب الطبع البشرى

جماعتهم فيكون منهم متقون و آخرون ظالمون،و أن لهم جميعا و لجميع العالمين ربا واحدا يملكهم و يدبر أمرهم،و أن من التدبير المتقن أن يحب و يرتضى العدل و الإحسان،و يكره و يسخط الظلم و العدوان و لازمه وجوب التقوى و مخافه الله على الإنسان و هو الدين،فهناك طاعات و قربات و معاصى و مظالم،و أن الطاعات و القربات إنما تتقبل إذا كانت عن تقوى، و أن المعاصى و المظالم آثام يحملها الظالم،و من لوازمه أن تكون هناك نشأه أخرى فيها الجزاء،و جزاء الظالمين النار.

و هذه-كما ترى-أصول المعارف الدينيه و مجامع علوم المبدأ و المعاد أفاضها هذا العبد الصالح إفاضه ضافيه لأخيه الجاهل الذى لم يكن يعرف أن الشيء يمكن أن يتوارى عن الأنظار بالدفن حتى تعلمه من الغراب،و هو لم يقل لأخيه حينما كلمه:إنك إن أردت أن تقتلنى ألقيت نفسى بين يديك و لم أدافع عن نفسى و لا أتقى القتل،و إنما قال:ما كنت لأقتلك.

و لم يقل:إنى أريد أن أقتل بيدك على أى تقدير لتكون ظالما فتكون من أصحاب النار فإن التسبيب إلى ضلال أحد و شقائه فى حياته ظلم و ضلال فى شريعه الفطره من غير اختصاص بشرع دون شرع،و إنما قال:إنى أريد ذلك و أختاره على تقدير بسطك يدك لقتلى.

و من هنا يظهر اندفاع ما أورد على القصه:أنه كما أن القاتل منهما أفرط بالظلم و التعدى كذلك المقتول قصر بالتفريط و الانظلام حيث لم يخاطبه و لم يقابله بالدفاع عن نفسه بل سلم له أمر نفسه و طاوعه فى إراده قتله حيث قال له:« لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ» (إلخ).

وجه الاندفاع أنه،لم يقل:إنى لا أدافع عن نفسى و أدعك و ما تريد منى و إنما قال:

لست أريد قتلك،و لم يذكر فى الآيه أنه قتل و لم يدافع عن نفسه على علم منه بالأمر فلعله قتله غيله أو قتله و هو يدافع أو يحترز.

و كذا ما أورد عليها أنه ذكر إرادته تمكين أخيه من قتله ليشقى بالعذاب الخالد ليكون هو بذلك سعيدا حيث قال:« إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ» كبعض المتقشفين من أهل العباده و الورع حيث يرى أن الذى عليه هو التزهد و التعبد،و إن ظلمه ظالم أو تعدى عليه متعد حمل الظالم وزر ظلمه،و ليس عليه من الدفاع عن حقه إلا الصبر و الاحتساب.و هذا من الجهل،فإنه من الإعانه على الإثم،

و هی توجب اشتراک المعین و المعان فی الإثم جمیعا لا انفراد الظالم بحمل الاثنین معا.

وجه الاندفاع:أن قوله:« إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ»، قول علی تقدیر بالمعنی الذی تقدم بیانه.

و قد أجیب عن الإشکالین ببعض وجوه سخیفه لا جدوی فی ذکرها.

قوله تعالی:« إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ فَتَکُونَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ»، أی ترجع بإثمی و إثمک کما فسره بعضهم،و قال الراغب فی مفرداته:أصل البواء مساواه الأجزاء فی المکان خلاف النبوه الذی هو منافاه الأجزاء یقال:مکان بواء إذا لم یکن نابئا بنازله،و بوأت له مکانا:سویته فتبوء-إلی أن قال-و قوله: إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ أی تقیم بهذه الحاله.قال:

(أنکرت باطلها و بؤت بحقها.) انتهی و علی هذا فتفسیره بالرجوع تفسیر بلازم المعنی.

و المراد بقوله:« أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ» أن ینتقل إثم المقتول ظلما إلی قاتله علی إثمه الذی کان له فیجتمع علیه الإثمان،و المقتول یلقی الله سبحانه و لا إثم علیه،فهذا ظاهر قوله:« أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ» و قد ورد بذلک الروایات و الاعتبار العقلی یساعد علیه.

و قد تقدم شطر من البحث فیه فی الکلام علی أحکام الأعمال فی الجزء الثانی من الکتاب.

و الإشکال علیه بأن لازمه جواز مؤاخذه الإنسان بذنب غیره،و العقل یحکم بخلافه، و قد قال تعالی:« أَلّا تَزِرُ وازِرَهٌ وِزْرَ أُخْرىٰ» : (النجم:۳۸)مدفوع بأن ذلک لیس من أحکام العقل النظری حتی یختم علیه باستحاله الوقوع،بل من أحکام العقل العملی التی تتبع مصالح المجتمع الإنسانی فی ثبوتها و تغیرها،و من الجائز أن یعتبر المجتمع الفعل الصادر عن أحد فعلا صادرا عن غیره و یکتبه علیه و یؤاخذه به،أو الفعل الصادر عنه غیر صادر عنه کما إذا قتل إنسانا و للمجتمع علی المقتول حقوق کان یجب أن یستوفیها منه،فمن الجائز أن یستوفی المجتمع حقوقه من القاتل،و کما إذا بغی علی المجتمع بالخروج و الإفساد و الإخلال بالأمن العام فإن للمجتمع أن یعتبر جمیع الحسنات الباغی کأن لم تکن،إلی غیر ذلک.

ففی هذه الموارد و أمثالها لا یری المجتمع السیئات التی صدرت من المظلوم إلا أوزارا

للظالم،و إنما تزر وازرته وزر نفسها لا وزر غيرها،لأنها تملكتها من الغير بما أوقعته عليه من الظلم و الشر نظير ما يبتاع الإنسان ما يملكه غيره بثمن،فكما أن تصرفات المالك الجديد لا تمنع لكون المالك الأول مالكا للعين زمانا لانتقالها إلى غيره ملكا،كذلك لا يمنع قوله:« أَلاّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ» مؤاخذه النفس القاتله بسيئه بمجرد أن النفس الوازره كانت غيرها زمانا،و لا أن قوله:« لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ» يبقى بلا فائده و لا أثر بسبب جواز انتقال الوزر بسبب جديد كما لا يبقى

قوله(ع): «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفسه» بلا فائده بتجويز انتقال الملك ببيع و نحوه.

و قد ذكر بعض المفسرين:أن المراد بقوله:« بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ» بإثم قتلى إن قتلتنى و إثمك الذى كنت أثمته قبل ذلك كما نقل عن ابن مسعود و ابن عباس و غيرهما،أو أن المراد بإثم قتلى و إثمك الذى لم يتقبل من أجله قربانك كما نقل عن الجبائى و الزجاج،أو أن معناه بإثم قتلى و إثمك الذى هو قتل جميع الناس كما نقل عن آخرين.

و هذه وجوه ذكروها ليس على شىء منها من جهه اللفظ دليل،و لا يساعد عليه اعتبار.

على أن المقابله بين الإثمين مع كونهما جميعا للقاتل ثم تسميه أحدهما بإثم المقتول و غيره بإثم القاتل خاليه عن الوجه.

قوله تعالى:« فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ» قال الراغب فى مفرداته: الطوع الانقياد و يضاده الكره،و الطاعه مثله لكن أكثر ما يقال فى الايتمار لما أمر و الارتسام فيما رسم،و قوله: فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ نحو أسمحت له قرينته و انقادت له و سولت،و طوعت أبلغ من أطاعت و طوعت له نفسه بإزاء قولهم:تابت عن كذا نفسه.انتهى ملخصا.و ليس مراده أن طوعت مضمن معنى انقادت أو سولت بل يريد أن التطويع يدل على التدريج كالإطاعه على الدفعه،كما هو الغالب فى بابى الإفعال و التفعيل فالتطويع فى الآيه اقتراب تدريجى للنفس من الفعل بوسوسه بعد وسوسه و همامه بعد همامه تنقاد لها حتى تتم لها الطاعه الكامله فالمعنى:انقادت له نفسه و أطاعت أمره إياها بقتل أخيه طاعه تدريجيه،فقوله:« قَتْلَ أَخِيهِ» من وضع المأمور به موضع الأمر كقولهم:

أطاع كذا فى موضع:أطاع الأمر بكذا.

و ربما قيل:إن قوله:طوعت بمعنى زينت فقوله: «قَتْلَ أَخِيهِ» مفعول به، و قيل:بمعنى طاوعت أى طاوعت له نفسه فى قتل أخيه،فالقتل منصوب بنزع الخافض، و معنى الآيه ظاهر.

و ربما استفيد من قوله:« فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ» أنه إنما قتله ليلا،و فيه كما قيل:

إن أصبح-و هو مقابل أمسى-و إن كان بحسب أصل معناه يفيد ذلك لكن عرف العرب يستعمله بمعنى صار من غير رعايه أصل اشتقاقه،و فى القرآن شىء كثير من هذا القبيل كقوله:« فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً» :(آل عمران:۱۰۳)و قوله:« فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ» :(المائده:۵۲)فلا سبيل إلى إثبات إراده المعنى الأصلى فى المقام.

قوله تعالى:« فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ» البحث طلب الشىء فى التراب ثم يقال:بحثت عن الأمر بحثا كذا فى المجمع.،و المواراه:

الستر،و منه التوارى للتستر،و الوراء لما خلف الشىء.و السوأه ما يتكرهه الإنسان.

و الويل الهلاك.و يا ويلتا كلمه تقال عند الهلكه،و العجز مقابل الاستطاعه.

و الآيه بسياقها تدل على أن القاتل قد كان بقى زمانا على تحير من أمره،و كان يحذر أن يعلم به غيره،و لا يدرى كيف الحيله إلى أن لا يظفروا بجسده حتى بعث الله الغراب، و لو كان بعث الغراب و بحثه و قتله أخاه متقاربين لم يكن وجه لقوله:« يا وَيْلَتى أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ».

و كذا المستفاد من السياق أن الغراب دفن شيئا فى الأرض بعد البحث فإن ظاهر الكلام أن الغراب أراد إراءه كيفيه المواراه لا كيفيه البحث،و مجرد البحث ما كان يعلمه كيفيه المواراه و هو فى سذاجه الفهم بحيث لم ينتقل ذهنه بعد إلى معنى البحث، فكيف كان ينتقل من البحث إلى المواراه و لا- تلازم بينهما بوجه؟فإنما انتقل إلى معنى المواراه بما رأى أن الغراب بحث فى الأرض ثم دفن فيها شيئا.

و الغراب من بين الطير من عادته أنه يدخر بعض ما اصطاده لنفسه بدفنه فى الأرض و بعض ما يقتات بالحب و نحوه من الطير و إن كان ربما بحث فى الأرض لكنه للحصول على مثل الحبوب و الديدان لا للدفن و الادخار.

و ما تقدم من إرجاع ضمير الفاعل فى «لِيُرِيَهُ» إلى الغراب هو الظاهر من الكلام

لكونه هو المرجع القريب،و ربما قيل:إن الضمير راجع إلى الله سبحانه،و لا بأس به لكنه لا يخلو عن شيء من البعد،و المعنى صحيح على التقديرين،و أما قوله:« قالَ يا وَيْلَتى أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ»، فإنما قاله لأنه استسهل ما رأى من حيله الغراب للمواراه فإنه وجد نفسه تقدر على إتيان مثل ما أتى به الغراب من البحث ثم التوسل به إلى المواراه لظهور الرابطه بين البحث و المواراه،و عند ذلك تأسف على ما فاته من الفائده، و ندم على إهماله فى التفكر فى التوسل إلى المواراه حتى يستبين له أن البحث هو الوسيله القريبه إليه،فأظهر هذه الندامه بقوله:« يا وَيْلَتى أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي» و هو تخاطب جار بينه و بين نفسه على طريق الاستفهام الإنكارى، و التقدير أن يستفهم منكرا:أ عجزت أن تكون مثل هذا الغراب فتوارى سوأه أخيك؟ فيجاب:لا.ثم يستفهم ثانيا استفهاما إنكاريا فيقال: فلم غفلت عن ذلك و لم تتوسل إليها بهذه الوسيله على ظهورها و أشقيت نفسك فى هذه المده من غير سبب؟و لا جواب عن هذه المسأله،و فيه الندامه فإن الندامه تأثر روحى خاص من الإنسان و تألم باطنى يعرضه من مشاهدته إهماله شيئا من الأسباب المؤديه إلى فوت منفعه أو حدوث مضره، و إن شئت فقل هى تأثر الإنسان العارض له من تذكره إهماله فى الاستفاده من إمكان من الإمكانات.

و هذا حال الإنسان إذا أتى من المظالم بما يكره أن يطلع عليه الناس فإن هذه أمور لا يقبلها المجتمع بنظامه الجارى فيه،المرتبط بعض أجزائه ببعض فلا بد أن يظهر أثر هذه الأمور المنافيه له و إن خفيت على الناس فى أول حدوثها،و الإنسان الظالم المجرم يريد أن يجبر النظام على قبوله و ليس بقابل نظير أن يأكل الإنسان أو يشرب شيئا من السم و هو يريد أن يهضمه جهاز هضمه و ليس بهاضم،فهو و إن أمكن وروده فى باطنه لكن له موعدا لن يخلفه و مرصدا لن يتجاوزه،و إن ربك لبالمرصاد.

و عند ذلك يظهر للإنسان نقص تدبيره فى بعض ما كان يجب عليه مراقبته و رعايته فيندم لذلك،و لو عاد فأصلح هذا الواحد فسد آخر و لا يزال الأمر على ذلك حتى يفضحه الله على رءوس الأشهاد.

و قد اتضح بما تقدم من البيان:أن قوله:« فَأَصْبَحَ مِنَ النّادِمِينَ» إشاره إلى ندامته على عدم مواراته سوأه أخيه،و ربما أمكن أن يقال:إن المراد به ندمه على أصل القتل

و ليس ببعيد.

(كلام فى معنى الإحساس و التفكير)

هـذا الشـطر من قصه ابنى آدم أعنى قوله تعـالى: «فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِى الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْأَهَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْأَهَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ النّادِمِينَ» آيه واحـده فى القرآن لا نظيره لها من نوعها و هى تمثـل حـال الإنسـان فى الانتفـاع بـالحس،و أنه يحصـل خواص الأشـياء من نـاحيه الحس،ثم يتوسـل بالتفكر فيها إلى أغراضه و مقاصـده فى الحيـاه على نحو مـا يقضـى به البحث العلمى أن علوم الإنسـان و معارفه تنتهى إلى الحس خلافا للقائلين بالتـذكر و العلم الفطرى.

و توضـيحه أنك إذا راجعت الإنسان فيما عنده من الصور العلميه من تصور أو تصديق جزئى أو كلى و بأى صفه كانت علومه و إدراكاته وجـدت عنـده و إن كان من أجهل الناس و أضـعفهم فهما و فكرا صورا كثيره و علوما جمه لا تكاد تنالها يـد الإحصاء بل لا يحصيها إلا رب العالمين.

و من المشـهود من أمرهـا على كثرتهـا و خروجها عن طور الإحصاء و التعديـد أنها لا تزال تزيـد و تنمو مـده الحياه الإنسانيه فى الدنيا،و لو تراجعنا القهقرى وجدناها تنقص ثم تنقص حتى تنتهى إلى الصـفر،و عاد الإنسان و ما عنده شىء من العلم بالفعل قال تعالى:« عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» :(العلق:۵).

و ليس المراد بالآـيه أنـه تعـالى يعلمـه مـا لم يعلم و أمـا مـا علمه فهـو فيه فى غنى عن تعليم ربه فـإن من الضـرورى أن العلم فى الإنسـان أيـا مـا كـان هو لهـدايته إلى مـا يسـتكمل به فى وجوده و ينتفع به فى حياته،و الـذى تسـير إليه أقسام الأشـياء غير الحيه بالانبعاثات الطبيعيه تسير و تهتدى أقسام الموجودات الحيه-و منها الإنسان-إليه بنور العلم فالعلم من مصاديق الهدى.

و قـد نسب الله سـبحانه مطلق الهـدايه إلى نفسه حيث قـال:« اَلَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» :(طه:۵۰)و قـال: اَلَّذِى خَلَقَ فَسَوّى وَ الَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى» :(الأعلى:

۳)و قال و هو بوجه من الهـدايه بالحس و الفكر:« أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ» (النمل:۶۳)و قد مر شطر من الكلام فى معنى الهدايه فى بعض المباحث السابقه،و بالجمله

لما كان كل علم هدايه و كل هدايه فهى من الله كان كل علم للإنسان بتعليمه تعالى.

و يقرب من قوله:« عَلَّمَ الْإِنْسانَ مالَمْ يَعْلَمْ» قوله: «وَ اللّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَهَ» :(النحل:۷۸).

و التأمل فى حال الإنسان و التدبر فى الآيات الكريمه يفيدان أن علم الإنسان النظرى أعنى العلم بخواص الأشياء و ما يستتبعه من المعارف العقليه يبتدئ من الحس فيعلمه الله من طريقه خواص الأشياء كما يدل عليه قوله:« فَبَعَثَ اللّهُ غُراباً يَبْحَثُ فِى الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِى سَوْأَهَ أَخِيهِ» (الآيه).

فنسبه بعث الغراب لإراءه كيفيه المواراه إلى الله سبحانه نسبه تعليم كيفيه المواراه إليه تعالى بعينه فالغراب و إن كان لا يشعر بأن الله سبحانه هو الذى بعثه،و كذلك ابن آدم لم يكن يدرى أن هناك مدبرا يدبر أمر تفكيره و تعلمه،و كانت سببيه الغراب و بحثه بالنسبه إلى تعلمه بحسب النظر الظاهرى سببيه اتفاقيه كسائر الأسباب الاتفاقيه التى تعلم الإنسان طرق تدبير المعاش و المعاد،لكن الله سبحانه هو الذى خلق الإنسان و ساقه إلى كمال العلم لغايه حياته،و نظم الكون نوع نظم يؤديه إلى الاستكمال بالعلم بأنواع من التماس و التصاك تقع بينه و بين أجزاء الكون،فيتعلم بها الإنسان ما يتوسل به إلى أغراضه و مقاصده من الحياه فالله سبحانه هو الذى يبعث الغراب و غيره إلى عمل يتعلم به الإنسان شيئا فهو المعلم للإنسان.

و لهذا المعنى نظائر فى القرآن كقوله تعالى:« وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ» :(المائده:۴)عد ما علموه و علموه مما علمهم الله و إنما تعلموه من سائر الناس أو ابتكروه بأفكار أنفسهم،و قوله:« وَ اتَّقُوا اللّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللّهُ» : (البقره:۲۸۲)و إنما كانوا يتعلمونه من الرسول، و قوله:« وَ لا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللّهُ» :(البقره:

۲۸۲)و إنما تعلم الكاتب ما علمه بالتعلم من كاتب آخر مثله إلا أن جميع ذلك أمور مقصوده فى الخلق و التدبير فما حصل من هذه الأسباب من فائده العلم الذى يستكمل به الإنسان فالله سبحانه هو معلمه بهذه الأسباب كما أن المعلم من الإنسان يعلم بالقول و التلقين،و الكاتب من الإنسان يعلم غيره بالقول و القلم مثلا.

و هذا هو السبيل فى جميع ما يسند إليه تعالى فى عالم الأسباب فالله تعالى هو خالقه

و بينه و بين مخلوقه أسباب هى الأسباب بحسب الظاهر و هى أدوات و آلات لوجود الشىء،و إن شئت فقل:هى من شرائط وجود الشىء الذى تعلق وجوده من جميع جهاته و أطرافه بالأسباب،فمن شرائط وجود زيد«الذى ولده عمرو و هند»أن يتقدمه عمرو و هند و ازدواج و تناكح بينهما،و إلا لم يوجد زيد المفروض،و من شرائط «الإبصار بالعين الباصره»أن تكون قبله عين باصره،و هكذا.

فمن زعم أنه يوحد الله سبحانه بنفى الأسباب و إلغائها،و قدر أن ذلك أبلغ فى إثبات قدرته المطلقه و نفى العجز عنه،و زعم أن إثبات ضروره تخلل الأسباب قول بكونه تعالى مجبرا على سلوك سبيل خاص فى الإيجاد فاقدا للاختيار فقد ناقض نفسه من حيث لا يشعر.

و بالجمله فالله سبحانه هو الذى علم الإنسان خواص الأشياء التى تنالها حواسه نوعا من النيل،علمه إياها من طريق الحواس،ثم سخر له ما فى الأرض و السماء جميعا،قال تعالى:« وَ سَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ» :(الجاثيه:١٣).

و ليس هذا التسخير إلا لأن يتوسل بنوع من التصرف فيها إلى بلوغ أغراضه و أمانيه فى الحياه أى أنه جعلها مرتبطه بوجوده لينتفع بها،و جعله متفكرا يهتدى إلى كيفيه التصرف و الاستعمال و التوسل،و من الدليل على ذلك قوله تعالى:« أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ سَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِي الْأَرْضِ وَ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ» :(الحج:۶۵)،و قوله تعالى:« وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعٰامِ مٰا تَرْكَبُونَ» :(الزخرف:١٢)،و قوله تعالى :«عَلَيْهٰا وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ» :(غافر:٨٠) و غير ذلك من الآيات المشابهه لها فانظر إلى لسان الآيات كيف نسبت جعل الفلك إلى الله سبحانه و هو من صنع الإنسان،ثم نسب الحمل إليه تعالى و هو من صنع الفلك و الأنعام و نسب جريانها فى البحر إلى أمره و هو مستند إلى جريان البحر أو هبوب الريح أو البخار و نحوه،و سمى ذلك كله تسخيرا منه للإنسان لما أن لإرادته نوع حكومه فى الفلك و ما يناظرها من الأنعام و فى الأرض و السماء تسوقها إلى الغايات المطلوبه له.

و بالجمله هو سبحانه أعطاه الفكر على الحس ليتوسل به إلى كماله المقدر له بسبب علومه الفكريه الجاريه فى التكوينيات أعنى العلوم النظريه.

قال تعالى:« وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصٰارَ وَ الْأَفْئِدَهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» :(النحل:٧٨)و

أما العلوم العمليه و هى التى تجرى فيما ينبغى أن يعمل و ما لا ينبغى فإنما هى بإلهام من الله سبحانه من غير أن يوجدها حس أو عقل نظرى،قال تعالى:« وَ نَفْسٍ وَ ما سَوّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسّاها» :(الشمس:١٠)و قال:

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِى فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» :(الروم:٣٠)فعد العلم بما ينبغى فعله و هو الحسنه و ما لا ينبغى فعله و هو السيئه مما يحصل له بالإلهام الإلهى و هو القذف فى القلب.

فجميع ما يحصل للإنسان من العلم إنما هى هدايه إلهيه و بهدايه إلهيه،غير أنها مختلفه بحسب النوع:فما كان من خواص الأشياء الخارجيه فالطريق الذى يهدى به الله سبحانه الإنسان هو طريق الحس،و ما كان من العلوم الكليه الفكريه فإنما هى بإعطاء و تسخير إلهى من غير أن يبطله وجود الحس أو يستغنى الإنسان عنها فى حال من الأحوال، و ما كان من العلوم العمليه المتعلقه بصلاح الأعمال و فسادها و ما هو تقوى أو فجور فإنما هى بإلهام إلهى بالقذف فى القلوب و قرع باب الفطره.

و القسم الثالث الذى يرجع بحسب الأصل إلى إلهام إلهى إنما ينجح فى عمله و يتم فى أثره إذا صلح القسم الثانى و نشأ على صحه و استقامه كما أن العقل أيضا إنما يستقيم فى عمله إذا استقام الإنسان فى تقواه و دينه الفطرى،قال تعالى:« وَ ما يَذَّكَّرُ إِلاّ أُولُوا الْأَلْبابِ) :(آل عمران:٧)و قال تعالى:« وَ ما يَتَذَكَّرُ إِلاّ مَنْ يُنِيبُ» :(غافر:١٣)و قال تعالى:

«وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّهٍ» :(الأنعام:١١٠)و قال تعالى:

«وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّهِ إِبْراهِيمَ إِلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ» :(البقره:١٣٠)أى لا يترك مقتضيات الفطره إلا من فسد عقله فسلك غير سبيله.

و الاعتبار يساعد هذا التلازم الذى بين العقل و التقوى،فإن الإنسان إذا أصيب فى قوته النظريه فلم يدرك الحق حقا أو لم يدرك الباطل باطلا فكيف يلهم بلزوم هذا أو اجتناب ذاك؟كمن يرى أن ليس وراء الحياه الماديه المعجله شىء فإنه لا يلهم التقوى الدينى الذى هو خير زاد للعيشه الآخره.

و كذلك الإنسان إذا فسد دينه الفطرى و لم يتزود من التقوى الدينى لم تعتدل قواه الداخليه المحسه من شهوه أو غضب أو محبه أو كراهه و غيرها،و مع اختلال أمر هذه

القوى لا تعمل قوه الإدراک النظریه عملها عملا مرضیا.

و البیانات القرآنیه تجری فی بث المعارف الدینیه و تعلیم الناس العلم النافع هذا المجری، و تراعی الطرق المتقدمه التی عینتها للحصول علی المعلومات،فما کان من الجزئیات التی لها خواص تقبل الإحساس فإنها تصریح فیها إلی الحواس کالآیات المشتمله علی قوله:« أَ لَمْ تَرَ أَ فَلا یَرَوْنَ أَ فَرَأَیْتُمْ، أَ فَلا تُبْصِرُونَ» و غیر ذلک و ما کان من الکلیات العقلیه مما یتعلق بالأمور الکلیه المادیه أو التی هی وراء عالم الشهاده فإنها تعتبر فیها العقل اعتبارا جازما و إن کانت غائبه عن الحس خارجه عن محیط الماده و المادیات،کغالب الآیات الراجعه إلی المبدأ و المعاد المشتمله علی أمثال قوله:« لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ، لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ، لقوم یتذکرون، یَفْقَهُونَ، و غیرها،و ما کان من القضایا العملیه التی لها مساس بالخیر و الشر و النافع و الضار فی العمل و التقوی و الفجور فإنها تستند فیها إلی الإلهام الإلهی بذکر ما بتذکره یشعر الإنسان بإلهامه الباطنی کالآیات المشتمله علی مثل قوله:« ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ، فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ، فِیهِما إِثْمٌ، وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْیَ بِغَیْرِ الْحَقِّ، إِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی» و غیرها،و علیک بالتدبر فیها.

و من هنا یظهر أولا:أن القرآن الکریم یخطئ طریق الحسیین و هم المعتمدون علی الحس و التجربه،النافون للأحکام العقلیه الصرفه فی الأبحاث العلمیه،و ذلک أن أول ما یهتم القرآن به فی بیانه هو أمر توحید الله عز اسمه،ثم یرجع إلیه و یبتنی علیه جمیع المعارف الحقیقیه التی یبینها و یدعو إلیها.

و من المعلوم أن التوحید أشد المسائل ابتعادا من الحس،و بینونه للماده و ارتباطا بالأحکام العقلیه الصرفه.

و القرآن یبین أن هذه المعارف الحقیقیه من الفطره قال:« فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَیْها لا تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» :(الروم:۳۰)أی إن الخلقه الإنسانیه نوع من الإیجاد یستتبع هذه العلوم و الإدراکات،و لا معنی لتبدیل خلق إلا أن یکون نفس التبدیل أیضا من الخلق و الإیجاد،و أما تبدیل الإیجاد المطلق أی إبطال حکم الواقع فلا یتصور له معنی فلن یستطیع الإنسان،و حاشا ذلک أن یبطل علومه الفطریه،و یسلک فی الحیاه سبیلا آخر غیر سبیلها البته،و أما الانحراف المشهود عن أحکام الفطره فلیس إبطالا لحکمها بل استعمالا لها فی غیر ما ینبغی من نحو الاستعمال

نظير ما ربما يتفق أن الرامى لا يصيب الهدف فى رميته فإن آله الرمى و سائر شرائطه موضوعه بالطبع للإصابه إلا أن الاستعمال يوقعها فى الغلط،و السكاكين و المناشير و المثاقب و الإبر و أمثالها إذا عبثت فى الماكينات تعبثه معوجه تعمل عملها الذى فطرت عليه بعينه من قطع أو نشر أو ثقب و غير ذلك لكن لا على الوجه المقصود،و أما الانحراف عن العمل الفطرى كان يخاط بنشر المنشار، بأن يعوض المنشار فعل الإبره من فعل نفسه،فيضع الخياطه موضع النشر،فمن المحال ذلك.

و هذا ظاهر لمن تأمل عامه ما استدل به القوم على صحه طريقهم كقولهم:إن الأبحاث العقليه المحضه،و القياسات المؤلفه من مقدمات بعيده من الحس يكثر وقوع الخطإ فيها كما يدل عليه كثره الاختلافات فى المسائل العقليه المحضه فلا ينبغى الاعتماد عليها لعدم اطمينان النفس إليها.

و قولهم فى الاستدلال على صحه طريق الحس و التجربه:أن الحس آله لنيل خواص الأشياء بالضروره و إذا أحس بأثر فى موضوع من الموضوعات على شرائط مخصوصه ثم تكرر مشاهده الأثر معه مع حفظ تلك الشرائط بعينها من غير تخلف و اختلاف كشف ذلك عن أن هذا الأثر خاصه الموضوع من غير اتفاق لأن الاتفاق لا يدوم البته.

و الدليلان كما ترى سيقا لإثبات وجوب الاعتماد على الحس و التجربه و رفض السلوك العقلى المحض مع كون المقدمات المأخوذه فيهما جميعا مقدمات عقليه خارجه عن الحس و التجربه ثم أريد بالأخذ بهذه المقدمات العقليه إبطال الأخذ بها،و هذا هو الذى تقدم أن الفطره لن تبطل البته و إنما يغلط الإنسان فى كيفيه استعمالها!.

و أفحش من ذلك استعمال التجربه فى تشخيص الأحكام المشرعه و القوانين الموضوعه كأن يوضع حكم ثم يجرى بين الناس يختبر بذلك حسن أثره بإحصاء و نحوه فإن غلب على موارد جريانه حسن النتيجه أخذ حكما ثابتا جاريا و إلا ألقى فى جانب و أخذ آخر كذلك و هكذا،و نظيره فيه جعل الحكم بقياس أو استحسان. (۱)

و القرآن يبطل ذلك كله بإثبات أن الأحكام المشرعه فطريه بينه،و التقوى و الفجور

۱- ۱) و أما القياس الفقهى و الاستحسان و ما يسمى بشم الفقاهه فهى أمارات لاستكشاف الحكم لا لجعلها، و البحث عنها موكول إلى فن الأصول.

العامين إلهاميان علميان،و أن تفاصيلها مما يجب أخذه من ناحيه الوحى،قال تعالى:

« وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» :(إسراء:۳۶)و قال: «وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ» (البقره:۱۶۸)و القرآن يسمى الشريعه المشرعه حقا قال تعالى: «أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ» :(البقره:۲۱۳)و قال:« وَ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً» :(النجم:۲۸)و كيف يغنى و فى اتباعه مخافه الوقوع فى خطر الباطل و هو الضلال؟ قال:« فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ» : (يونس:۳۲)و قال: «فَإِنَّ اللّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ» (النحل:۳۷)أى إن الضلال لا يصلح طريقا يوصل الإنسان إلى خير و سعاده فمن أراد أن يتوسل بباطل إلى حق أو بظلم إلى عدل أو بسيئه إلى حسنه أو بفجور إلى تقوى فقد أخطأ الطريق،و طمع من الصنع و الإيجاد الذى هو الأصل للشرائع و القوانين فيما لا يسمح له بذلك البته،و لو أمكن ذلك لجرى فى خواص الأشياء المتضاده،و تكفل أحد الضدين ما هو من شأن الآخر من العمل و الأثر.

و كذلك القرآن يبطل طريق التذكر الذى فيه إبطال السلوك العلمى الفكرى و عزل منطق الفطره،و قد تقدم الكلام فى ذلك.

و كذلك القرآن يحظر على الناس التفكر من غير مصاحبه تقوى الله سبحانه،و قد تقدم الكلام فيه أيضا فى الجمله،و لذلك ترى القرآن فيما يعلم من شرائع الدين يشفع الحكم الذى يبينه بفضائل أخلاقيه و خصال حميده تستيقظ بتذكرها فى الإنسان غريزه تقواه، فيقوى على فهم الحكم و فقهه،و اعتبر ذلك فى أمثال قوله تعالى:« وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» :(البقره:

۲۳۲)و قوله تعالى: «وَ قاتِلُوهُمْ حَتّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلاّ عَلَى الظّالِمِينَ» :(البقره:۱۹۳)و قوله تعالى:« وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ وَ اللّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ» :(العنكبوت:۴۵).

[بيان]

قوله تعالى:« مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النّاسَ جَمِيعاً وَ مَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النّاسَ جَمِيعاً» فى المجمع:، الأجل فى اللغه الجنايه،انتهى.و قال الراغب فى المفردات:، الأجل الجنايه التى يخاف منها آجلا،فكل أجل جنايه و ليس كل جنايه أجلا.يقال:فعلت ذلك من أجله،

انتهى.ثم استعمل للتعليل،يقال:فعلته من أجل كذا أى إن كذا سبب فعلى،و لعل استعمال الكلمه فى التعليل ابتدأ أولا فى مورد الجنايه و الجريره كقولنا:أساء فلان و من أجل ذلك أدبته بالضرب أى إن ضربى ناش من جنايته و جريرته التى هى إساءته أو من جنايه هى إساءته،ثم أرسلت كلمه تعليل فقيل:أزورك من أجل حبى لك و لأجل حبى لك.

و ظاهر السياق أن الإشاره بقوله:« مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ» إلى نبأ ابنى آدم المذكور فى الآيات السابقه أى إن وقوع تلك الحادثه الفجيعه كان سببا لكتابتنا على بنى إسرائيل كذا و كذا،و ربما قيل:إن قوله:« مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ» متعلق بقوله فى الآيه السابقه:

«فَأَصْبَحَ مِنَ النّٰادِمِينَ»

أى كان ذلك سببا لندامته،و هذا القول و إن كان فى نفسه غير بعيد كما فى قوله تعالى: «كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمُ الْآيٰاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِى الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَهِ وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتٰامىٰ» Xالآيه X:(البقره:٢٢٠)إلا أن لازم ذلك كون قوله:« كَتَبْنٰا عَلىٰ بَنِى إِسْرٰائِيلَ» (إلخ)مفتتح الكلام و المعهود من السياقات القرآنيه أن يؤتى فى مثل ذلك بواو الاستيناف كما فى آيه البقره المذكوره آنفا و غيرها.

و أما وجه الإشاره فى قوله:« مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ» إلى قصه ابنى آدم فهو أن القصه تدل على أن من طباع هذا النوع الإنسانى أن يحمله اتباع الهوى و الحسد الذى هو الحنق للناس بما ليس فى اختيارهم أن يحمله أوهن شىء على منازعه الربوبيه و إبطال غرض الخلقه بقتل أحدهم أخاه من نوعه و حتى شقيقه لأبيه و أمه.

فأشخاص الإنسان إنما هم أفراد نوع واحد و أشخاص حقيقه فارده،يحمل الواحد منهم من الإنسانيه ما يحمله الكثيرون،و يحمل الكل ما يحمله البعض و إنما أراد الله سبحانه بخلق الأفراد و تكثير النسل أن تبقى هذه الحقيقه التى ليس من شأنها أن تعيش إلا زمانا يسيرا،و يدوم بقاؤها فيخلف اللاحق السابق و يعبد الله سبحانه فى أرضه،فإفناء الفرد بالقتل إفساد فى الخلقه و إبطال لغرض الله سبحانه فى الإنسانيه المستبقاه بتكثير الأفراد بطريق الاستخلاف كما أشار إليه ابن آدم المقتول فيما خاطب أخاه:« مٰا أَنَا بِبٰاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّى أَخٰافُ اللّٰهَ رَبَّ الْعٰالَمِينَ» فأشار إلى أن القتل بغير الحق منازعه الربوبيه.

فلأجل أن من طباع الإنسان أن يحمله أى سبب واه على ارتكاب ظلم يئول بحسب الحقيقه إلى إبطال حكم الربوبيه و غرض الخلقه فى الإنسانيه العامه،و كان من شأن بنى

إسرائيل ما ذكره الله سبحانه قبل هذه الآيات من الحسد و الكبر و اتباع الهوى و إدحاض الحق و قد قص قصصهم بين الله لهم حقيقه هذا الظلم الفجيع و منزلته بحسب الدقه،و أخبرهم بأن قتل الواحد عنده بمنزله قتل الجميع،و بالمقابله إحياء نفس واحده عنده بمنزله إحياء الجميع.

و هذه الكتابه و إن لم تشتمل على حكم تكليفى لكنها مع ذلك لا تخلو عن تشديد بحسب المنزله و الاعتبار،و له تأثير فى إثاره الغضب و السخط الإلهى فى دنيا أو آخره.

و بعباره مختصره:معنى الجمله أنه لما كان من طباع الإنسان أن يندفع بأى سبب واه إلى ارتكاب هذا الظلم العظيم،و كان من أمر بنى إسرائيل ما كان،بينا لهم منزله قتل النفس لعلهم يكفون عن الإسراف و لقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إنهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون.

و أما قوله:« أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النّاسَ جَمِيعاً» استثنى سبحانه قتل النفس بالنفس و هو القود و القصاص و هو قوله تعالى:« كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى» :(البقره:۱۷۸)و قتل النفس بالفساد فى الأرض،و ذلك قوله فى الآيه التاليه:« إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً» (الآيه).

و أما المنزله التى يدل عليها قوله: «فَكَأَنَّما» (إلخ)فقد تقدم بيانه أن الفرد من الإنسان من حيث حقيقته المحموله له التى تحيا و تموت إنما يحمل الإنسانيه التى هى حقيقه واحده فى جميع الأفراد و البعض و الكل،و الفرد الواحد و الأفراد الكثيرون فيه واحد،و لازم هذا المعنى أن يكون قتل النفس الواحده بمنزله قتل نوع الإنسان و بالعكس إحياء النفس الواحده بمنزله إحياء الناس جميعا،و هو الذى تفيده الآيه الشريفه.

و ربما أشكل على الآيه أولا:بأن هذا التنزيل يفضى إلى نقض الغرض فإن الغرض بيان أهميه قتل النفس و عظمته من حيث الإثم و الأثر،و لازمه أن تزيد الأهميه كلما زاد عدد القتل،و تنزيل الواحد منزله الجميع يوجب أن لا يقع بإزاء الزائد على الواحد شىء فإن من قتل عشرا كان الواحده من هذه المقاتل تعد قتل الجميع،و تبقى الباقى و ليس بإزائه شىء.

و لا يندفع الإشكال بأن يقال:إن قتل العشره يعدل عشره أضعاف قتل الجميع و إن قتل الجميع يعدل قتل الجميع بعدد الجميع لأن مرجعه إلى المضاعفه فى عدد العقاب،و اللفظ لا يفى ببيان ذلك.

على أن الجميع مؤلف من آحاد كل واحد منها يعدل الجميع المؤلف من الآحاد كذلك، و يذهب إلى ما لا نهايه له،و لا معنى للجميع بهذا المعنى،إذ لا فرد واحد له فلا جميع من غير آحاد.

على أن الله تعالى يقول:« مَنْ جٰاءَ بِالسَّيِّئَهِ فَلاٰ يُجْزىٰ إِلاّٰ مِثْلَهٰا» :(الأنعام:۱۶۰) و ثانيا:بأن كون قتل الواحد يعدل قتل الجميع إن أريد به قتل الجميع الذى يشتمل على هذا الواحد كان لازمه مساواه الواحد مجموع نفسه و غيره و هو محال بالبداهه، و إن أريد به قتل الجميع باستثناء هذا الواحد كان معناه من قتل نفسا فكأنما قتل غيرها من النفوس،و هو معنى ردىء مفسد للغرض من الكلام و هو بيان غايه أهميه هذا الظلم.

على أن إطلاق قوله:« فَكَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِيعاً» من غير استثناء يدفع هذا الاحتمال.

و لا يندفع هذا الإشكال بمثل قولهم:إن المراد هو المعادله من حيث العقوبه أو مضاعفه العذاب و نحو ذلك و هو ظاهر.

و الجواب عن الإشكالين:أن قوله:« مَنْ قَتَلَ نَفْساً- إلى قوله- فَكَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِيعاً» كنايه عن كون الناس جميعا ذوى حقيقه واحده إنسانيه متحده فيها،الواحد منهم و الجميع فيها سواء،فمن قصد الإنسانيه التى فى الواحد منهم فقد قصد الإنسانيه التى فى الجميع كالماء إذا وزع بين أوانى كثيره فمن شرب من أحد الآنيه فقد شرب الماء، و قد قصد الماء من حيث إنه ماء-و ما فى جميع الآنيه لا يزيد على الماء من حيث إنه ماء- فكأنه شرب الجميع،فجمله:« مَنْ قَتَلَ، إلخ»كنايه فى صوره التشبيه،و الإشكالان مندفعان،فإن بناءهما على كون التشبيه بسيطا يزيد فيه وجه الشبه على حسب زياده المشبه عددا إذ لو سوى حينئذ بين الواحد و الجميع فسد المعنى و عرض الإشكال كما لو قيل:

الواحد من القوم كالواحد من الأسد و الواحد منهم كالجميع فى البطش و البساله.

و أما قوله تعالى:« وَ مَنْ أَحْيٰاهٰا فَكَأَنَّمٰا أَحْيَا النّٰاسَ جَمِيعاً» فالكلام فيه كالكلام فى الجمله السابقه،و المراد بالإحياء ما يعد فى عرف العقلاء إحياء كإنقاذ الغريق و إطلاق الأسير،و قد عد الله تعالى فى كلامه الهدايه إلى الحق إحياء قال تعالى:« أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّٰاسِ» :(الأنعام:۱۲۲)فمن دل نفسا إلى الإيمان فقد أحياها.

و أما قوله تعالى:« وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ» فهو معطوف على صدر الآيه أى و لقد جاءتهم رسلنا بالبينات يحذرونهم القتل و كل ما يلحق به من وجوه الفساد فى الأرض.

و أما قوله تعالى:« ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ» فهو متمم للكلام،بانضمامه إليه يستنتج الغرض المطلوب من البيان،و هو ظهور أنهم قوم مفسدون مصرون على استكبارهم و عتوهم فلقد بينا لهم منزله القتل و جاءتهم رسلنا فيها و فى غيرها بالبينات،و بينوا لهم و حذروهم و هم مع ذلك لم ينتهوا عن إصرارهم على العتو و الاستكبار فأسرفوا فى الأرض قديما و لا يزالون يسرفون.

و الإسراف الخروج عن القصد و تجاوز الحد فى كل فعل يفعله الإنسان،و إن كان يغلب عليه الاستعمال فى مورد الإنفاق كقوله تعالى:« وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً» :(الفرقان:۶۷)على ما ذكره الراغب فى المفردات،.

(بحث روائى)

فى تفسير العياشى،عن هشام بن سالم،عن حبيب السجستانى،عن أبى جعفر(ع) قال: لما قرب ابنا آدم القربان-فتقبل من أحدهما و لم يتقبل من الآخر-قال:تقبل من هابيل و لم يتقبل من قابيل-دخله من ذلك حسد شديد،و بغى على هابيل،و لم يزل يرصده و يتبع خلوته حتى ظفر به-متنحيا من آدم فوثب عليه و قتله،فكان من قصتهما ما قد أنبأ الله فى كتابه-مما كان بينهما من المحاوره قبل أن يقتله، الحديث.

أقول:و الروايه من أحسن الروايات الوارده فى القصه و هى روايه طويله يذكر(ع) فيها:تولد هبه الله(شيث)لآدم بعد ذلك و وصيته له و جريان أمر الوصيه بين الأنبياء،و سنتقلها إن شاء الله فى موضع يناسبها،و ظاهرها أن قابيل إنما قتل هابيل غيله من غير أن يمكنه من نفسه،كما هو المناسب للاعتبار،و قد تقدم فى البيان المتقدم.

و اعلم:أن الذى ضبطته الروايات من اسم الابنين:هابيل و قابيل،و الذى فى التوراه الدائره:هابيل و قايين.و لا حجه فى ذلك لانتهاء سند التوراه إلى واحد مجهول الحال مع ما هى عليه من التحريف الظاهر.

و فى تفسير القمى،قال:حدثنا أبى عن الحسن بن محبوب،عن هشام بن سالم،عن

أبی حمزه الثمالی،عن ثویر بن أبی فاخته قال:سمعت علی بن الحسین(ع)یحدث رجالا من قریش قال: لما قربا ابنا آدم القربان- قرب أحدهما أسمن کبش کان فی صیانته،و قرب الآخر ضغثا من سنبل-فتقبل من صاحب الکبش و هو هابیل،و لم یتقبل من الآخر،فغضب قابیل،فقال لهابیل:و الله لأقتلنک،فقال هابیل:إنما یتقبل الله من المتقین-لئن بسطت إلی یدک لتقتلنی-ما أنا بباسط یدی إلیک لأقتلک-إنی أخاف الله رب العالمین-إنی أرید أن تبوء بإثمی و إثمک-فتکون من أصحاب النار و ذلک جزاء الظالمین.

فطوعت له نفسه قتل أخیه-فلم یدر کیف یقتله حتی جاء إبلیس فعلمه فقال:ضع رأسه بین حجرین ثم اشدخه-فلما قتله لم یدر ما یصنع به،فجاء غرابان فأقبلا یتضاربان-حتی اقتتلا فقتل أحدهما صاحبه،ثم حفر الذی بقی فی الأرض بمخالبه،و دفن فیه صاحبه، قال قابیل:یا ویلتا أ عجزت-أن أکون مثل هذا الغراب-فأواری سوأه أخی فأصبح من النادمین،فحفر له حفیره و دفنه فیها-فصارت سنه یدفنون الموتی.

فرجع قابیل إلی أبیه فلم یر معه هابیل فقال له آدم:أین ترکت ابنی؟قال له قابیل:أرسلتنی علیه راعیا؟فقال آدم:انطلق معی إلی مکان القربان،و أوجس نفس آدم بالذی فعل قابیل،فلما بلغ مکان القربان استبان له قتله،فلعن آدم الأرض التی قبلت دم هابیل،و أمر آدم أن یلعن قابیل،و نودی قابیل من السماء لعنت کما قتلت أخاک، و لذلک لا تشرب الأرض الدم.

فانصرف آدم یبکی علی هابیل أربعین یوما و لیله-فلما جزع علیه شکی ذلک إلی الله فأوحی الله إلیه أنی واهب لک ذکرا- یکون خلفا عن هابیل-فولدت حواء غلاما زکیا مبارکا-فلما کان فی الیوم السابع أوحی الله إلیه:یا آدم إن هذا الغلام هبه منی لک- فسمه هبه الله فسماه آدم هبه الله.

أقول:الروایه من أوسط الروایات الوارده فی القصه و ما یلحق بها و هی مع ذلک لا تخلو عن تشویش فی متنها حیث إن ظاهرها أن قابیل أوعد هابیل بالقتل ثم لم یدر کیف یقتل؟و هو معنی غیر معقول إلا أن یراد أنه تحیر فی أنه أی سبب من أسباب القتل؟ یختاره لقتله فأشار إلیه إبلیس-لعنه الله-أن یشدخ رأسه بالحجاره،و هناک روایات أخر مرویه من طرق أهل السنه و الشیعه یقرب مضمونها من مضمون هذه الروایه.

و اعلم أن فی القصه روایات کثیره مختلفه المضامین عجیبتها کالقائله إن الله أخذ کبش هابیل فخزنه فی الجنه أربعین خریفا ثم فدی به إسماعیل فذبحه إبراهیم،و القائله:

إن هابیل مکن قابیل من نفسه و أنه تحرج أن یبسط یده إلی أخیه،و القائله إن قابیل لما قتل أخاه عقل الله إحدی رجلیه إلی فخذها من یوم قتله إلی یوم القیامه و جعل وجهه إلی الیمین حیث دار دارت علیه حظیره من ثلج فی الشتاء،و علیه فی الصیف حظیره من نار و معه سبعه أملاک کلما ذهب ملک جاء الآخر،و القائله:إنه معذب فی جزیره من جزائر البحر علقه الله منکوسا و هو کذلک إلی یوم القیامه،و القائله:إن قابیل بن آدم معلق بقرونه فی عین الشمس تدور به حیث دارت فی زمهریرها و حمیمها إلی یوم القیامه فإذا کان یوم القیامه صیره الله إلی النار،و القائله:إن ابن آدم الذی قتل أخاه کان قابیل الذی ولد فی الجنه،و القائله:إن آدم لما بان له قتل هابیل رثاه بعده أبیات بالعربیه،و القائله:

إنه کان من شریعتهم أن الإنسان إذا قصده آخر ترکه و ما یرید من غیر أن یمتنع منه، إلی غیر ذلک من الروایات.

فهذه و أمثالها روایات من طرق جلها أو کلها ضعیفه،و هی لا توافق الاعتبار الصحیح و لا الکتاب یوافقها فهی بین موضوعه بینه الوضع و بین محرفه أو مما غلط فیه الرواه من جهه النقل بالمعنی.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی شیبه عن عمر قال:قال رسول الله ص: یعجز أحدکم أتاه الرجل أن یقتله أن یقول هکذا؟و قال:بإحدی یدیه علی الأخری-فیکون کالخیر من ابنی آدم،و إذا هو فی الجنه و إذا قاتله فی النار.

أقول:و هی من روایات الفتن،و هی کثیره روی أکثرها السیوطی فی الدر المنثور،

کالذی رواه عن البیهقی عن أبی موسی عن النبی ص قال: اکسروا سیفکم یعنی فی الفتنه-و اقطعوا أوتارکم و الزموا أجواف البیوت،و کونوا فیها کالخیر من ابنی آدم،

و ما رواه عن ابن جریر و عبد الرزاق عن الحسن قال:قال رسول الله ص: إن ابنی آدم ضربا مثلا لهذه الأمه-فخذوا بالخیر منهما، إلی غیر ذلک.

و هذه روایات لا تلائم بظاهرها الاعتبار الصحیح المؤید بالآثار الصحیحه الآمره بالدفاع عن النفس و الانتصار للحق،و قد قال تعالی: «وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ اقْتَتَلُوا

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» :

(الحجرات:۹).

على أنها جميعا تفسر قوله تعالى فى القصه حكايه عن هابيل: «لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ» بأن المراد تمكين هابيل لأخيه فى قتله و تركه الدفاع،و قد عرفت ما فيه.

و مما يوجب سوء الظن بها أنها مرويه عن أناس قعدوا فى فتنه الدار و فى حروب على (ع)مع معاويه و الخوارج و طلحه و الزبير،فالواجب توجيهها بوجه إن أمكن و إلا فالطرح.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن عساكر عن على:أن النبى ص قال: بدمشق جبل يقال له:«قاسيون»فيه قتل ابن آدم أخاه.

أقول:و الروايه لا بأس بها غير أن ابن عساكر روى بطريق عن كعب الأحبار أنه قال:إن الدم الذى على جبل قاسيون هو دم ابن آدم،و بطريق آخر عن عمرو بن خبير الشعبانى قال:كنت مع كعب الأحبار على جبل دير المران فرأى لجه سائله فى الجبل فقال:هاهنا قتل ابن آدم أخاه،و هذا أثر دمه جعله الله آيه للعالمين.

و الروايتان تدلان على أنه كان هناك أثر ثابت يدعى أنه دم هابيل المقتول،و يشبه أن يكون ذلك من الأمور الخرافيه التى ربما وضعوها لصرف وجوه الناس إليها بالزياره و إيتاء النذور و إهداء الهدايا نظير آثار الأكف و الأقدام المعموله على الأحجار و قبر الجده و غير ذلك.

و فى الدر المنثور،أخرج أحمد و البخارى و مسلم و الترمذى و النسائى و ابن ماجه و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن مسعود قال:قال رسول الله ص: لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها-لأنه أول من سن القتل.

أقول:و قد روى هذا المعنى من طرق أهل السنه و الشيعه بغير هذا الطريق.

و فى الكافى،بإسناده عن حمران قال: قلت لأبى جعفر(ع)،ما معنى قول الله عز و جل« مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ-أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ-فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً»؟ -قال:قلت:و كيف فكأنما قتل الناس جميعا-و إنما قتل

واحده؟قال:يوضع فی موضع من جهنم إليه-منتهی شده عذاب أهلها،لو قتل الناس جميعا كان إنما دخل ذلك المكان،قلت:فإن قتل آخر؟قال:يضاعف عليه:

أقول:و رواه الصدوق فی معانی الأخبار،عن حمران مثله .

و قوله:«قلت:فإن قتل آخر؟»إشاره إلی ما تقدم بيانه من إشكال لزوم تساوی القتل الواحد معه منضما إلی غيره،و قد أجاب(ع)عنه بقوله:«يضاعف عليه» و لا يرد عليه أنه رفع اليد عن التسويه التی يشير إليه حديث المنزله:« مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ»)إلخ)حيث إن لازم المضاعفه عدم تساوی الواحد و الكثير أو الجميع،وجه عدم الورود أن تساوی المنزله راجع إلی سنخ العذاب و هو كون قاتل الواحد و الاثنين و الجميع فی واد واحد من أوديه جهنم،و يشير إليه قوله(ع)فی الروايه:«لو قتل الناس جميعا كان إنما دخل ذلك المكان».

و يشهد علی ما ذكرنا

ما رواه العياشی فی تفسيره عن حمران عن أبی عبد الله(ع): فی الآيه قال(ع)منزله فی النار-إليها انتهاء شده عذاب أهل النار جميعا فيجعل فيها،قلت:

و إن كان قتل اثنين؟قال:أ لا ترى أنه ليس فی النار منزله-أشد عذابا منها؟قال:يكون يضاعف عليه بقدر ما عمل ،الحديث فإن الجمع بين النفی و الإثبات فی جوابه(ع)ليس إلا لما وجهنا به الروايه،و هو أن الاتحاد و التساوی فی سنخ العذاب،و إليه تشير المنزله، و الاختلاف فی شخصه و نفس ما يذوقه القاتل فيه.

و يشهد عليه أيضا فی الجمله ما فيه أيضا

عن حنان بن سدير عن أبی عبد الله(ع):

فی قول الله:« مَنْ قَتَلَ نَفْساً ... فَكَأَنَّما قَتَلَ النّاسَ جَمِيعاً» -قال:واد فی جهنم لو قتل الناس جميعا كان فيه،و لو قتل نفس واحده كان فيه.

أقول:و كان الآيه منقوله فيها بالمعنی.

و فی الكافی،بإسناده عن فضيل بن يسار قال: قلت لأبی جعفر(ع)قول الله عز و جل فی كتابه:« وَ مَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النّاسَ جَمِيعاً» -قال:من حرق أو غرق قلت:من أخرجها من ضلال إلی هدی؟قال:ذلك تأويلها الأعظم:

أقول:و رواه الشيخ فی أماليه و البرقی فی المحاسن،عن فضيل عنه(ع)،و روی الحديث عن سماعه و حمران عن أبی عبد الله(ع).

و المراد بكون الإنقاذ من الضلاله تأويلا- أعظم للآيه كونه تفسيرا أدق لها،و التأويل كثيرا ما كان يستعمل فى صدر الإسلام مرادفا للتفسير.

و يؤيد ما ذكرناه ما فى تفسير العياشى،عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر(ع)قال:

سألته عن قول الله.« مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ-فَكَأَنَّما قَتَلَ النّاسَ جَمِيعاً» -فقال:له فى النار مقعد-لو قتل الناس جميعا لم يزد على ذلك العذاب.قال:« وَ مَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النّاسَ جَمِيعاً -لم يقتلها أو أنجى من غرق أو حرق،و أعظم من ذلك كلها يخرجها من ضلاله إلى هدى.

أقول:و قوله«لم يقتلها»أى لم يقتلها بعد ثبوت القتل لها كما فى مورد القصاص.

و فيه،عن أبى بصير عن أبى جعفر(ع)قال: سألته:« وَ مَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النّاسَ جَمِيعاً» -قال: من استخرجها من الكفر إلى الإيمان.

أقول:و قد ورد هذا المعنى فى كثير من الروايات الوارده من طرق أهل السنه.

و فى المجمع:،روى عن أبى جعفر(ع): المسرفون الذين يستحلون المحارم و يسفكون الدماء.

(بحث علمى و تطبيق) [فى تطبيق قصه ابنى آدم على ما فى التوراه.]

فى الإصحاح الرابع من سفر التكوين من التوراه ما نصه": (١)و عرف آدم حواء امرأته فحبلت و ولدت قايين-و قالت اقتنيت رجلا من عند الرب(٢)ثم عادت فولدت أخاه هابيل-و كان هابيل راعيا للغنم-و كان قايين عاملا فى الأرض(٣)و حدث من بعد أيام-أن قايين قدم من أثمار الأرض قربانا للرب(۴)و قدم هابيل أيضا من أبكار غنمه و من سمانها-فنظر الرب إلى هابيل و قربانه(۵)و لكن إلى قايين و قربانه لم ينظر-فاغتاظ قايين جدا و سقط وجهه(۶)فقال الرب لقايين لما ذا اغتظت و لما ذا سقط وجهك(٧)إن أحسنت أ فلا رفع-و إن لم تحسن فعند الباب خطيئه رابضه-و إليك اشتياقها و أنت تسود عليها-.

(٨)و كلم قايين هابيل أخاه و حدث إذ كانا فى الحقل-أن قايين قام على هابيل أخيه و قتله(٩)فقال الرب لقايين أين هابيل أخوك-فقال لا أعلم أ حارس أنا لأخى(١٠)فقال ما ذا فعلت صوت دم أخيك صارخ إلى من الأرض(١١)فالآن ملعون أنت من الأرض

التی فتحت فاها لتقبل دم أخیک من یدک(۱۲)متی عملت الأرض لا تعود تعطیک قوتها تائها و هاربا تکون فی الأرض(۱۳)فقال قایین للرب ذنبی أعظم من أن یتحمل(۱۴)إنک قد طردتنی الیوم عن وجه الأرض-و من وجهک أختفی و أکون تائها و هاربا فی الأرض فیکون کل من وجدنی یقتلنی(۱۵)فقال له الرب لذلک کل من قتله قایین-فسبعه أضعاف ینتقم منه-و جعل الرب لقایین علامه لکی لا یقتله کل من وجده(۱۶)فخرج قایین من لدن الرب-و سکن فی أرض نود شرقی عدن،انتهی

(۱)

.

و الذی فی القرآن من قصتهما قوله تعالی: «وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ ابْنَیْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَ لَمْ یُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّکَ قالَ إِنَّما یَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِینَ (۲۷) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَیَّ یَدَکَ لِتَقْتُلَنِی ما أَنَا بِباسِطٍ یَدِیَ إِلَیْکَ لِأَقْتُلَکَ إِنِّی أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِینَ(۲۸) إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ فَتَکُونَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ وَ ذلِکَ جَزاءُ الظّالِمِینَ (۲۹) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِیهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِینَ(۳۰) فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً یَبْحَثُ فِی الْأَرْضِ لِیُرِیَهُ کَیْفَ یُوارِی سَوْأَهَ أَخِیهِ قالَ یا وَیْلَتی أَ عَجَزْتُ أَنْ أَکُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِیَ سَوْأَهَ أَخِی فَأَصْبَحَ مِنَ النّادِمِینَ(۳۱) آیه:من المائده-۲۷:۳۱ (۲).

و علیک أن تتدبر ما تشتمل علیه القصه علی ما قصتها التوراه و علی ما قصها القرآن ثم تطبق بینهما ثم تقضی ما أنت قاض.

فأول ما یبدو لک من التوراه أنها جعلت الرب تعالی موجودا أرضیا علی صوره إنسان یعاشر الناس،یحکم لهم و علیهم کما یحکم أحد الناس فیهم،و یدنی و یقترب منه و یکلم کما یفعل ذلک أحدهم مع غیره ثم یختفی منه بالابتعاد و الغیبه فلا یری البعید الغائب کما یری القریب الحاضر،و بالجمله فحاله حال إنسان أرضی من جمیع الجهات غیر أنه نافذ الإراده إذا أراد، ماضی الحکم إذا حکم،و علی هذا الأساس یبتنی جمیع تعلیمات التوراه و الإنجیل فیما یبثان من التعلیم،تعالی الله عن ذلک علوا کبیرا.

و لازم القصه التی فیها:أن البشر کان یعیش یومئذ علی حال المشافهه و الحضور عند الله سبحانه،ثم احتجب عن قایین أو عنه و عن أمثاله و بقی الباقون علی حالهم مع أن

۱- ۱) نقل من التوراه العربیه المطبوعه فی کمبروج سنه ۱۹۳۵.

۲- ۲) إنما أعدنا ذکر الآیات لیکون التطبیق أسهل و التنازل أقرب.

البراهین القاطعه قائمه علی أن الإنسان نوع واحد متماثل الأفراد عائش فی الدنیا عیشه دنیویه مادیه و أن الله جل شأنه متنزه عن الاتصاف بصفات الماده و أحوالها،متقدس عن لحوق عوارض الإمکان و طوارق النقص و الحدثان،و هو الذی یبینه القرآن.

و أما القرآن فإنه یقص القصه علی أساس تماثل الأفراد غیر أنه یذیل قصه القتل بقصه بعث الغراب فیکشف عن حقیقه کون الإنسان تدریجی الکمال بانیا استکماله فی مدارج الکمال الحیوی علی أساس الحس و الفکر.

ثم یذکر محاوره الأخوین فیقص عن المقتول من غرر المعارف الفطریه الإنسانیه و أصول المعارف الدینیه من التوحید و النبوه و المعاد،ثم أمر التقوی و الظلم و هما الأصلان العاملان فی جمیع القوانین الإلهیه و الأحکام الشرعیه،ثم العدل الإلهی فی مسأله القبول و الرد و المجازاه الأخرویه.

ثم ندامه القاتل بعد صنعه و خسرانه فی الدنیا و الآخره،ثم یبین بعد ذلک کله أن القتل من شامه أمره أن الذی یقع منه علی نفس واحده کالذی یقع منه علی الناس جمیعا و أن من أحیا نفسا فکأنما أحیا الناس جمیعا.

[سوره المائده (۵): الآیات ۳۳ الی ۴۰]

اشاره

إِنَّما جَزاءُ اَلَّذِینَ یُحارِبُونَ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ یَسْعَوْنَ فِی اَلْأَرْضِ فَساداً أَنْ یُقَتَّلُوا أَوْ یُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَیْدِیهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ یُنْفَوْا مِنَ اَلْأَرْضِ ذٰلِکَ لَهُمْ خِزْیٌ فِی اَلدُّنْیا وَ لَهُمْ فِی اَلْآخِرَهِ عَذابٌ عَظِیمٌ (۳۳) إِلاَّ اَلَّذِینَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَیْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۳۴) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ اِبْتَغُوا إِلَیْهِ اَلْوَسِیلَهَ وَ جاهِدُوا فِی سَبِیلِهِ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۳۵) إِنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مٰا فِی اَلْأَرْضِ جَمِیعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِیَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ یَوْمِ اَلْقِیٰامَهِ مٰا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (۳۶) یُرِیدُونَ أَنْ یَخْرُجُوا مِنَ اَلنّٰارِ وَ مٰا هُمْ بِخٰارِجِینَ مِنْهٰا وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِیمٌ (۳۷) وَ اَلسّٰارِقُ وَ اَلسّٰارِقَهُ فَاقْطَعُوا أَیْدِیَهُمٰا جَزٰاءً بِمٰا کَسَبٰا نَکٰالاً مِنَ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (۳۸) فَمَنْ تٰابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اَللّٰهَ یَتُوبُ عَلَیْهِ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۳۹) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اَللّٰهَ لَهُ مُلْکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ یُعَذِّبُ مَنْ یَشٰاءُ وَ یَغْفِرُ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۴۰)

(بيان)

الآيات غير خاليه الارتباط بما قبلها،فإن ما تقدمها من قصه قتل ابن آدم أخاه و ما كتبه الله سبحانه على بنى إسرائيل من أجله،و إن كان من تتمه الكلام على بنى إسرائيل و بيان حالهم من غير أن يشتمل على حد أو حكم بالمطابقه لكنها لا تخلو بحسب لازم مضمونها من مناسبه مع هذه الآيات المتعرضه لحد المفسدين فى الأرض و السراق.

قوله تعالى:« إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَساداً ».

« فَساداً »مصدر وضع موضع الحال،و محاربه الله و إن كانت بعد استحاله معناها الحقيقى و تعين إراده المعنى المجازى منها ذات معنى وسيع يصدق على مخالفه كل حكم من الأحكام الشرعيه و كل ظلم و إسراف لكن ضم الرسول إليه يهدى إلى أن المراد بها بعض ما للرسول فيه دخل،فيكون كالمتعين أن يراد بها ما يرجع إلى إبطال أثر ما للرسول عليه ولايه من جانب الله سبحانه كمحاربه الكفار مع النبى ص و إخلال قطاع الطريق بالأمن العام الذى بسطه بولايته على الأرض،و تعقب الجمله بقوله:« وَ يَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَساداً »يشخص المعنى المراد و هو الإفساد فى الأرض بالإخلال بالأمن و قطع الطريق دون مطلق المحاربه مع المسلمين،على أن الضروره قاضيه بأن النبى ص لم يعامل المحاربين من الكفار بعد الظهور عليهم و الظفر بهم هذه المعامله من القتل و الصلب و المثله و النفى.

على أن الاستثناء فى الآيه التاليه قرينه على كون المراد بالمحاربه هو الإفساد المذكور

فإنه ظاهر فی أن التوبه إنما هی من المحاربه دون الشرک و نحوه.

فالمراد بالمحاربه و الإفساد علی ما هو الظاهر هو الإخلال بالأمن العام،و الأمن العام إنما یختل بإیجاد الخوف العام و حلوله محله،و لا یکون بحسب الطبع و العاده إلا باستعمال السلاح المهدد بالقتل طبعا و لهذا ورد فیما ورد من السنه تفسیر الفساد فی الأرض بشهر السیف و نحوه، و سیجیء فی البحث الروائی التالی إن شاء الله تعالی.

قوله تعالی:« أَنْ یُقَتَّلُوا أَوْ یُصَلَّبُوا »(إلخ) التقتیل و التصلیب و التقطیع تفعیل من القتل و الصلب و القطع یفید شده فی معنی المجرد أو زیاده فیه،و لفظه« أَوْ »إنما تدل علی الترديد المقابل للجمع،و أما الترتیب أو التخییر بین أطراف الترديد فإنما یستفاد أحدهما من قرینه خارجیه حالیه أو مقالیه فالآیه غیر خالیه عن الإجمال من هذه الجهه.

و إنما تبینها السنه و سیجیء أن المروی عن أئمه أهل البیت(ع)أن الحدود الأربعه مترتبه بحسب درجات الإفساد کمن شهر سیفا فقتل النفس و أخذ المال أو قتل فقط أو أخذ المال فقط أو شهر سیفا فقط علی ما سیأتی فی البحث الروائی التالی إن شاء الله.

و أما قوله:« أَوْ تُقَطَّعَ أَیْدِیهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ »فالمراد بکونه من خلاف أن یأخذ القطع کلا من الید و الرجل من جانب مخالف لجانب الأخری کالید الیمنی و الرجل الیسری،و هذا هو القرینه علی کون المراد بقطع الأیدی و الأرجل قطع بعضها دون الجمیع أی إحدی الیدین و إحدی الرجلین مع مراعاه مخالفه الجانب.

و أما قوله:« أَوْ یُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ » فالنفی هو الطرد و التغییب و فسر فی السنه بطرده من بلد إلی بلد.

و فی الآیه أبحاث أخر فقهیه تطلب من کتب الفقه.

قوله تعالی:« ذلِکَ لَهُمْ خِزْیٌ فِی الدُّنْیا وَ لَهُمْ فِی الْآخِرَهِ عَذابٌ عَظِیمٌ » الخزی هو الفضیحه،و المعنی ظاهر.

و قد استدل بالآیه علی أن جریان الحد علی المجرم لا یستلزم ارتفاع عذاب الآخره، و هو حق فی الجمله.

قوله تعالی:« إِلَّا الَّذِینَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَیْهِمْ »(إلخ(و أما بعد القبض

علیهم و قیام البینه فإن الحد غیر ساقط،و أما قوله تعالی:« فَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ » فهو کنایه عن رفع الحد عنهم،و الآیه من موارد تعلق المغفره بغیر الأمر الأخروی.

قوله تعالی:« یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَیْهِ الْوَسِیلَهَ »(إلخ)قال الراغب فی المفردات:، الوسیله التوصل إلی الشیء برغبه،و هی أخص من الوصیله لتضمنها لمعنی الرغبه،قال تعالی: وَ ابْتَغُوا إِلَیْهِ الْوَسِیلَهَ ،و حقیقه الوسیله إلی الله تعالی مراعاه سبیله بالعلم و العباده،و تحری مکارم الشریعه،و هی کالقربه،و إذ کانت نوعا من التوصل و لیس إلا توصلا و اتصالا معنویا بما یوصل بین العبد و ربه و یربط هذا بذاک،و لا رابط یربط العبد بربه إلا ذله العبودیه،فالوسیله هی التحقق بحقیقه العبودیه و توجیه وجه المسکنه و الفقر إلی جنابه تعالی،فهذه هی الوسیله الرابطه،و أما العلم و العمل فإنما هما من لوازمها و أدواتها کما هو ظاهر إلا أن یطلق العلم و العمل علی نفس هذه الحاله.

و من هنا یظهر أن المراد بقوله:« وَ جاهِدُوا فِی سَبِیلِهِ »مطلق الجهاد الذی یعم جهاد النفس و جهاد الکفار جمیعا إذ لا دلیل علی تخصیصه بجهاد الکفار مع اتصال الجمله بما تقدمها من حدیث ابتغاء الوسیله،و قد عرفت ما معناه:علی أن الآیتین التالیتین بما تشتملان علیه من التعلیل إنما تناسبان إراده مطلق الجهاد من قوله:« وَ جاهِدُوا فِی سَبِیلِهِ ».

و مع ذلک فمن الممکن أن یکون المراد بالجهاد هو القتال مع الکفار نظرا إلی أن تقیید الجهاد بکونه فی سبیل الله إنما وقع فی الآیات الآمره بالجهاد بمعنی القتال،و أما الأعم فخال عن التقیید کقوله تعالی: «وَ الَّذِینَ جاهَدُوا فِینا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِینَ» (العنکبوت:۶۹)و علی هذا فالأمر بالجهاد فی سبیل الله بعد الأمر بابتغاء الوسیله إلیه من قبیل ذکر الخاص بعد العام اهتماما بشأنه،و لعل الأمر بابتغاء الوسیله إلیه بعد الأمر بالتقوی أیضا من هذا القبیل.

قوله تعالی:« إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِی الْأَرْضِ »(إلی آخر الآیتین)ظاهره -کما تقدمت الإشاره إلیه-أن یکون تعلیلا لمضمون الآیه السابقه،و المحصل أنه یجب علیکم أن تتقوا الله و تبتغوا إلیه الوسیله و تجاهدوا فی سبیله فإن ذلک أمر یهمکم فی صرف عذاب ألیم مقیم عن أنفسکم،و لا بدل له یحل محله فإن الذین کفروا فلم یتقوا الله و لم یبتغوا إلیه الوسیله و لم یجاهدوا فی سبیله لو أنهم ملکوا ما فی الأرض جمیعا-و هو أقصی ما یتمناه

ابن آدم من الملک الدنیوی عاده- ثم زید علیه مثله لیکون لهم ضعفا ما فی الأرض ثم أرادوا أن یفتدوا به من عذاب یوم القیامه ما تقبل منهم و لهم عذاب ألیم یریدون أن یخرجوا من النار و هی العذاب و ما هم بخارجین منها لأنه عذاب خالد مقیم علیهم لا یفارقهم أبدا.

و فی الآیه إشاره أولا- إلی أن العذاب هو الأصل القریب من الإنسان و إنما یصرف عنه الإیمان و التقوی کما یشیر إلیه قوله تعالی: «وَ إِنْ مِنْکُمْ إِلاّ وارِدُها کانَ عَلی رَبِّکَ حَتْماً مَقْضِیًّا ثُمَّ نُنَجِّی الَّذِینَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظّالِمِینَ فِیها جِثِیًّا» :(مریم:۷۲)و کذا قوله: «إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِی خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ» :(العصر:۳).

و ثانیا:أن الفطره الأصلیه الإنسانیه و هی التی تتألم من النار غیر باطله فیهم و لا منتفیه عنهم و إلا لم یتألموا و لم یتعذبوا بها و لم یریدوا الخروج منها.

قوله تعالی:« وَ السّارِقُ وَ السّارِقَهُ فَاقْطَعُوا أَیْدِیَهُما »(الآیه)الواو للاستیناف و الکلام فی مقام التفصیل فهو فی معنی:«و أما السارق و السارقه»(إلخ)و لذلک دخل الفاء فی الخبر أعنی قوله:« فَاقْطَعُوا أَیْدِیَهُما »لأنه فی معنی جواب أما،کذا قیل.

و أما استعمال الجمع فی قوله:« أَیْدِیَهُما »مع أن المراد هو المثنی فقد قیل:إنه استعمال شائع،و الوجه فیه:أن بعض الأعضاء أو أکثرها فی الإنسان مزدوجه کالقرنین و العینین و الأذنین و الیدین و الرجلین و القدمین،و إذا أضیفت هذه إلی المثنی صارت أربعا و لها لفظ الجمع کأعینهما و أیدیهما و أرجلهما و نحو ذلک ثم اطرد الجمع فی الکلام إذا أضیف عضو إلی المثنی و إن لم یکن العضو من المزدوجات کقولهم:ملأت ظهورهما و بطونهما ضربا،قال تعالی: «إِنْ تَتُوبا إِلَی اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُکُما» : (التحریم:۴)و الید ما دون المنکب و المراد بها فی الآیه الیمین بتفسیر السنه،و یصدق قطع الید بفصل بعض أجزائها أو جمیعها عن البدن بآله قطاعه.

قوله:« جَزاءً بِما کَسَبا نَکالاً مِنَ اللّهِ »الظاهر أنه فی موضع الحال من القطع المفهوم من قوله:« فَاقْطَعُوا »أی حال کون القطع جزاء بما کسبا نکالا من الله،و النکال هو العقوبه التی یعاقب بها المجرم لینتهی عن إجرامه،و یعتبر بها غیره من الناس.

و هذا المعنی أعنی کون القطع نکالا- هو المصحح لأن یتفرع علیه قوله: « فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ یَتُوبُ عَلَیْهِ «إلخ»أی لما کان القطع نکالا یراد به رجوع

المنكول به عن معصيته فمن تاب من بعد ظلمه توبه ثم أصلح و لم يحم حول السرقه-و هذا أمر يستثبت به معنى التوبه-فإن الله يتوب عليه و يرجع إليه بالمغفره و الرحمه لأن الله غفور رحيم،قال تعالى: «مٰا يَفْعَلُ اللّٰهُ بِعَذٰابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ وَ كٰانَ اللّٰهُ شٰاكِراً عَلِيماً» (النساء:۱۴۷).

و فى الآيه أبحاث أخر كثيره فقهيه للطالب أن يراجع فيها كتب الفقه.

قوله تعالى:« أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »(الآيه)فى موضع التعليل لما ذكر فى الآيه السابقه من قبول توبه السارق و السارقه إذا تابا و أصلحا من بعد ظلمهما فإن الله سبحانه لما كان له ملك السموات و الأرض،و للملك أن يحكم فى مملكته و رعيته بما أحب و أراد من عذاب أو رحمه كان له تعالى أن يعذب من يشاء و يغفر لمن يشاء على حسب الحكمه و المصلحه فيعذب السارق و السارقه إن لم يتوبا و يغفر لهما إن تابا.

و قوله:« وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »فى موضع التعليل لقوله:« لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »فإن الملك(بضم الميم)من شئون القدره كما أن الملك(بكسر الميم)من فروع الخلق و الإيجاد أعنى القيمومه الإلهيه.

بيان ذلك:أن الله تعالى خالق الأشياء و موجدها فما من شىء إلا و ما له من نفسه و آثار نفسه لله سبحانه،هو المعطى لما أعطى و المانع لما منع،فله أن يتصرف فى كل شىء، و هذا هو الملك(بكسر الميم)قال تعالى: «قُلِ اللّٰهُ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ» (الرعد:۱۶)و قال: «اللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاٰ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لاٰ نَوْمٌ لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ» : (البقره:۲۵۵)و هو تعالى مع ذلك قادر على أى تصرف شاء و أراد إذ كلما فرض من شىء فهو منه فله مضى الحكم و نفوذ الإراده و هو الملك(بضم الميم)و السلطنه على كل شىء فهو تعالى مالك لأنه قيوم على كل شىء،و ملك لأنه قادر غير عاجز و لا ممنوع من نفوذ مشيئته و إرادته.

(بحث روائى)

فى الكافى،بإسناده عن أبى صالح،عن أبى عبد الله(ع)قال: قدم على رسول الله ص قوم من بنى ضبه مرضى-فقال لهم رسول الله ص:أقيموا عندى فإذا برأتم بعثتكم

فی سریه،فقالوا:أخرجنا من المدینه،فبعث بهم إلی إبل الصدقه یشربون من أبوالها، و یأکلون من ألبانها فلما برءوا و اشتدوا-قتلوا ثلاثه ممن کان فی الإبل-فبلغ رسول الله ص فبعث إلیهم علیا(ع)-و إذا هم فی واد قد تحیروا-لیس یقدرون أن یخرجوا منه-قریبا من أرض الیمن فأسرهم-و جاء بهم إلی رسول الله ص فنزلت هذه الآیه:« إِنَّما جَزاءُ الَّذِینَ یُحارِبُونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ-وَ یَسْعَوْنَ فِی الْأَرْضِ فَساداً أَنْ یُقَتَّلُوا أَوْ یُصَلَّبُوا-أَوْ تُقَطَّعَ أَیْدِیهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ »:.

أقول:و رواه فی التهذیب،بإسناده عن أبی صالح عنه(ع)،باختلاف یسیر

،

و رواه العیاشی،فی تفسیره عنه(ع): و زاد فی آخره-فاختار رسول الله ص أن یقطع أیدیهم و أرجلهم من خلاف ،و القصه مرویه فی جوامع أهل السنه و منها الصحاح السته بطرق علی اختلاف فی خصوصیاتها،و منها ما وقع فی بعضها أن رسول الله ص بعد أن ظفر بهم قطع أیدیهم و أرجلهم من خلاف و سمل أعینهم،و فی بعضها:فقتل النبی ص منهم و صلب و قطع و سمل الأعین،و فی بعضها:أنه سمل أعینهم لأنهم سملوا أعین الرعاه، و فی بعضها:أن الله نهاه عن سمل الأعین،و أن الآیه نزلت معاتبه لرسول الله ص فی أمر هذه المثله،و فی بعضها:أنه أراد أن یسمل أعینهم و لم یسمل،إلی غیر ذلک.

و الروایات المأثوره عن أئمه أهل البیت(ع)خالیه عن ذکر سمل الأعین.

و فی الکافی،بإسناده عن عمرو بن عثمان بن عبید الله المدائنی عن أبی الحسن الرضا (ع)قال: سئل عن قول الله عز و جل:« إِنَّما جَزاءُ الَّذِینَ یُحارِبُونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ-وَ یَسْعَوْنَ فِی الْأَرْضِ فَساداً أَنْ یُقَتَّلُوا »(الآیه)فما الذی إذا فعله استوجب واحده من هذه الأربع؟ فقال:إذا حارب الله و رسوله-و سعی فی الأرض فسادا فقتل قتل به،و إن قتل و أخذ المال قتل و صلب،و إن أخذ المال و لم یقتل-قطعت یده و رجله من خلاف،و إن شهر السیف فحارب الله و رسوله-و سعی فی الأرض فسادا و لم یقتل-و لم یأخذ المال نفی من الأرض-.

قلت کیف ینفی من الأرض و ما حد نفیه؟قال:ینفی من المصر الذی فعل فیه ما فعل إلی مصر غیره،و یکتب إلی أهل ذلک المصر أنه منفی-فلا تجالسوه و لا تبایعوه و لا تناکحوه و لا تؤاکلوه و لا تشاربوه فیفعل ذلک به سنه-فإن خرج من ذلک المصر إلی غیره-کتب إلیهم بمثل ذلک حتی تتم السنه،قلت:فإن توجه إلی أرض الشرک لیدخلها؟قال:إن توجه إلی أرض الشرک لیدخلها قوتل أهلها:.

أقول:و رواه الشيخ فى التهذيب،و العياشى فى تفسيره عن أبى إسحاق المدائنى عنه (ص)

و الروايات فى هذه المعانى مستفيضه عن أئمه أهل البيت(ع)و كذا روى ذلك بعده طرق من طرق أهل السنه،و فى بعض رواياتهم أن الإمام بالخيار إن شاء قتل و إن شاء صلب و إن شاء قطع الأيدى و الأرجل من خلاف و إن شاء نفى،و نظيره ما وقع فى بعض روايات الخاصه من كون الإمام بالخيار كالذى

رواه فى الكافى،مسندا عن جميل بن دراج عن الصادق(ع): فى الآيه قال فقلت:أى شىء عليهم من هذه الحدود التى سمى الله عز و جل؟ قال:ذلك إلى الإمام إن شاء قطع،و إن شاء نفى،و إن شاء صلب،و إن شاء قتل:قلت:النفى إلى أين؟قال(ع)ينفى من مصر إلى آخر،و قال:إن عليا (ع)نفى رجلين من الكوفه إلى البصره.

و تمام الكلام فى الفقه غير أن الآيه لا تخلو عن إشعار بالترتيب بين الحدود بحسب اختلاف مراتب الفساد فإن الترديد بين القتل و الصلب و القطع و النفى-و هى أمور غير متعادله و لا متوازنه بل مختلفه من حيث الشده و الضعف-قرينه عقليه على ذلك.

كما أن ظاهر الآيه أنها حدود للمحاربه و الفساد فمن شهر سيفا و سعى فى الأرض فسادا أو قتل نفسا فإنما يقتل لأنه محارب مفسد و ليس ذلك قصاصا يقتص منه لقتل النفس المحترمه فلا يسقط القتل لو رضى أولياء المقتول بالديه

كما رواه العياشى فى تفسيره،عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر(ع)،و فيه: قال أبو عبيده:أصلحك الله-أ رأيت إن عفا عنه أولياء المقتول؟فقال أبو جعفر(ع):إن عفوا عنه فعلى الإمام أن يقتله-لأنه قد حارب و قتل و سرق،فقال أبو عبيده:فإن أراد أولياء المقتول أن يأخذوا منه الديه و يدعونه أ لهم ذلك؟قال:لا،عليه القتل.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن أبى شيبه و عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا فى كتاب الأشراف و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن الشعبى قال: كان حارثه بن بدر التميمى من أهل البصره-قد أفسد فى الأرض و حارب،و كلم رجالا من قريش أن يستأمنوا له عليا فأبوا- فأتى سعيد بن قيس الهمدانى فأتى عليا فقال:يا أمير المؤمنين ما جزاء الذين-يحاربون الله و رسوله و يسعون فى الأرض فسادا؟قال:أن يقتلوا أو يصلبوا-أو تقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف-أو ينفوا من الأرض ثم قال:إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم.

فقال سعيد:و إن كان حارثه بن بدر،فقال سعيد:هذا حارثه بن بدر قد جاء تائبا

فهو آمن؟قال:نعم،قال:فجاء به إليه فبايعه-و قبل ذلك منه و كتب له أمانا.

أقول:قول سعيد فى الروايه:«و إن كان حارثه بن بدر»ضميمه ضمها إلى الآيه لإبانه إطلاقها لكل تائب بعد المحاربه و الإفساد و هذا كثير فى الكلام.

و فى الكافى،بإسناده عن سوره بنى كليب قال: قلت لأبى عبد الله(ع):رجل يخرج من منزله يريد المسجد أو يريد حاجه-فيلقاه رجل فيستقفيه فيضربه فيأخذ ثوبه؟ قال:أى شىء يقول فيه من قبلكم؟قلت:يقولون:هذه ذعاره معلنه-و إنما المحارب فى قرى مشركه،فقال:أيها أعظم حرمه:دار الإسلام أو دار الشرك؟قال:فقلت:

دار الإسلام-فقال:هؤلاء من أهل هذه الآيه:« إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ » (إلى آخر الآيه.

أقول:ما أشار إليه الراوى من قول القوم هو الذى وقع فى بعض روايات الجمهور كما فى بعض روايات سبب النزول عن الضحاك قال: نزلت هذه الآيه فى المشركين،و ما فى تفسير الطبرى:أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس يسأله عن هذه الآيه فكتب إليه أنس يخبره:أن هذه الآيه نزلت فى أولئك النفر من العرنيين و هم من بجيله،قال أنس:

فارتدوا عن الإسلام،و قتلوا الراعى،و استاقوا الإبل،و أخافوا السبيل،و أصابوا الفرج الحرام فسأل رسول الله ص جبرئيل عن القضاء فيمن حارب فقال:من سرق و أخاف السبيل و استحل الفرج الحرام فاصلبه،إلى غير ذلك من الروايات.

و الآيه بإطلاقها يؤيد ما فى خبر الكافى،و من المعلوم أن سبب النزول لا يوجب تقيد ظاهر الآيه.

و فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ-وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَهَ » (الآيه)قال:فقال:تقربوا إليه بالإمام.

أقول:أى بطاعته فهو من قبيل الجرى و الانطباق على المصداق،و نظيره ما

عن ابن شهر آشوب قال:قال أمير المؤمنين(ع): فى قوله تعالى:« وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَهَ »:أنا وسيلته.:

و قريب منه ما فى بصائر الدرجات،بإسناده عن سلمان عن على(ع)

،و يمكن أن يكون الروايتان من قبيل التأويل فتدبر فيهما.

و فى المجمع:،روى عن النبى ص: سلوا الله لى الوسيله فإنها درجه فى الجنه-لا ينالها

إلا عبد واحد و أرجو أن أكون أنا هو.

و فی المعانی،بإسناده عن أبی سعید الخدری قال:قال رسول الله ص: إذا سألتم الله فاسألوا لی الوسیله،فسألنا النبی ص عن الوسیله،فقال:هی درجتی فی الجنه (الحدیث)و هو طویل معروف بحدیث الوسیله.

و أنت إذا تدبرت الحدیث،و انطباق معنی الآیه علیه وجدت أن الوسیله هی مقام النبی ص من ربه الذی به یتقرب هو إلیه تعالی،و یلحق به آله الطاهرون ثم الصالحون من أمته،

و قد ورد فی بعض الروایات عنهم(ع): أن رسول الله آخذ بحجزه ربه-و نحن آخذون بحجزته،و أنتم آخذون بحجزتنا.

و إلی ذلک یرجع ما ذکرناه فی روایتی القمی و ابن شهر آشوب أن من المحتمل أن تکونا من التأویل،و لعلنا نوفق لشرح هذا المعنی فی موضع یناسبه مما سیأتی.

و من الملحق بهذه الروایات

ما رواه العیاشی عن أبی بصیر قال:سمعت أبا جعفر (ع)یقول: عدو علی هم المخلدون فی النار-قال الله:« وَ ما هُمْ بِخارِجِینَ مِنْها ».

و فی البرهان،:فی قوله تعالی:« وَ السّارِقُ وَ السّارِقَهُ فَاقْطَعُوا أَیْدِیَهُما »(الآیه):عن التهذیب،بإسناده عن أبی إبراهیم(ع)قال: تقطع ید السارق و یترک إبهامه و راحته، و تقطع رجله و یترک عقبه یمشی علیها.

و فی التهذیب،أیضا بإسناده عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبی عبد الله(ع):فی کم تقطع ید السارق؟فقال:فی ربع دینار.قال:قلت له:فی درهمین؟فقال:فی ربع دینار بلغ الدینار ما بلغ.قال:فقلت له:أ رأیت من سرق أقل من ربع الدینار هل یقع علیه حین سرق اسم السارق؟و هل هو عند الله سارق فی تلک الحال؟فقال:

کل من سرق من مسلم شیئا-قد حواه و أحرزه فهو یقع علیه اسم السارق،و هو عند الله سارق-و لکن لا تقطع إلا فی ربع دینار أو أکثر،و لو قطعت ید السارق فیما هو أقل من ربع دینار-لألفیت عامه الناس مقطعین.

أقول:یرید(ع)بقوله:و لو قطعت ید السارق(إلخ)أن فی حکم القطع تخفیفا من الله رحمه منه لعباده،و هذا المعنی أعنی اختصاص الحکم بسرقه ربع دینار أو أکثر مروی ببعض طرق الجمهور أیضا

ففی صحیحی البخاری و مسلم،بإسنادهما عن عائشه أن

رسول الله ص قال: لا يقطع يد السارق إلا فى ربع دينار فصاعدا.

و فى تفسير العياشى،عن سماعه عن أبى عبد الله(ع):أنه قال: إذا أخذ السارق فقطع وسط الكف-فإن عاد قطعت رجله من وسط القدم-فإن عاد استودع السجن-فإن سرق فى السجن قتل.

و فيه،عن زراره عن أبى جعفر(ع): عن رجل سرق و قطعت يده اليمنى-ثم سرق فقطعت رجله اليسرى ثم سرق الثالثه؟قال:كان أمير المؤمنين(ع)يخلده فى السجن-و يقول:إنى لأستحيى من ربى-أن أدعه بلا يد يستنظف بها-و لا رجل يمشى بها إلى حاجته.

قال:فكان إذا قطع اليد قطعها دون المفصل،و إذا قطع الرجل قطعها دون الكعبين قال:و كان لا يرى أن يغفل عن شىء من الحدود.

و فيه:،عن زرقان صاحب ابن أبى دواد و صديقه بشده قال: رجع ابن أبى دواد ذات يوم من عند المعتصم،و هو مغتم فقلت له فى ذلك فقال:وددت اليوم أنى قدمت منذ عشرين سنه قال:قلت له:و لم ذاك؟قال:لما كان من هذا الأسود-أبا جعفر محمد بن على بن موسى-اليوم بين يدى أمير المؤمنين المعتصم-قال:قلت:و كيف كان ذلك؟قال:

إن سارقا أقر على نفسه بالسرقه-و سأل الخليفه تطهيره بإقامه الحد عليه-فجمع لذلك الفقهاء فى مجلسه،و قد أحضر محمد بن على فسألنا عن القطع-فى أى موضع يجب أن يقطع؟قال:

فقلت:من الكرسوع لقول الله فى التيمم:« فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ »و اتفق معى على ذلك قوم.

و قال آخرون:بل يجب القطع من المرفق-قال:و ما الدليل على ذلك؟قالوا:لأن الله لما قال:« وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ »فى الغسل-دل على ذلك أن حد اليد هو المرفق.

قال:فالتفت إلى محمد بن على-فقال:ما تقول فى هذا يا أبا جعفر؟فقال:قد تكلم القوم فيه يا أمير المؤمنين-قال:دعنى بما تكلموا به أى شىء عندك؟قال:اعفنى عن هذا يا أمير المؤمنين-قال:أقسمت عليك بالله-لما أخبرت بما عندك فيه،فقال.أما إذا أقسمت على بالله إنى أقول:إنهم أخطئوا فيه السنه،فإن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع-فتترك الكف،قال:و ما الحجه فى ذلك؟قال:قول رسول الله ص:السجود على سبعه أعضاء:الوجه،و اليدين،و الركبتين،و الرجلين-فإذا قطعت يده من الكرسوع

أو المرفق-لم يبق له يد يسجد عليها،و قال الله تبارك و تعالى:« وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلّهِ »يعنى هذه الأعضاء السبعه التى يسجد عليها« فَلا تَدْعُوا مَعَ اللّهِ أَحَداً »و ما كان لله لم يقطع.

قال:فأعجب المعتصم ذلك-فأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف.قال ابن أبى دواد:قامت قيامتى و تمنيت أنى لم أك حيا-.

قال ابن أبى زرقان:إن ابن أبى دواد قال:صرت إلى المعتصم بعد ثالثه فقلت:إن نصيحه أمير المؤمنين على واجبه-و أنا أكلمه بما أعلم أنى أدخل به النار قال:و ما هو؟ قلت:إذا جمع أمير المؤمنين فى مجلسه-فقهاء رعيته و علماءهم لأمر واقع من أمور الدين-فسألهم عن الحكم فيه-فأخبروه بما عندهم من الحكم فى ذلك،و قد حضر المجلس بنوه و قواده و وزراؤه و كتابه،و قد تسامع الناس بذلك من وراء بابه-ثم يترك أقاويلهم كلهم لقول رجل-يقول شطر هذه الأمه بإمامته،و يدعون أنه أولى منه بمقامه-ثم يحكم بحكمه دون حكم الفقهاء؟قال:فتغير لونه،و انتبه لما نبهته له،و قال:جزاك الله عن نصيحتك خيرا.

قال:فأمر اليوم الرابع فلانا من كتاب وزرائه-بأن يدعوه إلى منزله فدعاه فأبى أن يجيبه، و قال:قد علمت أنى لا أحضر مجالسكم-فقال:إنى إنما أدعوك إلى الطعام- و أحب أن تطأ ثيابى و تدخل منزلى فأتبرك بذلك-و قد:أحب فلان بن فلان-من وزراء الخليفه لقائك فصار إليه-فلما أطعم منها أحس مآلم السم-فدعا بدابته فسأله رب المنزل أن يقيم-قال:خروجى من دارك خير لك،فلم يزل يومه ذلك و ليلته فى خلفه حتى قبض.

أقول:و رويت القصه بغيره من الطرق،و إنما أوردنا الروايه بطولها كبعض ما تقدمها من الروايات المتكرره لاشتمالها على أبحاث قرآنيه دقيقه يستعان بها على فهم الآيات.

و فى الدر المنثور،أخرج أحمد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن عبد الله بن عمر: أن امرأه سرقت على عهد رسول الله ص-فقطعت يدها اليمنى-فقالت:هل لى من توبه يا رسول الله؟قال:نعم-أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك،فنزل الله فى سوره المائده:« فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ».

أقول:الروايه من قبيل التطبيق و اتصال الآيه بما قبلها،و نزولهما معا ظاهر

[سوره المائده (۵): الآیات ۴۱ الی ۵۰]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلرَّسُولُ لاٰ یَحْزُنْکَ اَلَّذِینَ یُسٰارِعُونَ فِی اَلْکُفْرِ مِنَ اَلَّذِینَ قٰالُوا آمَنّٰا بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَ مِنَ اَلَّذِینَ هٰادُوا سَمّٰاعُونَ لِلْکَذِبِ سَمّٰاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِینَ لَمْ یَأْتُوکَ یُحَرِّفُونَ اَلْکَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوٰاضِعِهِ یَقُولُونَ إِنْ أُوتِیتُمْ هٰذا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَ مَنْ یُرِدِ اَللّٰهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِکَ لَهُ مِنَ اَللّٰهِ شَیْئاً أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ لَمْ یُرِدِ اَللّٰهُ أَنْ یُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِی اَلدُّنْیٰا خِزْیٌ وَ لَهُمْ فِی اَلْآخِرَهِ عَذٰابٌ عَظِیمٌ (۴۱) سَمّٰاعُونَ لِلْکَذِبِ أَکّٰالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جٰاؤُکَ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ یَضُرُّوکَ شَیْئاً وَ إِنْ حَکَمْتَ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اَللّٰهَ یُحِبُّ اَلْمُقْسِطِینَ (۴۲) وَ کَیْفَ یُحَکِّمُونَکَ وَ عِنْدَهُمُ اَلتَّوْرٰاهُ فِیهٰا حُکْمُ اَللّٰهِ ثُمَّ یَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ وَ مٰا أُولٰئِکَ بِالْمُؤْمِنِینَ (۴۳) إِنّٰا أَنْزَلْنَا اَلتَّوْرٰاهَ فِیهٰا هُدیً وَ نُورٌ یَحْکُمُ بِهَا اَلنَّبِیُّونَ اَلَّذِینَ أَسْلَمُوا لِلَّذِینَ هٰادُوا وَ اَلرَّبّٰانِیُّونَ وَ اَلْأَحْبٰارُ بِمَا اُسْتُحْفِظُوا مِنْ کِتٰابِ اَللّٰهِ وَ کٰانُوا عَلَیْهِ شُهَدٰاءَ فَلاٰ تَخْشَوُا اَلنّٰاسَ وَ اِخْشَوْنِ وَ لاٰ تَشْتَرُوا بِآیٰاتِی ثَمَناً قَلِیلاً وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلْکٰافِرُونَ (۴۴) وَ کَتَبْنٰا عَلَیْهِمْ فِیهٰا أَنَّ اَلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ اَلْعَیْنَ بِالْعَیْنِ وَ اَلْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ اَلْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ اَلسِّنَّ بِالسِّنِّ وَ اَلْجُرُوحَ قِصٰاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ کَفّٰارَهٌ لَهُ وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلظّٰالِمُونَ (۴۵) وَ قَفَّیْنٰا عَلیٰ آثٰارِهِمْ بِعِیسَی اِبْنِ مَرْیَمَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ اَلتَّوْرٰاهِ وَ آتَیْنٰاهُ اَلْإِنْجِیلَ فِیهِ هُدیً وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ اَلتَّوْرٰاهِ وَ هُدیً وَ مَوْعِظَهً لِلْمُتَّقِینَ (۴۶) وَ لْیَحْکُمْ أَهْلُ اَلْإِنْجِیلِ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ فِیهِ وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلْفٰاسِقُونَ (۴۷) وَ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ اَلْکِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ اَلْکِتٰابِ وَ مُهَیْمِناً عَلَیْهِ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ عَمّٰا جٰاءَکَ مِنَ اَلْحَقِّ لِکُلٍّ جَعَلْنٰا مِنْکُمْ شِرْعَهً وَ مِنْهٰاجاً وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ لَجَعَلَکُمْ أُمَّهً وٰاحِدَهً وَ لٰکِنْ لِیَبْلُوَکُمْ فِی مٰا آتٰاکُمْ فَاسْتَبِقُوا اَلْخَیْرٰاتِ إِلَی اَللّٰهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً فَیُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ فِیهِ تَخْتَلِفُونَ (۴۸) وَ أَنِ اُحْکُمْ بَیْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ وَ اِحْذَرْهُمْ أَنْ یَفْتِنُوکَ عَنْ بَعْضِ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ إِلَیْکَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمٰا یُرِیدُ اَللّٰهُ أَنْ یُصِیبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ اَلنّٰاسِ لَفٰاسِقُونَ (۴۹) أَ فَحُکْمَ اَلْجٰاهِلِیَّهِ یَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اَللّٰهِ حُکْماً لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ (۵۰)

(بيان)

الآيات متصله الأجزاء يرتبط بعضها ببعض ذات سياق واحد يلوح منه أنها نزلت فى طائفه من أهل الكتاب حكموا رسول الله ص فى بعض أحكام التوراه و هم يرجون أن يحكم فيهم بخلاف ما حكمت به التوراه فيستريحوا إليه فرارا من حكمها قائلين بعضهم لبعض:« إِنْ أُوتِيتُمْ هٰذا -أى ما يوافق هواهم- فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ -أى أوتيتم حكم التوراه -فَاحْذَرُوا ».

ص :٣٣٨

و أنه(ص)أرجعهم إلى حكم التوراه فتولوا عنه،و أنه كان هناك طائفه من المنافقين يميلون إلى مثل ما يميل إليه أولئك المحكمون المستفتون من أهل الكتاب يريدون أن يفتنوا رسول الله ص فيحكم بينهم على الهوى و رعايه جانب الأقوياء و هو حكم الجاهليه، و من أحسن حكما من الله لقوم يوقنون؟و بذلك يتأيد ما ورد فى أسباب النزول أن الآيات نزلت فى اليهود حين زنا منهم محصنان من أشرافهم،و أراد أحبارهم أن يبدلوا حكم الرجم الذى فى التوراه الجلد،فبعثوا من يسأل رسول الله ص عن حكم زنا المحصن،و وصوهم إن هو حكم بالجلد أن يقبلوه،و إن حكم بالرجم أن يردوه فحكم رسول الله ص بالرجم فتولوا عنه فسأل(ص)ابن صوريا عن حكم التوراه فى ذلك و أقسمه بالله و آياته أن لا يكتم ما يعلمه من الحق فصدق رسول الله ص بأن حكم الرجم موجود فى التوراه (القصه)و سيجىء فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله تعالى.

و الآيات مع ذلك مستقله فى بيانها غير مقيده فيما أفادها بسبب النزول،و هذا شأن الآيات القرآنيه مما نزلت لأسباب خاصه من الحوادث الواقعه،ليس لأسباب نزولها منها إلا ما لواحد من مصاديقها الكثيره من السهم،و ليس إلا لأن القرآن كتاب عام دائم لا يتقيد بزمان أو مكان،و لا يختص بقوم أو حادثه خاصه،و قال تعالى: «إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ» :(يوسف:۱۰۴)و قال تعالى: «تَبارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً» :(الفرقان:۱)و قال تعالى: «وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ» :(فصلت:۴۲).

قوله تعالى:« يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِى الْكُفْرِ »،تسليه للنبى ص و تطييب لنفسه مما لقى من هؤلاء المذكورين فى الآيه،و هم الذين يسارعون فى الكفر أى يمشون فيه المشيه السريعه،و يسيرون فيه السير الحثيث،تظهر من أفعالهم و أقوالهم موجبات الكفر واحده بعد أخرى فهم كافرون مسارعون فى كفرهم،و المسارعه فى الكفر غير المسارعه إلى الكفر.

و قوله:« مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنّا بِأَفْواهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ »بيان لهؤلاء الذين يسارعون فى الفكر أى من المنافقين،و فى وضع هذا الوصف موضع الموصوف إشاره إلى عله النهى كما أن الأخذ بالوصف السابق أعنى قوله:« اَلَّذِينَ يُسارِعُونَ فِى الْكُفْرِ »للإشاره إلى عله المنهى عنه،و المعنى-و الله أعلم-:لا يحزنك هؤلاء بسبب مسارعتهم فى الكفر فإنهم

إنما آمنوا بألسنتهم لا بقلوبهم و ما أولئك بالمؤمنين،و كذلك اليهود الذين جاءوك و قالوا ما قالوا.

و قوله:« وَ مِنَ الَّذِينَ هادُوا »عطف على قوله:« مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنّا »(إلخ)على ما يفيده السياق،و ليس من الاستيناف فى شىء،و على هذا فقوله:« سَمّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ »خبر لمبتدء محذوف أى هم سماعون(إلخ).

و هذه الجمل المتسقه بيان حال الذين هادوا،و أما المنافقون المذكورون فى صدر الآيه فحالهم لا يوافق هذه الأوصاف كما هو ظاهر.

فهؤلاء المذكورون من اليهود هم سماعون للكذب أى يكثرون من سماع الكذب مع العلم بأنه كذب،و إلا لم يكن صفه ذم،و هم كثير السمع لقوم آخرين لم يأتوك،يقبلون منهم كل ما ألقوه إليهم و يطيعونهم فى كل ما أرادوه منهم،و اختلاف معنى السمع هو الذى أوجب تكرار قوله:« سَمّاعُونَ »فإن الأول يفيد معنى الإصغاء و الثانيه معنى القبول.

و قوله:« يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ »أى بعد استقرارها فى مستقرها و الجمله صفه لقوله:« لِقَوْمٍ آخَرِينَ »و كذا قوله:« يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ».

و يتحصل من المجموع أن عده من اليهود ابتلوا بواقعه دينيه فيما بينهم،لها حكم إلهى عندهم لكن علماءهم غيروا الحكم بعد ثبوته ثم بعثوا طائفه منهم إلى النبى ص و أمروهم أن يحكموه فى الواقعه فإن حكم بما أنبأهم علماؤهم من الحكم المحرف فليأخذوه و إن حكم بغير ذلك فليحذروا.

و قوله:« وَ مَنْ يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً »الظاهر أنها معترضه يبين بها أنهم فى أمرهم هذا مفتونون بفتنه إلهيه،فلتطب نفس النبى ص بأن الأمر من الله و إليه و ليس يملك منه تعالى شىء فى ذلك،و لا موجب للتحزن فيما لا سبيل إلى التخلص منه.

و قوله:« أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ »فقلوبهم باقيه على قذارتها الأوليه لما تكرر منهم من الفسق بعد الفسق فأضلهم الله به،و ما يضل به إلا الفاسقين.

و قوله:« لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَهِ عَذابٌ عَظِيمٌ »إيعاد لهم بالخزى فى الدنيا و قد فعل بهم،و بالعذاب العظيم فى الآخره.

قوله تعالى:« سَمّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكّالُونَ لِلسُّحْتِ »قال الراغب فى المفردات:، السحت

القشر الذى يستأصل،قال تعالى:« فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ »و قرئ: فَيُسْحِتَكُمْ (أى بفتح الياء)يقال:سحته و أسحته،و منه السحت للمحظور الذى يلزم صاحبه العار كأنه يسحت دينه و مروءته،قال تعالى:« أَكّالُونَ لِلسُّحْتِ »أى لما يسحت دينهم،

و قال(ع):

كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به،و سمى الرشوه سحتا. انتهى.

فكل مال اكتسب من حرام فهو سحت،و السياق يدل على أن المراد بالسحت فى الآيه هو الرشا و يتبين من إيراد هذا الوصف فى المقام أن علماءهم الذين بعثوا طائفه منهم إلى النبى ص كانوا قد أخذوا فى الواقعه رشوه لتحريف حكم الله فقد كان الحكم مما يمكن أن يتضرر به بعضه فسد الباب بالرشوه،فأخذوا الرشوه و غيروا حكم الله تعالى.

و من هنا يظهر أن قوله تعالى:« سَمّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكّالُونَ لِلسُّحْتِ »باعتبار المجموع وصف لمجموع القوم،و أما بحسب التوزيع فقوله:« سَمّاعُونَ لِلْكَذِبِ »وصف لقوله:

« اَلَّذِينَ هادُوا »و هم المبعوثون إلى النبى ص و من فى حكمهم من التابعين،و قوله:

« أَكّالُونَ لِلسُّحْتِ »وصف لقوم آخرين،و المحصل أن اليهود منهم علماء يأكلون الرشا، و عامه مقلدون سماعون لأكاذيبهم.

قوله تعالى:« فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ »(إلى آخر الآيه)تخيير للنبى ص بين أن يحكم بينهم إذا حكموه أو يعرض عنهم،و من المعلوم أن اختيار أحد الأمرين لم يكن يصدر منه(ص)إلا لمصلحه داعيه فيئول إلى إرجاع الأمر إلى نظر النبى ص و رأيه.

ثم قرر تعالى هذا التخيير بأنه ليس عليه(ص)ضرر لو ترك الحكم فيهم و أعرض عنهم،و بين له أنه لو حكم بينهم فليس له أن يحكم إلا بالقسط و العدل.

فيعود المضمون بالآخره إلى أن الله سبحانه لا يرضى أن يجرى بينهم إلا حكمه فإما أن يجرى فيهم ذلك أو يهمل أمرهم فلا يجرى من قبله(ص)حكم آخر.

قوله تعالى:« وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ »تعجيب من فعالهم أنهم أمه ذات كتاب و شريعه و هم منكرون لنبوتك و كتابك و شريعتك ثم يبتلون بواقعه فى كتابهم حكم الله فيها،ثم يتولون بعد ما عندهم التوراه فيها حكم الله و الحال أن أولئك المبتعدين من الكتاب و حكمه ليسوا

بالذين يؤمنون بذلك.

و على هذا المعنى فقوله:« ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ »أى عن حكم الواقعه مع كون التوراه عندهم و فيها حكم الله،و قوله:« وَ مٰا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ »أى بالذين يؤمنون بالتوراه و حكمها،فهم تحولوا من الإيمان بها و بحكمها إلى الكفر.

و يمكن أن يفهم من قوله:« ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ »،التولى عما حكم به النبى ص و من قوله:« وَ مٰا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ »نفى الإيمان بالنبى ص على ما كان يظهر من رجوعهم إليه و تحكيمهم إياه،أو نفى الإيمان بالتوراه و بالنبى ص جميعا،لكن ما تقدم من المعنى أنسب لسياق الآيات.

و فى الآيه تصديق ما للتوراه التى عند اليهود اليوم،و هى التى جمعها لهم عزراء بإذن «كورش»ملك إيران بعد ما فتح بابل،و أطلق بنى إسرائيل من أسر البابليين و أذن لهم فى الرجوع إلى فلسطين و تعمير الهيكل،و هى التى كانت بيدهم فى زمن النبى ص، و هى التى بيدهم اليوم،فالقرآن يصدق أن فيها حكم الله،و هو أيضا يذكر أن فيها تحريفا و تغييرا.

و يستنتج من الجميع:أن التوراه الموجوده الدائره بينهم اليوم فيها شىء من التوراه الأصليه النازله على موسى(ع)و أمور حرفت و غيرت إما بزياده أو نقصان أو تغيير لفظ أو محل أو غير ذلك،و هذا هو الذى يراه القرآن فى أمر التوراه،و البحث الوافى عنها أيضا يهدى إلى ذلك.

قوله تعالى:« إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاهَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ »(إلخ)بمنزله التعليل لما ذكر فى الآيه السابقه،و هى و ما بعدها من الآيات تبين أن الله سبحانه شرع لهذه الأمم على اختلاف عهودهم شرائع،و أودعها فى كتب أنزلها إليهم ليهتدوا بها و يتبصروا بسببها،و يرجعوا إليها فيما اختلفوا فيه،و أمر الأنبياء و العلماء منهم أن يحكموا بها، و يتحفظوا عليها و يقوها من التغيير و التحريف،و لا يطلبوا فى الحكم ثمنا ليس إلا قليلا، و لا يخافوا فيها إلا الله سبحانه و لا يخشوا غيره.

و أكد ذلك عليهم و حذرهم اتباع الهوى،و تفتين أبناء الدنيا،و إنما شرع من الأحكام مختلفا باختلاف الأمم و الأزمان ليتم الامتحان الإلهى فإن استعداد الأزمان مختلف بمرور

الدهور،و لا يستكمل المختلفان فى الاستعداد شده و ضعفا بمكمل واحد من التربيه العلميه و العمليه على وتيره واحده.

فقوله:« إِنّا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاهَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ »أى شىء من الهدايه يهتدى بها،و شىء من النور يتبصر به من المعارف و الأحكام على حسب حال بنى إسرائيل،و مبلغ استعدادهم، و قد بين الله سبحانه فى كتابه عامه أخلاقهم،و خصوصيات أحوال شعبهم و مبلغ فهمهم، فلم ينزل إليهم من الهدايه إلا بعضها و من النور إلا بعضه لسبق عهدهم و قدمه أمتهم،و قله استعدادهم، قال تعالى: «وَ كَتَبْنٰا لَهُ فِى الْأَلْوٰاحِ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ مَوْعِظَهً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَىْءٍ» (الأعراف:۱۴۵).

و قوله:« يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هٰادُوا »إنما وصف النبيين بالإسلام و هو التسليم لله،الذى هو الدين عند الله سبحانه للإشاره إلى أن الدين واحد،و هو الإسلام لله و عدم الاستنكاف عن عبادته،و ليس لمؤمن بالله-و هو مسلم له-أن يستكبر عن قبول شىء من أحكامه و شرائعه.

و قوله:« وَ الرَّبّٰانِيُّونَ وَ الْأَحْبٰارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتٰابِ اللّٰهِ وَ كٰانُوا عَلَيْهِ شُهَدٰاءَ »أى و يحكم بها الربانيون و هم العلماء المنقطعون إلى الله علما و عملا-أو الذين إليهم تربيه الناس بعلومهم بناء على اشتقاق اللفظ من الرب أو التربيه،و الأحبار و هم الخبراء من علمائهم يحكمون بما أمرهم الله به و أراده منهم أن يحفظوه من كتاب الله،و كانوا من جهه حفظهم له و تحملهم إياه شهداء عليه لا يتطرق إليه تغيير و تحريف لحفظهم له فى قلوبهم،فقوله:

« وَ كٰانُوا عَلَيْهِ شُهَدٰاءَ »بمنزله النتيجه لقوله:« بِمَا اسْتُحْفِظُوا »(إلخ)أى أمروا بحفظه فكانوا حافظين له بشهادتهم عليه.

و ما ذكرناه من معنى الشهاده هو الذى يلوح من سياق الآيه،و ربما قيل:إن المراد بها الشهاده على حكم النبى ص فى الرجم أنه ثابت فى التوراه،و قيل:إن المراد الشهاده على الكتاب أنه من عند الله وحده لا شريك له،و لا شاهد من جهه السياق يشهد على شىء من هذين المعنيين.

و أما قوله تعالى:« فَلٰا تَخْشَوُا النّٰاسَ وَ اخْشَوْنِ وَ لٰا تَشْتَرُوا بِآيٰاتِى ثَمَناً قَلِيلًا »فهو متفرع على قوله:« إِنّا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاهَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا »،أى لما كانت التوراه منزله من عندنا مشتمله على شريعه يقضى بها النبيون و الربانيون و الأحبار بينكم فلا تكتموا شيئا

منهـا و لاـ تغيروهـا خوفـا أو طمعا،أما خوفا فبأن تخشوا الناس و تنسوا ربكم بل الله فاخشوا حتى لا تخشوا الناس،و أما طمعا فبأن تشتروا بآيات الله ثمنا قليلا هو مال أو جاه دنيوى زائل باطل.

و يمكن أن يكون متفرعا على قوله:« بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللّهِ وَ كانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ »بحسب المعنى لأنه فى معنى أخذ الميثاق على الحفـظ أى أخـذنا منهم الميثاق على حفظ الكتاب و أشـهدناهم عليه أن لا يغيروه و لا يخشوا فى إظهاره غيرى،و لا يشتروا بآياتى ثمنا قليلا،قال تعالى: «وَ إِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً» :(آل عمران:۱۸۷)و قال تعالى: «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَ دَرَسُوا ما فِيهِ وَ الدّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ» :(الأعراف:۱۷۰).

و هـذا المعنى الثانى لعله أنسب و أوفق لما يتلوه من التأكيد و التشديد بقوله:« وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ ».

قوله تعـالى:« وَ كَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ -إلى قوله وَ الْجُرُوحَ قِصاصٌ » السـياق و خاصه بالنظر إلى قوله:« وَ الْجُرُوحَ قِصاصٌ »يـدل على أن المراد به بيـان حكم القصـاص فى أقسـام الجنايات من القتل و القطع و الجرح،فالمقابله الواقعه فى قوله:« اَلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ »و غيره إنمـا وقعت بين المقتص له و المقتص به و المراد به أن النفس تعـادل النفس فى بـاب القصـاص،و العين تقابل العين و الأنف الأنف و هكذا و الباء للمقابله كما فى قولك:

بعت هذا بهذا.

فيئول معنى الجمل المتسـقه إلى أن النفس تقتل بالنفس،و العين تفقأ بالعين و الأنف تجدع بالأنف،و الأذن تصلم بالأذن،و السن تقلع بالسن و الجروح ذوات قصاص،و بالجمله أن كلا من النفس و أعضاء الإنسان مقتص بمثله.

و لعـل هـذا هو مراد من قـدر فى قوله:« اَلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ »إن النفس مقتصه أو مقتوله بـالنفس و هكـذا و إلاـ فالتقـدير بمعزل عن الحاجه،و الجمل تامه من دونه و الظرف لغو.

و الآيه لا تخلو من إشعار بأن هذا الحكم غير الحكم الذى حكموا فيه النبى ص و تذكره

الآيات السابقه فإن السياق قد تجدد بقوله:« إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاهَ فِيهَا هُدىً وَ نُورٌ ».

و الحكم موجود فى التوراه الدائره على ما سيجىء نقله فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى:« فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفّٰارَةٌ لَهُ »أى فمن عفا من أولياء القصاص كولى المقتول أو نفس المجنى عليه و المجروح عن الجانى،و وهبه ما يملكه من القصاص فهو أى العفو كفاره لذنوب المتصدق أو كفاره عن الجانى فى جنايته.

و الظاهر من السياق أن الكلام فى تقدير قولنا:فإن تصدق به من له القصاص فهو كفاره له،و إن لم يتصدق فليحكم صاحب الحكم بما أنزله الله من القصاص،و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون.

و بذلك يظهر أولا:أن الواو فى قوله:« وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ »للعطف على قوله:

« فَمَنْ تَصَدَّقَ »لا للاستيناف كما أن الفاء فى قوله:« فَمَنْ تَصَدَّقَ »للتفريع:تفريع المفصل على المجمل،نظير قوله تعالى فى آيه القصاص: «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبٰاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَدٰاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسٰانٍ» :(البقره:۱۷۸).

و ثانيا:أن قوله:« وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ »،من قبيل وضع العله موضع معلولها و التقدير:

و إن لم يتصدق فليحكم بما أنزل الله فإن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون.

قوله تعالى:« وَ قَفَّيْنٰا عَلىٰ آثٰارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرٰاهِ » التقفيه جعل الشىء خلف الشىء و هو مأخوذ من القفا،و الآثار جمع أثر و هو ما يحصل من الشىء مما يدل عليه،و يغلب استعماله فى الشكل الحاصل من القدم ممن يضرب فى الأرض، و الضمير فى« آثٰارِهِمْ »للأنبياء.

فقوله:« وَ قَفَّيْنٰا عَلىٰ آثٰارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ »استعاره بالكنايه أريد بها الدلاله على أنه سلك به(ع)المسلك الذى سلكه من قبله من الأنبياء،و هو طريق الدعوه إلى التوحيد و الإسلام لله.

و قوله:« مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرٰاهِ »تبيين لما تقدمه من الجمله و إشاره إلى أن دعوه عيسى هى دعوه موسى(ع)من غير بينونه بينهما أصلا.

قوله تعالى:« وَ آتَيْنٰاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرٰاهِ »

(إلخ)سياق الآيات من جهه تعرضها لحال شريعه موسى و عيسى و محمد ص و نزولها فى حق كتبهم يقضى بانطباق بعضها على بعض و لازم ذلك:

أولا-أن الإنجيل المذكور فى الآيه-و معناها البشاره-كان كتابا نازلا على المسيح (ع)لا مجرد البشاره من غير كتاب غير أن الله سبحانه لم يفصل القول فى كلامه فى كيفيه نزوله على عيسى كما فصله فى خصوص التوراه و القرآن قال تعالى فى حق التوراه: «قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النّاسِ بِرِسالاتِي وَ بِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ» :(الأعراف:۱۴۵)و قال:

«أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِي نُسْخَتِها هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ» :(الأعراف:۱۵۴).

و قال فى خصوص القرآن: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» :(الشعراء:۱۹۵)و قال: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» :(الشعراء:۱۹۵)و قال: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» :(التكوير:۲۱)و قال: «فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرامٍ بَرَرَةٍ» :(عبس:۱۶)و هو سبحانه لم يذكر فى تفصيل نزول الإنجيل و مشخصاته شيئا،لكن ذكره نزوله على عيسى فى الآيه محاذيا لذكر نزول التوراه على موسى فى الآيه السابقه،و نزول القرآن على محمد ص يدل على كونه كتابا فى عرض الكتابين.

و ثانيا:أن قوله تعالى فى وصف الإنجيل:« فِيهِ هُدىً وَ نُورٌ »محاذاه لقوله فى وصف التوراه:« إِنّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ »يراد به ما يشتمل عليه الكتاب من المعارف و الأحكام غير أن قوله تعالى فى هذه الآيه ثانيا:« وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ »يدل على أن الهدى المذكور أولا غير الهدى الذى تفسيره الموعظه فالهدى المذكور أولا هو نوع المعارف التى يحصل بها الاهتداء فى باب الاعتقادات،و أما ما يهدى من المعارف إلى التقوى فى الدين فهو الذى يراد بالهدى المذكور ثانيا.

و على هذا لا يبقى لقوله:« وَ نُورٌ »من المصداق إلا الأحكام و الشرائع،و التدبر ربما ساعد على ذلك فإنها أمور يستضاء بها و يسلك فى ضوئها و تنورها مسلك الحياه،و قد قال تعالى: «أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّاسِ» : (الأنعام:۱۲۲).

و قد ظهر بذلك:أن المراد بالهدى فى وصف التوراه و فى وصف الإنجيل أولا هو نوع المعارف الاعتقاديه كالتوحيد و المعاد،و بالنور فى الموضعين نوع الشرائع و الأحكام،

و بالهدى ثانيا فى وصف الإنجيل هو نوع المواعظ و النصائح،و الله أعلم.

و ظهر أيضا وجه تكرار الهدى فى الآيه فالهدى المذكور ثانيا غير الهدى المذكور أولا و أن قوله« وَ مَوْعِظَةً »من قبيل عطف التفسير و الله أعلم.

و ثالثا:أن قوله ثانيا فى وصف الإنجيل:« وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ »ليس من قبيل التكرار لتأكيد و نحوه بل المراد به تبعيه الإنجيل لشريعه التوراه فلم يكن فى الإنجيل إلا الإمضاء لشريعه التوراه و الدعوه إليها إلا ما استثناه عيسى المسيح على ما حكاه الله تعالى من قوله: «وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» :(آل عمران:۵۰).

و الدليل على ذلك قوله تعالى فى الآيه الآتيه فى وصف القرآن:« وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ »على ما سيجىء من البيان.

قوله تعالى:« وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ »قد مر توضيحه،و الآيه تدل على أن فى الإنجيل النازل على المسيح عنايه خاصه بالتقوى فى الدين مضافا إلى ما يشتمل عليه التوراه من المعارف الاعتقاديه و الأحكام العمليه،و التوراه الدائره بينهم اليوم و إن لم يصدقها القرآن كل التصديق،و كذا الأناجيل الأربعه المنسوبه إلى متى و مرقس و لوقا و يوحنا و إن كانت غير ما يذكره القرآن من الإنجيل النازل على المسيح نفسه لكنها مع ذلك كله تصدق هذا المعنى كما سيجىء إن شاء الله الإشاره إليه.

قوله تعالى:« وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ »(إلخ)و قد أنزل فيه تصديق التوراه فى شرائعها إلا ما استثنى من الأحكام المنسوخه التى ذكرت فى الإنجيل النازل على عيسى(ع)،فإن الإنجيل لما صدق التوراه فيما شرعته،و أحل بعض ما حرم فيها كان العمل بما فى التوراه فى غير ما أحلها الإنجيل من المحرمات عملا بما أنزل الله فى الإنجيل و هو ظاهر.

و من هنا يظهر ضعف ما استدل بعض المفسرين بالآيه على أن الإنجيل مشتمل على صرائع مفصله كما اشتملت عليه التوراه،و وجه الضعف ظاهر.

و أما قوله:« وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ »فهو تشديد فى الأمر المدلول عليه بقوله:« وَ لْيَحْكُمْ »،و قد كرر الله سبحانه هذه الكلمه للتشديد ثلاث مرات:

مرتين فى أمر اليهود و مره فى أمر النصارى باختلاف يسير فقال:« وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ ، فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ ، فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ »فسجل عليهم

الكفر و الظلم و الفسق.

و لعل الوجه فی ذکر الفسق عند التعرض لما یرجع إلی النصاری،و الکفر و الظلم فیما یعود إلی الیهود أن النصاری بدلوا التوحید تثلیثا و رفضوا أحکام التوراه بأخذ بولس دین المسیح دینا مستقلا منفصلا عن دین موسی مرفوعا فیه الأحکام بالتفدیه فخرجت النصاری بذلک عن التوحید و شریعته بتأول ففسقوا عن دین الله الحق،و الفسق خروج الشیء من مستقره کخروج لب التمره عن قشرها.

و أما الیهود فلم یشتبه علیهم الأمر فیما عندهم من دین موسی(ع)و إنما ردوا الأحکام و المعارف التی کانوا علی علم منها و هو الکفر بآیات الله و الظلم لها.

و الآیات الثلاث أعنی قوله:« وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِکَ هُمُ الْکافِرُونَ ، فَأُولئِکَ هُمُ الظّالِمُونَ ، فَأُولئِکَ هُمُ الْفاسِقُونَ »آیات مطلقه لا تختص بقوم دون قوم،و إن انطبقت علی أهل الکتاب فی هذا المقام.

و قد اختلف المفسرون فی معنی کفر من لم یحکم بما أنزل الله کالقاضی یقضی بغیر ما أنزل الله،و الحاکم یحکم علی خلاف ما أنزل الله،و المبتدع یستن بغیر السنه و هی مسأله فقهیه الحق فیها أن المخالفه لحکم شرعی أو لأی أمر ثابت فی الدین فی صوره العلم بثبوته و الرد له توجب الکفر،و فی صوره العلم بثبوته مع عدم الرد له توجب الفسق،و فی صوره عدم العلم بثبوته مع الرد له لا توجب کفرا و لا فسقا لکونه قصورا یعذر فیه إلا أن یکون قصر فی شیء من مقدماته و لیراجع فی ذلک کتب الفقه.

قوله تعالی:« وَ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ الْکِتابِ وَ مُهَیْمِناً عَلَیْهِ » هیمنه الشیء علی الشیء-علی ما یتحصل من معناها-کون الشیء ذا سلطه علی الشیء فی حفظه و مراقبته و أنواع التصرف فیه،و هذا حال القرآن الذی وصفه الله تعالی بأنه تبیان کل شیء بالنسبه إلی ما بین یدیه من الکتب السماویه:یحفظ منها الأصول الثابته غیر المتغیره و ینسخ منها ما ینبغی أن ینسخ من الفروع التی یمکن أن یتطرق إلیها التغیر و التبدل حتی یناسب حال الإنسان بحسب سلوکه صراط الترقی و التکامل بمرور الزمان قال تعالی:

«إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ یَهْدِی لِلَّتِی هِیَ أَقْوَمُ» :(إسراء:۹)و قال: «ما نَنْسَخْ مِنْ آیَهٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَیْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها» :(البقره:۱۰۶)و قال: «الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَّ الَّذِی یَجِدُونَهُ مَکْتُوباً عِنْدَهُمْ فِی التَّوْراهِ وَ الْإِنْجِیلِ یَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ یُحِلُّ لَهُمُ

الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِی کانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» :(الأعراف:۱۵۷).

فهذه الجمله أعنی قوله:« وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ »متممه لقول:« مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ » تتميم إيضاح إذ لولاها لأمكن أن يتوهم من تصديق القرآن للتوراه و الإنجيل أنه يصدق ما فيهما من الشرائع و الأحكام تصديق إبقاء من غير تغيير و تبديل لكن توصيفه بالهيمنه يبين أن تصديقه لها تصديق أنها معارف و شرائع حقه من عند الله و لله أن يتصرف منها فيما يشاء بالنسخ و التكميل كما يشير إليه قوله ذيلا:« وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِی ما آتاكُمْ ».

فقول:« مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ »معناه تقرير ما فيها من المعارف و الأحكام بما يناسب حال هذه الأمه فلا ينافيه ما تطرق إليها من النسخ و التكميل و الزياده كما كان المسيح(ع) أو إنجيله مصدقا للتوراه مع إحلاله بعض ما فيها من المحرمات كما حكاه الله عنه فی قوله:

«وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَیَّ مِنَ التَّوْراهِ وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِی حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» :(آل عمران:۵۰).

قوله تعالی:« فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ » أی إذا كانت الشريعه النازله إليك المودعه فی الكتاب حقا و هو حق فيما وافق ما بين يديه من الكتب و حق فيما خالفه لكونه مهيمنا عليه فليس لك إلا أن تحكم بين أهل الكتاب-كما يؤيده ظاهر الآيات السابقه-أو بين الناس-كما تؤيده الآيات اللاحقه- بما أنزل الله إليك و لا تتبع أهواءهم بالإعراض و العدول عما جاءك من الحق.

و من هنا يظهر جواز أن يراد بقوله:« فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ »الحكم بين أهل الكتاب أو الحكم بين الناس لكن تبعد المعنی الأول حاجته إلی تقدير كقولنا فاحكم بينهم إن حكمت،فإن الله سبحانه لم يوجب عليه(ص)الحكم بينهم بل خيره بين الحكم و الإعراض بقوله:« فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ »(الآيه)على أن الله سبحانه ذكر المنافقين مع اليهود فی أول الآيات فلا موجب لاختصاص اليهود برجوع الضمير إليهم لسبق الذكر و قد ذكر معهم غيرهم،فالأنسب أن يرجع الضمير إلی الناس لدلاله المقام.

و يظهر أيضا أن قوله:« عَمَّا جاءَكَ »متعلق بقوله:« وَ لا تَتَّبِعْ »بإشرابه معنی العدول أو الإعراض.

قوله تعالی:« لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً »قال الراغب فی المفردات:،

الشرع نهج الطريق الواضح يقال: شرعت له طريقا و الشرع مصدر ثم جعل اسما للطريق النهج فقيل له:شرع و شرع و شريعه،و أستعير ذلك للطريقه الإلهيه قال:« شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً » -إلى أن قال-قال بعضهم:سميت الشريعه شريعه تشبيها بشريعه الماء انتهى.

و لعل الشريعه بالمعنى الثانى مأخوذ من المعنى الأول لوضوح طريق الماء عندهم بكثره الورود و الصدور و قال: النهج (بالفتح فالسكون):الطريق الواضح،و نهج الأمر و أنهج وضح،و منهج الطريق و منهاجه.

(كلام فى معنى الشريعه) (و الفرق بينها و بين الدين و الملّه فى عرف القرآن)

معنى الشريعه كما عرفت هو الطريقه،و الدين و كذلك الملّه طريقه متخذه لكن الظاهر من القرآن أنه يستعمل الشريعه فى معنى أخص من الدين كما يدل عليه قوله تعالى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّهِ الْإِسْلامُ» :(آل عمران:١٩)و قوله تعالى: «وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَهِ مِنَ الْخاسِرِينَ» :(آل عمران:٨٥) إذا انضما إلى قوله:

« لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً »(الآيه)و قوله: «ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَهٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها» :(الجاثيه:١٨).

فكان الشريعه هى الطريقه الممهده لأمه من الأمم أو لنبى من الأنبياء الذين بعثوا بها كشريعه نوح و شريعه إبراهيم و شريعه موسى و شريعه عيسى و شريعه محمد ص،و الدين هو السنه و الطريقه الإلهيه العامه لجميع الأمم فالشريعه تقبل النسخ دون الدين بمعناه الوسيع.

و هناك فرق آخر و هو أن الدين ينسب إلى الواحد و الجماعه كيفما كانا،و لكن الشريعه لا تنسب إلى الواحد إلا إذا كان واضعها أو القائم بأمرها يقال:دين المسلمين و دين اليهود و شريعتهم،و يقال:دين الله و شريعته و دين محمد و شريعته،و يقال:دين زيد و عمرو، و لا يقال:شريعه زيد و عمرو،و لعل ذلك لما فى لفظ الشريعه من التلميح إلى المعنى الحدثى و هو تمهيد الطريق و نصبه فمن الجائز أن يقال:الطريقه التى مهدها الله أو الطريقه التى مهدت للنبى أو للأمه الفلانيه دون أن يقال:الطريقه التى مهدت لزيد إذ لا اختصاص له بشىء.

و كيف كان فالمستفاد منها أن الشريعه أخص معنى من الدين و أما قوله تعالى:

«شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِی أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى» :(الشوری:۱۳)فلا ينافی ذلک إذ الآيه إنما تدل علی أن شريعه محمد ص المشروعه لأمته هی مجموع وصايا الله سبحانه لنوح و إبراهيم و موسی و عيسی مضافا إليها ما أوحاه إلی محمد صلی الله عليه و آله و عليهم،و هو كنايه إما عن كون الإسلام جامعا لمزايا جميع الشرائع السابقه و زياده،أو عن كون الشرائع جميعا ذات حقيقه واحده بحسب اللب و إن كانت مختلفه بحسب اختلاف الأمم فی الاستعداد كما يشعر به أو يدل عليه قوله بعده:

«أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» :(الشوری:۱۳).

فنسبه الشرائع الخاصه إلی الدين -و هو واحد و الشرائع تنسخ بعضها بعضا-كنسبه الأحكام الجزئيه فی الإسلام فيها ناسخ و منسوخ إلی أصل الدين،فالله سبحانه لم يتعبد عباده إلا لدين واحد و هو الإسلام له إلا أنه سلك بهم لنيل ذلک مسالک مختلفه و سن لهم سننا متنوعه علی حسب اختلاف استعداداتهم و تنوعها،و هی شرائع نوح و إبراهيم و موسی و عيسی و محمد صلی الله عليه و آله و عليهم كما أنه تعالی ربما نسخ فی شريعه واحده بعض الأحكام ببعض لانقضاء مصلحه الحكم المنسوخ و ظهور مصلحه الحكم الناسخ كنسخ الحبس المخلد فی زنا النساء بالجلد و الرجم و غير ذلک،و يدل علی ذلک قوله تعالی:« وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِی مَا آتَاكُمْ »(الآيه).

و أما المله فكان المراد بها السنه الحيويه المسلوكه بين الناس،و كان فيها معنی الإملال و الإملاء فيكون هی الطريقه المأخوذه من الغير،و ليس الأصل فی معناه واضحا ذاک الوضوح،فالأشبه أن تكون مرادفه للشريعه بمعنی أن المله كالشريعه هی الطريقه الخاصه بخلاف الدين،و إن كان بينهما فرق من حيث إن الشريعه تستعمل فيها بعنايه أنها سبيل مهده الله تعالی لسلوک الناس إليه،و المله إنما تطلق عليها لكونها مأخوذه عن الغير بالاتباع العملی،و لعله لذلک لا تضاف إلی الله سبحانه كما يضاف الدين و الشريعه،يقال:دين الله و شريعه الله،و لا يقال:مله الله.

بل إنما تضاف إلی النبی مثلا من حيث إنها سيرته و سنته أو إلی الأمه من جهه أنهم سائرون مستنون به،قال تعالی: «مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» :(البقره:

۱۳۵)و قال تعالی حكايه عن يوسف(ع): «إِنِّی تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ كَافِرُونَ وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِی إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ» :(يوسف:۳۸)و قال

تعالى حكايه عن الكفار فى قولهم لأنبيائهم: «لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا» :(إبراهيم:١٣).

فقد تلخص أن الدين فى عرف القرآن أعم من الشريعه و المله و هما كالمترادفين مع فرق ما من حيث العنايه اللفظيه.

[(بيان)]

قوله تعالى:« وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ »بيان لسبب اختلاف الشرائع،و ليس المراد بجعلهم أمه واحده الجعل التكوينى بمعنى النوعيه الواحده فإن الناس أفراد نوع واحد يعيشون على نسق واحد كما يدل عليه قوله تعالى:

«وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ» :(الزخرف:٣٣).

بل المراد أخذهم بحسب الاعتبار أمه واحده على مستوى واحد من الاستعداد و التهيؤ حتى تشرع لهم شريعه واحده لتقارب درجاتهم الملحوظه فقوله:« وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً »من قبيل وضع عله الشرط موضع الشرط ليتضح باستحضارها معنى الجزاء أعنى قوله:« وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ »أى ليمتحنكم فيما أعطاكم و أنعم عليكم،و لا محاله هذه العطايا المشار إليها فى الآيه مختلفه فى الأمم،و ليست هى الاختلافات بحسب المساكن و الألسنه و الألوان فإن الله لم يشرع شريعتين أو أكثر فى زمان واحد قط بل هى الاختلافات بحسب مرور الزمان،و ارتقاء الإنسان فى مدارج الاستعداد و التهيؤ و ليست التكاليف الإلهيه و الأحكام المشرعه إلا امتحانا إلهيا للإنسان فى مختلف مواقف الحياه و إن شئت فقل:إخراجا له من القوه إلى الفعل فى جانبى السعاده و الشقاوه،و إن شئت فقل:

تمييزا لحزب الرحمن و عباده من حزب الشيطان فقد اختلف التعبير عنه فى الكتاب العزيز،و مآل الجميع إلى معنى واحد،قال تعالى جريا على مسلك الامتحان: «وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكافِرِينَ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ» :(آل عمران:١۴٢)إلى غير ذلك من الآيات.

و قال جريا على المسلك الثانى: «فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى» :(طه:١٢۴).

و قال جريا على المسلك الثالث: «وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً -Xإلى أن

قالX- قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِی لَأُزَیِّنَنَّ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ إِلاّ عِبادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ قالَ هذا صِراطٌ عَلَیَّ مُسْتَقِیمٌ إِنَّ عِبادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطانٌ إِلاّ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغاوِینَ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِینَ» :(الحجر:۴۳)إلی غیر ذلک من الآیات.

و بالجمله لما کانت العطایا الإلهیه لنوع الإنسان من الاستعداد و التهیؤ مختلفه باختلاف الأزمان،و کانت الشریعه و السنه الإلهیه الواجب إجراؤها بینهم لتتمیم سعاده حیاتهم و هی الامتحانات الإلهیه تختلف لا محاله باختلاف مراتب الاستعدادات و تنوعها أنتج ذلک لزوم اختلاف الشرائع،و لذلک علل تعالی ما ذکره من اختلاف الشرعه و المنهاج بأن إرادته تعلقت ببلائکم و امتحانکم فیما أنعم علیکم فقال:« لِکُلٍّ جَعَلْنا مِنْکُمْ شِرْعَهً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللّهُ لَجَعَلَکُمْ أُمَّهً واحِدَهً وَ لکِنْ لِیَبْلُوَکُمْ فِی ما آتاکُمْ ».

فمعنی الآیه-و الله أعلم-:لکل أمه جعلنا منکم(جعلا تشریعیا)شرعه و منهاجا و لو شاء الله لأخذکم أمه واحده و شرع لکم شریعه واحده،و لکن جعل لکم شرائع مختلفه لیمتحنکم فیما ءاتاکم من النعم المختلفه،و اختلاف النعم کان یستدعی اختلاف الامتحان الذی هو عنوان التکالیف و الأحکام المجعوله فلا محاله ألقی الاختلاف بین الشرائع.

و هذه الأمم المختلفه هی أمم نوح و إبراهیم و موسی و عیسی و محمد صلی الله علیه و آله و علیهم کما یدل علیه ما یمتن الله به علی هذه الأمه بقوله: «شَرَعَ لَکُمْ مِنَ الدِّینِ ما وَصّی بِهِ نُوحاً وَ الَّذِی أَوْحَیْنا إِلَیْکَ وَ ما وَصَّیْنا بِهِ إِبْراهِیمَ وَ مُوسی وَ عِیسی : (الشوری:۱۳).

قوله تعالی:« فَاسْتَبِقُوا الْخَیْراتِ إِلَی اللّهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً »(إلخ) الاستباق أخذ السبق،و المرجع مصدر میمی من الرجوع،و الکلام متفرع علی قوله:« لِکُلٍّ جَعَلْنا مِنْکُمْ شِرْعَهً وَ مِنْهاجاً »بما له من لازم المعنی أی و جعلنا هذه الشریعه الحقه المهیمنه علی سائر الشرائع شریعه لکم،و فیه خیرکم و صلاحکم لا محاله فاستبقوا الخیرات و هی الأحکام و التکالیف،و لا تشتغلوا بأمر هذه الاختلافات التی بینکم و بین غیرکم فإن مرجعکم جمیعا إلی ربکم تعالی فینبئکم بما کنتم فیه تختلفون و یحکم بینکم حکما فصلا،و یقضی قضاء عدلا.

قوله تعالی:« وَ أَنِ احْکُمْ بَیْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ وَ لا تَتَّبِعْ »،هذا الصدر یتحد مع ما فی الآیه السابقه من قوله:« أَنِ احْکُمْ بَیْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ »،ثم یختلفان فیما فرع علی کل منهما،و یعلم منه أن التکرار لحیازه هذه الفائده فالآیه الأولی تأمر بالحکم بما أنزل الله و تحذر اتباع أهواء الناس لأن هذا الذی أنزله الله هی الشریعه المجعوله للنبی

ص و لأمته فالواجب عليهم أن يستبقوا هذه الخيرات،و الآيه الثانيه تأمر بالحكم بما أنزل الله،و تحذر اتباع أهواء الناس و تبين أن توليهم إن تولوا عما أنزل الله كاشف عن إضلال إلهى لهم لفسقهم و قد قال الله تعالى: «يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ مٰا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِينَ» :(البقره:۲۶).

فيتحصل مما تقدم أن هذه الآيه بمنزله البيان لبعض ما تتضمنه الآيه السابقه من المعانى المفتقره إلى البيان،و هو أن إعراض أرباب الأهواء عن اتباع ما أنزل الله بالحق إنما هو لكونهم فاسقين،و قد أراد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم الموجبه لفسقهم،و الإصابه هو الإضلال ظاهرا،فقوله:« وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ »عطف على الكتاب فى قوله:

« وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ »كما قيل،و الأنسب حينئذ أن يكون اللام فيه مشعره بالتلميح إلى المعنى الحدثى،و يصير المعنى:و أنزلنا إليك ما كتب عليهم من الأحكام و أن احكم بينهم بما أنزل الله(إلخ).

و قوله:« وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ إِلَيْكَ »أمره تعالى نبيه بالحذر عن فتنتهم مع كونه(ص)معصوما بعصمه الله إنما هو من جهه أن قوه العصمه لا توجب بطلان الاختيار و سقوط التكاليف المبنيه عليه فإنها من سنخ الملكات العلميه،و العلوم و الإدراكات لا تخرج القوى العامله و المحركه فى الأعضاء و الأعضاء الحامله لها عن استواء نسبه الفعل و الترك إليها.

كما أن العلم الجازم بكون الغذاء مسموما يعصم الإنسان عن تناوله و أكله،لكن الأعضاء المستخدمه للتغذى كاليد و الفم و اللسان و الأسنان من شأنها أن تعمل عملها فى هذا الأكل و تتغذى به،و من شأنها أن تسكن فلا تعمل شيئا مع إمكان العمل لها فالفعل اختيارى و إن كان كالمستحيل صدوره ما دام هذا العلم.

و قد تقدم شطر من الكلام فى ذلك فى الكلام على قوله تعالى: «وَ مٰا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَهَ وَ عَلَّمَكَ مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كٰانَ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكَ عَظِيماً» (النساء:۱۱۳).

و قوله:« فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمٰا يُرِيدُ اللّٰهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ »بيان لأمر إضلالهم إثر فسقهم كما تقدم،و فيه رجوع إلى بدء الكلام فى هذه الآيات:« يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاٰ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسٰارِعُونَ فِي الْكُفْرِ »(إلخ)ففيه تسليه للنبى ص،و تطييب لنفسه،و تعليم له

ما لا یدب معه الحزن فی قلبه،و هکذا فعل الله سبحانه فی جل الموارد التی نهی فیها النبی ص عن أن یحزن علی تولیهم عن الدعوه الحقه و استنکافهم عن قبول ما یرشدهم إلی سبیل الرشاد و الفلاح فبین له(ص)أنهم لیسوا بمعجزین لله فی ملکه و لا غالبین علیه بل الله غالب علی أمره،و هو الذی یضلهم بسبب فسقهم،و یزیغ قلوبهم عن زیغ منهم، و یجعل الرجس علیهم بسلب توفیقه عنهم و استدراجه إیاهم،قال تعالی: «وَ لا یَحْسَبَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا یُعْجِزُونَ» :(الأنفال:۵۹)و إذا کان الأمر إلی الله سبحانه،و هو الذی یذب عن ساحه دینه الطاهره کل رجس نجس فلم یفته شیء مما أراده و لا وجه للحزن إذا لم یکن فائت.

و لعله إلی ذلک الإشاره بقوله:« فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما یُرِیدُ اللّهُ »(إلخ)دون أن یقال:

فإن تولوا فإنما یرید الله(إلخ)أو ما یؤدی معناه فیئول المعنی إلی تعلیم أن تولیهم أنما هو بتسخیر إلهی فلا ینبغی أن یحزن ذلک النبی ص فإنه رسول داع إلی سبیل ربه إن أحزنه شیء فإنما ینبغی أن یحزنه لغلبته إراده الله فی أمر الدعوه الدینیه،و إذا کان الله سبحانه لا یعجزه شیء بل هو الذی یسوقهم إلی هنا و هناک بتسخیر إلهی و توفیق و مکر فلا موجب للحزن.

و قد بین تعالی هذه الحقیقه بلسان آخر فی قوله: «فَلَعَلَّکَ باخِعٌ نَفْسَکَ عَلی آثارِهِمْ إِنْ لَمْ یُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِیثِ أَسَفاً إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَی الْأَرْضِ زِینَهً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَیُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ إِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَیْها صَعِیداً جُرُزاً» :(الکهف:۸)فبین أن الله تعالی لم یرد بإرسال الرسل و الإنذار و التبشیر الدینی إیمان الناس جمیعا علی حد ما یریده الإنسان فی حوائجه و مآربه،و إنما ذلک کله امتحان و ابتلاء یبتلی به الناس لیمتاز به من هو أحسن عملا، و إلا فالدنیا و ما فیها ستبطل و تفنی فلا یبقی إلا الصعید العاری من هؤلاء الکفار المعرضین عن الحدیث الحق،و من کل ما یتعلق به قلوبهم فلا موجب للأسف إذ لا یجر ذلک خیبه إلی سعینا و لا بطلانا لقدرتنا و کلالا لإرادتنا.

و قوله:« وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ النّاسِ لَفاسِقُونَ »فی محل التعلیل لقوله:« أَنَّما یُرِیدُ اللّهُ أَنْ یُصِیبَهُمْ »(إلخ)علی ما تقدم بیانه.

قوله تعالی:« أَ فَحُکْمَ الْجاهِلِیَّهِ یَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُکْماً لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ » تفریع بنحو الاستفهام علی ما بین فی الآیه السابقه من تولیهم مع کون ما یتولون عنه هو حکم

الله النازل إليهم و الحق الذى علموا أنه حق،و يمكن أن يكون فى مقام النتيجه اللازمه لما بين فى جميع الآيات السابقه.

و المعنى:و إذا كانت هذه الأحكام و الشرائع حقه نازله من عند الله و لم يكن وراءها حكم حق لا يكون دونها إلا حكم الجاهليه الناشئه عن اتباع الهوى فهؤلاء الذين يتولون عن الحكم الحق ما ذا يريدون بتوليهم و ليس هناك إلا حكم الجاهليه؟أ فحكم الجاهليه يبغون و الحال أنه ليس أحد أحسن حكما من الله لهؤلاء المدعين للإيمان؟.

فقوله:« أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّهِ يَبْغُونَ »استفهام توبيخى،و قوله:« وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً »استفهام إنكارى أى لا أحد أحسن حكما من الله،و إنما يتبع الحكم لحسنه، و قوله:« لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »فى أخذ وصف اليقين تعريض لهم بأنهم إن صدقوا فى دعواهم الإيمان بالله فهم يوقنون بآياته،و الذين يوقنون بآيات الله ينكرون أن يكون أحد أحسن حكما من الله سبحانه.

و اعلم أن فى الآيات موارد من الالتفات من التكلم وحده أو مع الغير إلى الغيبه و بالعكس كقوله:« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »ثم قوله:« إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراهَ »ثم قوله:« بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ »ثم قوله:« وَ اخْشَوْنِ »و هكذا،فما كان منها يختار فيه الغيبه بلفظ الجلاله فإنما يراد به تعظيم الأمر بتعظيم صاحبه.

و ما كان منها بلفظ المتكلم وحده فيراد به أن الأمر إلى الله وحده لا يداخله ولى و لا يشفع فيه شفيع،فإذا كان ترغيبا أو وعدا فإنما القائم به هو الله سبحانه،و هو أكرم من يفى بوعده،و إذا كان تحذيرا أو إيعادا فهو أشد و أشق و لا يصرف عن الإنسان بشفيع و لا ولى إذ الأمر إلى الله نفسه و قد نفى كل واسطه و رفع كل سبب متخلل فافهم ذلك، و قد مر بعض الكلام فيه فى بعض المباحث السابقه.

(بحث روائى)

فى المجمع،: فى قوله تعالى:« يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِى الْكُفْرِ » (الآيه)عن الباقر(ع):أن امرأه من خيبر ذات شرف بينهم-زنت مع رجل من أشرافهم و هما محصنان،فكرهوا رجمهما،فأرسلوا إلى يهود المدينه-و كتبوا إليهم أن يسألوا النبى عن ذلك-طمعا فى أن يأتى لهم برخصه- فانطلق قوم منهم كعب بن الأشرف و كعب بن أسيد-و شعبه بن عمرو و مالك بن الصيف-و كنانه بن أبى الحقيق و غيرهم فقالوا:يا محمد

أخبرنا عن الزانی و الزانیه-إذا أحصنا ما حدهما؟فقال:و هل ترضون بقضائی فی ذلک؟ قالوا:نعم،فنزل جبرائیل بالرجم فأخبرهم بذلک-فأبوا أن یأخذوا به فقال جبرائیل:

اجعل بینک و بینهم ابن صوریا و وصفه له-.

فقال النبی:هل تعرفون شابا أمرد أبیض أعور-یسکن فدکا یقال له:ابن صوریا؟ قالوا:نعم،قال:فأی رجل هو فیکم؟قالوا:أعلم یهودی بقی علی ظهر الأرض-بما أنزل الله علی موسی،قال:فأرسلوا إلیه ففعلوا فأتاهم عبد الله بن صوریا.

فقال له النبی:إنی أنشدک الله الذی لا إله إلا هو-الذی أنزل التوراه علی موسی، و فلق لکم البحر و أنجاکم و أغرق آل فرعون،و ظلل علیکم الغمام،و أنزل علیکم المن و السلوی-هل تجدون فی کتابکم الرجم علی من أحصن؟قال ابن صوریا:نعم و الذی ذکرتنی به-لو لا خشیه أن یحرقنی رب التوراه-إن کذبت أو غیرت ما اعترفت لک،و لکن أخبرنی کیف هی فی کتابک یا محمد؟قال:إذا شهد أربعه رهط عدول أنه قد أدخله فیها- کما یدخل المیل فی المکحله وجب علیه الرجم،قال ابن صوریا:هکذا أنزل الله فی التوراه علی موسی-.

فقال له النبی:فما ذا کان أول ما ترخصتم به أمر الله؟ قال:کنا إذا زنی الشریف ترکناه،و إذا زنی الضعیف أقمنا علیه الحد-فکثر الزنا فی أشرافنا-حتی زنی ابن عم ملک لنا فلم نرجمه،ثم زنی رجل آخر فأراد الملک رجمه فقال له قومه لا-حتی ترجم فلانا - یعنون ابن عمه-فقلنا:تعالوا نجتمع فلنضع شیئا دون الرجم-یکون علی الشریف و الوضیع، فوضعنا الجلد و التحمیم،و هو أن یجلدا أربعین جلده-ثم یسود وجوههما ثم یحملان علی حمارین،و یجعل وجوههما من قبل دبر الحمار-و یطاف بهما فجعلوا هذا مکان الرجم-.

فقالت الیهود لابن صوریا:ما أسرع ما أخبرته به!و ما کنت لما أتینا علیک بأهل، و لکنک کنت غائبا فکرهنا أن نغتابک-فقال:إنه أنشدنی بالتوراه،و لو لا ذلک لما أخبرته به،فأمر بهما النبی فرجما عند باب مسجده،و قال:أنا أول من أحیا أمرک إذا أماتوه فأنزل الله فیه:« یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ قَدْ جٰاءَکُمْ رَسُولُنٰا-یُبَیِّنُ لَکُمْ کَثِیراً مِمّٰا کُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْکِتٰابِ-وَ یَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ »فقام ابن صوریا فوضع یدیه علی رکبتی رسول الله ثم قال:هذا مقام العائذ بالله و بک أن تذکر لنا الکثیر-الذی أمرت أن تعفو عنه فأعرض النبی عن ذلک.

ثم سأله ابن صوریا عن نومه فقال:تنام عیناک و لا ینام قلبک،فقال:صدقت،

و أخبرنی عن شبه الولد بأبیه-لیس فیه من شبه أمه شیء-أو بأمه لیس فیه من شبه أبیه شیء، فقال:أیهما علا و سبق ماء صاحبه کان الشبه له-قال:قد صدقت،فأخبرنی ما للرجل من الولد و ما للمرأه منه؟قال:فأغمی علی رسول الله طویلا-ثم خلی عنه محمرا وجهه یفیض عرقا-فقال:اللحم و الدم و الظفر و الشحم للمرأه،و العظم و العصب و العروق للرجل-قال له:صدقت،أمرک أمر نبی-.

فأسلم ابن صوریا عند ذلک و قال:یا محمد من یأتیک من الملائکه؟قال:جبرائیل قال:صفه لی فوصفه النبی-فقال:اشهد أنه فی التوراه کما قلت:و أنک رسول الله حقا-.

فلما أسلم ابن صوریا وقعت فیه الیهود و شتموه،فلما أرادوا أن ینهضوا-تعلقت بنو قریظه ببنی النضیر فقالوا:یا محمد إخواننا بنو النضیر أبونا واحد،و دیننا واحد،و نبینا واحد-إذا قتلوا منا قتیلا لم یقد،و أعطونا دیته سبعین وسقا من تمر،و إذا قتلنا منهم قتیلا قتلوا القاتل-و أخذوا منا الضعف مائه و أربعین وسقا من تمر،و إن کان القتیل امرأه قتلوا به الرجل منا،و بالرجل منهم رجلین منا،و بالعبد الحر منا-و جراحاتنا علی النصف من جراحاتهم،فاقض بیننا و بینهم-فأنزل الله فی الرجم و القصاص الآیات:

أقول:و أسند الطبرسی فی المجمع، إلی روایه جماعه من المفسرین مضافا إلی روایته عن الباقر(ع)

،و روی ما یقرب من صدر القصه فی جوامع أهل السنه و تفاسیرهم بعده طرق عن أبی هریره و براء بن عازب و عبد الله بن عمر و ابن عباس و غیرهم،و الروایات متقاربه،و روی ذیل القصه فی الدر المنثور،عن عبد بن حمید و أبی الشیخ عن قتاده، و عن ابن جریر و ابن إسحاق و الطبرانی و ابن أبی شیبه و ابن المنذر و غیرهم عن ابن عباس.

أما ما وقع فی الروایه من تصدیق ابن صوریا وجود حکم الرجم فی التوراه و أنه المراد بقوله:« وَ کَیْفَ یُحَکِّمُونَکَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْراهُ فِیها حُکْمُ اللّهِ »(الآیه)فیؤیده أیضا وجود الحکم فی التوراه الدائره الیوم بنحو یقرب مما فی الحدیث.

ففی الإصحاح (۱)الثانی و العشرین من سفر التثنیه من التوراه ما هذا نصه": [(۲۲) إذا وجد رجل مضطجعا مع امرأه زوجه بعل-یقتل الاثنان:الرجل المضطجع مع المرأه و المرأه-فتنزع الشر من إسرائیل(۲۳)إذا کانت فتاه عذراء مخطوبه لرجل-فوجدها رجل فی المدینه و اضطجع معها(۲۴)فأخرجوهما کلیهما إلی باب تلک المدینه-و ارجموهما بالحجاره

۱- ۱) منقول من التوراه العربیه المطبوعه فی کمبروج سنه ۱۹۳۵.

حتی یموتا:الفتاه من أجل أنها لم تصرخ فی المدینه،و الرجل من أجل أنه أذل امرأه صاحبه فتنزع الشر من وسطک.

و هذا کما تری یخص الرجم ببعض الصور.

و أما ما وقع فی الروایه من سؤالهم رسول الله ص عن حکم الدیه مضافا إلی سؤالهم عن حکم زنا المحصن فقد تقدم أن الآیات لا تخلو عن تأیید لذلک،و الذی ذکرته الآیه فی حکم القصاص فی القتل و الجرح أنه مکتوب فی التوراه فهو موجود فی التوراه الدائره الیوم:

فی الإصحاح (۱)الحادی و العشرین من سفر الخروج من التوراه ما نصه": [(۱۲)من ضرب إنسانا فمات یقتل قتلا(۱۳)و لکن الذی لم یتعمد بل أوقع الله فی ید-فأنا أجعل لک مکانا یهرب إلیه...(۲۳)و إن حصلت أذیه تعطی نفسا بنفس(۲۴)و عینا بعین و سنا بسن و یدا بید و رجلا برجل(۲۵)و کیا بکی و جرحا بجرح و رضا برض].

و فی الإصحاح الرابع و العشرین من سفر اللاویین ما نصه":[(۱۷) و إذا أمات أحد إنسانا فإنه یقتل(۱۸)و من أمات بهیمه فإنه یعوض عنها نفسا بنفس(۱۹)و إذا أحدث إنسان فی قرینه عیبا-فکما فعل کذلک یفعل به(۲۰)کسر بکسر و عین بعین و سن بسن کما أحدث عیبا فی الإنسان کذلک یحدث فیه].

و فی الدر المنثور،أخرج أحمد و أبو داود بن جریر و ابن المنذر و الطبرانی و أبو الشیخ و ابن مردویه عن ابن عباس قال": إن الله أنزل:« وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ-فَأُولٰئِکَ هُمُ الْکٰافِرُونَ ، اَلظّٰالِمُونَ ، اَلْفٰاسِقُونَ »،أنزلها الله فی طائفتین من الیهود-قهرت إحداهما الأخری فی الجاهلیه حتی ارتضوا-و اصطلحوا علی أن کل قتل-قتلته العزیزه من الذلیله فدیته خمسون وسقا،و کل قتیل قتلته الذلیله من العزیزه فدیته مائه وسق-فکانوا علی ذلک حتی قدم رسول الله ص المدینه-فنزلت الطائفتان کلتاهما لمقدم رسول الله ص-یومئذ لم یظهر علیهم فقامت الذلیله فقالت:و هل کان هذا فی حیین قط:دینهما واحد،و نسبهما واحد، و بلدهما واحد،و دیه بعضهم نصف دیه بعض؟إنما أعطیناکم هذا ضیما منکم لنا و فرقا منکم فأما،إذ قدم محمد فلا نعطیکم ذلک فکادت الحرب تهیج بینهم-ثم ارتضوا علی أن یجعلوا رسول الله ص بینهم-ففکرت العزیزه فقالت:و الله ما محمد بمعطیکم منهم ضعف ما یعطیهم منکم،و لقد صدقوا ما أعطونا هذا إلا ضیما و قهرا لهم،فدسوا إلی رسول الله

۱- ۱) فی المصدر السابق الذکر.

ص-فأخبر الله رسوله بأمرهم كله و ما ذا أرادوا-فأنزل الله:« يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكَفْرِ -إلى قوله- وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ » ثم قال:فيهم و الله أنزلت.

أقول:و روى القصه القمى فى تفسيره فى حديث طويل و فيه: أن عبد الله بن أبى هو الذى كان يتكلم عن بنى النضير-و هى العزيزه-و يخوف رسول الله ص أمرهم، و أنه كان هو القائل:« إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ».

و الروايه الأولى أصدق متنا من هذه لأن مضمونها أوفق و أكثر انطباقا على سياق الآيات فإن أوائل الآيات و خاصه الآيتين الأوليين لا تنطبق سياقا على ما ذكر من قصه الديه بين بنى النضير و بنى قريظه كما لا يخفى على العارف بأساليب الكلام،و ليس من البعيد أن يكون الروايه من قبيل تطبيق القصه على القرآن على حد كثير من روايات أسباب النزول، فكأن الراوى وجد القصه تنطبق على مثل قوله:« وَ كَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ » (الآيه)و ما قبلها،ثم رأى اتصال الآيات بادئه من قوله:« يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ »(الآيه) فأخذ جميع الآيات نازله فى هذه القصه،و قد غفل عن قصه الرجم.و الله أعلم.

و فى تفسير العياشى،عن سليمان بن خالد قال:سمعت أبا عبد الله(ع)يقول: إن الله إذا أراد بعبد خيرا نكت فى قلبه نكته بيضاء،و فتح مسامع قلبه،و وكل به ملكا يسدده،و إذا أراد الله بعبد سوءا نكت فى قلبه نكته سوداء،و سد مسامع قلبه و وكل به شيطانا يضله-.

ثم تلا هذه الآيه:« فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ-وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً »(الآيه)و قال:« إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ » و قال:« أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ».

و فى الكافى،بإسناده عن السكونى عن أبى عبد الله قال: السحت ثمن الميته و ثمن الكلب و ثمن الخمر-و مهر البغى و الرشوه فى الحكم و أجر الكاهن.

أقول:ما ذكره فى الروايه إنما هو تعداد من غير حصر،و أقسام السحت كثيره كما فى الروايات،و فى هذا المعنى و ما يقرب منه روايات كثيره من طرق أئمه أهل البيت (ع).

و فى الدر المنثور،أخرج عبد بن حميد عن على بن أبى طالب: أنه سئل عن السحت

فقال:الرشا.فقيل له:فى الحكم؟قال:ذاك الكفر.

أقول:قوله:«ذاك الكفر»كأنه إشاره إلى ما وقع بين الآيات المبحوث عنها من قوله تعالى فى سياق ذم السحت و الارتشاء فى الحكم:« وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ »و قد تكرر فى الروايات عن الباقر و الصادق(ع) أنهما قالا:و أما الرشا فى الحكم فإن ذلك الكفر بالله و برسوله،و الروايات فى تفسير السحت و حرمته كثيره مرويه من طرق الشيعه و أهل السنه مودعه فى جوامعهم.

و فى الدر المنثور،":فى قوله تعالى:« فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ »(الآيه)":أخرج ابن أبى حاتم و النحاس فى ناسخه و الطبرانى و الحاكم-و صححه-و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال": آيتان نسختا من هذه السوره-يعنى من المائده-:آيه القلائد و قوله:

« فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ »فكان رسول الله ص مخيرا إن شاء حكم بينهم و إن شاء أعرض عنهم فردهم إلى أحكامهم،فنزلت:« فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ »قال:فأمر رسول الله ص أن يحكم بينهم بما فى كتابنا.

و فيه،أخرج أبو عبيد و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس": فى قوله:« فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ »قال:نسختها هذه الآيه- وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ »:

أقول:و روى أيضا عن عبد الرزاق عن عكرمه مثله

،و المتحصل من مضمون الآيات لا يوافق هذا النسخ فإن الاتصال الظاهر من سياق الآيات يقضى بنزولها دفعه واحده و لا معنى حينئذ لنسخ بعضها بعضا،على أن قوله تعالى:« وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ »، آيه غير مستقله فى معناها بل مرتبطه بما تقدمها و لا وجه على هذا لكونها ناسخه،و لو صح النسخ مع ذلك كان ما قبلها أعنى قوله:« فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ »،فى الآيه السابقه أحق بالنسخ منها.على أنك قد عرفت أن الأظهر رجوع الضمير فى قوله تعالى:« بَيْنَهُمْ »إلى الناس مطلقا دون أهل الكتاب أو اليهود خاصه،على أنه قد تقدم فى أوائل الكلام على السوره:أن سوره المائده ناسخه غير منسوخه.

و فى تفسير العياشى،: فى قوله تعالى:« إِنّا أَنْزَلْنَا التَّوْراهَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ »:(الآيه)عن أبى عمرو الزبيرى عن أبى عبد الله(ع):أن مما استحقت به الإمامه:التطهير و الطهاره من الذنوب-و المعاصى الموبقه التى توجب النار ثم العلم المنور-و فى نسخه:المكنون- بجميع ما يحتاج إليه الأمه من حلالها و حرامها،و العلم بكتابها خاصه و عامه،و المحكم و المتشابه

و دقائق علمه،و غرائب تأويله،و ناسخه و منسوخه.قلت:و ما الحجه-بأن الإمام لا- يكون إلا- عالما بهذه الأشياء التى ذكرت؟قال:قول الله فيمن أذن الله لهم فى الحكومه- و جعلهم أهلها:« إِنّا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاهَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ-يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هٰادُوا وَ الرَّبّٰانِيُّونَ وَ الْأَحْبٰارُ »فهذه الأئمه دون الأنبياء-الذين يربون الناس بعلمهم،و أما الأحبار فهم العلماء دون الربانيين،ثم أخبر-فقال:« بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتٰابِ اللّٰهِ وَ كٰانُوا عَلَيْهِ شُهَدٰاءَ »و لم يقل بما حملوا منه.

أقول:و هذا استدلال لطيف منه(ع)يظهر به عجيب معنى الآيه و هو معنى أدق مما تقدم بيانه و محصله:أن الترتيب الذى اتخذته الآيه فى العد فذكرت الأنبياء ثم الربانيين ثم الأحبار يدل على ترتبهم بحسب الفضل و الكمال: فالربانيون دون الأنبياء و فوق الأحبار، و الأحبار هم علماء الدين الذين حملوا علمه بالتعليم و التعلم.

و قد أخبر الله سبحانه عن نحو علم الربانيين بقوله:« بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتٰابِ اللّٰهِ وَ كٰانُوا عَلَيْهِ شُهَدٰاءَ »و لو كان المراد بذلك نحو علم العلماء لقيل:بما حملوا كما قال: «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرٰاهَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهٰا» :الآيه(الجمعه:۵)فإن الاستحفاظ هو سؤال الحفظ، و معناه التكليف بالحفظ نظير قوله: «لِيَسْئَلَ الصّٰادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ» :(الأحزاب ۸)أى ليكلفهم بأن يظهروا ما كمن فى نفوسهم من صفه الصدق،و هذا الحفظ ثم الشهاده على الكتاب لا يتمان إلا مع عصمه ليست من شأن غير الإمام المعصوم من قبل الله سبحانه فإن الله سبحانه بنى إذنه لهم فى الحكم على حفظهم للكتاب،و اعتبر شهادتهم بانيا ذلك عليه،و من المحال أن يعتبر شهادتهم على الكتاب،و هى التى يثبت بها الكتاب مع جواز الخطإ و الغلط عليهم.

فهذا الحفظ و الشهاده غير الحفظ و الشهاده اللذين بيننا معاشر الناس،بل من قبيل حفظ الأعمال و الشهاده التى تقدم فى قوله تعالى: «لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً» :(البقره:۱۴۳)و قد مر فى الجزء الأول من الكتاب.

و نسبه هذا الحفظ و الشهاده إلى الجميع مع كون القائم بهما البعض كنسبه الشهاده على الأعمال إلى جميع الأمه مع كون القائم بها بعضهم،و هو استعمال شائع فى القرآن نظير قوله تعالى: «وَ لَقَدْ آتَيْنٰا بَنِى إِسْرٰائِيلَ الْكِتٰابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّهَ» :(الجاثيه:۱۶).

و هذا لا- ينافى تكليف الأحبار بالحفظ و الشهاده و أخذ الميثاق منهم بذلك لأنه ثبوت شرعى اعتبارى غير الثبوت الحقيقى الذى يتوقف على حفظ حقيقى خال عن الغلط

و الخطإ،و الدين الإلهى كما لا يتم من دون هذا لا يتم من دون ذاك.

فثبت أن هناك منزله بين منزلتى الأنبياء و الأحبار،و هى منزله الأئمه و قد أخبر به الله سبحانه فى قوله: «وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ» :(السجده:

۲۴)و لا ينافيه قوله: «وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً وَ كُلاًّ جَعَلْنا صالِحِينَ وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا» :(الأنبياء:۷۳)فإن اجتماع النبوه و الإمامه فى جماعه لا ينافى افتراقهما فى غيرهم،و قد تقدم شطر من الكلام فى الإمامه فى قوله تعالى: «وَ إِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ» XالآيهX:(البقره:۱۲۴)فى الجزء الأول من الكتاب.

و بالجمله للربانيين و الأئمه و هم البرازخ بين الأنبياء و الأحبار العلم بحق الكتاب و الشهاده عليه بحق الشهاده.

و هذا فى الربانيين و الأئمه من بنى إسرائيل لكن الآيه تدل على أن ذلك لكون التوراه كتابا منزلا من عند الله سبحانه مشتملا على هدى و نور أى المعارف الاعتقاديه و العمليه التى تحتاج إليها الأمه،و إذا كان ذلك هو المستدعى لهذا الاستحفاظ و الشهاده للذين لا يقوم بهما إلا الربانيون و الأئمه كان هذا حال كل كتاب منزل من عند الله مشتمل على معارف إلهيه و أحكام عمليه و بذلك يثبت المطلوب.

فقوله(ع):«فهذه الأئمه دون الأنبياء»أى هم أخفض منزله من الأنبياء بحسب الترتيب المأخوذ فى الآيه كما أن الأحبار-و هم العلماء-دون الربانيين،و قوله:«يربون الناس بعلمهم»ظاهر فى أنه(ع)أخذ لفظ الربانى من ماده التربيه دون الربوبيه،و قد اتضح معانى بقيه فقرات الروايه بما قدمناه من محصل المعنى.

و لعل هذا المعنى هو مراده(ع)

فيما رواه العياشى أيضا عن مالك الجهنى قال:

قال أبو جعفر(ع): « إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاهَ فِيهَا هُدىً وَ نُورٌ -إلى قوله- بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ »قال:فينا نزلت.

و فى تفسير البرهان،:فى قوله تعالى:« وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ »:

عن الكافى،بإسناده عن عبد الله بن مسكان رفعه قال:قال رسول الله ص: من حكم فى درهمين بحكم جور-ثم جبر عليه كان من أهل هذه الآيه:« وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ »فقلت:و كيف يجبر عليه؟فقال:يكون له سوط و سجن فيحكم عليه-فإن رضى بحكمه و إلا ضربه بسوطه و حبسه فى سجنه:

أقول:و رواه الشيخ فی التهذيب،بإسناده عن ابن مسكان مرفوعا عن النبی ص و رواه العياشی فی تفسيره مرسلا عنه. و معنی صدر الحديث مروی بطرق أخری أيضا عن أئمه أهل البيت (ع).

و المراد بتقييد الحكم بالجبر إفاده أن يكون الحكم مما يترتب عليه الأثر فيكون حكما فصلا بحسب نفسه بالطبع و إلا فمجرد الإنشاء لا يسمی حكما.

و فی الدر المنثور،أخرج سعيد بن منصور و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال": إنما أنزل الله« وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ ،و اَلظّالِمُونَ ،و اَلْفاسِقُونَ فی اليهود خاصه.

أقول:فيه:أن الآيات الثلاث مطلقه لا دليل علی تقييدها،و المورد لا يوجب التصرف فی إطلاق اللفظ،علی أن مورد الآيه الثالثه النصاری دون اليهود،علی أن ابن عباس قد روی عنه ما يناقض ذلك.

و فيه،أخرج عبد بن حميد عن حكيم بن جبير قال: سألت سعيد بن جبير عن هذه الآيات فی المائده،قلت:زعم قوم أنها نزلت علی بنی إسرائيل و لم تنزل علينا-قال:اقرأ ما قبلها و ما بعدها فقرأت عليه-فقال:لا،بل نزلت علينا،ثم لقيت مقسما-مولی ابن عباس-فسألته عن هؤلاء الآيات التی فی المائده قلت:زعم قوم أنها نزلت علی بنی إسرائيل و لم ينزل علينا-قال:إنه نزل علی بنی إسرائيل و نزل علينا،و ما نزل علينا و عليهم فهو لنا و لهم.

ثم دخلت علی علی بن الحسين-فسألته عن هذه الآيات التی فی المائده-و حدثته أنی سألت عنها سعيد بن جبير و مقسما-قال:فما قال مقسم؟فأخبرته بها،قال:قال:صدق- و لكنه كفر ليس ككفر الشرك،و فسق ليس كفسق الشرك،و ظلم ليس كظلم الشرك.

فلقيت سعيد بن جبير فأخبرته بما قال-فقال سعيد بن جبير لابنه:كيف رأيته؟ (۱)لقد وجدت له فضلا عليك و علی مقسم.

أقول:قد ظهر انطباق الروايه علی ما يظهر من الآيه فيما تقدم من البيان.

و فی الكافی،بإسناده عن الحلبی عن أبی عبد الله(ع)و فی تفسير العياشی،عن أبی بصير عنه(ع): فی قوله تعالی:« فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفّارَهٌ لَهُ »الآيه-قال:يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما عفا من جراح أو غيره.

۱- ۱) قال ظ.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن مردویه عن رجل من الأنصار عن النبی ص: فی قوله:

« فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفّارَةٌ لَهُ »قال:الرجل تکسر سنه أو تقطع یده أو یقطع الشیء أو یجرح فی بدنه فیعفو عن ذلک فیحط عنه قدر خطایاه-فإن کان ربع الدیه فربع خطایاه، و إن کان الثلث فثلث خطایاه،و إن کانت الدیه حطت عنه خطایاه کذلک:

أقول:و روی مثله أیضا عن الدیلمی عن ابن عمر

،و لعل ما وقع فی هذه الروایه و الروایه السابقه علیها من انقسام التکفیر بحسب انقسام العفو مستفاد من تنزیل الدیه شرعا-و هی منقسمه-منزله القصاص ثم توزین القصاص و الدیه جمیعا بمغفره الذنوب و هی أیضا منقسمه فینطبق البعض علی البعض کما انطبق الکل علی الکل.

و فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی:« لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً »-قال:لکل نبی شریعه و طریق.

و فی تفسیر البرهان،:فی قوله تعالی:« أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ »،:عن الکافی بإسناده عن أحمد بن محمد بن خالد عن أبیه رفعه عن أبی عبد الله(ع)قال: القضاه أربعه:ثلاثه فی النار و واحد فی الجنه:رجل یقضی بجور و هو یعلم فهو فی النار،و رجل قضی بجور و هو لا یعلم فهو فی النار،و رجل قضی بالحق و هو لا یعلم فهو فی النار،و رجل قضی بالحق و هو یعلم فهو فی الجنه.

و قال(ع): الحکم حکمان:حکم الله و حکم الجاهلیه-فمن أخطأ حکم الله حکم بحکم الجاهلیه.

أقول:و فی المعنیین جمیعا أخبار کثیره من طرق الشیعه و أهل السنه مودعه فی أخبار القضاء و الشهادات،و الآیه تشعر بل تدل علی المعنیین جمیعا:أما بالنسبه إلی المعنی الأول فلأن الحکم بالجور سواء علم به أو حکم بغیر علم فکان جورا بالمصادفه و کذا الحکم بالحق من غیر علم کل ذلک من اتباع الهوی و قد نهی الله عنه بقوله:« فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ »فحذر اتباع الهوی فی الحکم و قابل به الحکم بالحق فعلم بذلک أن العلم بالحق شرط فی جواز الحکم و إلا لم یجز لأن فیه اتباع الهوی.

علی أنه یصدق علیه حکم الجاهلیه المقابل لحکم الله تعالی.

و أما المعنی الثانی و هو کون الحکم منقسما إلی حکم الجاهلیه و حکم الله فهو مستفاد من ظاهر قوله تعالی:« أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً »من حیث

المقابله الواقعه بين الحكمين،و الله أعلم.

و فى تفسير الطبرى،عن قتاده: فى قوله تعالى:« إِنّا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاهَ-فِيهَا هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هٰادُوا وَ الرَّبّٰانِيُّونَ وَ الْأَحْبٰارُ »قال:أما الربانيون ففقهاء اليهود-و أما الأحبار فعلماؤهم،قال:و ذكر لنا أن نبى الله ص قال-لما أنزلت هذه الآيه:نحن نحكم على اليهود و على من سواهم من أهل الأديان.

أقول:و رواه السيوطى،أيضا فى قوله تعالى:« إِنّا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاهَ »(الآيه)عن عبد بن حميد و عن ابن جرير عن قتاده.

و ظاهر الروايه أن المنقول من قول النبى ص متعلق بالآيه أى أن الآيه هى الحجه فى ذلك فيشكل بأن الآيه لا تدل إلا على الحكم بالتوراه على اليهود لقوله تعالى:« لِلَّذِينَ هٰادُوا »لا على غير اليهود و لا على الحكم بغير التوراه كما هو ظاهر الروايه إلا أن يراد بقوله:«نحن نحكم»،أن الأنبياء يحكمون كذا و كذا،و هو مع كونه معنى سخيفا لا يرتبط بالآيه.

و الظاهر أن بعض الرواه غلط فى نقل الآيه،و أن النبى ص إنما قاله بعد نزول قوله تعالى:« وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ »(الآيات)و ينطبق على ما تقدم أن ظاهر الآيه رجوع الضمير فى قوله:« بَيْنَهُمْ »إلى الناس دون اليهود خاصه.

فأخذ الراوى الآيه مكان الآيه

[سوره المائده (۵): الآيات ۵۱ الى ۵۴]

اشاره

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لٰا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصٰارىٰ أَوْلِيٰاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّٰهَ لٰا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ (۵۱) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسٰارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشىٰ أَنْ تُصِيبَنٰا دٰائِرَهٌ فَعَسَى اللّٰهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلىٰ مٰا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نٰادِمِينَ (۵۲) وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَ هٰؤُلاٰءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خٰاسِرِينَ (۵۳) يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّهٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّهٍ عَلَى الْكٰافِرِينَ يُجٰاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَ لٰا يَخٰافُونَ لَوْمَهَ لاٰئِمٍ ذٰلِكَ فَضْلُ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ اللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ (۵۴)

(بيان)

السير الإجمالى فى هذه الآيات يوجب التوقف فى اتصال هذه الآيات بما قبلها،و كذا فى اتصال ما بعدها كقوله تعالى:« إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ »(إلى آخر الآيتين)ثم اتصال قوله بعدهما:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً »إلى تمام عده آيات ثم فى اتصال قوله:« يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ »(الآيه).

أما هذه الآيات الأربع فإنها تذكر اليهود و النصارى،و القرآن لم يكن ليذكر أمرهم فى آياته المكيه لعدم مسيس الحاجه إليه يومئذ بل إنما يتعرض لحالهم فى المدينه من الآيات، و لا فيما نزلت منها فى أوائل الهجره فإن المسلمين إنما كانوا مبتلين يومئذ بمخالطه اليهود و معاشرتهم أو موادعتهم أو دفع كيدهم و مكرهم خاصه دون النصارى إلا فى النصف الأخير من زمن إقامه النبى ص بالمدينه فلعل الآيات الأربع نزلت فيه،و لعل المراد بالفتح فيها فتح مكه.

لكن تقدم أن الاعتماد على نزول سوره المائده فى سنه حجه الوداع و قد فتحت مكه فهل المراد بالفتح فتح آخر غير فتح مكه؟أو أن هذه الآيات نزلت قبل فتح مكه و قبل نزول السوره جميعا؟.

ثم إن الآيه الأخيره أعنى قوله:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ »(الآيه) هل هى متصله بالآيات الثلاث المتقدمه عليها؟ و من المراد بهؤلاء القوم الذين تتوقع ردتهم؟ و من هؤلاء الآخرون الذين وعد الله أنه سيأتى بهم؟كل واحد منها أمر يزيد إبهاما على إبهام،و قد تشتت ما ورد من أسباب النزول و ليست إلا أنظار المفسرين من السلف كغالب أسباب النزول المنقوله فى الآيات،و هذا الاختلاف الفاحش أيضا مما يشوش الذهن فى تفهم المعنى،أضف إلى ذلك كله مخالطه التعصبات المذهبيه الأنظار القاضيه فيها كما سيمر بك شواهد تشهد على ذلك من الروايات و أقوال المفسرين من السلف و الخلف.

و الذی یعطیه التدبر فی الآیات أن هذه الآیات الأربع علی ما نقلناها متصله الأجزاء منقطعه عما قبلها و ما بعدها،و أن الآیه الرابعه من متممات الغرض المقصود بیانه فیها غیر أنه یجب التحرز فی فهم معناها عن المساهلات و المسامحات التی جوزتها أنظار الباحثین من المفسرین فی الآیات و خاصه فیما ذکر فیها من الأوصاف و النعوت علی ما سیجیء.

و إجمال ما یتحصل من الآیات أن الله سبحانه یحذر المؤمنین فیها اتخاذ الیهود و النصاری أولیاء،و یهددهم فی ذلک أشد التهدید،و یشیر فی ملحمه قرآنیه إلی ما یئول إلیه أمر هذه الموالاه من انهدام بنیه السیره الدینیه،و أن الله سیبعث قوما یقومون بالأمر،و یعیدون بنیه الدین إلی عمارتها الأصلیه.

قوله تعالی:« یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْیَهُودَ وَ النَّصاری أَوْلِیاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ »قال فی المجمع:، الاتخاذ هو الاعتماد علی الشیء لإعداده لأمر،و هو افتعال من الأخذ،و أصله الائتخاذ فأبدلت الهمزه تاء،و أدغمتها فی التاء التی بعدها و مثله الاتعاد من الوعد،و الأخذ یکون علی وجوه تقول:أخذ الکتاب إذا تناوله،و أخذ القربان إذا تقبله،و أخذه الله من مأمنه إذا أهلکه،و أصله جواز الشیء من جهه إلی جهه من الجهات.انتهی.

و قال الراغب فی المفردات:، الولاء و التوالی أن یحصل شیئان فصاعدا حصولا لیس بینهما ما لیس منهما،و یستعار ذلک للقرب من حیث المکان،و من حیث النسبه و من حیث الدین،و من حیث الصداقه و النصره و الاعتقاد(انتهی موضع الحاجه)و سیأتی استیفاء البحث فی معنی الولایه.

و بالجمله الولایه نوع اقتراب من الشیء یوجب ارتفاع الموانع و الحجب بینهما من حیث ما اقترب منه لأجله فإن کان من جهه التقوی و الانتصار فالولی هو الناصر الذی لا یمنعه عن نصره من اقترب منه شیء،و إن کان من جهه الالتیام فی المعاشره و المحبه التی هی الانجذاب الروحی فالولی هو المحبوب الذی لا یملک الإنسان نفسه دون أن ینفعل عن إرادته، و یعطیه فیما یهواه و إن کان من جهه النسب فالولی هو الذی یرثه مثلا من غیر مانع یمنعه، و إن کان من جهه الطاعه فالولی هو الذی یحکم فی أمره بما یشاء.

و لم یقید الله سبحانه فی قوله:« لا تَتَّخِذُوا الْیَهُودَ وَ النَّصاری أَوْلِیاءَ »الولایه بشیء من الخصوصیات و القیود فهی مطلقه غیر أن قوله تعالی فی الآیه التالیه:« فَتَرَی الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ یُسارِعُونَ فِیهِمْ یَقُولُونَ نَخْشی أَنْ تُصِیبَنا دائِرَهٌ »،یدل علی أن المراد بالولایه نوع من القرب و الاتصال یناسب هذا الذی اعتذروا به بقولهم:« نَخْشی أَنْ تُصِیبَنا دائِرَهٌ »

و هی الدوله تدور علیهم،و کما أن الدائره من الجائز أن تصیبهم من غیر الیهود و النصاری فیتأیدوا بنصره الطائفتین بأخذهما أولیاء النصره کذلک یجوز أن تصیبهم من نفس الیهود و النصاری فینجو منها باتخاذهما أولیاء المحبه و الخلطه.

و الولایه بمعنی قرب المحبه و الخلطه تجمع الفائدتین جمیعا أعنی فائده النصره و الامتزاج الروحی فهو المراد بالآیه،و سیجیء ما فی القیود و الصفات المأخوذه فی الآیه الأخیره:

«یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مَنْ یَرْتَدَّ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ »،من الدلاله علی أن المراد بالولایه هاهنا ولایه المحبه لا غیر.

و قد أصر بعض المفسرین علی أن المراد بالولایه ولایه النصره و هی التی تجری بین إنسانین أو قومین من الحلف أو العهد علی نصره أحد الولیین الآخر عند الحاجه،و استدل علی ذلک بما محصله أن الآیات-کما یلوح من ظاهرها-منزله قبل حجه الوداع فی أوائل الهجره أیام کان النبی ص و المسلمون لم یفرغوا من أمر یهود المدینه و من حولهم من یهود فدک و خیبر و غیرهم،و من ورائهم النصاری و کان بین طوائف من العرب و بینهم عقود من ولایه النصره و الحلف،و ربما انطبق علی ما ورد فی أسباب النزول أن عباده بن الصامت من بنی عوف بن الخزرج تبرأ من بنی قینقاع لما حاربت رسول الله ص و کان بینه و بینهم ولایه حلف، لکن عبد الله بن أبی رأس المنافقین لم یتبرأ منهم و سارع فیهم قائلا: نَخْشی أَنْ تُصِیبَنا دائِرَهٌ .

أو ما ورد فی قصه أبی لبابه لما أرسله رسول الله ص لیخرج بنی قریظه من حصنهم و ینزلهم علی حکمه،فأشار أبو لبابه بیده إلی حلقه:أنه الذبح.

أو ما ورد أن بعضهم کان یکاتب نصاری الشام بأخبار المدینه،و بعضهم کان یکاتب یهود المدینه لینتفعوا بمالهم و لو بالقرض.

أو ما ورد أن بعضهم قال:إنه یلحق بفلان الیهودی أو بفلان النصرانی إثر ما نزل بهم یوم أحد من القتل و الهزیمه.

و هؤلاء الروایات کالمتفقه فی أن القائلین:« نَخْشی أَنْ تُصِیبَنا دائِرَهٌ »کانوا هم المنافقین، و بالجمله فالآیات إنما تنهی عن المحالفه و ولایه النصره بین المسلمین و بین الیهود و النصاری.

و قد أکد ذلک بعضهم حتی ادعی أن کون الولایه فی الآیه بمعنی ولایه المحبه و الاعتماد مما تتبرأ منه لغه الآیه فی مفرداتها و سیاقها کما یتبرأ منه سبب النزول و الحاله العامه التی کان علیها المسلمون و الکتابیون فی عصر التنزیل.

و کیف یصح حمل الآیه علی النهی عن معاشرتهم و الاختلاط بهم و إن کانوا ذوی ذمه أو عهد،و قد کان الیهود یقیمون مع النبی ص و مع الصحابه فی المدینه،و کانوا یعاملونهم بالمساواه التامه(انتهی ما ذکره ملخصا).

و هذا کله من التساهل فی تحصیل معنی الآیه أما ما ذکروه من کون الآیات نازله قبل عام حجه الوداع و هی سنه نزول سوره المائده فمما لیس فیه کثیر إشکال لکنه لا یوجب کون الولایه بمعنی المحالفه دون ولایه المحبه.

و أما ما ذکروه من أسباب النزول و دلالتها علی کون الآیات نازله فی خصوص المحالفه و ولایه النصره التی کانت بین أقوام من العرب و بین الیهود و النصاری.ففیه(أولا)أن أسباب النزول فی نفسها متعارضه لا ترجع إلی معنی واحد یوثق و یعتمد علیه،و(ثانیا) أنها لا توجه ولایه النصاری و إن وجهت ولایه الیهود بوجه إذ لم یکن بین العرب من المسلمین و بین النصاری ولایه الحلف یومئذ،و(ثالثا)أنا نصدق أسباب النزول فیما تقتضیها إلا أنک قد عرفت فیما مر أن جل الروایات الوارده فی أسباب النزول علی ضعفها متضمنه لتطبیق الحوادث المنقوله تاریخا علی الآیات القرآنیه المناسبه لها،و هذا أیضا لا بأس به.

و أما الحکم بأن الوقائع المذکوره فیها تخصص عموم آیه من الآیات القرآنیه أو تقید إطلاقها بحسب اللفظ فمما لا ینبغی التفوه به،و لا أن الظاهر المتفاهم یساعده.و لو تخصص أو تقید ظاهر الآیات بخصوصیه فی سبب النزول غیر مأخوذه فی لفظ الآیه لمات القرآن بموت من نزل فیهم،و انقطع الحجاج به فی واقعه من الوقائع التی بعد عصر التنزیل،و لا یوافقه کتاب و لا سنه و لا عقل سلیم.

و أما ما ذکره بعضهم:«أن أخذ الولایه بمعنی المحبه و الاعتماد خطأ تتبرأ منه لغه الآیه فی مفرداتها و سیاقها کما یتبرأ منه أسباب النزول و الحاله العامه التی کان علیها المسلمون و الکتابیون فی عصر التنزیل»فمما لا یرجع إلی معنی محصل بعد التأمل فیه فإن ما ذکره من تبری أسباب النزول و ما ذکره من الحاله العامه أن تشمل الآیات ذلک و تصدق علیه إذا لم یأب ظهور الآیه من الانطباق علیه، و أما قصر الدلاله علی مورد النزول و الحاله العامه الموجوده وقتئذ فقد عرفت أنه لا دلیل علیه بل الدلیل-و هو حجیه الآیه فی ظهورها المطلق-علی خلافه فقد عرفت أن الآیه مطلقه من غیر دلیل علی تقییدها فتکون حجه فی المعنی المطلق،و هو الولایه بمعنی المحبه.

و ما ذکره من تبری الآیه بمفرداتها و سیاقها من ذلک من عجیب الکلام،و لیت شعری ما الذی قصده من هذا التبری الذی وصفه و حمله علی مفردات الآیه و لم یقنع بذلک دون أن عطف علیها سیاقها.

و کیف تتبرأ من ذلک مفردات الآیه أو سیاقها و قد وقع فیها بعد قوله:« لا تَتَّخِذُوا الْیَهُودَ وَ النَّصاریٰ أَوْلِیاءَ »قوله تعالی:« بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ »و لا ریب فی أن المراد بهذه الولایه المحبه و الاتحاد و الموده،دون ولایه الحلف إذ لا معنی لأن یقال:لا تحالفوا الیهود و النصاری بعضهم حلفاء بعض،و إنما کان ما یکون الوحده بین الیهود و یرد بعضهم إلی بعض هو ولایه المحبه القومیه،و کذا بین النصاری من دون تحالف بینهم أو عهد إلا مجرد المحبه و الموده من جهه الدین؟.

و کذا قوله تعالی بعد ذلک:« وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ »فإن الاعتبار الذی یوجب کون موالی جماعه من تلک الجماعه هو أن المحبه و الموده تجمع المتفرقات و توحد الأرواح المختلفه و تتوحد بذلک الإدراکات،و ترتبط به الأخلاق،و تتشابه الأفعال، و تری المتحابین بعد استقرار ولایه المحبه کأنهما شخص واحد ذو نفسیه واحده،و إراده واحده، و فعل واحد لا یخطئ أحدهما الآخر فی مسیر الحیاه،و مستوی العشره.

فهذا هو الذی یوجب کون من تولی قوما منهم و لحوقه بهم،و قد قیل:من أحب قوما فهو منهم،و المرء مع من أحب،و قد قال تعالی فی نظیره نهیا عن موالاه المشرکین:

«یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّی وَ عَدُوَّکُمْ أَوْلِیاءَ تُلْقُونَ إِلَیْهِمْ بِالْمَوَدَّهِ وَ قَدْ کَفَرُوا بِما جاءَکُمْ مِنَ الْحَقِّ X-إلی أن قال بعد عده آیات-X وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِکَ هُمُ الظّالِمُونَ»:

(الممتحنه:۹)و قال تعالی: «لا تَجِدُ قَوْماً یُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ یُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ کانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِیرَتَهُمْ» :(المجادله:۲۲) و قال تعالی فی تولی الکافرین-و اللفظ عام یشمل الیهود و النصاری و المشرکین جمیعا-:

«لا یَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْکافِرِینَ أَوْلِیاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِینَ وَ مَنْ یَفْعَلْ ذلِکَ فَلَیْسَ مِنَ اللّهِ فِی شَیْءٍ إِلاّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاهً وَ یُحَذِّرُکُمُ اللّهُ نَفْسَهُ» :(آل عمران:۲۸)و الآیه صریحه فی ولایه الموده و المحبه دون الحلف و العهد،و قد کان بین النبی ص و بین الیهود،و کذا بینه و بین المشرکین یومئذ أعنی زمان نزول سوره آل عمران معاهدات و موادعات.

و بالجمله الولایه التی تقتضی بحسب الاعتبار لحوق قوم بقوم هی ولایه المحبه و الموده

دون الحلف و النصره و هو ظاهر،و لو كان المراد بقوله:« وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكَمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ » أن من حالفهم على النصره بعد هذا النهى فإنه لمعصيته النهى ظالم ملحق بأولئك الظالمين فى الظلم كان معنى-على ابتذاله-بعيدا من اللفظ يحتاج إلى قيود زائده فى الكلام.

و من دأب القرآن فى كل ما ينهى عن أمر كان جائزا سائغا قبل النهى أن يشير إليه رعايه لجانب الحكم المشروع سابقا،و احتراما للسيره النبويه الجاريه قبله كقوله: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا» :(التوبه:۲۸)و قوله: فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَ ابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا» XالآيهX:(البقره:۱۸۷)و قوله: «لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ» :(الأحزاب:۵۲)إلى غير ذلك.

فقد تبين أن لغه الآيه فى مفرداتها و سياقها لا تتبرأ من كون المراد بالولايه ولايه المحبه و الموده،بل إن تبرأت فإنما تتبرأ من غيرها.

و أما قولهم:إن المراد بالذين فى قلوبهم مرض المنافقون فسيجىء أن السياق لا يساعده فالمراد بقوله:« لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ »النهى عن موادتهم الموجب لتجاذب الأرواح و النفوس الذى يفضى إلى التأثير و التأثر الأخلاقيين فإن ذلك يقلب حال مجتمعهم من السيره الدينيه المبنيه على سعاده اتباع الحق إلى سيره الكفر المبنيه على اتباع الهوى و عباده الشيطان و الخروج عن صراط الحياه الفطريه.

و إنما عبر عنهم باليهود و النصارى،و لم يعبر بأهل الكتاب كما عبر بمثله فى الآيه الآتيه لما فى التعبير بأهل الكتاب من الإشعار بقربهم من المسلمين نوعا من القرب يوجب إثاره المحبه فلا يناسب النهى عن اتخاذهم أولياء،و أما ما فى الآيه الآتيه:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفّارَ أَوْلِياءَ »من وصفهم بإيتائهم الكتاب مع النهى عن اتخاذهم أولياء فتوصيفهم باتخاذ دين الله هزوا و لعبا يقلب حال ذلك الوصف-أعنى كونهم ذوى كتاب-من المدح إلى الذم فإن من أوتى الكتاب الداعى إلى الحق و المبين له ثم جعل يستهزئ بدين الحق و يلعب به أحق و أحرى به أن لا يتخذ وليا،و تجتنب معاشرته و مخالطته و موادته.

و أما قوله تعالى:« بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ »فالمراد بالولايه-كما تقدم-ولايه المحبه المستلزمه لتقارب نفوسهم،و تجاذب أرواحهم المستوجب لاجتماع آرائهم على اتباع الهوى، و الاستكبار عن الحق و قبوله،و اتحادهم على إطفاء نور الله سبحانه،و تناصرهم على النبى

ص و المسلمين كأنهم نفس واحده ذات مله واحده،و ليسوا على وحده من المليه لكن يبعث القوم على الاتفاق،و يجعلهم يدا واحده على المسلمين أن الإسلام يدعوهم إلى الحق، و يخالف أعز المقاصد عندهم و هو اتباع الهوى،و الاسترسال فى مشتهيات النفس و ملاذ الدنيا.

فهذا هو الذى جعل الطائفتين:اليهود و النصارى-على ما بينهما من الشقاق و العداوه الشديده-مجتمعا واحدا يقترب بعضه من بعض،و يرتد بعضه إلى بعض،يتولى اليهود النصارى و بالعكس،و يتولى بعض اليهود بعضا،و بعض النصارى بعضا،و هذا معنى إبهام الجمله:« بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ »فى مفرداتها،و الجمله فى موضع التعليل لقوله:« لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ »و المعنى لا تتخذوهم أولياء لأنهم على تفرقهم و شقاقهم فيما بينهم يد واحده عليكم لا نفع لكم فى الاقتراب منهم بالموده و المحبه.

و ربما أمكن أن يستفاد من قوله:« بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ »معنى آخر،و هو أن لا تتخذوهم أولياء لأنكم إنما تتخذونهم أولياء لتنتصروا ببعضهم الذى هم أولياؤكم على البعض الآخر،و لا ينفعكم ذلك فإن بعضهم أولياء بعض فليسوا ينصرونكم على أنفسهم.

قوله تعالى:« وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ » التولى اتخاذ الولى،و«من»تبعيضيه و المعنى أن من يتخذهم منكم أولياء فإنه بعضهم،و هذا إلحاق تنزيلى يصير به بعض المؤمنين بعضا من اليهود و النصارى،و يئول الأمر إلى أن الإيمان حقيقه ذات مراتب مختلفه من حيث الشوب و الخلوص،و الكدوره و الصفاء كما يستفاد ذلك من الآيات القرآنيه قال تعالى: «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاّ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ» :(يوسف:۱۰۶) و هذا الشوب و الكدر هو الذى يعبر تعالى عنه بمرض القلوب فيما سيأتى من قوله:« فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ ».

فهؤلاء الموالون لأولئك أقوام عدهم الله تعالى من اليهود و النصارى و إن كانوا من المؤمنين ظاهرا،و أقل ما فى ذلك أنهم غير سالكين سبيل الهدايه الذى هو الإيمان بل سالكو سبيل اتخذه أولئك سبيلا يسوقه إلى حيث يسوقهم و ينتهى به إلى حيث ينتهى بهم.

و لذلك علل الله سبحانه لحوقه بهم بقوله:« إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ »فالكلام فى معنى:أن هذا الذى يتولاهم منكم هو منهم غير سألك سبيلكم لأن سبيل الإيمان هو سبيل الهدايه الإلهيه،و هذا المتولى لهم ظالم مثلهم،و الله لا يهدى القوم الظالمين.

و الآيه-كما ترى-تشتمل على أصل التنزيل أعنى تنزيل من تولاهم من المؤمنين

منزلتهم من غير تعرض لشیء من آثاره الفرعیه،و اللفظ و إن لم یتقید بقید لکنه لما کان من قبیل بیان الملاک-نظیر قوله: «وَ أَنْ تَصُومُوا خَیْرٌ لَکُمْ» :(البقره:۱۸۴)و قوله:

«إِنَّ الصَّلاهَ تَنْهیٰ عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْکَرِ وَ لَذِکْرُ اللّهِ أَکْبَرُ» :(العنکبوت:۴۵)إلی غیر ذلک-لم یکن إلا مهملا یحتاج التمسک به فی إثبات حکم فرعی إلی بیان السنه،و المرجع فی البحث عن ذلک فن الفقه.

قوله تعالی:« فَتَرَی الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ یُسٰارِعُونَ فِیهِمْ »تفریع علی قوله فی الآیه السابقه:« إِنَّ اللّهَ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ » فمن عدم شمول الهدایه الإلهیه لحالهم-و هو الضلال-مسارعتهم فیهم و اعتذارهم فی ذلک بما لا یسمع من القول،و قد قال تعالی:

« یُسٰارِعُونَ فِیهِمْ »و لم یقل یسارعون إلیهم،فهم منهم و حالون فی الضلال محلهم،فهؤلاء یسارعون فیهم لا لخشیه إصابه دائره علیهم فلیسوا یخافون ذلک،و إنما هی معذره یختلقونها لأنفسهم لدفع ما یتوجه إلیهم من ناحیه النبی ص و المؤمنین من اللوم و التوبیخ بل إنما یحملهم علی تلک المسارعه تولیهم أولئک(الیهود و النصاری).

و لما کان من شأن کل ظلم و باطل أن یزهق یوما و یظهر للملأ فضیحته،و ینقطع رجاء من توسل إلی أغراض باطله بوسائل صورتها صوره الحق کما قال تعالی:« إِنَّ اللّهَ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ »کان من المرجو قطعا أن یأتی الله بفتح أو أمر من عنده فیندموا علی فعالهم، و یظهر للمؤمنین کذبهم فیما کانوا یظهرونه.

و بهذا البیان یظهر وجه تفرع قوله:« فَتَرَی الَّذِینَ »(إلخ)علی قوله:« إِنَّ اللّهَ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ »و قد تقدم کلام فی معنی عدم اهتداء الظالمین فی ظلمهم.

فهؤلاء القوم منافقون من جهه إظهارهم للنبی ص و المؤمنین ما لیس فی قلوبهم حیث یعنونون مسارعتهم فی الیهود و النصاری بعنوان الخشیه من إصابه الدائره،و عنوانه الحقیقی الموافق لما فی قلوبهم هو تولی أعداء الله فهذا هو وجه نفاقهم،و أما کونهم منافقین بمعنی الکافرین المظهرین للإیمان فسیاق الآیات لا یوافقه.

و قد ذکر جماعه من المفسرین أنهم المنافقون کعبد الله بن أبی و أصحابه علی ما یؤیده أسباب النزول الوارده فإن هؤلاء المنافقین کانوا یشارکون المؤمنین فی مجتمعهم و یجاملونهم من جانب،و من الجانب الآخر کانوا یتولون الیهود و النصاری بالحلف و العهد علی النصره استدرارا للفئتین،و أخذا بالاحتیاط فی رعایه مصالح أنفسهم لیغتبطوا علی أی حال،

و يكونوا فى مأمن من إصابه الدائره على أى واحده من الفئتين المتخاصمتين دارت.

و ما ذكروه لا يلائم سياق الآيات فإنها تتضمن رجاء أن يندموا بفتح أو أمر من عنده،و الفتح فتح مكه أو فتح قلاع اليهود و بلاد النصارى أو نحو ذلك على ما قالوا و لا وجه لندمهم على هذا التقدير فإنهم احتاطوا فى أمرهم بحفظ الجانبين،و لا ندامه فى الاحتياط، و إنما كان يصح الندم لو انقطعوا من المؤمنين بالمره و اتصلوا باليهود و النصارى ثم دارت الدائره عليهم،و كذا ما ذكره الله تعالى من حبط أعمالهم و صيرورتهم خاسرين بقوله:« حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ »لا يلائم كونهم هم المنافقين الآخذين بالحائطه لمنافعهم و مطالبهم إذ لا معنى لخسران من احتاط بحائطه اتقاء من مكروه يخافه على نفسه ثم صادف إن لم يقع ما كان يخاف وقوعه،و الاحتياط فى العمل من الطرق العقلائيه التى لا تستتبع لوما و لا ذما.

إلا أن يقال:إن الذم إنما لحقهم لأنهم عصوا النهى الإلهى و لم تطمئن قلوبهم بما وعده الله من الفتح،و هذا و إن كان لا بأس به فى نفسه لكن لا دليل عليه من جهه لفظ الآيه.

قوله تعالى:« فَعَسَى اللّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ »لفظه«عسى»و إن كان فى كلامه تعالى للترجى كسائر الكلام-على ما قدمنا أنه للترجى العائد إلى السامع أو إلى المقام-لكن القرينه قائمه على أنه مما سيقع قطعا فإن الكلام مسوق لتقرير ما ذكره بقوله:« إِنَّ اللّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ »و تثبيت صدقه، فما يشتمل عليه واقع لا محاله.

و الذى ذكره الله تعالى من الفتح-و قد ردد بينه و بين أمر من عنده غير بين المصداق بل الترديد بينه و بين أمر مجهول لنا-لعله يؤيد كون اللام فى« بِالْفَتْحِ »للجنس لا للعهد حتى يكون المراد به فتح مكه المعهود بوعد وقوعه فى مثل قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ» :(القصص:٨٥)و قوله: «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللّهُ» (الفتح:٢٧)و غير ذلك.

و الفتح الواقع فى القرآن و إن كان المراد به فى أكثر موارده هو فتح مكه لكن بعض الموارد لا يقبل الحمل على ذلك كقوله تعالى: «وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ» (السجده:٣٠)فإنه تعالى وصف هذا الفتح بأنه لا ينفع عنده الإيمان لمن كان كافرا قبله،و أن الكفار ينتظرونه،و أنت تعلم أنه لا ينطبق على فتح مكه و لا على سائر الفتوحات التى

نالها المسلمون حتى اليوم فإن عد نفع الإيمان و هو التوبه إنما يتصور لأحد أمرين-كما تقدم بيانه فى الكلام على التوبه (۱)- :إما بتبدل نشأه الحياه و ارتفاع الاختيار لتبدل الدنيا بالآخره،و إما بتكون أخلاق و ملكات فى الإنسان يقسو بها القلب قسوه لا رجاء معها للتوبه و الرجوع إلى الله سبحانه قال تعالى: «يَوْمَ يَأْتِی بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِی إِيمَانِهَا خَيْراً» :(الأنعام:۱۵۸)و قال تعالى: «وَ لَيْسَتِ التَّوْبَهُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّی تُبْتُ الْآنَ وَ لاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ» :(النساء:۱۸).

و كيف كان فإن المراد بالفتح أحد فتوحات المسلمين كفتح مكه أو فتح قلاع اليهود أو فتح بلاد النصارى فهو،إلا أن فى انطباق ما ذكره الله تعالى بقوله:« فَيُصْبِحُوا عَلى مٰا أَسَرُّوا »(إلخ)و قوله:« وَ يَقُولُ الَّذِينَ »(إلخ)عليه خفاء تقدم وجهه.

و إن كان المراد به الفتح بمعنى القضاء للإسلام على الكفر و الحكم الفصل بين الرسول و قومه فهو من الملاحم القرآنيه التى ينبئ تعالى فيها عما سيستقبل هذه الأمه من الحوادث، و ينطبق على ما ذكره الله فى سوره يونس من قوله: «وَ لِكُلِّ أُمَّهٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِیَ بَيْنَهُمْ» Xإلى آخر الآياتX:(يونس:۴۷-۵۶).

و أما قوله:« فَيُصْبِحُوا عَلى مٰا أَسَرُّوا فِی أَنْفُسِهِمْ نٰادِمِينَ »فإن الندامه إنما تحصل عند فعل ما لم يكن ينبغى أن يفعل أو ترك ما لم يكن ينبغى أن يترك،و قد فعلوا شيئا،و الله سبحانه يذكر فى الآيه التاليه حبط أعمالهم و خسرانهم فى صفقتهم فإنما أسروا فى أنفسهم تولى اليهود و النصارى لينالوا به و بالمسارعه فيهم ما كانت اليهود و النصارى يريدونه من انطفاء نور الله و التسلط على شهوات الدنيا من غير مانع من الدين.

فهذا-لعله-هو الذى أسروه فى أنفسهم،و سارعوا لأجله فيهم،و سوف يندمون على بطلان سعيهم إذا فتح الله للحق.

قوله تعالى:« وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا »(إلى آخر الآيه)و قرئ« يَقُولُ »بالنصب عطفا على قوله:« فَيُصْبِحُوا »و هى أرجح لكونها أوفق بالسياق فإن ندامتهم على ما أسروه فى أنفسهم و قول المؤمنين:« أَ هٰؤُلاٰءِ »(إلخ)جميعا تقريع لهم بعاقبه توليهم و مسارعتهم فى اليهود و النصارى،و قوله:« هٰؤُلاٰءِ »إشاره إلى اليهود و النصارى،و قوله:« لَمَعَكُمْ »خطاب

۱- ۱) فى الكلام على قوله تعالى:«إنما التوبه على الله،الآيتين»النساء ۱۷:۱۸ فى الجزء الرابع من الكتاب.

للذين فى قلوبهم مرض و يمكن العكس،و كذا الضمير فى قوله:« حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا »، يمكن رجوعه إلى اليهود و النصارى،و إلى الذين فى قلوبهم مرض.

لكن الظاهر من السياق أن الخطاب للذين فى قلوبهم مرض،و الإشاره إلى اليهود و النصارى،و قوله:« حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ »،كالجواب لسؤال مقدر،و المعنى:و عسى أن يأتى الله بالفتح أو أمر من عنده فيقول الذين آمنوا لهؤلاء الضعفاء الإيمان عند حلول السخط الإلهى بهم:أ هؤلاء اليهود و النصارى هم الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أى أيمانهم التى بالغوا و جهدوا فيها جهدا إنهم لمعكم فلما ذا لا ينفعونكم؟!ثم كأنه سئل فقيل:فإلى م انتهى أمر هؤلاء الموالين؟فقيل فى جوابه:حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين.

(كلام فى معنى مرض القلب)

و فى قوله تعالى:« فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ »دلاله على أن للقلوب مرضا فلها لا محاله صحه إذ الصحه و المرض متقابلان لا يتحقق أحدهما فى محل إلا بعد إمكان تلبسه بالآخر كالبصر و العمى أ لا ترى أن الجدار مثلا لا يتصف بأنه مريض لعدم جواز اتصافه بالصحه و السلامه.

و جميع الموارد التى أثبت الله سبحانه فيها للقلوب مرضا فى كلامه يذكر فيها من أحوال تلك القلوب و آثارها أمورا تدل على خروجها من استقامه الفطره،و انحرافها عن مستوى الطريقه كقوله تعالى: «وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلاّ غُرُوراً» :(الأحزاب:۱۲)و قوله تعالى: «إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ» : (الأنفال:۴۹)و قوله تعالى: «لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ» :(الحج:۵۳)إلى غير ذلك.

و جمله الأمر أن مرض القلب تلبسه بنوع من الارتياب و الشك يكدر أمر الإيمان بالله و الطمأنينه إلى آياته،و هو اختلاط من الإيمان بالشرك،و لذلك يرد على مثل هذا القلب من الأحوال،و يصدر عن صاحب هذا القلب فى مرحله الأعمال و الأفعال ما يناسب الكفر بالله و بآياته.

و بالمقابله تكون سلامه القلب و صحته هى استقراره فى استقامه الفطره و لزومه مستوى الطريقه،و يئول إلى خلوصه فى توحيد الله سبحانه و ركونه إليه عن كل شىء يتعلق به هوى الإنسان،قال تعالى: «يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلاّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» (الشعراء:۸۹).

و من هنا يظهر أن الذين فى قلوبهم مرض غير المنافقين كما لا يخلو تعبير القرآن عنهما

بمثل قوله:« اَلْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ »فی غالب الموارد عن إشعار ما بذلک، و ذلک أن المنافقین هم الذین آمنوا بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم،و الکفر الخاص موت للقلب لا مرض فیه قال تعالی: «أَ وَ مَنْ کانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی النّاسِ» :(الأنعام:۱۲۲)و قال: «إِنَّما یَسْتَجِیبُ الَّذِینَ یَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتی یَبْعَثُهُمُ اللّهُ» (الأنعام:۳۶).

فالظاهر أن مرض القلب فی عرف القرآن هو الشک و الریب المستولی علی إدراک الإنسان فیما یتعلق بالله و آیاته،و عدم تمکن القلب من العقد علی عقیده دینیه.

فالذین فی قلوبهم مرض بحسب طبع المعنی هم ضعفاء الإیمان،الذین یصغون إلی کل ناعق،و یمیلون مع کل ریح،دون المنافقین الذین أظهروا الإیمان و استبطنوا الکفر رعایه لمصالحهم الدنیویه لیستدروا المؤمنین بظاهر إیمانهم و الکفار بباطن کفرهم.

نعم ربما أطلق علیهم المنافقون فی القرآن تحلیلا لکونهم یشارکونهم فی عدم اشتمال باطنهم علی لطیفه الإیمان،و هذا غیر إطلاق الذین فی قلوبهم مرض علی من هو کافر لم یؤمن إلا ظاهرا قال تعالی: «بَشِّرِ الْمُنافِقِینَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِیماً الَّذِینَ یَتَّخِذُونَ الْکافِرِینَ أَوْلِیاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِینَ أَ یَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّهَ فَإِنَّ الْعِزَّهَ لِلّهِ جَمِیعاً وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَیْکُمْ فِی الْکِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آیاتِ اللّهِ یُکْفَرُ بِها وَ یُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتّی یَخُوضُوا فِی حَدِیثٍ غَیْرِهِ إِنَّکُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جامِعُ الْمُنافِقِینَ وَ الْکافِرِینَ فِی جَهَنَّمَ جَمِیعاً» :(النساء:۱۴۰).

و أما قوله تعالی فی سوره البقره: «وَ مِنَ النّاسِ مَنْ یَقُولُ آمَنّا بِاللّهِ وَ بِالْیَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِینَ X-إلی أن قال-X: فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً X-إلی أن قال-X وَ إِذا قِیلَ لَهُمْ آمِنُوا کَما آمَنَ النّاسُ قالُوا أَ نُؤْمِنُ کَما آمَنَ السُّفَهاءُ» :XالآیاتX(البقره:۷-۲۰)فإنما هو بیان لسلوک قلوبهم من الشک فی الحق إلی إنکاره،و أنهم کانوا فی بادئ حالهم مرضی بسبب کذبهم فی الإخبار عن إیمانهم و کانوا مرتابین لم یؤمنوا بعد،فزادهم الله مرضا حتی هلکوا بإنکارهم الحق و استهزائهم له.

و قد ذکر الله سبحانه أن مرض القلب علی حد الأمراض الجسمانیه ربما أخذ فی الزیاده حتی أزمن و انجر الأمر إلی الهلاک و ذلک بإمداده بما یضر طبع المریض فی مرضه،و لیس إلا المعصیه قال تعالی: «فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً» (البقره:۱۰)و قال تعالی «وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَهٌ X-إلی أن قال-X: وَ أَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَی

رِجْسِهِمْ وَ مَاتُوا وَ هُمْ كَافِرُونَ أَ وَ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَ لَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ» :(التوبه:۱۲۶)و قال تعالی-و هو بیان عام-: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُنَ» :(الروم:۱۰).

ثم ذکر تعالی فی علاجه الإیمان به قال تعالی-و هو بیان عام-: «يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ» :(یونس:۹)و قال تعالی: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ»:

(فاطر:۱۰) فعلی مریض القلب-إن أراد مداواه مرضه-أن یتوب إلی الله،و هو الإیمان به و أن یتذکر بصالح الفکر و صالح العمل کما یشیر إلیه الآیه السابقه الذکر: «ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَ لَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ» :(التوبه:۱۲۶).

و قال سبحانه و هو قول جامع فی هذا الباب: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَ سَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً» :(النساء:۱۴۶)و قد تقدم أن المراد بذلک الرجوع إلی الله بالإیمان و الاستقامه علیه و الأخذ بالکتاب و السنه ثم الإخلاص.

[بیان]

قوله تعالی:« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ »ارتد عن دینه رجع عنه، و هو فی اصطلاح أهل الدین الرجوع من الإیمان إلی الکفر سواء کان إیمانه مسبوقا بکفر آخر کالکافر یؤمن ثم یرتد أو لم یکن،و هما المسمیان بالارتداد الملی و الفطری(حقیقه شرعیه أو متشرعیه).

ربما یسبق إلی الذهن أن المراد بالارتداد فی الآیه هو ما اصطلح علیه أهل الدین، و یکون الآیه علی هذا غیر متصله بما قبلها،و إنما هی آیه مستقله تحکی عن نحو استغناء من الله سبحانه عن إیمان طائفه من المؤمنین بإیمان آخرین.

لکن التدبر فی الآیه و ما تقدم علیها من الآیات یدفع هذا الاحتمال فإن الآیه علی هذا تذکر المؤمنین بقدره الله سبحانه علی أن یعبد فی أرضه،و أنه سوف یأتی بأقوام لا یرتدون عن دینه بل یلازمونه کقوله تعالی: «فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ» :(الأنعام:۸۹)أو کقوله تعالی: «وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ»:

(آل عمران:۹۷)و قوله تعالی: «إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ

حَمِيدٌ» :(إبراهيم:٨).

و المقام الذى هذه صفته لا يقتضى أزيد من التعرض لأصل الغرض،و هو الإخبار بالإتيان بقوم مؤمنين لا يرتدون عن دين الله،و أما أنهم يحبون الله و يحبهم،و أنهم أذله على المؤمنين أعزه على الكافرين إلى آخر ما ذكر فى الآيه من الأوصاف فهى أمور زائده يحتاج التعرض لها إلى اقتضاء زائد من المقام و الحال.

و من جهه أخرى نجد أن ما ذكر فى الآيه من الأوصاف أمور لا تخلو من الارتباط بما ذكر فى الآيات السابقه من تولى اليهود و النصارى فإن اتخاذهم أولياء من دون المؤمنين لا يخلو من تعلق القلب بهم تعلق المحبه و الموده،و كيف يحتوى قلب هذا شأنه على محبه الله سبحانه و قد قال تعالى: «مٰا جَعَلَ اللّٰهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ» :(الأحزاب:۴) و من لوازم هذا التولى أن يتذلل المؤمن لهؤلاء الكفار، و أن يتعزز على المؤمنين و يترفع عنهم كما قال تعالى: «أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّهَ فَإِنَّ الْعِزَّهَ لِلّٰهِ جَمِيعاً» : (النساء:١٣٩).

و من لوازم هذا التولى المساهله فى الجهاد عليهم و الانقباض عن مقاتلتهم،و التحرج من الصبر على كل حرمان،و التحمل لكل لائمه فى قطع الروابط الاجتماعيه معهم كما قال تعالى: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيٰاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّهِ وَ قَدْ كَفَرُوا بِمٰا جٰاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ X-إلى أن قال-X إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهٰاداً فِى سَبِيلِى وَ ابْتِغٰاءَ مَرْضٰاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّهِ» :(الممتحنه:١)و قال تعالى: «قَدْ كٰانَتْ لَكُمْ أُسْوَهٌ حَسَنَهٌ فِى إِبْرٰاهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قٰالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنّٰا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمّٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ كَفَرْنٰا بِكُمْ وَ بَدٰا بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمُ الْعَدٰاوَهُ وَ الْبَغْضٰاءُ أَبَداً حَتّٰى تُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ» :(الممتحنه:۴).

و كذلك الارتداد بمعناه اللغوى أو بالعنايه التحليليه صادق على تولى الكفار كما قال تعالى فى الآيه السابقه(آيه:۵١):« وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ »و قال أيضا: «وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّٰهِ فِى شَىْءٍ» :(آل عمران:٢٨) و قال تعالى: «إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ»:

(النساء:١۴٠).

فقد تبين بهذا البيان أن للآيه اتصالا بما قبلها من الآيات و أن الآيه مسوقه لإظهار أن دين الله فى غنى عن أولئك الذين يخاف عليهم الوقوع فى ورطه المخالفه و تولى اليهود و النصارى لدبيب النفاق فى جماعتهم،و اشتمالها على عده مرضى القلوب لا يبالون باشتراء الدنيا بالدين،و إيثار ما عند أعداء الدين من العزه الكاذبه و المكانه الحيويه الفانيه على حقيقه

العزه التی هی لله و لرسوله و للمؤمنین،و السعاده الواقعیه الشامله علی حیاه الدنیا و الآخره.

و إنما أظهرت الآیه ذلک بالإنباء عن ملحمه غیبیه أن الله سبحانه فی قبال ما یلقاه الدین من تلون هؤلاء الضعفاء الإیمان،و اختیارهم محبه غیر الله علی محبته،و ابتغاء العزه عند أعدائه و مساهلتهم فی الجهاد فی سبیله،و الخوف من کل لومه و توبیخ سیأتی بقوم یحبهم و یحبونه أذله علی المؤمنین أعزه علی الکافرین یجاهدون فی سبیل الله لا یخافون لومه لائم.

و کثیر من المفسرین و إن تنبهوا علی اشتمال الآیه علی الملحمه و أطالوا فی البحث عمن تنطبق علیه الآیه مصداقا غیر أنهم تساهلوا فی تفسیر مفرداتها فلم یعطوا ما ذکر فیها من الأوصاف حق معناها فآل الأمر إلی معاملتهم کلام الله سبحانه معامله کلام غیره و تجویز وقوع المسامحات و المساهلات العرفیه فیه کما فی غیره.

فالقرآن و إن لم یسلک فی بلاغته مسلکا بدعا،و لم یتخذ نهجا مخترعا جدیدا فی استعمال الألفاظ و ترکیب الجمل و وضع الکلمات بحذاء معانیها بل جری فی ذلک مجری غیره من الکلام.

و لکنه یفارق سائر الکلام فی أمر آخر،و هو أنا معاشر المتکلمین من البلیغ و غیره إنما نبنی الکلام علی أساس ما نعقله من المعانی،و المدرک لنا من المعانی إنما یدرک بفهم مکتسب من الحیاه الاجتماعیه التی اختلقناها بفطرتنا الإنسانیه الاجتماعیه،و من شأنها الحکم بالقیاس،و عند ذلک ینفتح باب المسامحه و المساهله علی أذهاننا فنأخذ الکثیر مکان الجمیع،و الغالب موضع الدائم،و نفرض کل أمر قیاسی أمرا مطلقا،و نلحق کل نادر بالمعدوم،و نجری کل أمر یسیر مجری ما لیس بموجود یقول قائلنا:کذا حسن أو قبیح، و کذا محبوب أو مبغوض،و کذا محمود أو مذموم،و کذا نافع أو ضار،و فلان خیر أو شریر،إلی غیر ذلک فنطلق القوم فی ذلک،و إنما هو کذلک فی بعض حالاته و علی بعض التقادیر،و عند بعض الناس،و بالقیاس إلی بعض الأشیاء لا مطلقا،لکن القائل إنما یلحق بعض التقادیر المخالفه بالعدم تسامحا فی إدراکه و حکمه،هذا فیما أدرکه من جهات الواقع الخارج،و أما ما یغفل عنه لمحدودیه إدراکه من جهات الکون المربوطه فهو أکثر، فما یخبر به الإنسان و یحدثه عن الخارج و خیلت له الإحاطه بالواقع إدراکا و کشفا فإنما هو مبنی علی التسامح فی بعض الجهات،و الجهل فی بعض آخر،و هو من الهزل إن قدرنا علی أن نحیط بالواقع ثم نطبق کلامه علیه،فافهم ذلک.

فهذا حال كلام الإنسان المبنى على ما يحصل عنده من العلم،و أما كلام الله سبحانه فمن الواجب أن نجله عن هذه النقيصه،و هو المحيط بكل شيء علما و قد قال تعالى فى صفه كلامه:« إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَ مٰا هُوَ بِالْهَزْلِ ».

و هذا من وجوه الأخذ بإطلاق كلامه تعالى فيما كان بظاهره مطلقا لم يعقب بقيد متصل أو منفصل،و من وجوه إشعار الوصف فى كلامه بالعليه فإذا قال:« يُحِبُّهُمْ »فليس يبغضهم فى شيء و إلا لاستثنى،و إذا وصف قوما بأنهم أذله على المؤمنين كان من الواجب أن يكونوا أذلاء لهم بما هم مؤمنون أى لصفه إيمانهم بالله سبحانه،و أن يكونوا أذلاء فى جميع أحوالهم و على جميع التقادير،و إلا لم يكن القول فصلا.

نعم هناك معان تنسب إلى غير صاحبها إذا جمعها جامع يصحح ذلك كما فى قوله:

«وَ لَقَدْ آتَيْنٰا بَنِى إِسْرٰائِيلَ الْكِتٰابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّهَ وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ الطَّيِّبٰاتِ وَ فَضَّلْنٰاهُمْ عَلَى الْعٰالَمِينَ» :(الجاثيه:۱۶)و قوله: «هُوَ اجْتَبٰاكُمْ وَ مٰا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»:

(الحج:۷۸)و قوله: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّهٍ أُخْرِجَتْ لِلنّٰاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» :(آل عمران:۱۱۰)و قوله: «لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً» :(البقره:۱۴۳)و قوله: «وَ قٰالَ الرَّسُولُ يٰا رَبِّ إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا هٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً» :(الفرقان:۳۰)إلى غير ذلك من الآيات المشتمله على أوصاف اجتماعيه يتصف بها الفرد و المجتمع و ليس شيء من ذلك جاريا مجرى التسامح و التساهل بل هى أوصاف يتصف بها الجزء و الكل،و الفرد و المجتمع لعنايه متعلقه بذلك كمثل حفنه من تراب مشتمله على جوهره يقبض عليها لأجل الجوهره فالتراب مقبوض و الجوهره مقبوضه و الأصل فى ذلك الجوهره،و لنرجع إلى ما كنا فيه:

أما قوله:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ »فالمراد بالارتداد و الرجوع عن الدين بناء على ما مر هو موالاه اليهود و النصارى،و خص الخطاب فيه بالمؤمنين لكون الخطاب السابق أيضا متوجها إليهم،و المقام مقام بيان أن الدين الحق فى غنى عن إيمانهم المشوب بموالاه أعداء الله،و قد عده الله سبحانه كفرا و شركا حيث قال:

« وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ »لما أن الله سبحانه هو ولى دينه و ناصره،و من نصرته لدينه أنه سوف يأتى بقوم براء من أعدائه يتولون أولياءه و لا يحبون إلا إياه.

و أما قوله:« فَسَوْفَ يَأْتِى اللّٰهُ بِقَوْمٍ »نسب الإتيان إلى نفسه ليقرر معنى نصره لدينه

المفهوم من السياق المشعر بأن لهذا الدين ناصرا لا يحتاج معه إلى نصره غيره،و هو الله عز اسمه.

و كون الكلام مسوقا لبيان انتصار الدين بهؤلاء القوم تجاه من يقصده هؤلاء الموالون لأعدائه من الانتصار القومى،و كذا التعبير بالقوم و الإتيان بالأوصاف و الأفعال بصيغه الجمع كل ذلك مشعر بأن القوم الموعود إيتاؤهم إنما يبعثون جماعه مجتمعين لا فرادى و لا مثنى كان يأتى الله سبحانه فى كل زمان برجل يحب الله و يحبه الله ذليل على المؤمنين عزيز على الكافرين يجاهد فى سبيل الله لا يخاف لومه لائم.

و إتيان هذه القوم فى عين أنه منسوب إليهم منسوب إليه تعالى و هو الآتى بهم لا بمعنى أنه خالقهم إذ لا خالق إلا الله سبحانه قال: «اللّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» :(الزمر:۶۲)بل بمعنى أنه الباعث لهم فيما ينتهزون إليه من نصره الدين،و المكرم لهم بحبه لهم و حبهم له،و الموفق لهم بالتذلل لأوليائه،و التعزز لأعدائه،و الجهاد فى سبيله،و الإعراض عن كل لائمه، فنصرتهم للدين هى نصرته تعالى له بسببهم و من طريقهم،و قريب الزمان و بعيده عند الله واحد،و إن كانت أنظارنا لقصورها تفرق فى ذلك.

و أما قوله تعالى:« يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ »فالحب مطلق معلق على الذات من غير تقييده بوصف أو غير ذلك،أما حبهم لله فلازمه إيثارهم ربهم على كل شىء سواه مما يتعلق به نفس الإنسان من مال أو جاه أو عشيره أو غيرها،فهؤلاء لا يوالون أحدا من أعداء الله سبحانه،و إن والوا أحدا فإنما يوالون أولياء الله بولايه الله تعالى.

و أما حبه تعالى لهم فلازمه براءتهم من كل ظلم،و طهارتهم من كل قذاره معنويه من الكفر و الفسق بعصمه أو مغفره إلهيه عن توبه،و ذلك أن جمل المظالم و المعاصى غير محبوبه لله كما قال تعالى: «فَإِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ» :(آل عمران:۳۲)و قال: «وَ اللّهُ لا يُحِبُّ الظّالِمِينَ» :(آل عمران:۵۷)و قال: «إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» :(الأنعام:۴۱)و قال: «وَ اللّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» : (المائده:۶۴)و قال: «إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» :(البقره:۱۹۰) و قال: «إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ» :(النحل:۲۳)و قال: «إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ»:

(الأنفال:۵۸)إلى غير ذلك من الآيات.

و فى هذه الآيات جماع الرذائل الإنسانيه،و إذا ارتفعت عن إنسان بشهاده محبه الله له اتصف بما يقابلها من الفضائل لأن الإنسان لا مخلص له عن أحد طرفى الفضيله و الرذيله إذا تخلق بخلق.

فهؤلاء هم المؤمنون بالله حقا غير مشوب إيمانهم بظلم و قد قال تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا

وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» :(الأنعام:۸۲)فهم مأمونون من الضلال و قد قال تعالى: «فَإِنَّ اللّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ» :(النحل:۳۷)فهم فى أمن إلهى من كل ضلاله،و على اهتداء إلهى إلى صراطه المستقيم،و هم بإيمانهم الذى صدقهم الله فيه مهديون إلى اتباع الرسول و التسليم التام له كتسليمهم لله سبحانه قال تعالى: «فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً» :(النساء:۶۵).

و عند ذلك يتم أنهم من مصاديق قوله تعالى: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ» :(آل عمران:۳۱)و به يظهر أن اتباع النبى ص و محبه الله متلازمان فمن اتبع النبى أحبه الله و لا يحب الله عبدا إلا إذا كان متبعا لنبيه(ص).

و إذا اتبعوا الرسول اتصفوا بكل حسنه يحبها الله و يرضاها كالتقوى و العدل و الإحسان و الصبر و الثبات و التوكل و التوبه و التطهر و غير ذلك قال تعالى: «فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» :(آل عمران:۷۶)و قال: «إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» :(البقره:۱۹۵)و قال: «وَ اللّهُ يُحِبُّ الصّابِرِينَ» :(آل عمران:۱۴۶)و قال: «إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ» :(الصف:۴)و قال: «إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» :(آل عمران:

۱۵۹)و قال: «إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» :(البقره:۲۲۲)إلى غير ذلك من الآيات.

و إذا تتبعت الآيات الشارحه لآثار هذه الأوصاف و فضائل تتعقبها عثرت على أمور جمه من الخصال الحسنه،و وجدت أن جميعها تنتهى إلى أن أصحابها هم الوارثون الذين يرثون الأرض،و أن لهم عاقبه الدار كما يومئ إليه الآيه المبحوث عنها:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ »و قد قال تعالى-و هى كلمه جامعه-: «وَ الْعاقِبَهُ لِلتَّقْوى» :(طه:۱۳۲)و سنشرع معنى كون العاقبه للتقوى فيما يناسبه من المورد إن شاء الله العزيز.

قوله تعالى:« أَذِلَّهٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّهٍ عَلَى الْكافِرِينَ »الأذله و الأعزه جمعا الذليل و العزيز،و هما كنايتان عن خفضهم الجناح للمؤمنين تعظيما لله الذى هو وليهم و هم أولياؤه، و عن ترفعهم من الاعتناء بما عند الكافرين من العزه الكاذبه التى لا يعبأ بأمرها الدين كما أدب بذلك نبيه فى قوله: «لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» :(الحجر:۸۸)و لعل تعديه« أَذِلَّهٍ »بعلى لتضمينه معنى الحنان أو الحنو كما قيل.

قوله تعالى:« يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ »أما قوله:« يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ »فقد اختص بالذكر من بين مناقبهم الجمه لكون الحاجه تمس إليه فى المقام لبيان أن الله ينتصر لدينه بهم،و أما قوله:« وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ »فالظاهر أنه حال متعلق بالجمل المتقدمه لا بالجمله الأخيره فقط-و إن كانت هى المتيقنه فى أمثال هذه التركيبات- و ذلك لأن نصره الدين بالجهاد فى سبيل الله كما يزاحمها لومه اللائمين الذين يحذرونهم تضييع الأموال و إتلاف النفوس و تحمل الشدائد و المكاره كذلك التذلل للمؤمنين و التعزز على الكافرين و عندهم من زخارف الدنيا و مبتغيات الشهوه،و أمتعه الحياه ما ليس عند المؤمنين هما مما يمانعه لومه اللائم،و فى الآيه ملحمه غيبيه سنبحث عنها فى كلام مختلط من القرآن و الحديث إن شاء الله تعالى.

(بحث روائى)

و فى الدر المنثور،":فى قوله تعالى:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ »(الآيه)":

أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل و ابن عساكر عن عباده بن الوليد أن عباده بن الصامت قال": لما حاربت بنو قينقاع.رسول الله ص-تشبث بأمرهم عبد الله بن أبى بن سلول و قام دونهم،و مشى عباده بن الصامت إلى رسول الله ص-و تبرأ إلى الله و إلى رسوله من حلفهم،و كان أحد بنى عوف بن الخزرج،و له من حلفهم مثل الذى كان لهم من عبد الله بن أبى-فخلعهم إلى رسول الله ص، و قال:أتولى الله و رسوله و المؤمنين،و أبرأ إلى الله و رسوله من حلف هؤلاء الكفار و ولايتهم.

و فيه،": و فى عبد الله بن أبى نزلت الآيات فى المائده:« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ -بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ -إلى قوله- فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغالِبُونَ »

و فيه،أخرج ابن أبى شيبه و ابن جرير عن عطيه بن سعد قال: جاء عباده بن الصامت من بنى الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ص فقال:يا رسول الله إن لى موالى من يهود كثير عددهم،و إنى أبرأ إلى الله و رسوله من ولايه يهود،و أتولى الله و رسوله.

فقال عبد الله بن أبى:إنى رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولايه موالى،فقال رسول الله ص لعبد الله بن أبى:يا أبا الحباب أ رأيت الذى نفست به-من ولاء يهود على عباده فهو لك دونه؟قال:إذن أقبل فأنزل الله: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ

وَ النَّصارىٰ أَوْلِياءَ-بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ

-إلى أن بلغ إلى قوله- وَ اللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ» .

و فيه،أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال": آمن عبد الله بن أبى بن سلول قال:إن بينى و بين بنى قريظه و النضير حلفا،و إنى أخاف الدوائر فارتد كافرا،و قال عباده بن الصامت:

أبرأ إلى الله من حلف قريظه و النضير-و أتولى الله و رسوله و المؤمنين.

فأنزل الله:«يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارىٰ أَوْلِياءَ -إلى قوله- فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسٰارِعُونَ فِيهِمْ »يعنى عبد الله بن أبى و قوله:« إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا-اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ-وَ يُؤْتُونَ الزَّكاٰةَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ »يعنى عباده بن الصامت و أصحاب رسول الله ص.قال:« وَ لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ النَّبِيِّ-وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ-وَ لٰكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فٰاسِقُونَ ».

أقول:و رويت القصه بغير هذه الطرق،و قد تقدم أن هذه الأسباب أسباب تطبيقه اجتهاديه،و فيها أمارات تدل على ذلك،كيف و الآيات تذكر النصارى مع اليهود،و لم يكن فى قصه بنى قينقاع و ما جرى بين المسلمين و بين بنى قريظه و النضير للنصارى إصبع، و لا- للمسلمين معهم شأن؟و مجرد ذكرهم تطفلا- و اطرادا مما لا- وجه له،و فى القرآن آيات متعرضه لحال اليهود فى الوقائع التى جرت بينهم و بين المسلمين و ما داخل فيه المنافقون من أعمالهم خص فيه اليهود بالذكر و لم يذكر فيه النصارى كما فى سوره الحشر و غيرها،فما بال الاطراد و التطفل يجرى حكمهما هاهنا و لا يجرى هناك.

على أن الروايه تذكر الآيات النازله فى عباده بن الصامت و عبد الله بن أبى سبع عشره آيه(آيه:۵۱-۶۷)و لا- اتصال بينها حتى تنزل دفعه(أولا)،و فيها آيه:« إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ »و قد تواترت روايات الخاصه و العامه على أنها نزلت فى على(ع)(ثانيا)، و فيها آيه:«يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ »و لا ارتباط لها مع القصه البته(ثالثا).

فليس إلا أن الراوى أخذ قصه عباده و عبد الله ثم وجد الآيات تناسبها بعض المناسبه فطبقها عليها ثم لم يحسن التطبيق فوضع سبع عشره آيه مكان ثلاث آيات بمناسبه تعرضها لحال أهل الكتاب.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن عكرمه": فى قوله:«يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا-لاٰ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارىٰ أَوْلِياءَ-بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ »فى بنى قريظه إذ غدروا و نقضوا العهد بينهم و بين رسول الله ص-فى كتابهم إلى أبى سفيان بن حرب يدعونهم-و قريشا

ليدخلوهم حصونهم-فبعث النبى ص أبا لبابه بن عبد المنذر إليهم-أن يستنزلهم من حصونهم- فلما أطاعوا له بالنزول-أشار إلى حلقه بالذبح.و كان طلحه و الزبير يكاتبان النصارى و أهل الشام،و بلغنى أن رجالا من أصحاب النبى ص-كانوا يخافون العوز و الفاقه-فيكاتبون اليهود من بنى قريظه و النضير-فيدسون إليهم الخبر من النبى ص-يلتمسون عندهم القرض و النفع فنهوا عن ذلك.

أقول:و الروايه لا بأس بها و هى تفسر الولايه فى الآيات بولايه المحبه و الموده و قد تقدم تأييد ذلك،و هى إن كانت سببا للنزول حقيقيا فالآيات مطلقه تجرى فى غير القصه كما نزلت و جرت فيها،و إن كانت من الجرى و التطبيق فالأمر أوضح.

و فى المجمع،": فى قوله تعالى:«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ-فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ »(الآيه)قال:و قيل:هم أمير المؤمنين على(ع)و أصحابه-حين قاتل من قاتله من الناكثين و القاسطين و المارقين،": و روى ذلك عن عمار و حذيفه و ابن عباس، و هو المروى عن أبى جعفر و أبى عبد الله(ع) .

أقول:قال فى المجمع،بعد ذكر الروايه:و يؤيد هذا القول أن النبى وصفه بهذه الصفات المذكوره فى الآيه فقال فيه و قد ندبه لفتح خيبر بعد أن رد عنها حامل الرايه إليه مره بعد أخرى و هو يجبن الناس و يجبنونه-

:«لأعطين الرايه غدا رجلا-يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله-كرارا غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يده »ثم أعطاها إياه.

فأما الوصف باللين على أهل الإيمان،و الشده على الكفار و الجهاد فى سبيل الله مع أنه لا يخاف فيه لومه لائم فمما لا يمكن أحدا دفع على(ع)عن استحقاق ذلك لما ظهر من شدته على أهل الشرك و الكفر و نكايته فيهم،و مقاماته المشهوره فى تشييد المله و نصره الدين،و الرأفه بالمؤمنين.

و يؤيد ذلك أيضا

إنذار رسول الله ص قريشا بقتال على(ع)لهم من بعده حيث جاء سهيل بن عمرو فى جماعه منهم فقالوا:يا محمد إن أرقائنا لحقوا بك فارددهم إلينا فقال رسول الله ص:لتنتهن يا معاشر قريش-أو ليبعثن الله عليكم رجلا-يضربكم على تأويل القرآن كما ضربتكم على تنزيله،فقال له بعض أصحابه:من هو يا رسول الله؟أبو بكر؟قال:لا و لكنه خاصف النعل فى الحجره،و كان على(ع)يخصف نعل رسول الله ص.

و روى عن على(ع)أنه قال يوم البصره: و الله ما قوتل أهل هذه الآيه حتى اليوم،

و تلا هذه الآیه.

و روی أبو إسحاق الثعلبی فی تفسیره بالإسناد عن الزهری عن سعید بن المسیب عن أبی هریره أن رسول الله ص قال: یرد إلی قوم من أصحابی یوم القیامه فیحلون عن الحوض-فأقول:یا رب أصحابی،أصحابی-فیقال:إنک لا تدری بما أحدثوا من بعدک-إنهم ارتدوا علی أدبارهم القهقری ،انتهی.

و هذا الذی ذکره إنما یتم فیه(ع)و لا ریب فی أنه أفضل مصداق لما سرد فی الآیه من الأوصاف لکن الشأن فی انطباق الآیه علی عامه من معه من أهل الجمل و صفین و قد غیر کثیر منهم بعد ذلک،و قد وقع قوله تعالی:« یُحِبُّهُمْ وَ یُحِبُّونَهُ »(إلخ)فی الآیه بغیر استثناء،و قد عرفت معناه.

و فیه،أیضا.و روی: أن النبی ص سئل عن هذه الآیه-فضرب بیده علی عاتق سلمان- فقال:هذا و ذووه،ثم قال:لو کان الدین معلقا بالثریا-لتناوله رجال من أبناء فارس.

أقول:و الکلام فیه کالکلام فی سابقه إلا أن یراد أنهم سوف یبعثون من قومه.

و فیه،و قیل: هم أهل الیمن هم ألین قلوبا،و أرق أفئده،الإیمان یمانی،و الحکمه یمانیه،و قال عیاض بن غنم الأشعری:لما نزلت هذه الآیه-أومأ رسول الله ص إلی أبی موسی الأشعری-فقال:هم قوم هذا.

أقول:و روی هذا المعنی فی الدر المنثور،بعده طرق،و الکلام فیه کالکلام فی سابقه.

و فی تفسیر الطبری،بإسناده عن قتاده قال": أنزل الله هذه الآیه و قد علم أنه سیرتد مرتدون من الناس-فلما قبض الله نبیه محمدا ص-ارتد عامه العرب عن الإسلام-إلا ثلاثه مساجد أهل المدینه-و أهل مکه و أهل البحرین قالوا:نصلی و لا نزکی و الله لا تغصب أموالنا،فکلم أبو بکر فی ذلک فقیل لهم: (۱)إنهم لو قد فقهوا لهذا أعطوها و زادوها فقال:لا و الله لا أفرق بین شیء جمع الله بینه،و لو منعوا عقالا مما فرض الله و رسوله لقاتلناهم علیه،فبعث الله عصابه مع أبی بکر-فقاتل علی ما قاتل علیه نبی الله ص-حتی سبی و قتل و حرق بالنیران أناسا-ارتدوا عن الإسلام و منعوا الزکاه-فقاتلهم حتی أقروا بالماعون-و هی الزکاه-صغره أقمیاء،الحدیث:.

أقول:و رواه فی الدر المنثور،عن عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و أبی الشیخ

۱- ۱) له(ظ).

و البیهقی و ابن عساکر عن قتاده،و رواه أیضا عن الضحاک و الحسن.

و لفظ الحدیث أوضح شاهد علی أنه من قبیل التطبیق النظری،و حینئذ یتوجه إلیه ما توجه إلی ما تقدمه من الروایات فإن هذه الوقائع و الغزوات تشتمل علی حوادث و أمور و قد قاتل فیها رجال کخالد و مغیره بن شعبه و بسر بن الأرطاه و سمره بن جندب یذکر التاریخ عنهم فیها و بعد ذلک مظالم و آثاما لا تدع الآیه:(یُحِبُّهُمْ وَ یُحِبُّونَهُ، إلخ)أن تصدق فیهم و تنطبق علیهم،فعلیک بالرجوع إلی التاریخ ثم التأمل فیما قدمناه من معنی الآیه.

و قد بلغ من إفراط بعض المفسرین أن استغرب قول بعضهم:«إن الآیه أوضح انطباقا علی الأشعریین من أهل الیمن منها علی هؤلاء الذین قاتلوا أهل الرده»قائلا:إن الآیه عامه تشمل کل من نصر الدین ممن اتصف بمضمونها من خیار المسلمین من مؤمنی عهد النبی ص،و من جاء بعد ذلک من المؤمنین،و تنطبق علی جمیع ما تقدم من الأخبار کالخبر الدال علی أنهم سلمان و قومه-علی ضعفه-و الخبر الدال علی أنه أبو موسی الأشعری و قومه، و الخبر الدال علی أنه أبو بکر و أصحابه إلا ما دل علی أنه علی-(ع)-فإن لفظ الآیه لا ینطبق علیه لأن لفظ القوم-المأخوذ فی الآیه-لا یجری علی الواحد لأنه نص فی الجماعه.

هذا محصل کلامه،و لیس إلا أنه عامل کلامه تعالی فیما ذکره من الثناء علی القوم و مدحهم معامله الشعر الذی یبنی المدح علی التخیل،فما قدر علیه خیال الشاعر حمله علی ممدوحه من غیر أن یعتنی بأمر الصدق و الکذب،و قد قال تعالی: «وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِیلًا» :(النساء:۱۲۲)أو علی المتعارف من الکلام الدائر بیننا الذی لا یعتمد فی إلقائه إلا علی الأفهام البانیه علی التسامح و التساهل فی التلقی و الإلقاء،و الاعتذار بالمسامحه فی کل ما أشکل علیها فی شیء و قد قال تعالی: «إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ»: (الطارق:

۱۴)و قد عرفت فیما تقدم أن الآیه لو أعطیت حق معناها فیما تتضمنه من الصفات تبین أن مصداقها لم یتحقق بعد إلی هذا الحین فراجع و تأمل ثم اقض ما أنت قاض.

و من العجیب ما ذکره فی آخر کلامه فإن من ذکر نزول الآیه فی علی(ع) إنما ذکر علیا و أصحابه کما ذکر آخرون:سلمان و ذویه،و آخرون:أبا موسی و قومه،و آخرون:

أبا بکر و أصحابه،و کذا ما ورد من الروایات-و قد تقدم بعضها-إنما ورد فی علی و أصحابه،و لم یذکر نزول الآیه فی علی(ع)وحده حتی یرد بأن لفظ الآیه نص فی الجماعه لا ینطبق علی المفرد.

نعم ورد فی تفسیر الثعلبی أنها نزلت فی علی و أیضا فی نهج البیان للشیبانی عن الباقر و الصادق(ع)أنها نزلت فی علی(ع)،و المراد به بقرینه الروایات الآخر نزوله فیه و فی أصحابه من جهه قیامهم بنصره الدین فی غزوه الجمل و صفین و الخوارج.

مع أنه سیأتی أن الروایات من طرق الجمهور متکاثره فی نزول آیه:« إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ »فی علی(ع)و لفظ الآیه جمع.

علی أن فی الروایه-روایه قتاده و الضحاک و الحسن-إشکالا آخر و هو أن قوله تعالی:« یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مَنْ یَرْتَدَّ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ فَسَوْفَ یَأْتِی اللّهُ بِقَوْمٍ یُحِبُّهُمْ وَ یُحِبُّونَهُ » (إلخ)ظاهر ظهورا لا مریه فیه فی معنی التبدیل و الاستغناء سواء کان الخطاب للموجودین فی یوم النزول أو لمجموع الموجودین و المعدومین،و المقصود خطاب الجماعه من المؤمنین بأنهم کلهم أو بعضهم إن ارتدوا عن دینهم فسوف یبدلهم الله من قوم یحبهم و یحبونه-و هو لا یحب المرتدین و لا یحبونه-و لهم کذا و کذا من الصفات ینصرون دینه.

و هذا صریح فی أن القوم المأتی بهم جماعه من المؤمنین غیر الجماعه الموجودین فی أوان النزول،و المقاتلون أهل الرده بعید وفاه النبی ص کانوا موجودین حین النزول مخاطبین بقوله:« یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا »(إلخ)فهم غیر مقصودین بقوله:« فَسَوْفَ یَأْتِی اللّهُ بِقَوْمٍ »(إلخ).

و الآیه جاریه مجری قوله تعالی: «وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا یَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَیْرَکُمْ ثُمَّ لا یَکُونُوا أَمْثالَکُمْ» :(محمد:۳۸).

و فی تفسیر النعمانی،بإسناده عن سلیمان بن هارون العجلی قال:سمعت أبا عبد الله (ع)یقول: إن صاحب هذا الأمر محفوظ له،لو ذهب الناس جمیعا أتی الله بأصحابه، و هم الذین قال الله عز و جل:« فَإِنْ یَکْفُرْ بِها هؤُلاءِ-فَقَدْ وَکَّلْنا بِها قَوْماً لَیْسُوا بِها بِکافِرِینَ » و هم الذین قال الله:« فَسَوْفَ یَأْتِی اللّهُ بِقَوْمٍ یُحِبُّهُمْ وَ یُحِبُّونَهُ-أَذِلَّهٍ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ أَعِزَّهٍ عَلَی الْکافِرِینَ » أقول:و روی هذا المعنی العیاشی و القمی فی تفسیریهما.

(کلام و بحث مختلط من القرآن و الحدیث) [فی کلیات حوادث آخر الزمان.]

مما تقدم فی الأبحاث السابقه مرارا التلویح إلی أن الخطابات القرآنیه التی یهتم القرآن بأمرها،و یبالغ فی تأکیدها و تشدید القول فیها لا یخلو لحن القول فیها من دلاله علی أن

العوامل و الأسباب الموجوده متعاضده على أن تسوقهم إلى مهابط السقوط و دركات الردى، و الابتلاء بسخط الله كما فى آيات الربا و آيه موده القربى و غيرهما.

و من طبع الخطاب ذلك فإن المتكلم الحكيم إذا أمر بأمر حقير يسير ثم بالغ فى تأكيده و الإلحاح عليه بما ليس شأنه ذلك،أو خاطب أحدا بخطاب ليس من شأن ذلك المخاطب أن يوجه إلى مثله ذلك الخطاب كنهى عالم ربانى ذى قدم صدق فى الزهد و العباده عن ارتكاب أفضح الفجور على رءوس الأشهاد دل ذلك على أن المورد لا يخلو عن شىء و أن هناك خطبا جليلا و مهلكه خطيره مشرفه.

و الخطابات القرآنيه التى هذا شأنها تعقبت حوادث صدقتها فى ما كانت تلوح إليه بل تدل عليه،و إن كان السامعون(لعلهم)ما كانوا يتنبهون فى أول ما سمعوها يوم النزول على ما تتضمنه من الإشارات و الدلالات.

فقد أمر القرآن بموده قربى رسول الله ص و بالغ فيها حتى عدها أجر الرساله و السبيل إلى الله سبحانه ثم وقع أن استباحت الأمه فى أهل بيته من فجائع المظالم ما لو أمروا به لم يكونوا ليزيدوا على ما أتوا به فيهم.

و نهى القرآن عن الاختلاف و بالغ فيه بما لا مزيد عليه ثم وقع إن تفرقت الأمه تفرقا و انشعبت انشعابات زادت على ما عند اليهود و النصارى،و كانت اليهود إحدى و سبعين فرقه،و النصارى اثنتين و سبعين فرقه فأتى المسلمون بثلاث و سبعين فرقه هذا فى مذاهبهم فى معارف الدين العلميه،و أما مذاهبهم فى السنن الاجتماعيه و تأسيس الحكومات و غيرها فلا تقف على حد حاصر.

و نهى القرآن عن الحكم بغير ما أنزل الله،و نهى عن إلقاء الاختلاف بين الطبقات و نهى عن الطغيان و اتباع الهوى إلى غير ذلك و شدد فيها ثم وقع ما وقع.

و الأمر فى النهى عن ولايه الكفار و أهل الكتاب نظير غيره من النواهى المؤكده الوارده فى القرآن الكريم بل ليس من البعيد أن يدعى أن التشديد الواقع فى النهى عن ولايه الكفار و أهل الكتاب لا يعدله أى تشديد واقع فى سائر النواهى الفرعيه.

فقد بلغ الأمر فيه إلى أن عد الله سبحانه الموالين لأهل الكتاب و الكفار منهم:

« وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ »و نفاهم من نفسه إذ قال: «وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّٰهِ فِى شَىْءٍ :(آل عمران:٢٨)و حذرهم منتهى التحذير فقال مره بعد أخرى: «وَ يُحَذِّرُكُمُ

اللّهُ نَفْسَهُ» :(آل عمران:۲۸-۳۰)و قد مر فی الکلام علی الآیه أن مدلولها وقوع المحذور لا محاله قضاء حتما لا مبدل له و لا محول.

و إن شئت مزید وضوح لذلک فتدبر فی قوله تعالی: «وَ إِنَّ کُلًّا لَمّا لَیُوَفِّیَنَّهُمْ رَبُّکَ أَعْمالَهُمْ -Xو قد ذکر قبل الآیه قصص أمم نوح و هود و صالح و غیرهم ثم اختلاف الیهود فی کتابهم-X إِنَّهُ بِمٰا یَعْمَلُونَ خَبِیرٌ فَاسْتَقِمْ کَمٰا أُمِرْتَ وَ مَنْ تٰابَ مَعَکَ وَ لاٰ تَطْغَوْا -Xو الخطاب کما تری خطاب اجتماعیX- إِنَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ» :(هود:۱۱۲)ثم تدبر فی قوله تعالی بعده: «وَ لاٰ تَرْکَنُوا إِلَی الَّذِینَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّکُمُ النّٰارُ وَ مٰا لَکُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ أَوْلِیٰاءَ ثُمَّ لاٰ تُنْصَرُونَ» :(هود:۱۱۳).

و قد بین الله سبحانه معنی مسیس هذه النار فی الدنیا قبل الآخره- و الآیه مطلقه- و هو الذی توعد به فی قوله:« وَ یُحَذِّرُکُمُ اللّٰهُ نَفْسَهُ »بقوله تعالی: «الْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» :(المائده:۳)فبین فیه أن الذی کان یخشاه المؤمنون علی دینهم من الذین کفروا و هم المشرکون و أهل الکتاب-کما تبین سابقا-إلی یوم نزول الآیه فهم الیوم فی أمن منه فلا ینبغی لهم أن یخشوهم فیه بل یجب علیهم أن یخشوا فیه ربهم،و الذی کانوا یخشونهم فیه علی دینهم هو أن الکفار لم یکن لهم هم فیهم إلا إطفاء نور الدین،و سلب هذه السلعه النفیسه من أیدیهم بأی وسیله قدروا علیها.

فهذا هو الذی کانوا یخشونه قبل الیوم،و بنزول سوره المائده أمنوا ذلک و اطمأنت أنفسهم غیر أنه یجب علیهم أن یخشوا فی ذلک ربهم أن لا یذهب بنورهم و لا یسلبهم دینه.

و من المعلوم أن الله سبحانه لا یفاجئ قوما بنقمه أو عذاب من غیر أن یستحقوه قال تعالی: «ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ یَکُ مُغَیِّراً نِعْمَهً أَنْعَمَهٰا عَلیٰ قَوْمٍ حَتّٰی یُغَیِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ» :(الأنفال:

۵۳)فبین أن تغییره النعمه لا یکون إلا عن استحقاق،و أنه یتبع تغییر الناس ما بأنفسهم، و قد سمی الدین أو الولایه الدینیه کما تقدم نعمه حیث قال بعده: «الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلاٰمَ دِیناً» الأنفال ۳.

فتغییر هذه النعمه من قبلهم،و التخطی عن ولایه الله بقطع الرابطه منه،و الرکون إلی الظالمین،و ولایه الکفار و أهل الکتاب هو المتوقع منهم،و الواجب علیهم أن یخشوه علی أنفسهم فیخشوا الله فی سخط لا راد له،و قد أوعدهم فیه بقوله: «وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ» :(المائده:۵۱)فأخبر أنه لا یهدیهم إلی سعادتهم

فهی التی تتعلق بها الهدایه،و سعادتهم فی الدنیا إنما هی أن یعیشوا علی سنه الدین و السیره العامه الإسلامیه فی مجتمعهم.

و إذا انهدمت بنیه هذه السیره اختلت مظاهرها الحافظه لمعناها من الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر،و سقطت شعائره العامه،و حلت محلها سیره الکفار و لم یزل تستحکم أرکانها و تستثبت قواعدها،و هذا هو الذی علیه مجتمع المسلمین الیوم.

و لو تدبرت فی السیره الإسلامیه العامه التی ینظمها الکتاب و السنه و یقررانها بین المسلمین ثم فی هذه السیره الفاسده التی حملت الیوم علی المسلمین ثم تدبرت فی ما یشیر إلیه بقوله:

«فَسَوْفَ یَأْتِی اللّهُ بِقَوْمٍ یُحِبُّهُمْ وَ یُحِبُّونَهُ أَذِلَّهٍ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ أَعِزَّهٍ عَلَی الْکافِرِینَ یُجاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اللّهِ وَ لا یَخافُونَ لَوْمَهَ لائِمٍ»

:(المائده:۵۴) وجدت أن جمیع الرذائل التی تحیط بمجتمعنا معاشر المسلمین و تحکم فینا الیوم-مما اقتبسناها من الکفار ثم نمت و نسلت فینا- إنما هی أضداد ما ذکره الله فی وصف من وعد بالإتیان به فی الآیه أعنی أن جمیع رذائلنا الفعلیه تتلخص فی أن المجتمع الیوم لا یحبون الله و لا یحبهم الله،أذله علی الکافرین،أعزه علی المؤمنین،لا یجاهدون فی سبیل الله،یخافون کل لومه.

و هذا هو الذی تفرسه القرآن فی وجه القوم،و إن شئت فقل:هو النبأ الغیبی الذی نبأ به العلیم الخبیر أن المجتمع الإسلامی سیرتد عن دینه،و لیست رده مصطلحه و إنما هی رده تنزیلیه یبینها قوله تعالی: «وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظّالِمِینَ»:

(المائده:۵۱)و قوله: «وَ لَوْ کانُوا یُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ النَّبِیِّ وَ ما أُنْزِلَ إِلَیْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِیاءَ وَ لکِنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ» :(المائده:۸۱).

و قد وعدهم الله النصر إن نصروه،و تضعیف أعدائهم إن لم یقووهم و یؤیدوهم فقال:

«إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ یَنْصُرْکُمْ» :(محمد:۷)و قال: «وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْکِتابِ لَکانَ خَیْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَکْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ لَنْ یَضُرُّوکُمْ إِلاّ أَذیً وَ إِنْ یُقاتِلُوکُمْ یُوَلُّوکُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا یُنْصَرُونَ ضُرِبَتْ عَلَیْهِمُ الذِّلَّهُ أَیْنَ ما ثُقِفُوا إِلاّ بِحَبْلٍ مِنَ اللّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النّاسِ»:

(آل عمران:۱۱۲)و لیس من البعید أن یستفاد من قوله:« إِلاّ بِحَبْلٍ مِنَ اللّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النّاسِ »أن لهم أن یخرجوا من الذله و المسکنه بموالاه الناس لهم و تسلیط الله تعالی إیاهم علی الناس.

ثم وعد الله سبحانه المجتمع الإسلامی-و شأنهم هذا الشأن-بالإتیان بقوم یحبهم

و يحبونه أذله على المؤمنين أعزه على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله لا- يخافون لومه لائم، و الأوصاف المعدوده لهم-كما عرفت-جماع الأوصاف التى يفقدها المجتمع الإسلامى اليوم، و يستفاد بالإمعان فى التدبر فيها تفاصيل الرذائل التى تنبئ الآيه أن المجتمع الإسلامى سيبتلى بها.

و قد اشتملت على تعدادها عده من أخبار ملاحم آخر الزمان المرويه عن النبى ص و الأئمه من أهل بيته(ع)،و هى على كثرتها و من حيث المجموع و إن كانت لا- تسلم من آفه الدس و التحريف إلا أن بينها أخبارا يصدقها جريان الحوادث و توالى الوقائع الخارجيه،و هى أخبار مأخوذه من كتب القدماء المؤلفه قبل ما يزيد على ألف سنه من هذا التاريخ أو قريبا منه،و قد صحت نسبتها إلى مؤلفيها و تظافر النقل عنها.

على أنها تنطق عن حوادث و وقائع لم تحدث و لم تقع فى تلك الآونه و لا كانت مترقبه تتوقعها النفوس التى كانت تعيش فى تلك الأزمنه فلا يسعنا إلا الاعتراف بصحتها و صدورها عن منبع الوحى.

كما

رواه القمى فى تفسيره عن أبيه،عن سليمان بن مسلم الخشاب،عن عبد الله بن جريح المكى،عن عطاء بن أبى رياح،عن عبد الله بن عباس قال: حججنا مع رسول الله ص حجه الوداع-فأخذ باب الكعبه ثم أقبل علينا بوجهه-فقال:أ لا أخبركم بأشراط الساعه؟و كان أدنى الناس منه يومئذ سلمان رضى الله عنه-فقال:بلى يا رسول الله-.

فقال(ص): إن من أشراط القيامه إضاعه الصلاه،و اتباع الشهوات،و الميل مع الأهواء،و تعظيم المال،و بيع الدين بالدنيا-فعندها يذاب قلب المؤمن و جوفه-كما يذوب الملح فى الماء-مما يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيره-.

قال سلمان:و إن هذا لكائن يا رسول الله؟قال(ص):إى و الذى نفسى بيده يا سلمان إن عندها يليهم أمراء جوره،و وزراء فسقه،و عرفاء ظلمه،و أمناء خونه.

فقال سلمان:و إن هذا لكائن يا رسول الله؟قال(ص):إى و الذى نفسى بيده- يا سلمان-إن عندها يكون المنكر معروفا و المعروف منكرا،و اؤتمن الخائن،و يخون الأمين،و يصدق الكاذب،و يكذب الصادق.

قال سلمان،و إن هذا لكائن يا رسول الله؟قال(ص):إى و الذى نفسى بيده يا سلمان فعندها إماره النساء،و مشاوره الإماء،و قعود الصبيان على المنابر،و يكون

الكذب طرفا و الزكاه مغرما،و الفیء مغنما،و یجفو الرجل والدیه،و یبر صدیقه، و یطلع الکوکب المذنب.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص):إی و الذی نفسی بیده- یا سلمان و عندها تشارک المرأه زوجها فی التجاره،و یکون المطر قیظا،و یغیظ الکرام غیظا،و یحتقر الرجل المعسر،فعندها یقارب الأسواق إذا قال هذا:لم أبع شیئا و قال هذا:لم أربح شیئا فلا تری إلا ذاما لله.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص):إی و الذی نفسی بیده یا سلمان فعندها یلیهم أقوام إن تکلموا قتلوهم،و إن سکتوا استباحوهم-لیستأثروا بفیئهم و لیطؤن حرمتهم، و لیسفکن دماءهم و لیملؤن قلوبهم رعبا-فلا- تراهم إلا وجلین خائفین مرعوبین مرهوبین-.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص):إی و الذی نفسی بیده-یا سلمان إن عندها یؤتی بشیء من المشرق-و شیء من المغرب یلون أمتی،فالویل لضعفاء أمتی منهم،و الویل لهم من الله،لا یرحمون صغیرا،و لا یوقرون کبیرا،و لا یتجاوزون عن مسیء أخبارهم خناء،جثتهم جثه الآدمیین،و قلوبهم قلوب الشیاطین.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص):إی و الذی نفسی بیده یا سلمان-و عندها یکتفی الرجال بالرجال و النساء بالنساء،و یغار علی الغلمان-کما یغار علی الجاریه فی بیت أهلها-و تشبه الرجال بالنساء و النساء بالرجال،و یرکبن ذوات الفروج السروج-فعلیهن من أمتی لعنه الله.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟فقال(ص):إی و الذی نفسی بیده یا سلمان إن عندها تزخرف المساجد-کما تزخرف البیع و الکنائس،و تحلی المصاحف و تطول المنارات،و تکثر الصفوف بقلوب متباغضه و ألسن مختلفه-.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص)إی و الذی نفسی بیده- و عندها تحلی ذکور أمتی بالذهب،و یلبسون الحریر و الدیباج-و یتخذون جلود النمور صفاقا-.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص):إی و الذی نفسی بیده یا سلمان و عندها یظهر الربا،و یتعاملون بالغیبه و الرشی،و یوضع الدین و یرفع الدنیا.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟فقال(ص):إی و الذی نفسی بیده

یا سلمان-و عندها یکثر الطلاق فلا یقام لله حد،و لن یضر الله شیئا-.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص):إی و الذی نفسی بیده یا سلمان-و عندها تظهر القینات و المعازف و یلیهم أشرار أمتی-.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص):إی و الذی نفسی بیده یا سلمان-و عندها یحج أغنیاء أمتی للنزهه،و یحج أوساطها للتجاره،و یحج فقراؤهم للریاء و السمعه-فعندها یکون أقوام-یتعلمون القرآن لغیر الله و یتخذونه مزامیر،و یکون أقوام یتفقهون لغیر الله،و یکثر أولاد الزنا،و یتغنون بالقرآن،و یتهافتون بالدنیا-.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص):إی و الذی نفسی بیده یا سلمان-ذاک إذا انتهک المحارم،و اکتسبت المآثم-و سلط الأشرار علی الأخیار،و یفشو الکذب،و تظهر اللجاجه،و تفشو الفاقه و یتباهون فی اللباس،و یمطرون فی غیر أوان المطر،و یستحسنون الکوبه و المعازف،و ینکرون الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر حتی یکون المؤمن فی ذلک الزمان أذل من فی الأمه،و یظهر قراؤهم و عبادهم فیما بینهم التلاؤم،فأولئک یدعون فی ملکوت السماوات:الأرجاس و الأنجاس-.

قال سلمان:و إن هذه لکائن یا رسول الله؟فقال(ص):إی و الذی نفسی بیده یا سلمان-فعندها لا یخشی الغنی إلا الفقر-حتی أن السائل لیسأل فیما بین الجمعتین-لا یصیب أحدا یضع فی یده شیئا-.

قال سلمان:و إن هذا لکائن یا رسول الله؟قال(ص):إی و الذی نفسی بیده یا سلمان-عندها یتکلم الرویبضه،فقال:و ما الرویبضه یا رسول الله فداک أبی و أمی؟ قال(ص):یتکلم فی أمر العامه من لم یکن یتکلم-فلم یلبثوا إلا قلیلا حتی تخور الأرض خوره-فلا یظن کل قوم إلا أنها خارت فی ناحیتهم-فیمکثون ما شاء الله ثم ینکتون فی مکثهم-فتلقی لهم الأرض أفلاذ کبدها،قال:ذهب و فضه ثم أومأ بیده إلی الأساطین- فقال:مثل هذا فیومئذ لا ینفع ذهب و لا فضه فهذا معنی قوله:« فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها ».

و فی روضه الکافی،عن محمد بن یحیی،عن أحمد بن محمد،عن بعض أصحابه،و علی بن إبراهیم،عن أبیه،عن ابن أبی عمیر جمیعا عن محمد بن أبی حمزه،عن حمران قال:قال أبو عبد الله(ع): -و ذکر هؤلاء عنده و سوء حال الشیعه عندهم فقال:-إنی سرت مع أبی جعفر المنصور و هو فی موکبه،و هو علی فرس و بین یدیه خیل،و من خلفه خیل،و أنا علی

حمار إلى جانبه فقال لى:يا أبا عبد الله قد كان ينبغى لك-أن تفرح بما أعطانا الله من القوه،و فتح لنا من العز،و لا تخبر الناس-أنك أحق بهذا الأمر منا و أهل بيتك فتغرينا بك و بهم-.

قال:فقلت:و من رفع هذا إليك عنى فقد كذب فقال لى:أ تحلف على ما تقول؟.

قال:فقلت:إن الناس سحره-يعنى يحبون أن يفسدوا قلبك على-فلا- تمكنهم من سمعك فإنا إليك أحوج منك إلينا،فقال لى:تذكر يوم سألتك:هل لنا ملك؟فقلت:نعم- طويل عريض شديد فلا تزالون فى مهله من أمركم،و فسحه من دنياكم حتى تصيبوا منا دما حراما فى شهر حرام فى بلد حرام؟فعرفت أنه قد حفظ الحديث-فقلت:لعل الله عز و جل أن يكفيك-فإنى لم أخصك بهذا و إنما هو حديث رويته،ثم لعل غيرك من أهل بيتك أن يتولى ذلك،فسكت عنى-.

فلما رجعت إلى منزلى أتانى بعض موالينا فقال،جعلت فداك و الله لقد رأيتك فى موكب أبى جعفر،و أنت على حمار و هو على فرس،و قد أشرف عليك يكلمك كأنك تحته فقلت بينى و بين نفسى:هذا حجه الله على الخلق،و صاحب هذا الأمر الذى يقتدى به، و هذا الآخر يعمل بالجور،و يقتل أولاد الأنبياء-و يسفك الدماء فى الأرض بما لا يحب الله، و هو فى موكبه و أنت على حمار!فدخلنى من ذلك شك حتى خفت على دينى و نفسى-.

قال(ع):فقلت:لو رأيت من كان حولى و بين يدى-و من خلفى و عن يمينى و عن شمالى من الملائكه-لاحتقرته و احتقرت ما هو فيه-فقال:الآن سكن قلبى-.

ثم قال:إلى متى هؤلاء يملكون أو متى الراحه منهم؟فقلت:أ ليس تعلم أن لكل شىء مده؟قال:بلى،فقلت:هل ينفعك علمك-إن هذا الأمر إذا جاء كان أسرع من طرفه العين؟إنك لو تعلم حالهم عند الله عز و جل،و كيف هى كنت لهم أشد بغضا-و لو جهدت و جهد أهل الأرض-أن يدخلوهم فى أشد ما هم فيه من الإثم لم يقدروا،فلا يستفزنك الشيطان-فإن العزه لله و لرسوله و للمؤمنين-و لكن المنافقين لا- يعلمون،أ لا- تعلم أن من انتظر أمرنا،و صبر على ما يرى من الأذى و الخوف هو غدا فى زمرتنا؟فإذا رأيت الحق قد مات و ذهب أهله،و رأيت الجور قد شمل البلاد،و رأيت القرآن قد خلق-و أحدث فيه ما ليس فيه و وجه على الأهواء،و رأيت الدين قد انكفأ كما ينكفئ الإناء (1)و رأيت أهل

۱- ۱) الماء.

الباطل قد استعلوا على أهل الحق،و رأيت الشر ظاهرا لا ينهى عنه و يعذر أصحابه،و رأيت الفسق قد ظهر-و اكتفى الرجال بالرجال و النساء بالنساء،و رأيت المؤمن صامتا لا يقبل قوله، و رأيت الفاسق يكذب و لا يرد عليه كذبه و فريته،و رأيت الصغير يستحقر بالكبير،و رأيت الأرحام قد تقطعت،و رأيت من يمتدح بالفسق يضحك منه و لا يرد عليه قوله،و رأيت الغلام يعطى ما تعطى المرأه-و رأيت النساء يتزوجن بالنساء،و رأيت الثناء قد كثر،و رأيت الرجل ينفق المال فى غير طاعه الله-فلا ينهى و لا يؤخذ على يديه،و رأيت الناظر يتعوذ بالله-مما يرى المؤمن فيه من الاجتهاد،و رأيت الجار يؤذى جاره و ليس له مانع،و رأيت الكافر فرحا لما يرى فى المؤمن،مرحا لما يرى فى الأرض من الفساد،و رأيت الخمور تشرب علانيه-و يجتمع عليها من لا يخاف الله عز و جل،و رأيت الأمر بالمعروف ذليلا،و رأيت الفاسق فيما لا يحب الله قويا محمودا،و رأيت أصحاب الآيات (۱)يحقرون و يحقر من يحبهم،و رأيت سبيل الخير منقطعا و سبيل الشر مسلوكا،و رأيت بيت الله قد عطل و يؤمر بتركه-و رأيت الرجل يقول ما لا يفعله،و رأيت الرجال يتمنون للرجال و النساء للنساء،و رأيت الرجل معيشته من دبره-و معيشه المرأه من فرجها،و رأيت النساء يتخذن المجالس كما يتخذها الرجال،و رأيت التأنيث فى ولد العباس-قد ظهر و أظهروا الخضاب-و امتشطوا كما تمشط المرأه لزوجها،و أعطوا الرجال الأموال على فروجهم،و تنوفس فى الرجل،و تغاير عليه الرجال،و كان صاحب المال أعز من المؤمن،و كان الربا ظاهرا لا يعير،و كان الزنا تمتدح به النساء،و رأيت المرأه تصانع زوجها على نكاح الرجال،و رأيت أكثر الناس و خير بيت من يساعد النساء على فسقهن،و رأيت المؤمن محزونا محتقرا ذليلا-و رأيت البدع و الزنا قد ظهر،و رأيت الناس يعتدون بشاهد الزور،و رأيت الحرام يحلل،و الحلال يحرم، و رأيت الدين بالرأى و عطل الكتاب و أحكامه،و رأيت الليل لا يستخفى به من الجرأه على الله،و رأيت المؤمن لا يستطيع أن ينكر إلا بقلبه-و رأيت العظيم من المال ينفق فى سخط الله عز و جل،و رأيت الولاه يقربون أهل الكفر و يباعدون أهل الخير،و رأيت الولاه يرتشون فى الحكم،و رأيت الولايه قباله لمن زاد،و رأيت ذوات الأرحام ينكحن و يكتفى بهن، و رأيت الرجل يقتل على التهمه و على الظنه-و يتغاير على الرجل الذكر فيبذل له نفسه و ماله، و رأيت الرجل يعير على إتيان النساء،و رأيت الرجل يأكل من كسب امرأته من الفجور

۱- ۱) الآثار.

يعلم ذلک و يقيم عليه،و رأيت المرأه تقهر زوجها-و تعمل ما لا- يشتهی و تنفق علی زوجها، و رأيت الرجل يکری امرأته و جاريته-و يرضی بالدنی من الطعام و الشراب،و رأيت الإيمان بالله عز و جل کثيره علی الزور،و رأيت القمار قد ظهر،و رأيت الشراب يباع ظاهرا ليس له مانع،و رأيت النساء يبذلن أنفسهن لأهل الکفر،و رأيت الملاهی قد ظهرت يمر بها لا يمنعها أحد أحدا-و لا- يجترئ أحد علی منعها،و رأيت الشريف يستذله الذی يخاف سلطانه،و رأيت أقرب الناس من الولاه-من يمتدح بشتمنا أهل البيت،و رأيت من يحبنا يزور و لا- تقبل شهادته،و رأيت الزور من القول يتنافس فيه،و رأيت القرآن قد ثقل علی الناس استماعه-و خف علی الناس استماع الباطل،و رأيت الجار يکرم الجار خوفا من لسانه، و رأيت الحدود قد عطلت و عمل فيها بالأهواء،و رأيت المساجد قد زخرفت،و رأيت أصدق الناس عند الناس المفتری الکذب،و رأيت الشر قد ظهر و السعی بالنميمه،و رأيت البغی قد فشا،و رأيت الغيبه تستملح و يبشر بها الناس بعضهم بعضا،و رأيت طلب الحج و الجهاد لغير الله-و رأيت السلطان يذل للکافر المؤمن،و رأيت الخراب قد أديل من العمران، و رأيت الرجل معيشته من بخس المکيال و الميزان،و رأيت سفک الدماء يستخف بها،و رأيت الرجل يطلب الرئاسه لغرض الدنيا-و يشهر نفسه بخبث اللسان ليتقی و تستند إليه الأمور، و رأيت الصلاه قد استخف بها،و رأيت الرجل عنده المال الکثير لم يزکه منذ ملکه،و رأيت الميت ينشر من قبره و يؤذی و تباع أکفانه،و رأيت الهرج قد کثر،و رأيت الرجل يمسی نشوان-و يصبح سکران لا يهتم بما الناس فيه،و رأيت البهائم تنکح،و رأيت البهائم تفرس بعضها بعضا،و رأيت الرجل يخرج إلی مصلاه و يرجع-و ليس عليه شیء من ثيابه،و رأيت قلوب الناس قد قست-و جمدت أعينهم و ثقل الذکر عليهم،و رأيت السحت قد ظهر يتنافس فيه،و رأيت المصلی إنما يصلی ليراه الناس،و رأيت الفقيه يتفقه لغير الدين-يطلب الدنيا و الرئاسه،و رأيت الناس مع من غلب،و رأيت طالب الحلال يذم و يعير-و طالب الحرام يمدح و يعظم،و رأيت الحرمين يعمل فيها بما لا يحب الله-لا يمنعهم مانع و لا يحول بينهم و بين العمل القبيح أحد،و رأيت المعازف ظاهره فی الحرمين،و رأيت الرجل يتکلم بشیء من الحق-و يأمر بالمعروف و ينهی عن المنکر-فيقوم إليه من ينصحه فی نفسه فيقول:هذا عنک موضوع،و رأيت الناس ينظر بعضهم إلی بعض و يقتدون بأهل الشر،و رأيت مسلک الخير و طريقه خاليا لا يسلکه أحد،و رأيت الميت يهز به فلا يفزع له أحد،و رأيت کل عام يحدث فيه من البدعه

و الشر أكثر مما كان،و رأيت الخلق و المجالس لا يتابعون إلا الأغنياء،و رأيت المحتاج يعطى على الضحك به-و يرحم لغير وجه الله،و رأيت الآيات فى السماء لا يفزع لها أحد-و رأيت الناس يتسافدون كما تسافد البهائم-لا ينكر أحد منكرا تخوفا من الناس،و رأيت الرجل ينفق الكثير فى غير طاعه الله- و يمنع اليسير فى طاعه الله،و رأيت العقوق قد ظهر و استخف بالوالدين-و كانا من أسوإ الناس حالا-عند الولد-و يفرح بأن يفترى عليهما،و رأيت النساء و قد غلبن على الملك و غلبن على كل أمر لا يؤتى إلا ما لهن فيه هوى،و رأيت ابن الرجل يفترى على أبيه-و يدعو على والديه و يفرح بموتهما،و رأيت الرجل إذا مر به يوم- و لم يكسب فيه الذنب العظيم-من فجور أو بخس مكيال أو ميزان أو غشيان حرام-أو شرب مسكر كئيبا حزينا-يحسب أن ذلك اليوم عليه وضيعه من عمره،و رأيت السلطان يحتكر الطعام،و رأيت أموال ذوى القربى-تقسم فى الزور و يتقامر بها و تشرب بها الخمور،و رأيت الخمر يتداوى بها و يوصف للمريض و يستشفى بها،و رأيت الناس قد استووا فى ترك الأمر بالمعروف-و النهى عن المنكر و ترك التدين به،و رأيت رياح المنافقين و أهل النفاق قائمه-و رياح أهل الحق لا تحرك،و رأيت الأذان بالأجر و الصلاه بالأجر،و رأيت المساجد محتشيه ممن لا يخاف الله-مجتمعون فيها للغيبه و أكل لحوم أهل الحق-و يتواصفون فيها شراب المسكر،و رأيت السكران يصلى بالناس-و هو لا يعقل و لا يشان بالسكر-و إذا سكر أكرم و اتقى و خيف و ترك لا يعاقب و يعذر بسكره، و رأيت من أكل أموال اليتامى يحمد بصلاحه،و رأيت القضاه يقضون بخلاف ما أمر الله، و رأيت الولاه يأتمنون الخونه للطمع،و رأيت الميراث قد وضعته الولاه-لأهل الفسوق و الجرأه على الله-يأخذون منهم و يخلونهم و ما يشتهون،و رأيت المنابر يؤمر عليها بالتقوى-و لا يعمل القائل بما يأمر،و رأيت الصلاه قد استخف بأوقاتها، و رأيت الصدقه بالشفاعه-و لا يراد بها وجه الله و يعطى لطلب الناس،و رأيت الناس همهم بطونهم و فروجهم-لا يبالون بما أكلوا و ما نكحوا،و رأيت الدنيا مقبله عليهم،و رأيت أعلام الحق قد درست فكن على حذر-و اطلب إلى الله عز و جل النجاه،و اعلم أن الناس فى سخط الله عز و جل-و إنما يمهلهم لأمر يراد بهم فكن مترقبا-و اجتهد ليراك الله عز و جل فى خلاف ما هم عليه-فإن نزل بهم العذاب-و كنت فيهم عجلت إلى رحمه الله،و إن أخرت ابتلوا-و كنت قد خرجت مما هم فيه من الجرأه على الله عز و جل-و اعلم أن الله لا يضيع أجر المحسنين،و أن رحمه الله قريب من المحسنين.

أقول:و هناك أخبار مأثوره عن النبى و الأئمه من أهل بيته(ع)كثيره

فی هذه المعانی،و ما نقلناه من الحدیثین من أجمعها معنی،و الأحادیث(أخبار آخر الزمان) کالتفصیل لما یدل علیه الآیه الکریمه أعنی قوله تعالی:« یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مَنْ یَرْتَدَّ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ فَسَوْفَ یَأْتِی اللّهُ بِقَوْمٍ یُحِبُّهُمْ وَ یُحِبُّونَهُ أَذِلَّهٍ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ أَعِزَّهٍ عَلَی الْکافِرِینَ یُجاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اللّهِ وَ لا یَخافُونَ لَوْمَهَ لائِمٍ »(الآیه)و الله أعلم.

تم و الحمد لله.

ص :۴۰۱

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

المقدمة:

تأسّس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ۱۴۲۶ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثرها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.

وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبيّ عليهم السلام

تحفيز الناس خصوصا الشباب على دراسة أدقّ في المسائل الدينية

تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثين والمحققين في الحوازت العلمية والجامعات

توسيع عام لفكرة المطالعة

تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات الكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة

العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فى نشر المعلومات

من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات فى مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فى الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمية الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسک kiosk، الرسالة القصيرة ((sms

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

١.JAVA

٢.ANDROID

٣.EPUB

٤.CHM

٥.PDF

٦.HTML

٧.CHM

٨.GHB

إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

١.ANDROID

٢.IOS

٣.WINDOWS PHONE

٤.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فی تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزی

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونی : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزی ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵

هاتف المكتب فی طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱

قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.

مركز القائمية للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبهان
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹